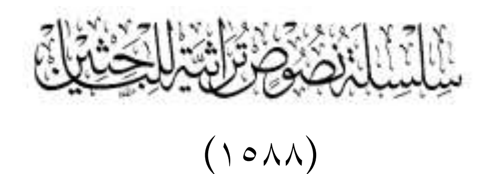


(١٥٨٨)

التحلية والتخلية

تعريف وتزكية

من كتب التراث

د/ يوسف بن حمود الحوشان

١٤٤٦هـ

نسخة أولية من غير ترتيب او مراجعة

ومتاح لكل أحد الاستفادة منها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله اما بعد

فهذه نصوص جمعت باستخدام برنامج شاملة وورد من برمجيات الدكتور سعود العقيل بواسطة المكتبة الشاملة

معتمدة على توظيف الكلمة المفتاحية وتوفير النصوص للباحثين لتحريرها والاستفادة منها وهي مشاعة لمن يستفيد منها

وسيتبعها نصوص أخرى يسر الله نشرها والله الموفق

يوسف بن حمود الحوشان

yhoshan@gmail.com

تليجرام https://t.me/dralhoshan

WWW.NSOOOS.COM

"٥ – ذرائع الشرك وطبائعه

• وجه إطالة المقدمات:

علمنا من الفصول السابقة شدة حاجة المسلم إلى معرفة الشرك ومظاهره، وضعف عناية المؤلفين في تخصيص هذا الموضوع بالتأليف وجمع مسائله في سفر، وأدركنا حسن غرض المصلحين من إثارة الحديث فيه، ووقفنا على وجه دعوتهم إلى الكتاب والسنة، وحجتهم في وعظ المسلمين بما نزل في أهل الكتاب والمشركين، وتلك نواح تضطر النصوح الواقف على حالة أهل عصره النفسانية إلى تقديم القول فيها على المقصود بالذات، ولو أفضى إلى إطالة المقدمات، والخروج بها عن معتاد أمثالها، بالإضافة إلى فصول الموضوع، فإن الغرض من تلك المقدمات تهيئة الأفكار إلى قبول ما نعرضه عليها من حقائق الدين بنبذ ما يفرض عليها من بوائق المعتدين، ولا تثبت **تحلية** إلا عن سبق **تخلية**.

والآن نبتدئ حديثنا عن الشرك ببيان أسبابه وذرائعه وآثاره وطبائعه.

• ذم الشرك:

الشرك أم (*) المساوئ وكلية الرذائل ومعمل الموبقات؛ فهو معصية لا تجدي معها طاعة، ومنقصة لا يجزي عنها كمال، وضعة لا يقوم منها عز، وسفه

(*) كذا في الطبعة الأولى، وفي " البصائر ": " أبو "!." (١)

"الأمر بالتوحيد والرد على شبه المشركين

لقد بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وينور لهم بصائرهم بالحق، والتوحيد الخالص.

فلما جاء النبي صلى الله عليه وسلم فإن أول ما قدم بين يدي دعوته أن أبطل الحجة التي أقاموها، كما أبطلها الله جل في علاه، فقال لهم: أنتم اتخذتم هؤلاء وسائط بينكم وبين الله، فإذا كنتم تعتقدون بأن هؤلاء سيشفعون لكم عند الله جل في علاه فإن هذه الحجة منفية، قال تعالى: {قل لله الشفاعة جميعا} [الزمر:٤٤]، فلا أحد يشفع عند الله، وقال تعالى: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} [الأنبياء:٢٨].

(١) رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي ص/٨٩

ثم أبطل حجتهم الثانية وهي: اعتقادهم الباطل بأن هؤلاء الأولياء أو الصالحين لهم تحكم في هذا الكون، قال الله تعالى: {ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون} [الأحقاف:٥].

وقال الله تعالى: {فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم} [الأحقاف:٢٨]، وفي سورة سبأ قطع الله سبل التعلق بغيره من حجر أو شجر أو نبي، فقال تعالى: {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير} [سبأ:٢٢]، أي: لا معين ولا نصير لله جل في علاه؛ فقطع أولا أن يكون لأحد شركا مع الله جل في علاه في هذا الكون المدبر من الله جل في علاه.

ثم قطع ثانيا أن يكون لهم وجاهة أو شفاعة عند الله جل في علاه، وأخبر أنهم ليس لهم كلمة، وليس لهم ملك، وليس لهم شفاعة عند الله جل في علاه، كما قال تعالى: {ولا يشفعون إلا لمن ارتضى} [الأنبياء:٢٨].

ثم بعدما قعد هذه القاعدة أبطل حجة المشركين، وأمر نبيه أن يبطل هذه الحجج الباطلة، وإن زعموا أنهم إنما يعبدونهم ليقربوهم إلى الله زلفى، فأبطل ذلك وأخبرهم أنهم لا يقربونهم بل يبعدونهم عن الله جل في علاه، فأمرهم **بالتخلية** ثم **تالتحلية**، ولا بد من انتهاج هذا المبدأ: **التخلية** ثم **التحلية**، فأبطل كل الحجج، ثم بعد ذلك جاء بالتوحيد الناصع الخالص، فجاء أمره بالتوحيد بألا تعبدوا إلا الله ولا تشربوا هذه العبادة بشرك، قال الله تعالى: {اعبد الله مخلصا له الدين} [الزمر:٢].

وقال الله تعالى: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} [البينة:٥] بل إن من السنة التي ماتت ولا بد للإنسان أن يحييها أنه عندما يريد أن ينام أن يقرأ سورة {قل يا أيها الكافرون} [الكافرون:١]، فإذا أخذ مضجعه فليقرأ هذه السورة، وهي تعدل ربع القرآن، كما بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال: (فإذا أخذ أحدكم مضجعه فليقرأ: {قل يا أيها الكافرون} [الكافرون:١]) وذلك لأن فيها التوحيد المحض والبراءة من كل شرك، فهذا أيضا مما أمر الله فيه عباده بالتوحيد الخالص والابتعاد عن الشرك.

ولو أن رجلا جاء الآن فعبد عيسى، أو عبد موسى، أو عبد محمدا صلى الله عليه وسلم، وذهب إلى قبورهم يدعوهم لتفريج الكربات أو لرفع الزلات أو لإعطاء الحسنات، فلو فعل ذلك لقلنا له: أنت وأبو جهل سواء؛ لأنه صرف عبادة لا يستحقها إلا الله لغير الله، فأفعال الجاهلية التي جاء الشرع بنبذها هي: صرف ألوان

الدعاء لغير الله؛ لأنه قد ثبت بالشرع أن الدعاء عبادة، فصرفه لله توحيد، وصرفه لغير الله شرك.

وقد كانوا -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية - يذهبون إلى القبور يستسقون بها، ويستغيثون بأصحابها، ويتبركون بترابها، ويسألون كشف الكربات ويرفعون الحاجات إليهم؛ حتى تسد هذه الحاجات، كما يذهبون إلى قبر الجيلاني وقبر البدوي وقبر أبي العباس وأبي الدرداء والحسن والحسين، فيسألونهم من دون الله جل في علاه، فشابهوا وضاهوا أهل الكفر في أفعالهم.." (١)

"وفيها تقديم النفي على الإثبات، لأن الأول من باب **التخلية**، والثاني من باب **التحلية**.

وفيها الجمع بين السمع والبصر، فكثيرا ما يقرن بينهم لعموم متعلقهما، فسمعه سبحانه محيط بجميع المسموعات، وبصره محيط بجميع المبصرات، وسمعه سبحانه ينقسم إلى قسمين:

- الأول سمع عام.
- والثاني سمع خاص.

سمع عام: وهو سمعه سبحانه لكل مسموع، ولذلك يفسر السمع بأنه إدراك المسموعات، هذا القدر المشترك كقوله سبحانه: {قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها} [المجادلة: ١] هذا إدراك المسموع.

الثاني سمع خاص: وهو سمع الإجابة والإثابة كما قال سبحانه: {إن ربي لسميع الدعاء} [إبراهيم: ٣٩] يعني مجيب الدعاء. ومنه قول العبد في صلاته: سمع الله لمن حمده. أي استجاب سبحانه لمن حمده وأثنى عليه.

وفيها إثبات الصفات لله على ما يليق بجلاله وعظمته.

وفيها أن صفاته ليس كصفات خلقه، والمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير، فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، لأنه ماذا؟ جمع بينهما في نص واحد، قال: {السميع البصير} وأثبت للمخلوق السمع والبصر، بل قيل: لا يوجد مخلوق ذو حياة إلا وهو متصف بالسمع والبصر، ومع ذلك قال: {ليس كمثله شيء} الجمع بينهما لا إشكال، فكل صفة تمر بك ضع بجوارها {ليس كمثله شيء} فحينئذ ينتفي التخيل الذي يكون في الذهن، فصفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به، إذ لا مناسبة بين الخالق والمخلوق، فصفات كل موصوف تناسب ذاته وحقيقته، فلا يعلم كيف هو إلا هو.

قال بعض السلف: إذا قال الجهمي: كيف استوى؟ كيف ينزل إلى السماء الدنيا؟ ونحو ذلك. فقل له:

---

(١) مسائل خالف فيها رسول الله أهل الجاهلية، محمد حسن عبد الغفار ٤/٤

كيف هو بنفسه؟ فإذا قال: لا يعلم كيف هو إلا هو، وكونه الباري غير معلوم للبشر، فقل له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزم للعلم بكيفية الموصوف - كما سبق معنا - فكيف يمكن أن يعلم كيفية صفة لموصوف لم تعلم كيفيته، والعلم بكيفيته إنما هو واحد من أمور ثلاثة:

- إما رؤية الذات.
- أو المثيل المساوي النظير.
- أو خبر الصادق.

وكلها منتفية ولا إشكال فيه، وإنما تعلم لذات والصفات من حيث الجملة، فلا سبيل إلا العلم بالكنه والكيفية، فإذا كان في المخلوقات ما لا يعلم كنه فكيف بالباري سبحانه، فهذه الجنة ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء. فالاتفاق في الأسماء لا يستلزم ماذا؟ اتفاق في الحقائق. وهذه الروح نجزم بوجودها وأنها نعرج إلى السماء، وأنها تسل منه وقت النزع، وقد أمسكت النصوص عن بيان كيفيتها، فإذا كان ذلك في المخلوق فكيف بالخالق سبحانه وتعالى. فالأمر واضح بين لمن له عقل وأدرك ما أراده الله عز وجل.

وفيها أعظم دلالة على كثرة صفات كماله ونعوته جلاله، لأنه قال: {ليس كمثله شيء} لماذا؟ {ليس كمثله شيء} لكونه لم يتصف بصفة؟ لو كان كذلك لصار هو والعدم سواء، لكن {ليس كمثله شيء} لكثرة صفاته، ثم لمنتهى كل صفة من تلك الصفات.." (١)

"هذه قاعدة أهل السنة والجماعة في فهم النصوص بخلاف أهل البدعة عكسوا الأمر.

قال هنا: وطريقة أهل السنة والجماعة في النفي الإجمال، وفي الإثبات التفصيل. ليس المراد في النفي الإجمال أنهم لا يفصلون في النفي لا قد يفصل لكنه ليس هو الغالب وليس هو الأصل، وإنما الغالب هو الإجمال وقد يأتي التفصيل. وفي الإثبات التفصيل وقد يأتي الإجمال. قوله تعالى: {ولله المثل الأعلى}. كما جاء في الكتاب والسنة فأثبتوا له سبحانه الأسماء والصفات ونفوا عنه ممثالة المخلوقات، ومن خالفهم من المعطلة والمتفلسفة وغيرهم عكسوا القضية، فجاءوا بنفي مفصل وإثبات مجمل، فيقول: ليس كذا، وليس كذا، وليس كذا .. إلى آخره ذكر معناه في ((التدمرية)) وغيره. هذا باعتبار الصفات واضح، يعني التقسيم ما أثبته الله عز وجل لنفسه من الصفات إلى صفات المثبتة والصفات المنفية واضح، لكن ابن

---

(١) شرح العقيدة الواسطية للحازمي، أحمد بن عمر الحازمي ١٥/٧

تيمية رحمه الله تعالى جمع بين الأسماء والصفات، قد جمع بين ماذا؟ بين ما (وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات) عرفنا ما يتعلق بالوصف بين النفي والإثبات، لكن الأسماء كلها مثبتة، لو نفي الاسم كان ماذا؟ ليس من أسماء الله عز وجل، حينئذ الباقي نقول: ليس من أسمائه جل وعلا، إذا نفي الاسم خرج هنا عن كونه اسما لله عز وجل فيكف يكون الباري جل وعلى جاء بالنفي والإثبات في أسمائه، وإذا نفي الاسم خرج عن كونه اسما؟

نقول: النظر في الأسماء من حيث الإثبات والنفي إلى المعنى، يعني بعض معاني الأسماء ثبوتية كالعليم دل على علم وهو الوجود يعني وجود العلم، وقد يكون ماذا؟ قد يكون مدلول الاسم تنزيها كالسلام هذا اسم من أسمائه جل وعلا ما مدلول معناه سلامته من النقائص والعيوب، معناه مدلوله سلبي أو إيجابي؟ سلبي. إذا النفي باعتبار الأسماء باعتبار المدلولات لا باعتبار الألفاظ، فلا يتسلط حرف النفي على الاسم، وإنما يأتني حرف النفي أو الفعل الدال على النفي في الصفات {ليس كمثله} جاء الفعل {لا تأخذه} جاء الحرف وغير ذلك، وأما الأسماء فلا تدخل هذه الأدوات على لفظ الاسم، بل لا يكون إلا مثبتا، وإنما من جهة المعنى كالسلام كذلك القدوس معناهما متشابه متقارب وهو السلامة من العيب والنقص، يعني تنزيه الباري عن كل عيب ونقص، والتنزيه كما قلنا: هو إعدام. ولذلك قلنا: جمع بين التسبيح وبين الحمد، التسبيح هذا فيه ماذا؟ **تخلية**، والحمد فيه **تحلية**، وأما السلام والقدوس فمؤداهما مؤدى التسبيح.

إذا هذا ما يتعلق بالصفات، وأما باعتبار الأسماء فحينئذ كلها مثبتة كما قلنا، لكن أسماءه تعالى باعتبار المعنى منها ما يدل على معنى إيجابي ثبوتي، ومنها ما يدل على معنى سلبي أي منفي، وهذا مورد التقسيم عند ابن تيمية رحمه الله تعالى في باب الأسماء لأنه يرد إشكال، ولا تصحح العبارة إلا بهذا التركيب.

فنقول: النفي والإثبات مراد باعتبار الصفات اللفظ ويلزم منه المعنى، وأما باعتبار الأسماء فالمراد به مدلولات الأسماء وليس المراد به الاسم، لأنه إذا نفي خرج هنا عن كونه اسما.." (١)

"إذا الأولى تقديم هذه الآية على غيرها ({واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا}) هذه الآية من حيث المناسبة واضحة وبينة وهي كقوله فيما سبق ({ألا تعبدوا إلا إياه})، ({واعبدوا الله}) اعبدوا هذا فعل أمر مشتق من عبد يعبد عبادة، وسبق المراد بالعبادة في اللغة وفي الاصطلاح وفي الشرع، وكل أمر ({واعبدوا الله}) فسره بعض أهل التفسير ومنهم ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يعني وحدوا الله، ولما قال: ({ولا

---

(١) شرح العقيدة الواسطية للحازمي، أحمد بن عمر الحازمي ١٨/٩

تشركوا به شيئا}) قد يرجح هذا المعنى في مثل هذه المواضع، في مثل هذه المواضع قد يرجح بأن المراد بالعبادة هنا على جهة الخصوص التوحيد، لأنه قال: ({واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا}) لو أطلق لقلنا: الحكم عام، ولكن لما خصه بمقابله يعني ضد التوحيد وهو الشرك حينئذ قد يتعين أن تحمل النص هنا على ...){واعبدوا الله}) يعني وحدوا الله، ({واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا}) هذا فيه جزءان:

الجزء الأولى: إثبات وهو ({واعبدوا الله}) وهو مقابل لقوله (إلا الله) في كلمة التوحيد، لأن الأمر بالعبادة إذا حملت على معنى التوحيد كذلك نفي الشرك حينئذ تكون مقابلة لـ (لا إله إلا الله) فكل معنى أو كل لفظ فيه لفظ التعبد في مثل هذه التراكيب يكون مفسرا لـ (لا إله إلا الله) كما سيأتي في تفسير التوحيد أن التوحيد له حقيقة شرعية وتفسيرها موقوف على الكتاب والسنة، يعني ليس للعقل فيه مجال ولا للرأي ولا للقياس، وإنما (لا إله إلا الله) الله عز وجل أمر الخلق بها علما ونطقا واعتقادا وعملا ونحو ذلك، وبينها لهم ولم يترك المجال لأحد أن يدخل نفسه في بيان التوحيد الذي هو حق الله على العبيد. إذا ({واعبدوا الله}) إثبات في مقابل (إلا الله) من كلمة التوحيد، ({ولا تشركوا به شيئا}) هذا نفي ({ولا تشركوا}) إذا نفي، هو نهي لكنه متضمن للنفي، إذا لنفي إعدام، والنفي والنهي أخوان يشتركان في شيء وينفردان في أشياء، وهو مقابل لقوله: (لا إله) لا إله إلا الله، إذا هنا قدم (إلا الله) إثبات العبادة لله عز وجل وحده، ثم قال: ({ولا تشركوا به شيئا}).

هذا الجزء الثاني والتحلية هنا مقدمة على التخلية، والمشهور أن التخلية مقدمة على التحلية، وأنا أقول: التخلية والتحلية لا يمكن أن يقدم أحدهما على الآخر، وإنما تحصل التخلية بالتحلية، والتحلية بالتخلية، فليس بينهما شيء مرتب، ودلالة هذه الآية كدلالة قوله تعالى: ({أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}) يعني كما سبق سيأتيه فيما يتعلق بالآيات الثانية، وهي قوله: ({ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}) إذا المعنى المراد من هذه الآيات هو تحقيق معنى لا إله إلا الله، لا معبود بحق سوى الله عز وجل.." (١)

"بدأ بذهاب القذر قبل اللون الحسن والجلد الحسن، يعني: بدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب، لذا قال: («وأعطي لونا حسنا»)، فمسحه فزال القذر فأعطي لونا حسنا، زال القذر هذا إزالة للمكروه فأعطي لونا حسنا يعني التخلية قبل التحلية، («وأعطي لونا حسنا وجلدا حسنا») فأعطي لونا حسنا وجلدا

(١) شرح كتاب التوحيد للحازمي، أحمد بن عمر الحازمي ٣/٧

حسنا يعني: بعد ذهاب القذر عنه. قال بعدما أزيل عنه المكروه المتصل («فقال: أي المال أحب إليك») لما زال عنه البرص الذي هو أكره له من جهة المنظر وكان لا يبرأ في العادة خيره في أنفس الأموال («أي المال أحب إليك») ليجمع له أكبر النعم البدنية والمالية، حصل البدل ماذا؟ إزالة المكروه حينئذ بقي ماذا؟ بقي المال، ما هو المال أحب إليك؟ وهذا كله من جهة الاختبار والابتلاء («قال: الإبل، أو البقر – شك إسحاق –») الإبل أو البقر هذا أنفس المال، أي: ابن عبد الله ابن طالحة راوي الحديث شك إسحاق يعني: هل قال: الإبل، أو قال: البقر، والظاهر أنه قال: الإبل كما يدل عليه السياق لذلك قال: («فأعطي ناقة عشراء») يعني: أجابه إلى ما أراد فلما قال: («فأعطي ناقة عشراء») وسيأتي بعيرا فيما سيأتي دل على أن الصحيح هنا المراد به الإبل، («فأعطي») لما سأل الإبل أعطي ناقة عشراء بضم العين وفتح الشين وبالمد، وهي الحامل مطلقا، ناقة حامل، يعني من أجل ماذا؟ ناقة، لو أعطاه ناقة حائلا حينئذ تحتاج إلى كيف تتكاثر، تحتاج إلى ثنتين هو أعطاه واحدة ناقة وهي حاملا إذا تكاثرت حصل التكاثر وهي الحامل مطلقا، وقيل: الحامل التي أتى على حملها عشرة أشهر أو ثمانية مقيد. وقيل: يقال لها يعني عشراء إلى أن تلد. والناقة العشراء من أنفس الإبل، فأعطاه الملك هذه الناقة، انظروا هنا إلى الإعجاز طلب ناقة عشراء يحتمل أنه علم الله تعالى أنه سيكون كذلك فأعطى الملك ابتداء، يعني: جاء الملك بهذا ... ، من أين أتى بها الملك، لما طلب الإبل قد يكون الملك لا يعلم الغيب لم يعلم الله تعالى، فلما طلب الناقة طلب الإبل حينئذ أعطاه مباشرة من أين أعطاه؟ الله أعلم، يعني هل نزلت من السماء، هل كانت موجودة، فيحتمل، يحتمل أنها قريبة منه فأعطاه، يحتمل أن الله عز وجل أنزلها إلى آخره، فقال له بعدما أعطاه الناقة العشراء: («بارك الله لك فيها»). دعا له بالبركة، والداعي الملك، قيل: وهو مجاب الدعوة بإذن الله، هكذا قال بعضهم، وهو يحتمل فلفظه لفظ الخبر، ومعناه الدعاء وهو أقرب، ويحتمل أنه خبر محض كأنه قال: هذه ناقة عشراء مبارك لك فيها، يعني: («بارك الله لك») هذا يحتمل أنه دعاء، ويحتمل أنه خبر، دعاء جملة خبرية بمعنى الدعاء، حينئذ دعا له بالبركة، ويحتمل أنه خبر محض، كأنه قال: هذه ناقة عشراء مبارك لك فيها، ويكون المعنى على تقدير قد، وقد بارك الله لك فيها، هذا انتهى من الأول وهو الأبرص.." (١)

"الثاني: أن يجعلها دالة على صفات تماثل صفات المخلوقين كما فعل أهل التمثيل، الله عز وجل قال: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١]. أثبت الاسمين السميع البصير حينئذ السميع

(١) شرح كتاب التوحيد للحازمي، أحمد بن عمر الحازمي ١٩/٨٦

علم، ودل على صفة السمع والبصير علم ودل على صفة البصر، وكل منهما له أحكام متعلقة بالبشر فهي صفات متعددة فوجب الإيمان بثلاثة الأمور التي ذكرنها في القاعدة السابقة، لكن هل السمع هذا في اللفظ مشترك بين الخالق والمخلوق، أنت لك سمع وكل مخلوق له سمع، وأنت لك بصر وكل مخلوق له بصر، والله عز وجل موصوف بالسمع والبصر، قال الله عز وجل – في قاعدة كلية من أهم قواعد باب الأسماء والصفات – قال: {ليس كمثله شيء}. {شيء} نكرة في سياق النفي فتعم لا في ذاته ولا في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله فهي عامة، {ليس كمثله شيء}، قال: {وهو السميع البصير}. إذا سميع ويثبت له السمع وليس كمثله سمع، فلا تشابه لا تماثل بين صفة السمع بالنسبة للمخلوق مع صفة السمع لله عز وجل، وإن اشتركا في شيئين: الأول اللفظ هذا سمع وهذا سمع لكن إذا أضيف السمع إلى الخالق انفصل بمعنى أن ثم مباينة ومفاصلة عند إضافة كل لفظ إلى مسماه، فإذا أضيف السمع إلى الله عز وجل وأضيف السمع إلى المخلوق حينئذ ليس ثم مماثلة إلا في اللفظ، وفي أصل المعنى وهو إدراك المسموعات والمبصورات كما هو الشأن في البصر ونحو ذلك. إذا أن يجعلها دالة على صفات تماثل صفات المخلوقين هذا يسمى ماذا؟ يسمى إلحادا، فالممثلة ملحدة لماذا؟ لأنه قالوا: لا نفهم من هذه الأسماء وما دلت عليه إلا ما ندركه بالبصر فلا نفهم سمعا إلا هذا السمع، ولا بصرا إلا هذا البصر، ولا يدا إلا هذه اليد، ولا قدما إلا هذه القدم .. وهكذا، نقول: هذه مردودة بالقاعدة العامة السابقة {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}، فمن ادعى المماثلة ولو في صفة واحدة فهو ملحد، وذلك لأن التمثيل معنى باطل لا يمكن أن تدل عليه النصوص، بل هي دالة على بطلانه، أبطل الله عز وجل التمثيل بجميع احتمالاته فضلا عن أن يكون شيئا موجودا من ذلك، والآية واضحة بينة بل هي من أوضح الواضحات ومن أحكم المحكمات، كما مر معنا مرارا أن آيات التوحيد وآيات الأسماء والصفات أو شئت قل التوحيد بأنواعه هذه ليست من المحكم فحسب، بل هي من أحكم المحكم، يعني: لا يلتبس على اثنين كل منهما معه شيء من عقله أنه إذا قرأ قوله تعالى: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}. أنه إذا قرأ {وهو السميع البصير} يقدم عليه أنه {ليس كمثله شيء} فنفى أولا المماثلة، ثم أثبت، ولذلك قيل: **التخلية** قبل **التحلية**. فجعلوها دالة عليه يعني ميل بها عن ما يجب فيها.." (١)

(١) شرح سلم الوصول في علم الأصول، أحمد بن عمر الحازمي ٩/٥

"ولا نشورا ثم اعلم أن مذهب أهل الإسلام أن معرفة الله تعالى واجبة على جميع الأنام لكن اختلفوا في طريقها فمذهب الصوفية أن طريقها الرياضة والتخلية والتحلية وتصفية الطوية لقبول التحلية وليستفيد الواردات وشواهد تكثيرها التي عجز العقل عن تفسيرها وذهب جمهور المتكلمين إلى أن طريقها إنما هو النظر والاستدلال بالأدلة النقلية من الكتاب والسنة المطابقة للأدلة العقلية وقال بعضهم يعرف بالعقل المجرد الباقي على الفطرة الأصلية وقال بعضهم يعرف الله بالله لا بغيره وهذا أشبه بمذهب الصوفية

وعن هذا قالوا إن أحدا لا يعرف الله حق معرفته وإن كان نبيا مرسلا أو ملكا مقربا لقوله تعالى {وما أوتيتم من العلم إلا قليلا} وقوله سبحانه وتعالى {ولا يحيطون به علما} وقوله {لا تدركه الأبصار} ومن هنا قال صلى الله عليه وسلم (لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) وقال (لا تتفكروا في ذات الله) وقال (كل الناس في ذات." (١)

"كلامهم ما يعترض على مرامهم بل جميعها مطابقة لظواهر الكتاب والسنة وقد قال سيد الطائفة من لم يقرأ كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو خارج عن الطريقة وغير داخل في الحقيقة وقال أبو سليمان الداراني كل ما يخطر ببالي فاتزن بكفتي ميزان الكتاب والسنة انتهى ولا يخفى أن هذا شأن الإيمان وطريق الإحسان المؤيد بالبرهان على وجه الإتقان وأما التعليق بالخيالات العقلية والتوهمات النفسية الخارجة عن الأدلة النقلية فليس هذا إلا مذهب الحكماء الفلسفية ومن تبعهم من المعتزلة والخوارج وغيرهم من الأصناف الردية كالوجودية والإلحادية والحلولية والاتحادية والدهرية والمعطلة والمجسمة وأمثال ذلك من المشارب الكفرية فالواجب على العبد أن يعتقد اعتقاد أهل السنة والجماعة إما بطريق التقليد وإما بطريق التحقيق والتأييد ثم يشتغل بعلم التفسير والحديث والفقه التي هي العلوم الشرعية وعلم الأخلاق من التصوف الذي مبناه على التخلية والتحلية بأن يتخلى عن الصفات الردية ويتحلى بالأخلاق المرضية وأول تلك المنازل العلية التوبة عن المعصية الجلية والخفية والأوبة عن الغفلة الظاهرية والباطنية طالبا من الله حسن الخاتمة فإنها فاتحة الخيرات السرمدية وفاتحة المبرات الأبدية ثم اعلم أن المؤول قد اعترف بأن شيخه تفوه في مصنفاته أن الواجب الوجود وجود مطلق لكنه أراد به أنه موجود بذاته لا معلول بشيء ولا

---

(١) الرد على القائلين بوحدة الوجود الملا على القاري ص/١٧

علة له وأن وجوده ليس له ابتداء ثم ادعى أن الوجودية طائفتان إحداهما موحدة والأخرى ملحدة وهذه الطائفة الخبيثة يقولون إن الباري تعالى ليس في الخارج موجود." (١)

"وبكر بن خنيس، ومن الآثار عن التابعين ومن بعدهم ما لا يحصى، وقد ذكر ذلك الجلال السيوطي في رسالة مستقلة له، وشيد أركانه، وأنكره كما قدمنا بعضهم، والحق مع المثبتين، وأنا والحمد لله تعالى منهم، وإن كنت لم أشيد قبل أركان ذلك، والأئمة والحواريون والرجبيون والختم والملامية والفقراء وسقيط الرفرت بن ساقط العرش والأمناء والمحدثون إلى غير ذلك ".

وفي موضع آخر من تفسير (روح المعاني) عند تفسير قوله تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا} ١ قال بعد كلام طويل: "إن الآية متضمنة الوعد منه عز وجل لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم إن ينتهوا عما ينهون عنه، ويأتمروا بما يأمرهم به؛ يذهب عنهم- لا محالة- مبادىء ما يستهجن، ويحليهم أجل تحلية بما يستحسن، وفيه إيماء إلى قبول أعمالهم، وترتب الآثار الجميلة عليها قطعا، ويكون هذا خصوصية لهم ومزية على من عداهم، من حيث أن أولئك الأغيار إذا انتهوا وائتمروا لا يقطع لهم بحصول ذلك، ولذا تجد عباد أهل البيت أتم حالا من سائر العباد المشاركين لهم في العبادة الظاهرة، وأحسن أخلاقا وأزكى نفسا، وإليهم تنتهي سلاسل الطرائق التي مبناها- كما لا يخفى على سالكيها- التخلية والتحلية، اللتان هما جناحان للطيران إلى حظائر القدس، والوقوف على أركان الأنس، حتى ذهب قوم إلى أن القطب في كل عصر لا يكون إلا منهم، خلافا للأستاذ أبي العباس المرسي حيا ذهب- كما نقل عنه تلميذه التاج بن عطاء الله- إلى أنه قد يكون من غيرهم.

قال: ورأيت في مكتوبات الإمام الفاروقي الرباني مجدد الألف الثاني ما حاصله: أن القطبية لم تكن على سبيل الأصالة إلا لأئمة أهل البيت المشهورين، ثم إنها صارت بعدهم لغيرهم على سبيل النيابة عنهم، حتى انتهت النوبة إلى السيد الشيخ عبد القادر الكيلاني، فنال مرتبة القطبية على سبيل الأصالة، فلما عرج بروحه القدسية إلى أعلى عليين نال من نال بعده تلك الرتبة على سبيل النيابة عنه،

---

١ سورة الأحزاب: ٣٣.." (٢)

---

(١) الرد على القائلين بوحدة الوجود الملا على القاري ص/٩٣

(٢) غاية الأماني في الرد على النبهاني الألوسي، محمود شكري ١/٥٤٤

"(فكذلك الإنسان ما دام مبتلى بمرض القلب بالشرك ونحوه لا تنفعه عبادة وطاعة أصلا.

ولهذا أجمعوا على أن **التخلية** مقدمة على **التحلية**، وهذا هو معنى ((لا إله إلا الله)) .

تنفي أولا الآلهة الأنفسية والآفاقية، ثم تثبت الإله الواحد الأحد الحق الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) .

وفيما يلي بعض نصوص علماء الحنفية لتحقيق هذا المطلوب:

١ - قال الإمام ابن أبي العز (٧٩١هـ) ، في شرح قول الإمام الطحاوي (٣٢١هـ) .

٢ - والعلامة القاري (١٠١٤هـ) ، واللفظ للأول: ((ولا إله غيره)) بعد قوله: ((إن الله واحد)) :

(هذه كلمة التوحيد التي دعت إليها الرسل كلهم؛ كما تقدم ذكره؛ وإثبات التوحيد لهذه الكلمة، باعتبار النفي والإثبات - المقتضي للحصر فإن الإثبات المجرد قد يتطرق إليه الاحتمال؛ ولهذا - والله أعلم-.

لما قال الله: {وإلهكم إله واحد} [البقرة: ١٦٣] ؛ قال بعده: {لا إله إلا هو الرحمن الرحيم} [البقرة: ١٦٣] ؛ فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطاني:

هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره؛ فقال تعالى: {لا إله إلا هو الرحمن الرحيم}." (١)

"سماوات ومن الأرض مثلهن} [الطلاق: ١٢]، أي: في العدد.

* قوله: "بل يؤمن بأن الله سبحانه {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١] ".

الشرح:

قوله: "بل يؤمنون ... "؛ أي: يقر أهل السنة والجماعة بذلك إقرارا وتصديقا بأن الله ليس كمثله شيء، كما قال عن نفسه: {ليس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١]، فهنا نفى المماثلة، ثم أثبت السمع والبصر فنفى العيب، ثم أثبت الكمال، لأن نفي العيب قبل إثبات الكمال أحسن، ولهذا يقال: **التخلية** قبل **التحلية**. فنفي العيوب يبدأ به أولا، ثم يذكر إثبات الكمال.

وكلمة {شيء} نكرة في سياق النفي، فتعم كل شيء، ليس شيء مثله أبدا عز وجل أي مخلوق وإن عظم، فليس مماثلا لله عز وجل، لأن مماثلة الناقص نقص، بل إن طلب المفاضلة بين الناقص والكامل تجعله ناقصا، كما قيل:

ألم تر أن السيف ينقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

---

(١) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية شمس الدين الأفغاني ١٥٢/١

فهنا لو قلنا: إن لله مثيلا، لزم من ذلك تنقص الله عز وجل، فلهذا نقول: نفى الله عن نفسه مماثلة المخلوقين، لأن مماثلة المخلوقين نقص وعيب، لأن المخلوق ناقص، وتمثيل." (١)

"من يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله (١) فقد استمسك بالعروة الوثقى} (٢) [سورة البقرة، الآية: ٢٥٦] وهذا معنى لا اله إلا الله.

وفي الحديث* "رأس الأمر الإسلام (٣) وعموده الصلاة (٤) وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله" (٥) ؛.

. . . .

لا بد أن تختار الرشد على الغي.

(١) بدأ الله عز وجل بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله؛ لأن من كمال الشيء إزالة الموانع قبل وجود الثوابت ولهذا يقال **التخلية** قبل **التحلية**.

(٢) أي تمسك بها تمسكا تاما والعروة الوثقى هي الإسلام وتأمل كيف قال عز وجل: {فقد استمسك} ، ولم يقل: "تمسك" لن الإستمساك أقوى من التمسك فإن الإنسان قد يتمسك ولا يستمسك.

(٣) أراد المؤلف رحمه الله تعالى الإستدلال بهذا الحديث على أن لكل شيء رأسا فرأس الأرم الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم الإسلام.

(٤) لأنه لا يقوم إلا بها ولهذا كان الراجح كفر تارك الصلاة وأنه ليس له الإسلام.

أي أعلاه وأكمله الجهاد في سبيل الله، وذلك لأن الإنسان إذا أصلح نفسه حاول إصلاح غيره بالجهاد في سبيل الله ليقوم الإسلام ولتكون كلمة الله هي العليا، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وصار ذروة السنام لأن به علو الإسلام على غيره.

* رواه أحمد ٥/٢٣١-٢٣٧، والترمذي ٥/١٣ برقم ٢٦١٦، وابن ماجه ٢/١٣٩٤ برقم ٢٩٧٣.." (٢)

"قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي لونا حسنا، وجلدا حسنا. قال: فأي المال أحب إليك؛ قال: الإبل أو البقر (شك إسحاق) . فأعطي ناقة عشراء، وقال: بارك الله لك فيها ".

قال: "فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قذرني الناس

---

(١) شرح العقيدة الواسطية للعثيمين ابن عثيمين ١/١١٣

(٢) شرح ثلاثة الأصول للعثيمين ابن عثيمين ص/١٦٠

به،.................................

قوله: "فمسحه": ليتبين أن لكل شيء سببا، وبرئ بإذن الله عز وجل "فذهب عنه قذره": بدأ بذهاب القذر قبل اللون الحسن والجلد الحسن؛ لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب، كما يقال: **التخلية** قبل **التحلية**.

قوله: "قال: الإبل أو البقر – شك إسحاق –": والظاهر: أنه الإبل كما يفيده السياق، وإسحاق أحد رواة الحديث.

قوله: "عشراء": قيل: هي الحامل مطلقا، وقال في "القاموس": هي التي بلغ حملها عشرة أشهر أو ثمانية، سخرها الله عز وجل وذللها، ولعلها كانت قريبة من الملك فأعطاه إياها.

قوله: "بارك الله لك فيها": يحتمل أن لفظه لفظ الخبر ومعناه الدعاء، وهو الأقرب؛ لأنه أسلم من التقدير، ويحتمل أنه خبر محض، كأنه قال: هذه ناقة عشراء مبارك لك فيها ويكون المعنى على تقدير (قد) ؛ قد بارك الله لك فيها.

قوله: "فأتى الأقرع": وهو الرجل الثاني في الحديث.

قوله: "فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسن "، ولم يكتف بمجرد الشعر، بل طلب شعرا حسنا.

قوله: "الذي قذرني الناس به": أي: القرع؛ لأنه إذا كان أقرع كرهه." (١)

". . . . .

ـــــــQدلت عليه اللغة ودل عليه الشرع، وكذلك لم يعلموا متعلقات الأسماء والصفات وآثارها في ملك الله – جل وعلا – وسلطانه؛ لهذا عقد الشيخ – رحمه الله – هذا الباب لأجل أن يبين أن تعظيم الأسماء والصفات من كمال التوحيد وأن جحد الأسماء والصفات مناف لأصل التوحيد، فالذي يجحد اسما سمى الله به نفسه أو سماه به رسوله صلى الله عليه وسلم وثبت ذلك عنه وتيقنه فإنه يكون كافرا بالله – جل وعلا – كما قال سبحانه عن المشركين: {وهم يكفرون بالرحمن} [الرعد: ٣٠] [الرعد: ٣٠] .

والواجب على العباد من أهل هذه الملة، أن يوحدوا الله – جل وعلا – في أسمائه وصفاته، ومعنى توحيد الله في أسمائه وصفاته: أن يتيقن ويؤمن بأن الله – جل وعلا – ليس له مثيل في أسمائه ولا في صفاته

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد ابن عثيمين ٢/٢٨٦

كما قال ـ جل وعلا ـ {لیس كمثله شيء وهو السميع البصير} [الشورى: ١١] [الشورى: ١١] فنفى وأثبت، نفى أن يماثل الله شيء – جل وعلا – وأثبت له صفتي السمع والبصر.

قال العلماء: قدم النفي قبل الإثبات على القاعدة العربية المعروفة أن **التخلية** تسبق **التحلية**، فيجب أن يخلو القلب من كل براثن التمثيل ومن كل ما كان يعتقده المشركون الجاهلون من تشبيه الله بخلقه، أو تشبيه خلق الله به، فإذا خلا القلب من كل ذلك، وبرئ من التشبيه والتمثيل، أثبت ما يستحقه الله – جلا وعلا – من الصفات، فأثبت هنا صفتين وهما السمع والبصر.

وسبب ذكر السمع والبصر هنا في مقام الإثبات دون غيرهما من الصفات، أو دون ذكر غير اسم السميع والبصير من الأسماء؛ لأن صفتي السمع." (١)

"فصلاح القلب قائم على التطهير والتزكية.

قال ابن القيم رحمه الله: "والمقصود: أن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة" ١.

وقال أيضا:" ... فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة، فقد استفرغ من تخليطه، فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة، والمواد الردية، فزكا ونما وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل إلى زكاته إلا بعد طهارته ... " ٢.

فأثر الإيمان على القلوب دائربين تطهيرها وتزكيتها، وكلا هذين الأمرين من التطهير والتزكية لهما دور هام في تحصين القلب من الأفكار الفاسدة.

والتطهير مقدم على التزكية من باب: **التخلية** قبل **التحلية** فالتطهير هو إخراج دغل القلب وفساده، فيكون مهيأ لاستقبال الخير والترقي فيه.

وقد وردت الإشارة إلى تقديم التطهير على التزكية في كثير من

---

(١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد صالح آل الشيخ ص/٤٣٥

١ إغاثة اللهفان ١/٨١.

٢ نفس المرجع ص٧٧.." (١)

"ولا إله غيره

" ولا إله غيره " هذه هي كلمة التوحيد " لا إله إلا الله " التي بعث الله بها المرسلين، وأنزل الله من أجلها الكتب، وخلق الخلق الخليقة من أجلها كما سبق "لا إله غيره" هو معنى "لا إله إلا الله "، ومعناها لا معبود بحق إلا الله، وقد أخبر الله تعالى عن إبراهيم –عليه الصلاة والسلام– بقوله: {وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون (٢٦) إلا الذي فطرني} .

هذا هو معنى كلمة التوحيد {إنني براء مما تعبدون (٢٦) إلا الذي فطرني} {إنني براء مما تعبدون (٢٦) } هذا النفي {إلا الذي فطرني} هذا هو الإثبات، ومعنى كلمة التوحيد " لا إله غيره " هو معنى " لا إله إلا الله "، وإثبات التوحيد إنما هو بالنفي والإثبات، إثبات توحيد هذه الكلمة إنما هو بالنفي والإثبات المقتضي للحصر " لا إله إلا الله ".

ولهذا لما قال –سبحانه وتعالى–: {وإلهكم إله واحد} قال بعدها: {لا إله إلا هو الرحمن الرحيم (١٦٣) } ؛ لأن الإثبات وحده يتطرق إليه احتمال تقول: "الله إله؟ "، يتطرق إليه احتمال، قد يخطر بخاطر شيطاني فيقول: إذا كان إلهنا الله فهل لنا إله غيره؟.

ولهذا قال سبحانه: {وإلهكم إله واحد} ثم قال بعدها: {لا إله إلا هو الرحمن الرحيم (١٦٣) } فإذن إثبات التوحيد بهذه الكلمة إنما هو من أجل النفي والإثبات المقتضي للحصر، وليس هناك توحيد إلا بنفي وإثبات "لا إله غيره" لا بد من النفي والإثبات حتى يكون التوحيد، كفر وإيمان، كفر بالطاغوت وإيمان بالله عز وجل "لا إله" هذا كفر بالطاغوت، "إلا الله "هذا إيمان بالله.

نفي وإثبات ففيها كفر وإيمان كفر بالطاغوت "لا إله"، "إلا الله" إيمان بالله عز وجل **تخلية** ثم **تحلية** "لا إله" هذا **تخلية**، نفيت جميع الآلهة التي تعبد من دون الله ثم أثبت الألوهية لله عز وجل و "لا إله إلا الله " "لا" نافية للجنس، و"إله" اسمها، والخبر محذوف "لا إله حق إلا الله" التقدير " لا إله حق إلا الله "، والإله معناه المعبود، الإله معناه المعبود لا معبود بحق إلا الله.

---

(١) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع ٣٤٤/١

وهذه الكلمة كلمة التوحيد لا تنفع صاحبها إلا بتحقيق شروطها التي دلت عليها النصوص من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلا بد من العلم المنافي للجهل، لا بد من العلم المنافي للجهل، قال سبحانه: {فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك} فبدأ بالعلم قبل القول والعمل.

ولهذا قال البخاري -رحمه الله- في صحيحه: "باب العلم قبل القول والعمل"، ثم استشهد بهذه الآية {فاعلم أنه لا إله إلا الله} لا بد من العلم، وقال -سبحانه-: {إلا من شهد بالحق وهم يعلمون (٨٦) } {ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون (٨٦) } .

لا بد من العلم، العلم المنافي للجهل تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على نفي وإثبات، ولا بد أن تعرف الشيء الذي تنفيه، والشيء الذي تثبته، فهي تنفي الألوهية عن غير الله وتثبتها لله، تنفي جميع أنواع العبادة لغير الله وتثبتها لله عز وجل والعبادة هي اسم لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة كل ما أمر به الشرع ونهى عنه الشرع. كل ما أمر به أمر إيجاب أو استحباب يمتثل، وكل ما نهى عنه نهي تحريم أو تنزيه يترك، هذه هي العبادة طاعة لله وإخلاص له.

لا بد من العلم، ولا بد من اليقين يقولها عن يقين مناف للشك والريب إن قالها وعنده شك وتردد تردد في أن الإله هو المعبود بحق لا تنفع هذه الكلمة، لا بد أن يقولها عن يقين مناف للشك والريب، ولا بد من الصدق المانع من النفاق، فإن المنافقين يقولونها لكن لا يصدقون.

يقولونها بألسنتهم وقلوبهم مكذبة، قال الله عز وجل {ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين (٨) } {آمنا بالله وباليوم الآخر} بألسنتهم {وما هم بمؤمنين (٨) } بقلوبهم، وقال سبحانه: {إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون (١) } .." (١)

"من أصول أهل السنة سلامة قلوبهم وألسنتهم للصحابة

قال رحمه الله تعالى: [ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما وصفهم الله به في قوله تعالى: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم} [الحشر:١٠] ، وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده! لو أن أحدكم أنفق مثل أحد

---

(١) شرح الطحاوية للراجحي عبد العزيز الراجحي ص/١٥

ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)] .
هذا الأصل -وهو ما يتعلق بصحابة رسول صلى الله عليه وسلم- تقدم الإشارة إليه في قول المؤلف رحمه الله: [وفي صحابة رسول الله بين الرافضة الخوارج] لما ذكر وسطية أهل السنة والجماعة، فهم وسط فيما يتعلق بصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ضلالتين، بين فرقتين مبتدعتين قصرت في صحابة رسول الله أو غلت فيهم وهم الرافضة والخوارج.
قال رحمه الله: [ومن أصول أهل السنة والجماعة سلامة قلوبهم وألسنتهم] .
السلامة: هي البراءة من النقص والعيب، هذا في الألسن؛ والغل، والحقد، والبغي، هذا في القلوب، فأهل السنة والجماعة قلوبهم سليمة على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي سليمة لهم ليس فيها غل ولا حقد ولا حسد، ولا كراهية، ولا بغض، بل على عكس ذلك، فقلوبهم مليئة بمحبة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجلالهم وتقديرهم ومعرفة سبقهم وفضلهم.
قال: [وألسنتهم] أي: وسلامة ألسنتهم، فأهل السنة والجماعة سلمت ألسنتهم من عيب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن نسبتهم إلى فسق، أو كفر، أو خيانة، أو ردة، أو غير ذلك كما هي حال الفرق الضالة سواء الرافضة أو الخوارج، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هم خير القرون كما سيأتي في كلام المؤلف.
والصحابة ثبت لهم فضل الصحبة، والصحبة فضل يثبت لكل من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنا به ومات على ذلك، هذا هو ضابط الصحبة، وبه نعرف أن الصحبة اسم جنس يصدق على قليل الصحبة وكثيرها، فليس هناك حد زمني أو تقدير زمني حتى يقال: إن من حصله فقد حصلت له فضيلة الصحبة، بل فضيلة الصحبة ثابتة لكل من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنا به ومات على ذلك، قل زمن صحبته أو كثر، والفارق بين قليل الصحبة وكثير الصحبة أنه كلما طالت الصحبة تأكد الفضل وازداد الحق؛ لأن الصحبة وصف، فكل ما قوي هذا الوصف قويت الحقوق المرتبة على هذا الوصف، فمن صحب النبي صلى الله عليه وسلم عمره في دعوته كأبي بكر رضي الله عنه ليس حقه كحق ذاك الذي لم يشهده إلا مرة واحدة، مع أن الجميع يشتركان في الصحبة، ولكن يختلفان فيما يثبت لهما من الحقوق بسبب هذه الصحبة، فمن كان نصيبه من الصحبة أكبر كان نصيبه وحظه من حقوقها أوفر.
فسلامة القلب وسلامة اللسان لمن طالت صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليست كسلامة القلب

واللسان لمن قلت صحبته، ولا يعني هذا أن من قلت صحبته يطوله ضرر قلبي أو لساني من أهل السنة والجماعة، فكف الشر عنهم واحد، ولكن إثبات الفضل والمحبة والثناء والفضيلة يختلف باختلاف صحبتهم وباختلاف منزلتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والجميع يشترك في حق الصحبة، وأقل حقوق الصحبة، وأول عتبة في حقوق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يشترك فيه طويل الصحبة وقصيرها؛ هو سلامة القلوب والألسنة لهم، ثم بعد ذلك يتفاوتون.

إذا: قوله رحمه الله: (سلامة قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله) هذا أدنى حقوقهم.

وأول حقوقهم -وهو من باب **التخلية** قبل **التحلية**- أن يخلي قلبه من كل غل، وحقد، وحسد، وبغض، وكره لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما الألسنة فتكون خالية من كل نقص وعيب، وهمز، ولمز، ووقيعة فيهم رضي الله عنهم، وهذا خلاف ما عليه غير أهل السنة والجماعة من الفرق الضالة في هذا الباب.

وبدأ بسلامة القلب قبل سلامة اللسان؛ لأن سلامة القلب هي الأصل، فمن سلم قلبه سلم لسانه، وبه تعلم أن كل من همز صحابة رسول الله، أو لمزهم، أو عابهم، أو انتقصهم بلسانه؛ فهذا يدل على أن في قلبه فسادا، وأنه إما بلي بغل، أو حقد، أو حسد، أو كره لصحابة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

والعجيب! أن أقواما اتهموا هؤلاء الصفوة بأنواع من التهم، وألحقوا بهم أنواعا من السباب، وألحقوا جمهورهم بالكفر كما سيأتي، ولم يبق إلا نفر قليل زعموا أنهم هم الذين تتنزل عليهم نصوص فضل الصحابة، ويستحقون ما للصحبة من حقوق، وأما جمهورهم فهم بين مرتد، أو كافر، أو خائن، نعوذ بالله! ولو قيل لعاقل: هل يسوغ هذا في حق النبي صلى الله عليه وسلم؟ الجواب: لا، كيف يصطفي الله عز وجل لخير خلقه وصفوتهم وخاتم رسله هؤلاء الأصحاب الذين هم بين منافق وكافر وخائن؟! فالرد على هؤلاء بالعقل أبلغ من الرد بالنص؛ لأنهم لا يسلمون بالنصوص بل ما يسوقونه من النصوص في لمز الصحابة من الذي نقلها؟ ومن أين أتتنا هذه النصوص؟ من الصحابة، فهم يستدلون بالأحاديث التي رواها الصحابة على ذمهم، فمثلا يقولون: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال في حديث الحوض: (يذاد عن حوضي فأقول: أصحابي أصحابي فيقول: ما تدري ما أحدثوا بعدك) ، من الذي نقل لك هذا الحديث؟ الصحابة، فكيف تقبل نقلهم في ذم فئة منهم، وهم المرتدون، وتجعل هذا في حق جميعهم؟! سبحان الله العظيم! هذه البدعة التي هي بدعة الرفض وبدعة الخوارج أهلها من أفسد الناس عقلا، ومن أفسدهم نقلا، لا سيما بدعة الرافضة.

يقول رحمه الله: [كما وصفهم الله] .

هذا بيان لحال هؤلاء الذين استحقوا سلامة القلوب وسلامة الألسنة: {والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} [الحشر:١٠] ، قوله: {والذين جاءوا من بعدهم} هذا عطف على ما تقدم، والذي تقدم هو ذكر المهاجرين والأنصار في سورة الحشر في الآيات التي قبل هذه الآية ذكر الله عز وجل أولا المهاجرين، ثم ثنى بذكر الأنصار، ثم قال: {والذين جاءوا من بعدهم} يعني: من بعد المهاجرين والأنصار: {يقولون ربنا اغفر لنا} فهم يسألون المغفرة لهم: {ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} ، وأول وأحق من يدخل في قوله: {الذين سبقونا بالإيمان} هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان يدخل في هذا كل مؤمن قد سبقك وتقدم عليك، فكل مؤمن سبقك وتقدم عليك ولو بزمن يسير فإنه يدخل في قوله: {ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} ، لكن أول من يدخل في هؤلاء وأحق من يدخل في هذه الآية هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار.

{ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا} [الحشر:١٠] سأل هؤلاء الله عز وجل المغفرة لهم ولإخوانهم، ثم قالوا: {ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا} عموما من السابقين واللاحقين، لكن أول من يجب تسليم القلب من الغل في حقهم: {الذين سبقونا بالإيمان} ، وأحق أولئك صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم: {ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم} [الحشر:١٠] ، وهذه الآية تشير إلى أن من طرق تسليم القلب من الغل والحقد على أحد من أهل الإيمان أن تدعو له بالمغفرة.

إذا كان على أحد في قلبك غل؛ بسبب معاملة أو سوء تصرف، فأكثر من الدعاء له بالمغفرة؛ حتى يسلم الله عز وجل قلبك مما فيه من غل في حق أخيك المسلم.

ثم قال أيضا في هذا الفصل، وفي هذا الأصل: [وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله] يعني: أهل السنة والجماعة سلمت قلوبهم وألسنتهم لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمرين: الأمر الأول: الدليل من القرآن وهو يفيد سلامة القلب: {ولا تجعل في قلوبنا غلا} ، بل وسلامة اللسان وذلك في قوله: {اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان} فالآية دالة على سلامة القلب وفضل اللسان، سلامة القلب في قوله: {ولا تجعل في قلوبنا غلا} ، وفضل اللسان بالدعاء لهم، وهو أمر زائد عن السلامة؛ لأن السلامة هو الامتناع من النقص والذم والعيب، فكيف إذا كان حقهم ونصيبهم من اللسان هو الدعاء لهم وطلب المغفرة! قال: [وطاعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده! لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه)] ، لا تسبوا هذا نهي، والسب يصدق في

أي قول مذموم في حقهم، في أي قول فيه ذم لهم، فعيبهم سب لهم، تنقصهم سب لهم، احتقارهم سب لهم، لعن الصحابة من سبهم بل هو من أعظم السب لهم رضي الله عنهم، وسبب هذا الحديث خلاف وقع بين عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وبين خالد بن الوليد، فنال خالد رضي الله عنه من عبد الرحمن بن عوف، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: (لا تسبوا أصحابي) إلى آخر الحديث، فالحديث له سبب وهو نيل خالد بن الوليد –وهو ممن تأخر إسلامه– من عبد الرحمن بن عوف –وهو ممن تقدم إسلامه– فهل هذا يعني أن خالدا ليس صاحبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ هل يعني أنه ليس من الصحابة؟ لا يعني أنه ليس من الصحابة، لكن هذا يشير إلى ما ذكرناه قبل قليل في الصحبة، وأن حق الصحبة يتأكد بقدر ما مع الإنسان منها، فنصيب عبد الرحمن بن عوف من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم." (١)

"الكفر بالطاغوت واجب على جميع العباد

قال رحمه الله تعالى: [وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: (الطاغوت: ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع) .

والطواغيت كثيرون، ورءوسهم خمسة: إبليس لعنه الله، ومن عبد وهو راض، ومن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومن ادعى شيئا من علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله، والدليل قوله تعالى: {لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم} [البقرة:٢٥٦] ، وهذا هو معنى (لا اله إلا الله) ، وفي الحديث: (رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله) .

والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم] .

هذا هو المقطع الأخير من هذه الرسالة المباركة –ثلاثة الأصول– للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله رحمة واسعة.

قال رحمه الله: [وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله] قولهم: [افترض] أي: أوجب سبحانه وتعالى، [على جميع العباد] العباد هنا يندرج تحتها كل عباد الله عز وجل ممن وجه إليه الخطاب وكلف من الجن والإنس، افترض الله عز وجل على جميع عباده الكفر بالطاغوت والإيمان بالله.

---

(١) شرح العقيدة الواسطية لخالد المصلح خالد المصلح ٣/٢٤

وبدأ المؤلف رحمه الله بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله؛ لأن الله سبحانه وتعالى بدأ بهما في قوله جل وعلا: }لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله{ [البقرة:٢٥٦] ، فابتدأ بالكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله؛ لأن الكفر بالطاغوت هو تخلية القلب وتصفيته وتخليصه من كل شر، ويعقب ذلك التحلية بالإيمان بالله عز وجل، فلا يستقيم الإيمان بالله عز وجل إلا إذا صفا القلب وخلص من كل شائبة شرك وكفر، فإذا خلص ونقي فعند ذلك تفرغت طاقته وتوافرت همته على الإيمان بالله، وذلك أن القلب إذا شغل بغير الله عز وجل انشغل عنه، وهذا معنى ينبغي التنبه له، فإن من ملأ قلبه بهم الدنيا شغله ذلك عن هم الآخرة، ومن ملأ قلبه بهم الآخرة اشتغل بها عن غيرها، وأصبحت هي التي بين عينيه، وهي التي تقيمه وتقعده، فيجب على المؤمن أن يحرص على هذين المعنيين: الكفر بالطاغوت، وهو تخلية القلب من كل شائبة شرك دقيق أو جليل، ثم الإيمان بالله، وهو أن يعمر قلبه بكل ما يزينه ويجمله ويحقق عبوديته لله عز وجل، ويحقق فيه وصفي السلامة والإنابة، فالسلامة والإنابة عليهما علق الله عز وجل النجاة يوم القيامة، فمن جاء بقلب سليم ومن جاء بقلب منيب فقد حصل له فوز الدنيا والآخرة.." (١)

"الشخص ما لم يخالف الشيطان ويترك عبادة غيره تعالى لم يؤمن بالله كما قالوا إن التخلية مقدمة على التحلية.

(فقد استمسك بالعروة) هو في الأصل شد اليد وأصل المادة يدل على التعلق، ومنه عروته إذا ألمت به متعلقا به واعتراه الهم تعلق به (الوثقى) أي فقد فاز وتمسك بالحبل الوثيق المحكم، والوثقى فعلى من الوثاقة تأنيث الأوثق وجمعها وثق مثل الفضلى والفضل.

وقد اختلف المفسرون في تفسير العروة الوثقى بعد اتفاقهم على أن ذلك من باب التشبيه والتمثيل لما هو معلوم بالدليل بما هو مدرك بالحاسة فقيل المراد بالعروة الإيمان، وقيل الإسلام، وقيل لا إله إلا الله، وقيل من باب الاستعارة المفردة حيث استعير العروة الوثقى للاعتقاد الحق ولا مانع من الحمل على الجميع.

(لا انفصام لها) الانفصام الانكسار من غير بينونة، قال الجوهري: فصم الشيء كسره من غير أن يبين، وأما القصم بالقاف فهو الكسر مع البينونة، وفسر صاحب الكشاف الانفصام بالانقطاع.

والمعنى أن المتمسك بالدين كالمتمسك بالشيء الذي لا يمكن كسره ولا انقطاعه، والجملة مستأنفة أو

---

(١) شرح ثلاثة الأصول لخالد المصلح خالد المصلح ٦/٩

حالية (والله سميع عليم) يسمع قول من كفر بالطاغوت وأتى بالشهادتين، والجملة اعتراض تذييلي حامل على الإيمان رادع عن الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد.." (١)

"(وسارعوا إلى مغفرة من ربكم) أي بادروا وسابقوا إلى ما يوجب المغفرة من ربكم وهي الطاعات، قرىء سارعوا بغير واو وبالواو، قال أبو علي كلا الأمرين سائغ مستقيم والمسارعة المبادرة، قال ابن عباس: إلى الإسلام وعنه إلى التوبة، وقال علي بن أبي طالب إلى أداء الفرائض، وعن أنس بن مالك وسعيد بن جبير أنها التكبيرة الأولى، وقيل إلى الإخلاص في الأعمال.

وقيل إلى الهجرة، وقيل إلى الجهاد واللفظ مطلق فيعم الكل ولا وجه لتخصيص نوع دون نوع، وهذا وجه من قال إلى جميع الطاعات والأعمال الصالحات.

(وجنة) أي وسارعوا إلى جنة، وإنما فصل بين المغفرة والجنة لأن المغفرة هي إزالة العقاب والجنة هي حصول الثواب فجمع بينهما للإشعار بأنه لا بد للمكلف من تحصيل الأمرين، وتقديم المغفرة على الجنة كما أن **التخلية** متقدمة على **التحلية**.

(عرضها) أي عرض الجنة (السموات والأرض) يعني كعرضهما لأن نفس السموات والأرض ليس عرضا للجنة والمراد سعتها، وإنما خص العرض للمبالغة لأن الطول في العادة يكون أكثر من العرض يقول هذه صفة عرضها فكيف طولها، ومثله الآية الأخرى (عرضها كعرض السماء والأرض).

وقد اختلف في معنى ذلك فذهب الجمهور إلى أنها تقرن السموات بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها ببعض فذلك عرض الجنة، وقيل إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة دون الحقيقة وذلك أنها لما كانت الجنة من الإتساع والإنفساح في غاية قصوى، حسن التعبير." (٢)

"(واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب) وسماهم آباء جميعا لأن الأجداد آباء وقدم الجد الأعلى ثم الجد الأقرب ثم الأب لكون إبراهيم هو أصل هذه الملة التي كان عليها أولاده ثم تلقاها عنه إسحاق ثم يعقوب وإنما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه في الإيمان وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه لأن **التخلية** متقدمة على **التحلية**.

(ما كان) أي ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع (لنا) معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا (أن نشرك

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ١٠٠/٢

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٣١/٢

بالله من شيء) أي شيء كان من ملك أو جني أو إنسي فضلا أن نشرك به صنما لا يسمع ولا يبصر قال الواحدي: لفظة من زائدة مؤكدة كقولك ما جاءني من أحد.

(ذلك) أي الإيمان والتوحيد وعدم الإشراك والعلم الذي رزقنا (من فضل الله) أي ناشئ من تفضلاته (علينا) ولطفه بنا بما جعله لنا من النبوة المتضمنة للعصمة عن معاصيه)و) من فضل الله (على الناس) كافة ببعثه الأنبياء إليهم وهدايتهم إلى ربهم وتبين طرائق الحق لهم (ولكن أكثر الناس)." (١)

"(وأن اعبدوني) أن في الموضعين هي المفسرة للعهد، الذي فيه معنى القول، ويجوز أن تكون مصدرية فيهما أي: ألم أعهد إليكم بأن لا تعبدوا الشيطان وبأن اعبدوني، أو ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي؟ وتقديم النهي على الأمر لما أن حق **التخلية** التقديم على **التحلية** كما في كلمة التوحيد وليتصف به قوله:

(هذا) أي عبادة الله وتوحيده أو دين الإسلام (صراط مستقيم) بليغ في الاستقامة ولا صراط أقوم منه.." (٢)

"التبرج في القديم والحديث

قال الله تعالى: {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى} [الأحزاب:٣٣].

التبرج هو: إظهار النساء المحاسن، وخروجهن متبخترات، متعطرات، متكسرات في مشيتهن، فالله منعهن من ذلك، وحرم عليهن ذلك، وقال لهن: {ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى} [الأحزاب:٣٣].

وكما قال ابن عباس: (ما كانت جاهلية أولى حتى كانت جاهلية ثانية).

وقال قتادة بن دعامة السدوسي: (لا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى، والجاهلية الثانية ستأتي في آخر الزمان).

فما أصدق ابن عباس في فهمه وقد أوتي حسن التأويل، وما أصدق قتادة بن دعامة في فهمه كذلك لكتاب الله.

والجاهلية الأولى هي التي كانت قبل الإسلام، عندما كان النساء يخرجن متبرجات، متعطرات، مبرزات محاسنهن، متعرضات للرجال في ثياب هي إلى العري أقرب ويمشين في تكسر وميلان.

وهذه الجاهلية الأولى التي حرم الله على النساء أن يفعلنها عاد إليها النساء في زماننا هذا الفاسد، كما

---

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣٣٦/٦

(٢) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان ٣١١/١١

فسر ابن عباس وكما صرح قتادة بن دعامة، فلقد عادت النساء للخروج وهن متبرجات متكسرات متغنجات، مبرزات للمحاسن ساقا وفخذا وصدرا وظهرا وعنقا وخدا وشعورا، من غير خوف من الله ولا خشية من الناس، وهذا ما قد حرمه الله في كتابه على أمهات المؤمنين، وعلى غيرهن تبعا لهن، فالأمر للنساء عموما.
وقد روى مسلم في الصحيح، والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة وعن أبي سعيد الخدري قالا: قال عليه الصلاة والسلام: (صنفان من الناس لم أرهما بعد: نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، على رءوسهن كأسنمة البخت العجاف، يأتين أبواب المساجد على المياثر، لا يرحن ريح الجنة، وإن بينهن وبينها مائة عام، ورجال).
فقوله عليه الصلاة والسلام: (صنفان من الناس) أي: نوعان من الخلق أو فئتان: فئة من النساء لم يرهن بعد، وفئة من الرجال لم يرهم بعد، أي: لم يكونوا في عصره ولا زمانه، بل لم يكونوا بعد عصره بأكثر من ألف عام، إلى أن كانوا في عصرنا هذا، العصر اليهودي الفاسد الفاجر.
فقد وصف صلى الله عليه وسلم النساء بأنهن كاسيات عاريات، يلبسن ألبسة هي إلى العري أقرب، تظهر منها جميع محاسنهن، من ظهور وصدور وشعور وسوق، وتكاد تكون عارية، مع التكسر والتبختر والتعطر، وعرض أنفسهن على الرجال، فهؤلاء يخرجن في الشوارع وهن إلى العري أقرب، يلبسن على رءوسهن برانيط وقبعات، ويضعنها تارة على اليسار وتارة على اليمين، يملن على رءوسهن كأسنمة البخت العجاف.
أسنمة: جمع سنام، كما يكون عادة سنام الجمال الهزيلة المائلة يمينا وشمالا، وهي عادة ذات سنامين، يأتين على هذه الحالة إلى أبواب المساجد، مما يدل أنهن في الأصل محرمات.
يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهن: (لا يرحن ريح الجنة) أي: لا يشممن لها ريحا، مع أن ريحها يشم من مسيرة مائة سنة، فإذا كانت المرأة على هذه الحالة لم تقبل لها صلاة، ولا يقبل لها صيام، ولا يقبل لها حج ولا عبادة، ما لم تتخل عن هذه الفواحش والبلايا والمصائب، وقديما قالت الحكمة: **التخلية** مقدمة على **التحلية**.
فبدل أن تذهب المرأة وتزف لزوجها وقد تعطرت ولبست الحلي والحلل، تذهب لتغسل بدنها وتتنظف، ثم بعد ذلك تزف.

وهكذا المؤمنة قبل أن تذهب للطاعة من صلاة وحج وصيام فلتتطهر من الأرجاس والأدناس والعري والتبرج، وما لا يليق بالمسلمات.." (١)

"تفسير قوله تعالى: (هو الذي يريكم آياته)

قال تعالى: {هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب} [غافر:١٣].

فالله جل جلاله هو الذي يرينا آياته، وعلامات قدرته ووحدانيته، ومعجزات أنبيائه، وكتبه، فقد أراناها في زمن الحياة النبوية وبعدها؛ وقرأناها في السماء وفي الأرض، وفي كل عصر من العصور، ومن المعجزات التي نعيشها: القرآن الكريم الذي قال الله فيه: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر:٩]، وقد نزلت هذه والصحابة متوافرون، وبعد أكثر من ١٤٠٠ عام إذا بكتاب الله كما يخبر الله عنه لم يبدل، ولم يؤول، ولم تبدل ولم تنقص منه كلمة، ولم تنقص منه حركة، وكأنه نزل ساعة نهاره غضا طريا كما أنزل، فنحن نتلوه ونقرؤه كما كان يتلوه المصطفى صلى الله عليه وسلم في محاريب البيت الحرام ومسجده النبوي.

وهذه أكبر المعجزات وأكبر الدلالات التي شاهدناها وعشناها، ولقد أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أنه معجزته الخالدة الثابتة السرمدية.

وقد يقول قائل: لم لم يحفظ الزبور وهو كلام الله والتوراة والإنجيل كذلك، فقد بدلت جميعها وغيرت وحرفت عن مواضعها؟

و A أن من أنزل عليهم من بني إسرائيل استحفظوا على كتاب الله، فطولبوا بحفظه وبصيانته وبالقوام عليه فتعززوا عن ذلك، ولكن القرآن الكريم لم يكل الله حفظه إلى أحد من الخلق، فقال: {إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون} [الحجر:٩].

والذكر يشمل القرآن والسنة والفقه، ولغة العرب؛ لأن في ذلك كله من القرآن، فالقرآن نزل بلغة العرب، والسنة مبينة شارحة، والفقه خلاصة ذلك، واللغة الأداة للفهم وللدرس والمدارسة، فحفظ الله كل ذلك، وسيبقى قائما على دين الله، وعلى كتاب الله، وعلى سنة نبيه عليه الصلاة والسلام من يحفظها من التحريف إلى يوم القيامة، كما يخبر المصطفى عليه الصلاة والسلام في الحديث المتواتر:)لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم وهم على ذلك إلى يوم القيامة)، فمهما كفر الكافرون، ونافق المنافقون، فلابد وأن تبقى حجج الله في الأرض؛ لتخبر بصدق وببيان القرآن، وسلامته من النقصان.

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٢٠٢/٥

((هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا)) أي: يغذي عقولكم بالعلم والمعرفة، ويغذي أجسادكم بالطعام والشراب.

ونزول الرزق من السماء: هو نزول المطر والغيث، ونزول الرحمة من ربنا، فهو أنزل ذلك غذاء لقلوبنا وأجسامنا، وأرانا آياته في الأرض غذاء لعقولنا، وغذاء لأرواحنا جل جلاله، فهو الكريم الجواد المتعال.

قال تعالى: ((وما يتذكر إلا من ينيب)) أي: لا يتذكر هذه المعاني، ولا يدركها ويعيها ولا يعطيها فكره وعقله ووعيه إلا من ينيب إلى الله ويعود ويرجع إليه، ومن تطهر من الشرك ومن درنه وأوساخه ومن المعاصي وقاذوراتها، ومن نظف ظاهره ونظف باطنه لتلقي الحقائق والعلوم والمعارف، ولتلقي وحي الله في كتابه الكريم، ومن بيان نبيه في سنته، عليه أزكى الصلاة والسلام.

((وما يتذكر إلا من ينيب)) أي: إلا من أناب وعاد إلى الله، واستغفر من شركه، وأما وهو مادام على شركه فنيته قذرة وسخة لا تقبل النور، وكما تقول الحكمة: **التخلية** قبل **التحلية**.

والعروس عندما نريد زفافها لعريسها ندخلها الحمام أولاً، فتطهر بدنها، وتنظف جسدها، وتلبس جديدا من الثياب، وتلبس الحلي والحلل، أما وهي على أوساخ المطبخ وأوساخ الدار وروائح البصل والثوم ونقوم نلبسها الحرير والديباج! فليس هذا عمل العقلاء.

فالمؤمن إذا أراد الفهم والوعي والإدراك وإنارة بصيرته فعليه أن يتخلى عن أوساخ ذنوبه، وقاذورات المعاصي، فيستغفر الله ويتوب إليه، ويندم على ما فات منه، ويقرع قلبه وصدره ووعيه وفهمه لتلقي فهم كتاب الله وفهم رسوله.

وأما إذا أراد أن يتذكر وهو على المعاصي، وهو على فساده وقاذوراته وأوساخه فهيهات هيهات، فلابد أولا من التخلي عن القاذورات والأوساخ؛ ليتحلى بالطاعات، وليتحلى بالرضا والعلم ومدارسته.." (١)

"ثمنا قليلا وإياي فاتقون} [البقرة:٤١]

{وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم}

شروع في دعوة بني إسرائيل إلى الإسلام وهدى القرآن وهذا هو المقصود من خطابهم ولكن قدم بين يديه ما يهيئ نفوسهم إلى قبوله كما تتقدم المقدمة على الغرض، **والتخلية** على **التحلية**.

والإيمان بالكتاب المنزل من عند الله أو يكتب الله وإن كان من جملة ما شمله العهد المشار إليه بقوله:

---

(١) تفسير المنتصر الكتاني، الكتاني، محمد المنتصر ٦/٢٨٣

{وأوفوا بعهدي} [البقرة: من الآية٤٠] إلا أنه لم يلتفت إليه هنا من تلك الجهة لأنهم عاهدوا الله على أشياء كثيرة كما تقدم ومن جملتها الإيمان بالرسل والكتب التي تأتي بعد موسى عليه السلام إلا إن ذلك مجمل في العهد فلا يتعين أن يكون ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو مما عاهدوا الله عليه بل حتى يصدقوا بأنه من عند الله وأن الجائي به رسول من الله فهم مدعوون إلى ذلك التصديق هنا. فعطف قوله: {وآمنوا} على قوله: {وإياي فارهبون} . كعطف المقصد على المقدمة، وعطفه على قوله: {وأوفوا بعهدي} من قبيل عطف الخاص على العام في المعنى ولكن هذا من عطف الجمل فلا يقال فيه عطف خاص على عام لأنه إنما يكون في عطف الجزئي عاى الكلي من المفردات لا في عطف الجمل وإنما أردنا تقريب موقع الجملة وتوجيه إيرادها موصولة غير مفصولة.

وفي تعليق الأمر باسم الموصول وهو ما أنزلت دون غيره من الأسماء نحو الكتاب أو القرآن أو هذا الكتاب إيماء إلى تعليل الأمر بالإيمان به وهو أنه منزل من الله وهم قد أوصوا بالإيمان بكل كتاب يثبت أنه منزل من الله. ولهذا أتى بالحال التي هي علة الصلة إذ جعل كونه مصدقا لما في التوراة علامة على أنه من عند الله. وهي العلامة الدينية المناسبة لأهل العلم من أهل الكتاب فكما جعل الإعجاز اللفظي علامة على كون القرآن من عند الله لآهل الفصاحة والبلاغة من العرب كما أشير إليه بقوله: {الم ذلك الكتاب} [البقرة: ٢] إلى قوله {فأتوا بسورة من مثله} [البقرة: من الآية٢٣]؛ كذلك جعل الإعجاز المعنوي وهو اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلهية علامة على أنه من عنده لأهل الدين والعلم بالشرائع. ثم الإيمان بالقرآن يستلزم الإيمان بالذي جاء به وبالذي أنزله.

والمراد بما معهم كتب التوراة الأربعة وما ألحق بها من كتب الأنبياء من بني." (١)

"واستغفر لنا، فقال لهم: لم أؤمر بأن آخذ من أموالكم. حتى نزلت هذه الآية فأخذ منهم النبي صلى الله عليه وسلم صدقاتهم، فالضمير عائد على آخرين اعترفوا بذنوبهم.

والتاء في {تطهرهم} تحتمل أن تكون تاء الخطاب نظرا لقوله: {خذ} ، وأن تكون تاء الغائبة عائدة إلى الصدقة.

وأياما كان فالآية دالة على أن الصدقة تطهر وتزكي.

والتزكية: جعل الشيء زكيا، أي كثير الخيرات. فقوله: {تطهرهم} إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات.

---

(١) التحرير والتنوير، ١/٤٤٣

وقوله: {تزكيهم} إشارة إلى مقام **التحلية** بالفضائل والحسنات. ولا جرم أن **التخلية** مقدمة على **التحلية**.
فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم.
والصلاة عليهم: الدعاء لهم. وتقدم آنفا عند قوله تعالى: {وصلوات الرسول} [التوبة:٩٩]. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية إذا جاءه أحد بصدقته يقول: اللهم صل على آل فلان. كما ورد في حديث عبد الله بن أبي أوفى يجمع النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه في هذا الشأن بين معنى الصلاة وبين لفظها فكان يسأل من الله تعالى أن يصلي على المتصدق. والصلاة من الله الرحمة، ومن النبي الدعاء.
وجملة: {إن صلاتك سكن لهم} تعليل للأمر بالصلاة عليهم بأن دعاءه سكن لهم، أي بسبب سكن لهم، أي خير. فإطلاق السكن على هذا الدعاء مجاز مرسل.
والسكن: بفتحتين ما يسكن إليه، أي يطمأن إليه ويرتاح به. وهو مشتق من السكون بالمعنى المجازي، وهو سكون النفس، أي سلامتها من الخوف ونحوه، لأن الخوف يوجب كثرة الحذر واضطراب الرأي فتكون النفس كأنها غير مستقرة، ولذلك سمي ذلك قلقا لأن القلق كثرة التحرك. وقال تعالى: {وجعل الليل سكنا} [الأنعام:٩٦] وقال: {والله جعل لكم من بيوتكم سكنا} [النحل:٨٠]، ومن أسماء الزوجة السكن، أو لأن دعاءه لهم يزيد نفوسهم صلاحا وسكونا إلى الصالحات لأن المعصية تردد واضطراب، كما قال تعالى: {فهم في ريبهم يترددون} [التوبة:٤٥]، والطاعة اطمئنان ويقين، كما قال تعالى: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب} [الرعد:٢٨].
وجملة: {والله سميع عليم} تذييل مناسب للأمر بالدعاء لهم. والمراد بالسميع هنا المجيب للدعاء. وذكره للإشارة إلى قبول دعاء النبي صلى الله عليه وسلم. ففيه إيماء إلى التنويه بدعائه. وذكر العليم إيماء إلى أنه ما أمره بالدعاء لهم إلا لأن في دعائه لهم خيرا عظيما وصلاحا." (١)
"في الحديث الصحيح "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" ، ولذلك جزم العلماء بأن الفقه أفضل العلوم.
وقد ضبط العلماء حقيقة الفقه بأنه العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية بالاجتهاد.
والإنذار: الإخبار بما يتوقع منه شر. والمراد هنا الإنذار من المهلكات في الآخرة. ومنه النذير. وتقدم في

---

(١) التحرير والتنوير، ١٠/١٩٦

قوله تعالى: {إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا} في سورة البقرة[١١٩]. فالإنذار هو الموعظة، وإنما اقتصر عليه لأنه أهم، لأن **التخلية** مقدمة على **التحلية**، ولأنه ما من إرشاد إلى الخير إلا وهو يشتمل على إنذار من ضده. ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ وذلك بأداء العالم بث علوم الدين للمتعلمين.

وحذف مفعول {يحذرون} للتعميم، أي يحذرون ما يحذر، وهو فعل المحرمات وترك الواجبات. واقتصر على الحذر دون العمل للإنذار لأن مقتضى الإنذار التحذير، وقد علمت أنه يفيد الأمرين.

[١٢٣] {يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين}
.

كان جميع بلاد العرب خلص للإسلام قبل حجة الوداع، فكانت تخوم بلاد الإسلام مجاورة لبلاد الشام مقر نصارى العرب، وكانوا تحت حكم الروم، فكانت غزوة تبوك أول غزوة للإسلام تجاوزت بلاد العرب إلى مشارف الشام ولم يكن فيها قتال ولكن وضعت الجزية على أيلة وبصري، وكانت تلك الغزوة إرهابا للنصارى، ونزلت سورة براءة عقبها فكانت هذه الآية كالوصية بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام بحيث كلما استقر بلد للإسلام وكان تجاوره بلاد كفر كان حقا على المسلمين غزو البلاد المجاورة. ولذلك ابتدأ الخلفاء بفتح الشام ثم العراق ثم فارس ثم انثنوا إلى مصر ثم إلى إفريقية ثم الأندلس. فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا تكملة للأمر بما يتعين على المسلمين في ذيول غزوة تبوك.." (١)

"ثم إن كان قول نوح – عليه السلام –: {إن ابني من أهلي} إلى آخره تعريضا بالمسؤول كان النهي في قوله: {فلا تسألن ما ليس لك به علم} نهيا عن الإلحاح أو العود إلى سؤاله؛ وإن كان قول نوح – عليه السلام – مجرد تمهيد للسؤال لاختبار حال إقبال الله على سؤاله كان قوله تعالى: {فلا تسألن} نهيا عن الإفضاء بالسؤال الذي مهد له بكلامه. والمقصود من النهي تنزيهه عن تعريض سؤاله للرد.

وعلى كل الوجوه فقوله: {إني أعظك أن تكون من الجاهلين} موعظة على ترك التثبت قبل الإقدام.

والجهل فيه ضد العلم، وهو المناسب لمقابلته بقوله: {ما ليس لك به علم} .

فأجاب نوح عليه السلام كلام ربه بما يدل على التنصل مما سأل فاستعاذ أن يسأل ما ليس له به علم، فإن كان نوح – عليه السلام – أراد بكلامه الأول التعريض بالسؤال فهو أمر قد وقع فالاستعاذة تتعلق بتبعة

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٣٠/١٠

ذلك أو بالعود إلى مثله في المستقبل؛ وإن كان إنما أراد التمهيد للسؤال فالاستعاذة ظاهرة، أي الانكفاف عن الإفضاء بالسؤال.

وقوله: {وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين} طلب المغفرة ابتداء لأن **التخلية** مقدمة على **التحلية** ثم أعقبها بطلب الرحمة لأنه إذا كان بمحل الرضى من الله كان أهلا للرحمة.

وقد سلك المفسرون في تفسيرهم هذه الآيات مسلك كون سؤال نوح عليه السلام سؤالا لإنجاء ابنه من الغرق فاعترضتهم سبل وعرة متنائية، ولقوا عناء في الاتصال بينها، والآية بمعزل عنها، ولعلنا سلكنا الجادة في تفسيرها.

[٤٨] {قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم} .

فصلت الجملة ولم تعطف لوقوعها في سياق المحاورة بين نوح – عليه السلام – وربه، فإن نوحا عليه السلام لما أجاب بقوله: {رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم} [هود: ٤٧] إلى آخره خاطبه ربه إتماما للمحاورة بما يسكن جأشه.

وكان مقتضى الظاهر أن يقول: قال يا نوح اهبط، ولكنه عدل عنه إلى بناء الفعل للنائب ليجيء على وتيرة حكاية أجزاء القصة المتقدمة من قوله: {وقيل يا أرض." (١)

"ملبس وكلاهما يلقي في طريق المصلحين شوك الشبه بقصد أو بغير قصد. فسبيل تقويمه هو المجادلة، فتلك أدنى لإقناعه وكشف قناعه.

في "الموطأ" أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – قال في خطبة خطبها في آخر عمره: "أيها الناس قد سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة، إلا أن تضلوا بالناس يمينا وشمالا" وضرب بإحدى يديه على الأخرى. "لعله ضرب بيده اليسرى على يده اليمنى الممسكة السيف أو العصا في حال الخطبة". وهذا الضرب علامة على أنه ليس وراء ما ذكر مطلب للناس في حكم لم يسبق له بيان في الشريعة.

وقدم ذكر علمه {بمن ضل عن سبيله} على ذكر علمه {بالمهتدين} لأن المقام تعريض بالوعيد للضالين ولأن **التخلية** مقدمة على **التحلية**، فالوعيد مقدم على الوعد.

---

(١) التحرير والتنوير، ١١/٢٧٢

[١٢٦] {وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين} .
عطف على جملة {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة} [النحل: ١٢٥]، أي إن كان المقام مقام الدعوة فلتكن دعوتك إياهم كما وصفنا، وإن كنتم أيها المؤمنون معاقبين المشركين على ما نالكم من أذاهم فعاقبوهم بالعدل لا بتجاوز حد ما لقيتم منهم.
فهذه الآية متصلة بما قبلها أتم اتصال، وحسبك وجود العاطف فيها. وهذا تدرج في رتب المعاملة من معاملة الذين يدعون ويوعظون إلى معاملة الذين يجادلون ثم إلى معاملة الذين يجازون على أفعالهم. وبذلك حصل حسن الترتيب في أسلوب الكلام.
وهذا مختار النحاس وابن عطية وفخر الدين، وبذلك يترجح كون هذه الآية مكية مع سوابقها ابتداء من الآية الحادية والأربعين، وهو قول جابر بن زيد، كما تقدم في أول السورة. واختار ابن عطية أن هذه الآية مكية.
ويجوز أن تكون نزلت في قصة التمثيل بحمزة يوم أحد، وهو مروي بحديث ضعيف للطبراني. ولعله اشتبه على الرواة تذكر النبي صلى الله عليه وسلم الآية حين توعد المشركين بأن يمثل بسبعين منهم إن أظفره الله بهم.
والخطاب للمؤمنين ويدخل فيه النبي صلى الله عليه وسلم.
والمعاقبة: الجزاء على فعل السوء بما يسوء فاعل السوء.." (١)
"كقوله تعلى {فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا} .
وذكر وصف الرب دون الاسم العلم للإشارة إلى استحقاقه السير إليه لأن العبد محقوق بأن يرجع إلى ربه وإلا كان آبقا.
[٥٨] {وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به بذنوب عباده خبيرا} .
عطف على جملة {قل ما أسألكم عليه من أجر} [الفرقان: ٥٧] أي قل لهم ذلك وتوكل على الله في دعوتك إلى الدين فهو الذي يجازيك على ذلك ويجازيهم.
والتوكل: الاعتماد وإسلام الأمور إلى المتوكل عليه وهو الوكيل، أي المتولي مهمات غيره، وقد تقدم في قوله {فإذا عزمت فتوكل على الله} في [آل عمران: ١٥٩].

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٦٩/١٣

و {الحي الذي لا يموت} هو الله تعالى. وعدل عن اسم الجلالة إلى هذين الوصفين لما يؤذن به من تعليل الأمر بالتوكل عليه لأنه الدائم فيفيد ذلك معنى حصر التوكل في الكون عليه، فالتعريف في {الحي} للكامل، أي الكامل حياته لأنها واجبة باقية مستمرة وحياة غيره معرضة للزوال بالموت ومعرضة لاختلال أثرها بالذهول كالنوم ونحوه فإنه من جنس الموت، فالتوكل على غيره معرض للاختلال وللانخرام. وفي ذكر الوصفين تعريض بالمشركين إذ ناطوا آمالهم بالأصنام وهي أموات غير أحياء.

وفي الآية إشارة إلى أن المرء الكامل لا يثق إلا بالله لأن التوكل على الأحياء المعرضين للموت وإن كان قد يفيد أحيانا لكنه لا يدوم.

وأما أمره بالتسبيح فهو تنزيه الله عما لا يليق به وأول ذلك الشركة في الإلهية أي إذا أهمك أمر إعراض المشركين عن دعوة الإسلام فعليك نفسك فنزه الله.

والباء في {بحمده} للمصاحبة، أي سبحه تسبيحا مصاحبا للثناء عليه بما هو أهله. فقد جمع له في هذا الأمر التخلية والتحلية مقدما التخلية لأن شأن الإصلاح أن يبدأ بإزالة النقص.

وأمر النبي صلى الله عليه وسلم يشمل الأمة ما لم دليل على الخصوصية.

وجملة {وكفى به بذنوب عباده خبيرا} اعتراض في آخر الكلام، فيفيد معنى التذييل." (١)

"والجاهلية نسبة إلى الجاهل لأن الناس الذين عاشوا فيها كانوا جاهلين بالله وبالشرائع، وقد تقدم عند قوله تعالى: {يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية} في سورة آل عمران [١٥٤].

ووصفها بـ{الأولى} وصف كاشف لأنها أولى قبل الإسلام وجاء الإسلام بعدها فهو كقوله تعالى: {وأنه أهلك عادا الأولى} [النجم: ٥٠]، وكقولهم: العشاء الآخرة، وليس ثمة جاهليتان أولى وثانية. ومن المفسرين من جعلوا وصفوا مقيدا وجعلوا الجاهلية جاهلتين فمنهم من قال: الأولى هي ما قبل الإسلام وستكون جاهلية أخرى بعد الإسلام يعني حين ترتفع أحكام الإسلام والعياذ بالله. ومنهم من قال: الجاهلية الأولى هي القديمة من عهد ما قبل إبراهيم ولم يكن للنساء وازع ولا لرجال، ووضعوا حكايات في ذلك مخلفة أو مبالغا فيها أو في عمومها، وكل ذلك تكلف دعاهم إليه حمل الوصف على قصد التقييد.

{وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله} .

أريد بهذه الأوامر الدوام عليها لأنهن متلبسات بمضمونها من قبل، وليعلم الناس أن المقربين والصالحين لا

---

(١) التحرير والتنوير، ١٩/٨٠

ترتفع درجاتهم عند الله تعالى عن حق توجه التكليف عليهم. وفي هذا مقمع لبعض المتصوفين الزاعمين أن الأولياء إذا بلغوا المراتب العليا من الولاية سقطت عنهم تكاليف الشرعية.

وخص الصلاة والزكاة بالأمر ثم جاء المر عاما بالطاعة لأن هاتين الطاعتين البدنية والمالية هما أصل سائر الطاعات فمن اعتنى بهما حق العناية جرتاه إلى ما وراءهما، قال تعالى {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} وقد بيناه في سورة العنكبوت [٤٥].

{إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا} .

متصل بما قبله إذ هو تعليل لما تضمنته الآيات السابقة من أمر ونهي ابتداء من قوله تعالى: {يا نساء النبيء من يأت منكن} [الأحزاب: ٣٠] الآية. فإن موقع {إنما} يفيد ربط ما بعدها بما قبلها لأن حرف "إن" جزءا من {إنما} وحرف "إن" من شأنه أن يغني غناء فاء التسبب كما ينه الشيخ عبد القاهر، فالمعنى أمركن الله بما أمر ونهاكن عما نهى لأنه أراد لكن **تخلية** عن النقائص **والتحلية** بالكمالات. وهذا التعليل وقع معترضا بين الأوامر والنواهي المتعاطفة.." (١)

"ما سيخاطبهم به هو محض نصيحة لأنه يحب لقومه ما يحب لنفسه.

والاتباع: الامتثال، استعير له الاتباع تشبيها للآخذ برأي غيره بالمتبع له في سيره.

والتعريف في {المرسلين} للعهد.

وجملة {اتبعوا من لا يسألكم أجرا} مؤكدة لجملة {اتبعوا المرسلين} مع زيادة الإيماء إلى علة اتباعهم بلوائح علامات الصدق والنصح على رسالتهم إذ هم يدعون إلى هدى ولا نفع ينجر لهم من ذلك فتمحضت دعوتهم لقصد هداية المرسل إليهم، وهذه كلمة حكمة جامعة، أي اتبعوا من لا تخسرون معهم شيئا من ديناكم وتربحون صحة دينكم.

وإنما قدم في الصلة عدم سؤال الأجر على الاهتداء لأن القوم كانوا في شك من صدق المرسلين وكان من دواعي تكذيبهم اتهامهم بأنهم يجرون لأنفسهم نفعا من ذلك لأن القوم لما غلب عليهم التعلق بحب المال وصاروا بعداء عن إدراك المقاصد السامية كانوا يعدون كل سعي يلوح على امرئ إنما يسعى به إلى نفعه. فقدم ما يزيل عنهم هذه الاسترابة ولتيهيوا إلى التأمل فيما يدعونهم إليه، ولأن هذا من قبيل **التخلية** بالنسبة للمرسلين والمرسل إليهم، **والتخلية** تقدم على **التحلية**، فكانت جملة {لا يسألكم أجرا} أهم في صلة

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٤٥/٢١

الموصول.

والأجر يصدق بكل نفع دنيوي يحصل لأحد من عمله فيشمل المال والجاه والرئاسة. فلما نفي عنهم أن يسألوا أجرا فقد نفي عنهم أن يكونوا يرمون من دعوتهم إلى نفع دنيوي يحصل لهم.

وبعد ذلك تهيأ الموقع لجملة {وهم مهتدون} ، أي وهم متصفون بالاهتداء إلى ما يأتي بالسعادة الأبدية، وهم إنما يدعونكم إلى أن تسيروا سيرتهم فإذا كانوا هم مهتدين فإن ما يدعونكم إليه من الاقتداء بهم دعوة إلى الهدى، فتضمنت هذه الجملة بموقعها بعد التي قبلها ثناء على المرسلين وعلى ما يدعون إليه وترغيبا في متابعتهم.

واعلم أن هذه الآية قد مثل بها القزويني في "الإيضاح" و"التلخيص" للإطناب المسمى بالإيغال وهو أن يؤتي بعد تمام المعنى المقصود بكلام آخر يتم المعنى بدونه لنكتة، وقد تبين لك مما فسرنا به أن قوله: {وهم مهتدون} لم يكن مجرد زيادة بل كان لتوقف الموعظة عليها، وكان قوله: {من لا يسألكم أجرا} كالتوطئة له. ونعتذر لصاحب "التلخيص" بأن المثال يكفي فيه الفرض والتقدير.." (١)

"لما كان شأن الصلاح أن يكون مرضيا عند الله تعالى وشأن ضده بعكس ذلك كما قال تعالى: {والله لا يحب الفساد} [البقرة:٢٠٥] أعقبوا لتعريض الإقلاع عن ضد الصلاح بما يقتضي أن الله قد أعد لغير الصالحين عقابا فأيقنوا أن عقاب الله لا يفلت من أحد استحقه. وقدموه على الأمر بالإيمان الذي في قوله: {وأنا لما سمعنا الهدى} [الجن:١٣] الآية، لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح والتخلية مقدمة على التحلية، وقد استفادوا علم ذلك مما سمعوا من القرآن ولم يكونوا يعلمون ذلك من قبل إذ يكونوا مخاطبين بتعليم في أصول العقائد، فلما ألهمهم الله لاستماع القرآن وعلموا أصول العقائد حذروا إخوانهم اعتقادا الشرك ووصف الله بما يليق به لأن الاعتقاد الباطل لا يقره الإدراك المستقيم بعد تنبيهه لبطلانه، وقد جعل الله هذا النفر من الجن نذيرا لإخوانهم ومرشدا إلى الحق الذي أرشدهم إليه القرآن، وهذا لا يقتضي أن الجن مكلفون بشرائع الإسلام.

وأما قوله تعالى: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها} [الأعراف:١٧٩] الآية فقد أشار إلى أن عقابهم على الكفر والإشراك، أو أريد بالجن الشياطين فإن الشياطين من جنس الجن.

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١٤/٢٢

والإعجاز: جعل الغير عاجزا، أي غير قادر عن أمر بذكر مع ما يدل على العجز وهو هنا كناية عن الإفلات والنجاة كقول إياس بن قبيصة الطائي:

ألم تر أن الأرض رحب فسيحة ... فهل تعجزني بقعة من بقاعها

أي لا تفوتني ولا تخرج عن مكنتي.

وذكر {في الأرض} يؤذن بأن المراد بالهرب في قوله: {ولن نعجزه هربا} الهرب من الرجم بالشهب، أي لا تطمعوا أن تسترقوا السمع فإن رجم الشهب في السماء لا يخطئكم، فابتدأوا الإنذار من عذاب الدنيا استنزالا لقومهم.

ويجوز أن يكون {نعجز} الأول بمعنى مغالب كقوله تعالى: {فما هم بمعجزين} [النحل:٤٦] أي لا يغلبون قدرتنا، ويكون {في الأرض} مقصودا بـه تعميم الأمكنة كقوله تعالى: {وما أنتم بمعجزين في الأرض} [العنكبوت:٢٢]، أي في مكان كنتم. والمراد: أنا لا نغلب الله بالقوة. ويكون {نعجز} الثاني، بمعنى الإفلات ولذلك بين ب {هربا} ، والهرب مجاز في الانفلات مما أراد الله إلحاقه بهم من الرجم والاحتراق.." (١)

"ففعل {قم} منزل منزلة اللازم، وتفريع {فأنذر} عليه يبين المراد من الأمر بالقيام.

والمعنى: يا أيها المدثر من الرعب لرؤية ملك الوحي لا تخف وأقبل على الإنذار.

والظاهر: أن هذه الآية أول ما نزل في الأمر بالدعوة لأن سورة العلق لم تتضمن أمرا بالدعوة. وصدر سورة المزمل تضمن أنه مسبوق بالدعوة لقوله فيه: {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم} [المزمل:١٥]، وقوله: {وذرني والمكذبين} [المزمل:١١]. وإنما كان تكذيبهم بعد أن أبلغهم أنه رسول من الله إليهم وابتدئ بالأمر بالإنذار لأن الإنذار يجمع معاني التحذير من فعل شيء لا يليق وعواقبه فالإنذار حقيق بالتقديم قبل الأمر بمحامد الفعال لأن التخلية مقدمة على التحلية ودرء المفاسد مقدم جلب المصالح، ولأن غالب أحوال الناس يومئذ محتاجة إلى الإنذار والتحذير.

ومفعول {أنذر} محذوف لإفادة العموم، أي أنذر الناس كلهم وهم يومئذ جميع الناس ما عدا خديجة رضي الله عنها فإنها آمنت فهي جديرة بالبشارة.

[٣] {وربك فكبر} .

---

(١) التحرير والتنوير، ٢١٧/٢٩

انتصب {ربك} على المفعولية لفعل {كبر} قدم على عامله إفادة الاختصاص، أي لا تكبر غيره، وهو قصر إفراد، أي دون الأصنام.

والواو عطفت جملة {ربك فكبر} على جملة {قم فأنذر} [المدثر:٢].

ودخلت الفاء على "كبر" إيذانا بشرط محذوف يكون "كبر" جوابه، وهو شرط عام إذ لا دليل على شرط مخصوص وهيئ لتقدير الشرط بتقدم المفعول. لأن تقديم المعمول قد ينزل منزلة الشرط كقول النبي صلى الله عليه وسلم "ففيهما فجاهد" "يعني الأبوين".

فالتقدير: مهما يكن شيء فكبر ربك.

والمعنى: أن لا يفتر عن الإعلان بتعظيم الله وتوحيده في كل زمان وكل حال وهذا من الإيجاز. وجوز ابن جني أن تكون الفاء زائدة قال: هو كقولك زيدا فاضرب، تريد: زيدا اضرب.

وتكبير الرب تعظيمه ففعل "كبر" يفيد معنى نسبة مفعوله إلى أصل مادة اشتقاقه وذلك من معاني صيغة فعل، أي أخبر عنه بخبر التعظيم، وهو تكبير مجازي بتشبيه الشيء المعظم بشيء كبير في نوعه بجامع الفضل على غيره في صفات مثله.." (١)

" صفحة رقم ٦٢٤

الروم : (٣١ - ٣٥) منيبين إليه واتقوه. .. . .

) منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذآ أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون ليكفروا بمآ آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون (( )

ولما كان من الناس من من الله عليه بأن كان في هذا الميدان ، وسمت همته إلى مسابقة الفرسانن فلماراى أنه لم يلتفت إليه ، ولم يعول اصلا عليه ، كادت نفسه تطير وكانت عادة القوم أن يخاطبوا القوم لمخاطبة رئيسهم تعظيما له وحثا لهم على التحلي بما خص به ، جبرت قلوبهم وشرحت صدورهم فبينت لهم حال من ضمير (أقم) أو من العامل في (فطرت) إعلاما بأنهم مرادون بالخطاب ، مشار غليهم بالصواب ، فقال : (منيبين) أي راجعين مرة بعد مرة بعد بمجاذبة النفس والفطرة الأولى) إليه (تعالى بالنزوع عما اكتسبتموه من رديء الأخلاق إلى تلك الفطرة السليمة المنقادة للدليل ، الميالة إلى سواء السبيل .

---

(١) التحرير والتنوير، ٢٧٥/٢٩

ولما كان لم يكن بعد الرجوع إلى المحبة إلا الأمر بلزومها خوفا من الزيغ عنها دأب المرة الأولى .

قال عاطفا على) فأقم (: (واتقوه) أي خافوا أن تزيغوا عن سبيله يسلمكم في أيدي أولئك المضلين ، فإذا خفتموه فلزمتموه كنتم ممن تخلى عن الرذائل) واقيموا الصلاة (تصيروا ممن تحلى بالفضائل – هكذا داب الدين ابدا **تخلية** ثم **تحلية** : أول الدخول إلى الإسلام التنزيه ، وأول الدخول في القرآن الاستعاذة ، وهو أمر ظاهر معقول ، مثاله من اراد أن يكتب في شيء إن مسح ما فيه من الكتابة انتفع بما كتب ، وإلا افسد الأول ولم يقرأ الثاني – والله الموفق .

ولما كان الشرك من الشر بمكان ليس هو لغيره ، أكد النهي عنه بقوله : (ولا تكونوا (ممن يدخل في عدادهم بمواددة أو معاشرة أو عمل تشابهونهم فيه فإنه (من تشبه بقوم فهو منهم) وهو عام في كل شرك سواء كان بعبادة صنم أو نار أوغيرهما ، أو بالتدين بما يخالف النصوص من أقوال الأحبا والرهبان وغير ذلك .

ولما كانوا يظنون أنهم على صواب ، نصب لهم دليلا على بطلانه بما لا أوضح." (١)

" صفحة رقم ١٠٢

ولما نهاهن عن الاسترسال مع سجية النساء في رخامة الصوت ، أمرهن بضده فقال : (وقلن قولا معروفا) أي يعرف أنه بعيد عن محل الطمع .

ولما تقدم إليهن في القول وقدمه لعمومه ، أتبعه الفعل فقال : (وقرن) أي اسكن وامكثن دائما) في بيوتكن (فمن كسر القاف وهو غير المدنيين وعاصم جعل الماضي قرر بفتح العين ، ومن فتحه عنده قرر بكسرها ، وهما لغتان .

ولما أمرهن بالقرار ، نهاهن عن ضده مبشعا له ، فقال : (ولا تبرجن) أي تظاهرن من البيوت بغير حاجة محوجة ، فهو من وادي أمر النبي (صلى الله عليه وسلم) لهن بعد حجة الوداع بلزوم ظهور الحصر) تبرج الجاهلية الأولى) أي المتقدمة على الإسلام وعلى ما قبل الأمر بالحجاب ، بالخروج من بيت والدخول في آخر ، والأولى لا تقتضي أخرى كما ذكره البغوي ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنها ما بين نوح وإدريس عليهما السلام ، تبرج فيها نساء السهول – وكن صباحا وفي رجالهن دمامة – لرجال الجبال وكانوا صباحا وفي نسائهن دمامة ، فكثر الفساد ، وعلى هذا فلها ثانية .

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٥/٦٢٤

ولما أمرهن بلزوم البيوت للتخلية عن الشوائب ، أرشدهن إلى التحلية بالرغائب ، فقال : (وأقمن الصلاة) أي فرضا ونفلا ، صلة لما بينكن وبين الخالق لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وآتين الزكاة (إحسانا إلى الخلائق ، وفي هذا بشارة بالفتوح وتوسيع الدنيا عليهن ، فإن العيش وقت نزولها كان ضيقا عن القوت فضلا عن الزكاة .

واما أمرهن بخصوص ما تقدم لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية ، ومن اعتنى بهما حق الاعتناء جرتاه إلى ما وراءهما ، عم وجمع في قوله : (إنما يريد الله) أي وهو ذو الجلال والجمال بما أمركم به ونهاءكم عنه من الإعراض عن الزينة وما تبعها ، والإقبال عليه ، عزوفكم عن الدنيا وكل ما تكون سببا له) ليذهب) أي لأجل أن يذهب) عنكم الرجس) أي الأمر الذي يلزمه دائما الاستقرار والاضطراب من مذام الأخلاق كلها) أهل (يا أهل) البيت) أي من كل من تكون من إلزام النبي (صلى الله عليه وسلم) من الرجال والنساء من الأزواج والإماء والأقارب ، وكلما كان الإنسان منهم أقرب وبالنبي (صلى الله عليه وسلم) أخص وألزم ، كان بالإدارة أحق وأجدر .." (١)

" صفحة رقم ٣٠٨

ولما أخبر سبحانه باشتراكهم ، استأنف الإخبار بما يهول أمر عذابهم ويشير إلى عمومه في الدارين لكل من شاركهم في الإجرام ، فقال مؤكدا دفعا لظن من ينكر القيامة وظن من يرى الإملاء للمجرم في الدنيا نعمة وينفي كونه نقمة ، أو يفعل في التمادي في الإجرام فعل المنكر ؛) إنا) أي بما لنا من العظمة التي لا يفوتها شيء) كذلك) أي مثل هذا الفعل العظيم الشأن) نفعل (بهم - هكذا كان الأصل ، ولكنه علق بالوصف تعميما وتعليلا فقال : (بالمجرمين) أي كل قاطع لما أمر الله به أن يوصل في الدنيا والآخرة ، نهمل ثم نأخذ أخذا عنيفا يصير به المشتركون في الظلم أعداء يتخاصمون ، ويحيل بعضهم على بعض ثم لا ينفعهم ذلك ، بل نشارك بينهم في العقوبة ، ثم علل تعذيبه لهم بقوله مؤكدا للتعجب منهم لأن فعلهم هذا أهل لأن ينكر لأن هذه الكلمة لا يصدق عاقل أن أحدا يستكبر عليها لأنه لا شيء أعدل منها : (إنهم كانوا) أي دائما) إذ قيل لهم) أي من أي قائل كان : (لا إله) أي يمكن ، وإذا نفي الممكن كان الموجود أولى فإنه لا يوجد إلا ما يمكن وجوده وإن كان واجبا) إلا الله) أي الملك الأعلى المباين لجميع الموجودات في ذاته وصفاته وافعاله كما هو الحق ليفردوه بالإلهية كما تفرد بالخالقية كما لا يخفى على

---

(١) نظم الدرر . (- ت: عبدالرزاق غالب)، ١٠٢/٦

من له أدنى مسكة بصفات الكمال ، وقدم النفي لأن **التحلية** لا تكون إلا بعد **التخلية**) يستكبرون) أي يوجدون الكبر عن الإقرار بهذا الحق الذي لا أعدل منه وعن متابعة الداعي إليه ، استكبار من هو طالب للكبر من نفسه ومن غيره لما فيه من العراقة والعتو ، فلم يكن لهم مانع من أبواب جهنم السبعة التي جعلت كل كلمة من هذه الكلمة مع قرينتها الشاهدة بإرساله مانعة من باب منها وإلا كان في شيء من ساعات أيامهم – التي هي بعدد حروفهما أربعة وعشرون – خير ينجيهم من المكارة .

ولما أخبر أنهم استكبروا على توحيد الإله ، أتبعه الإخبار بأنهم تكلموا في رسوله (صلى الله عليه وسلم) بما لا يرضاه : فقال : (ويقولون) أي كل حين ما دلوا به على بعدهم عن الإيمان كل البعد بسوقهم لقولهم ذلك في استفهام إنكاري مؤكدا : (إئنا لتاركوا آلهتنا (اي عبادتها ، وكان تأكيد أصل الكلام للإشارة إلى أن تكذيبهم صادر منهم مع علمهم بأن كل عالم بحالهم يراهم جديرين بترك ما هم عليه لما جاء به (صلى الله عليه وسلم) ، ولذلك أعلم بأن ما هم عليه عناد بسوق تكذيبهم على وجه معلوم التناقض بالبديهة بقوله : (لشاعر مجنون (فإن الجنون لا نظام معه ، والشعر يحتاج إلى عقل رصين وقصد قويم ، وطبع في الوزن سليم ، أو للإشارة إلى أن إنكار المؤكد إنكار لغيره بطريق الأولى .

ولما كان مرادهم بذلك أن كلامه باطل ، فإن أكثر كلام الشاعر غلو وكذب وكلام." (١)

" صفحة رقم ٥٩٣

الكاتب والعالم وإن كانوا معمورين في كثرتهم فما خصه عنهم بذلك إلا القادر على كل شيء .

ولما كان المقام لتنزيه ولتأديب من وقع في موادة الكفار ونحو ذلك ، قدم التزكية فقال : (ويزكيهم) أي عن الأخلاق الرذيلة والعقائد الزائغة ، فكانت تزكيته لهم مدة حياته بنظره الشريف إليهم وتعليمه لهم وتلاوته عليم ، فربما نظر إلى الإنسان نظرة محبة فزكاه الله بها ، وربما سرت تلك النظرة إلى ثان فأشرقت أنوارها عليه على حسب القابليات كما وقع لعمير بن وهب ثم صفوان بن أمية وكذا ذو النور الطفيل بن عامر الدوسي رضي الله عنه ثم قومه ، فأما عمير فكان من أعظم المؤذين للنبي (صلى الله عليه وسلم) ولمن آمن به فتذاكر مع صفوان وقعة بدر في الحجر ومن فقدوا من صناديدهم وأنه ليس في العيش بعدهم خير ، ثم تمنوا رجلا بقتال النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فقال عمير : لولا فقري وبنات لي وعيال أخشى عليهم الضيعة من بعدي لأتيته بغلة أسيري عندهم فقتلته ، فاغتنمها صفوان فعاهده أن يكفي عياله إن مات

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٣٠٨/٦

وأن يواسيه إن عاش ، فقال : اكتم عني ثلاثا ، ثم ذهب إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فهداه الله فحلف صفوان أن لا يكلمه أبدا ، فلما فتحت مكة فر صفوان ليركب البحر من جدة ، فاستأذن عمير النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم ذهب إليه فلحقه فلم يزل به حتى رجع ثم أسلم فكان من خيار الصحابة رضي الله عنه ، واما ذو النور فحين دعاه النبي (صلى الله عليه وسلم) ثم سأل آية يعينه الله بها على قومه فآتاه الله نورا حين أشرف على الحي الذيث هو منه ، ثم دعا أباه وأمه فأسلما ، ثم صاحبته فكذلك ثم قومه ، فما تخلف منهم أحد ، وأما غير الصحابة رضي الله عنهم فتزكيته لهم بآثاره بحسب القابليات والأمور التي قضى الله أن يكون مهيأ ، فمن كان له أعشق كان لاتباعه ألزم ، فكان في كتاب الله وسنته أرسخ من سيرة وغيرها علما وعملا فكان أشد زكاء .

ولما كاندوا بعد التزكية التي هي **تخلية** عن لارذائل أحوج ما يكون إلى **تحلية** بالفضائل قال : (ويعلمهم الكتاب (اي المنزل عليه الجامع لكل خير ديني ودنيوي في الأولى والأخرى) والحكمة (وهي غاية الكتاب في قوة فهمه والعمل به ، فهي العلم المزين بالعمل والعمل المتقن بالعلم معقوله ومنقوله ليضعوا كل شيء منه في أحكم مواضعه فلا يزيغوا عن الكتاب كما زاغ بنو إسرائيل ، فيكون مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا ولو لم يكن له (صلى الله عليه وسلم) معجزة إلا هذه لكانت غاية .

ولما كان الوصف بالأمية مفهما للضلال ، وكان كثير منهم حال إنزال هذه السورة يعتقد أنهم على دين متين وحال جليل مبين ، وكانوا بعد هدايته لهم بعد الأمية سيضلون لأن الإرسال من حضرة غيب الغيب في العلوم المنفية للأمية إلى ما لم تصل إليه أمة." (١)

" صفحة رقم ١٦٩

ولما أخبر بأنه بالغ في الدعوة إلى حد لا مزيد عليه ، فلم يدع من الأوقات ولا من الأحوال شيئا ، سبب عنه بيان ما قال في دعوته وهو التسبب في السعادة كلها بدفع المضار وجلب المسار ، فقال مقدما لطلب الغفران عن الكفر ليظهروا فيكونوا قابلين **للتحلية** بالمحاسن الدينية بعد **التخلية** عن الأخلاق الدنية : (فقلت) أي في دعائي لهم : (استغفروا ربكم) أي اطلبوا من المحسن إليكم ، المبدع لكم ، المدبر لأموركم ، أن يمحو ذنوبكم أعيانها وأثارها ، بالرجوع عن عبادة غيره إلى الإخلاص في عبادته .

ولما ذكر أنه استعطفهم أولا ببيان أن رجوعهم ممكن ، لئلا يقولوا : إنا قد بالغنا في المعاصي فلا نقبل ،

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٥٩٣/٧

وأعلمهم أن الاستغفار باب الدخول إلى طاعة الجبار ، أكد ذلك الاستعطاف بقوله معللا للأمر ولجوابه بنحو : يغفر لكم ، مؤكدا لأجل توقفهم : (إنه كان) أي أزلا وأبدا ودائما سرمدا) غفارا) أي متصفا بصفة الستر على من رجع إليه على أبلغ الوجوه وأعلاها ، وإذا وقع الغفران دفع المضار كلها .
ولما قرر أمر التوبة وبين قبولها وقدمه اهتماما به لأنه أصل ما يبتنى عليه ، ولأن التخلي قبل التحلي ، ودرء المفاسد قبل جلب المصالح والفوائد ، رغب فيها بما يكون عنها من الزيادة في الإحسان على أصل القبول ، وينشأ عن الاستغفار من الآثار الكبار من الأفضال بجلب المسار بما هو مثال للجنة التي كان سبب الإخراج منها النسيان لأنهم أحب شيء في الأرباح الحاضرة والفوائد العاجلة لا سيما بما يبهج النفوس ويشرح الصدور لإذهابه البؤس ، فقال مجيبا لفعل الأمر : (يرسل السماء) أي المظلة الخضراء أو السحاب أو المطر) عليكم) أي بالمطر وأنواع البركات) مدرارا) أي حال كونها كثيرة الدورة متكررته ، وهذا البناء يستوي فيه المذكر والمؤنث) ويمددكم (أظهر لأن الموضع لإرادة المبالغة والبسط والسعة) بأموال وبنين (وذلك يفهم أن من اكثر الاستغفار حباه الله ما يسره ، وحماه ما يضره) ويجعل لكم) أي في الدارين) جنات) أي بساتين عظيمة ، وأعاد العامل للتأكيد والبسط لأن المقام له فقال : (ويجعل لكم أنهارا (يخصكم بذلك عمن لم يفعل ذلك ، فإن من لزم الاستغفار استسقى فلم يزد على الاستغفار فلما نزل قيل : يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت ؟ فقال : لقد طلبت الغيث بمجاديح السماء التي بها يستنزل القطر ، ثم قرأ هذه الآية ، وقال القشيري : من وقعت له إلى الله حاجة فلن يصل إلى مراده إلا تقديم الاستغفار ، وقال : إن عمل قوم نوح كان بضد ذلك ، ازداد نوح في الضمان ووجوه الخير والإحسان ازدادوا في الكفر والنسيان .." (١)

" صفحة رقم ٤٤١

قبل)) ألست بربكم ( ) [الأعراف : ١٧٢]) فجورها) أي انبعاثها في الميل مع دواعي الشهوات وعدم الخوف الحامل على خرق سياج الشريعة بسبب ذلك الطبع الذي عدل فيه ذاتها وصفاتها في قسر المتنافرات على التمازج غاية التعديل) وتقواها) أي خوفها الذي أوجب سكونها وتحرزها بوقايات الشريعة ، فالآية من الاحتباك : ذكر الفجور أولا دال على السكون الذي هو ضده ثانيا ، وذكر التقوى ثانيا دال على ضده ، وهو عدم الخوف أولا ، وإلهامها للأمرين هو جعله لها عارفة بالخير والشر مستعدة ومتهيئة

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/١٦٩

لكل منهما ؛ ثم زاد ذلك بالبيان التام بحيث لم يبق لبس ، فزالت الشبه عقلا بالغريزة والإلهام ونقلا بالرسالة والإعلام .

ودل بالإضافة على أن ذلك كله منسوب إليها ومكتوب عليها وإن كان بخلقه وتقديره لأنه أودعها قوة وجعل لها اختيارا صالحا لكل من النجدين ، وأوضح أمر النجدين في الكتب وعلى ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام بعد ما وهبه لها من الفطرة القويمة وأخفى عنها سر القضاء والقدرة وعلم العاقبة ، فأقام بذلك عليها الحجة وأوضح المحجة .

الشمس : (٩ – ١٥) قد أفلح من. .. . . .

) قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها كذبت ثمود بطغواهآ إذ انبعث أشقاها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها ولا يخاف عقباها (( )

ولما كان من المعلوم أن من سمع هذا الكلام يعلم أن التقوى لا يكون إلا مأمورا بها ، الفجور لا يكون إلا منهيا عنه ، فيتوقع ما يقال فيهما مما يتأثر عنهما ، قال تعالى : (قد أفلح) أي ظفر بجميع المرادات) من زكاها) أي نماها وأصلحها وصفاها تصفية عظيمة بما يسره الله له من العلوم النافعة والأعمال الصالحة وطهرها على ما يسره لمجانبته من مذام الأخلاق لأن كلا ميسر لما خلق له ، والدين بني على **التحلية** **والتخلية** و (زكى) صالح للمعنيين) وقد خاب) أي حرم مراده ما أعد لغيره في الدار الآخرة وخسر وكان سعيه باطلا) من دساها) أي إغواها إغواء عظيما وأفسدها ودنس محياها وقذرها وحقرها وأهلكها بخبائث الإعتقاد ومساوئ الأعمال ، وقبائح النيات والأحوال ، وأخفاها بالجهالة والفسوق ، والجلافة والعقوق ، وأصل (دسى) دسس ، فالتزكية أن يحرص الإنسان على شمسه أن لا تكسف ، وقمره أن لا يخسف ، ونهاره أن لايتكدر ، وليله ألا يطفى ، والتدسيس أقله إهمال الأمر حتى تكسف شمسه ، ويخسف قمره ، ويتكدر نهاره ، ويدوم ليله ، وطرق ذلك اعتبار نظائر المذكورات من الروحانيات وإعطاء كل ذي حق حقه ، فنظير الشمس هي النبوة لأنها كلها ضياء باهر وصفاء قاهر ، وضحاها الرسالة وقمرها الولاية ، والنهار هو العرفان ، واليل عدم طمأنينة النفس بذكر الله وما." (١)

"فعطف المشجج على معنى: بها رواكد ومشجج؛ لأنه لما قال: بادت إلا رواكد ومشجج علم أن المعنى بقيت رواكد ومشجج (١).

---

(١) نظم الدرر . (– ت: عبدالرزاق غالب)، ٨/٤٤١

واحتج ابن الأنباري لهذه الطريقة بقول الشاعر:

قد سالم الحيات منه القدما ... الأفعوان والشجاع الشجعما (٢)

رد الأفعوان والشجاع على الحيات بالنصب، وهي مرفوعة على تغليب المعنى وتحلية (٣) اللفظ؛ لأن الحيات إذا سالمت القدم فقد سالمتها القدم. قال: ويحتمل أن تكون الواو عاطفة على مضمر في الكلام يدل عليه المعنى، والتأويل: يريد الله بكم اليسر، ولا يريد بكم العسر، ليسعدكم ولتكملوا العدة، فحذفت اللام الأولى لوضوح معناها، وبقيت الثانية منعطفة عليها؛ لأن قيام معناها في الكلام يجري مجرى إظهارها. واختار الفراء هذا القول، وقال: معنى الآية: ولتكملوا العدة في قضاء ما أفطرتم، والواو واو استئناف، واللام من صلة فعل مضمر بعدها، والتقدير: ولتكملوا العدة فعل ذلك، أو شرع ذلك، أي: الرخصة في الإفطار. ومثله: {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من

= وساره: سائره. وهذا البيت من شواهد "الكتاب" لسيبويه ١/ ١٧٣ - ١٧٤.

(١) زيادة يقتضيها الكلام، من "معاني القرآن" للزجاج ١/ ٢٥٤.

(٢) اختلف في قائل هذا الرجز، فنسب في "اللسان" ٤/ ٢٢٠١ (شجع) إلى مساور بن هند، ويقال هو لأبي حيان الفقعسي، وفي "كتاب سيبويه" ١/ ١٤٥، لعبد بني عبس، ونسبه الأعلم للعجاج، وفي "شرح شواهد المغني" للسيوطي ص ٣٢٩ قال: هو من أرجوزة لأبي حيان الفقعسي، وقيل. لمساور بن هند العبسي، وبه جزم البطليوسي، وقيل: للعجاج، وقال السيرافي: قائله التدمري، وقال الصغاني: قائله عبد بني عبس، انظر: "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة ص ١٩٥.

(٣) في (أ): (تخلية).". (١)

"١٧٩- فصل: ما أقل من يعمل لله خالصا!

٨٢٥- ما أقل من يعمل لله تعالى خالصا! لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم، وسفيان الثوري كان يقول: لا أعتد بما ظهر من عملي! وكانوا يسترون أنفسهم، واليوم ثياب القوم تشهرهم! وقد كان أيوب السختياني١ يطول قميصه حتى يقع على قدميه، ويقول: كانت الشهرة في التطويل، واليوم الشهرة في التقصير.

---

(١) التفسير البسيط الواحدي ٣/٥٨٨

٨٢٦- فاعلم أن ترك النظر إلى الخلق، ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل٢، وإخلاص القصد، وستر الحال: وهو الذي رفع من رفع، فقد كان أحمد بن حنبل يمشي حافيا في وقت، ويحمل نعليه في يديه، ويخرج للقاط٣، وبشر يمشي حافيا على الدوام وحده، ومعروف يلتقط النوى٤.

٨٢٧- واليوم صارت الرئاسات أكثر من كل حاجة، وما تتمكن الرئاسات حتى تتمكن من القلب الغفلة، ورؤية الخلق، ونسيان الحق، فحينئذ تطلب الرئاسة على أهل الدنيا.

٨٢٨- ولقد رأيت من الناس عجبا، حتى من يتزيا بالعلم: إن رآني أمشي وحدي، أنكر علي، وإن رآني أزور فقيرا، عظم ذلك، وإن رآني أنبسط بتبسم، نقصت من عينه، فقلت: فوا عجبا! هذه كانت طريق الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم، فصارت أحوال الخلق نواميس لإقامة الجاه. لا جرم٥ والله سقطتم من عين الحق، فأسقطكم من عين الخلق.

٨٢٩- فكم ممن يتعب في تربية ناموس، ولا يلتفت إليه، ولا يحظى بمراده، ويفوته المراد الأكبر. فالتفتوا إخواني إلى إصلاح النيات، وترك التزين للخلق! ولتكن عمدتكم الاستقامة مع الحق، فبذلك صعد السف وسعدوا. وإياكم وما الناس عليه اليوم؛ فإنه بالإضافة إلى يقظة السلف نوم.

---

١ هو، الإمام الحافظ سيد العلماء، أحد صغار التابعين "٦٨-١٣١هـ".

٢ التعمل: بالمعاملة، والتخلية والتحلية.

٣ اللقاط: جمع ما يتبقى من السنابل المنثورة بعد الحصاد في الحقل.

٤ النوى: بزور التمر.

٥ لا جرم: لا بد، حقا.." (١)

"إلى الرب، فكونوا يا أيها المؤمنون بالضد من ذلك، وكونوا متقين عن معاصي الله، متوسلين إلى الله بطاعات الله.

الوجه الثاني في النظم: أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا نحن أبناء الله وأحباؤه [المائدة: ١٨] أي نحن أبناء أنبياء الله، فكان افتخارهم بأعمال آبائهم، فقال تعالى: يا أيها الذين آمنوا ليكن مفاخرتكم بأعمالكم لا بشرف آبائكم وأسلافكم، فاتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة، والله أعلم.

---

(١) صيد الخاطر ابن الجوزي ص/٢٦٤

المسألة الثانية: اعلم أن مجامع التكليف محصورة في نوعين لا ثالث لهما: أحدهما: ترك المنهيات، وإليه الإشارة بقوله اتقوا الله وثانيهما: فعل المأمورات، وإليه الإشارة بقوله تعالى: وابتغوا إليه الوسيلة ولما كان ترك المنهيات مقدما على فعل المأمورات بالذات لا جرم قدمه تعالى عليه في الذكر. وإنما قلنا: إن الترك مقدم على الفعل لأن الترك عبارة عن بقاء الشيء على عدمه الأصلي، والفعل هو الإيقاع والتحصيل، ولا شك أن عدم جميع المحدثات سابق على وجودها، فكان الترك قبل الفعل لا محالة.

فإن قيل: ولم جعلت الوسيلة مخصوصة بالفعل مع أنا نعلم أن ترك المعاصي قد يتوسل به إلى الله تعالى؟ قلنا: الترك إبقاء الشيء على عدمه الأصلي، وذلك العدم المستمر لا يمكن التوسل به إلى شيء البتة فثبت أن الترك لا يمكن أن يكون وسيلة، بل من دعاه داعي الشهوة إلى فعل قبيح، ثم تركه لطلب مرضاة الله تعالى، فههنا يحصل التوسل بذلك الامتناع إلى الله تعالى، إلا أن ذلك الامتناع من باب الأفعال، ولهذا قال المحققون:

ترك الشيء عبارة عن فعل ضده.

إذا عرفت هذا فنقول: إن الترك والفعل أمران معتبران في ظاهر الأفعال، فالذي يجب تركه هو المحرمات، والذي يجب فعله هو الواجبات، ومعتبران أيضا في الأخلاق، فالذي يجب حصوله هو الأخلاق الفاضلة، والذي يجب تركه هو الأخلاق الذميمة، ومعتبران أيضا في الأفكار فالذي يجب فعله هو التفكر في الدلائل الدالة على التوحيد والنبوة والمعاد، والذي يجب تركه هو الالتفات إلى الشبهات، ومعتبران أيضا في مقام التجلي، فالفعل هن الاستغراق في الله تعالى، والترك هو الالتفات إلى غير الله تعالى: وأهل الرياضة يسمون الفعل والترك بالتحلية والتخلية، وبالمحو والصحو، وبالنفي والإثبات، وبالفناء والبقاء، وفي جميع المقامات النفي مقدم على الإثبات، ولذلك كان قولنا «لا إله إلا الله» النفي مقدم فيه إلى الإثبات.

المسألة الثالثة: الوسيلة فعيلة، من وسل إليه إذا تقرب إليه. قال لبيد الشاعر:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم ... ألا كل ذي لب إلى الله واسل

أي متوسل، فالوسيلة هي التي يتوسل بها إلى المقصود. قالت التعليمية: دلت الآية على أنه لا سبيل إلى الله تعالى إلا بمعلم يعلمنا معرفته، ومرشد يرشدنا إلى العلم به، وذلك لأنه أمر بطلب الوسيلة إليه مطلقا، والإيمان به من أعظم المطالب ,وأشرف المقاصد، فلا بد فيه من الوسيلة.

وجوابنا: أنه تعالى إنما أمر بابتغاء الوسيلة إليه بعد الإيمان به، والإيمان به عبارة عن المعرفة به فكان هذا

أمرا بابتغاء الوسيلة إليه بعد الإيمان وبعد معرفته، فيمتنع أن يكون هذا أمرا بطلب الوسيلة إليه في معرفته، فكان المراد طلب الوسيلة إليه في تحصيل مرضاته وذلك بالعبادات والطاعات.." (١)

"أما الإنذار فللكفار والفساق ليرتدعوا بسبب ذلك الإنذار عن فعل ما لا ينبغي، وأما التبشير فلأهل الطاعة لتقوى رغبتهم فيها وإنما قدم الإنذار على التبشير لأن **التخلية** مقدمة على **التحلية**، وإزالة ما لا ينبغي مقدم في الرتبة على فعل ما ينبغي.

المسألة السادسة: قوله: قدم صدق فيه أقوال لأهل اللغة وأقوال المفسرين. أما أقوال أهل اللغة فقد نقل الواحدي في «البسيط» منها وجوها. قال الليث وأبو الهيثم: القدم السابقة، والمعنى: أنهم قد سبق لهم عند الله خير قال ذو الرمة:

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة ... لهم قدم معروفة ومفاخر

وقال أحمد بن يحيى: القدم كل ما قدمت من خير، وقال ابن الأنباري: القدم كناية عن العمل الذي يتقدم فيه، ولا يقع فيه تأخير ولا إبطاء.

واعلم أن السبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني، أن السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم، فسمي المسبب باسم السبب، كما سميت النعمة يدا، لأنها تعطى باليد.

فإن قيل: فما الفائدة في إضافة القدم إلى الصدق في قوله سبحانه: قدم صدق.

قلنا: الفائدة التنبيه على زيادة الفضل وأنه من السوابق العظيمة، وقال بعضهم: المراد مقام صدق. وأما المفسرون فلهم أقوال فبعضهم حمل قدم صدق على الأعمال الصالحة وبعضهم حمله على الثواب، ومنهم من حمله على شفاعة محمد عليه الصلاة والسلام، واختار ابن الأنباري هذا الثاني وأنشد:

صل لذي العرش واتخذ قدما ... بنجيك يوم العثار والزلل

المسألة السابعة: أن الكافرين لما جاءهم رسول منهم فأنذرهم وبشرهم وأتاهم من عند الله تعالى بما هو اللائق بحكمته وفضله قالوا متعجبين إن هذا لساحر مبين أي إن هذا الذي يدعي أنه رسول هو ساحر.

والابتداء بقوله: قال الكافرون على تقدير فلما أنذرهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين، قال القفال: وإضمار هذا، غير قليل في القرآن.

المسألة الثامنة: قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي إن هذا لساحر والمراد منه محمد صلى الله عليه

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ٣٤٩/١١

وسلم، والباقون لسحر والمراد به القرآن.

واعلم أن وصف الكفار القرآن بكونه سحرا يدل على عظم محل القرآن عندهم، وكونه معجزا/ وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة، فاحتاجوا إلى هذا الكلام.

واعلم أن إقدامهم على وصف القرآن بكونه سحرا، يحتمل أن يكونوا ذكروه في معرض الذم، ويحتمل أنهم ذكروه في معرض المدح، فلهذا السبب اختلف المفسرون فيه فقال بعضهم: أرادوا به أنه كلام مزخرف حسن الظاهر، ولكنه باطل في الحقيقة، ولا حاصل له، وقال آخرون: أرادوا به أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله، جار مجرى السحر.

واعلم أن هذا الكلام لما كان في غاية الفساد لم يذكر جوابه، وإنما قلنا إنه في غاية الفساد، لأنه صلى الله عليه وسلم كان منهم، ونشأ بينهم وما غاب عنهم، وما خالط أحدا سواهم، وما كان مكة بلدة العلماء والأذكياء، حتى يقال: إنه." (١)

"نقيضتها ولازمة للأسماء لزومها. وفي قراءة أبي الشعثاء مرفوع بلا التي بمعنى ليس وفيه خبره ولم يقدم كما قدم في قوله تعالى: لا فيها غول لأنه لم يقصد تخصيص نفي الريب به من بين سائر الكتب كما قصد ثمة، أو صفته وللمتقين خبره. وهدى نصب على الحال، أو الخبر محذوف كما في لا ضير، فلذلك وقف على لا ريب، على أن فيه خبر هدى قدم عليه لتنكيره والتقدير: لا ريب فيه، فيه هدى، وأن يكون ذلك مبتدأ والكتاب خبره على معنى: أنه الكتاب الكامل الذي يستأهل أن يسمى كتابا، أو صفته وما بعده خبره والجملة خبر الم.

والأولى أن يقال إنها أربع جمل متناسقة تقرر اللاحقة منها السابقة ولذلك لم يدخل العاطف بينها. ف الم، جملة دلت على أن المتحدى به هو المؤلف من جنس ما يركبون منه كلامهم، وذلك الكتاب جملة ثانية مقررة لجهة التحدي، ولا ريب فيه، جملة ثالثة تشهد على كماله بأن الكتاب المنعوت بغاية الكمال إذ لا كمال أعلى مما للحق واليقين. وهدى للمتقين، بما يقدر له مبتدأ جملة رابعة تؤكد كونه حقا لا يحوم الشك حوله بأنه هدى للمتقين، أو تستتبع السابقة منها اللاحقة استتباع الدليل للمدلول، وبيانه أنه لما نبه أولا على إعجاز المتحدى به من حيث أنه من جنس كلامهم وقد عجزوا عن معارضته، استنتج منه أنه الكتاب البالغ حد الكمال واستلزم ذلك أن لا يتشبث الريب بأطرافه إذ لا أنقص مما يعتريه الشك والشبهة،

---

(١) تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير الرازي، فخر الدين ١٨٧/١٧

وما كان كذلك كان لا محالة هدى للمتقين، وفي كل واحدة منها نكتة ذات جزالة ففي الأولى الحذف والرمز إلى المقصود مع التعليل، وفي الثانية فخامة التعريف، وفي الثالثة تأخير الظرف حذرا عن إبهام الباطل، وفي الرابعة الحذف والتوصيف بالمصدر للمبالغة وإيراده منكرا للتعظيم وتخصيص الهدى بالمتقين باعتبار الغاية تسمية المشارف للتقوى متقيا إيجازا وتفخيما لشأنه.

[سورة البقرة (٢) : آية ٣]

الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣)

الذين يؤمنون بالغيب إما موصول بالمتقين على أنه صفة مجرورة مقيدة له إن فسر التقوى بترك ما لا ينبغي مترتبة عليه ترتيب التحلية على التخلية، والتصوير على التصقيل. أو موضحة إن فسر بما يعم فعل الحسنات وترك السيئات لاشتماله على ما هو أصل الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة، فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر الطاعات والتجنب عن المعاصي غالبا، ألا ترى إلى قوله تعالى: إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «الصلاة عماد الدين، والزكاة قنطرة الإسلام»

. أو مسوقة للمدح بما تضمنه المتقين. وتخصيص الإيمان بالغيب وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر إظهار لفضلها على سائر ما يدخل تحت اسم التقوى. أو على أنه مدح منصوب، أو مرفوع بتقدير أعني أو هم الذين. وإما مفصول عنه مرفوع بالابتداء وخبره أولئك على هدى، فيكون الوقف على المتقين تاما.

والإيمان في اللغة عبارة عن التصديق مأخوذ من الأمن، كأن المصدق أمن المصدق من التكذيب والمخالفة، وتعديته بالباء لتضمنه معنى الاعتراف وقد يطلق بمعنى الوثوق من حيث إن الواثق بالشيء صار ذا أمن منه، ومنه ما أمنت أن أجد صحابة وكلا الوجهين حسن في يؤمنون بالغيب.

وأما في الشرع: فالتصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء، ومجموع ثلاثة أمور: اعتقاد الحق، والإقرار به، والعمل بمقتضاه عند جمهور المحدثين والمعتزلة والخوارج.

فمن أخل بالاعتقاد وحده فهو منافق، ومن أخل بالإقرار فكافر، ومن أخل بالعمل ففاسق وفاقا، وكافر عند الخوارج، وخارج عن الإيمان غير داخل في الكفر عند المعتزلة، والذي يدل على أنه التصديق وحده أنه

سبحانه وتعالى أضاف الإيمان إلى القلب فقال: أولئك كتب في قلوبهم الإيمان، وقلبه مطمئن بالإيمان."
(١)

"قال بعض أهل التأويل عكرمة، ومجاهد: كان هذا الحكم من الله سبحانه لرفع الشغب ثم نسخ بقوله: واعلموا أنما غنمتم من شيء ... [الأنفال: ٤١] الآية. وهذا أولى الأقوال وأصحها.

وقوله سبحانه: وأصلحوا ذات بينكم: تصريح بأنه شجر بينهم اختلاف، ومالت النفوس إلى التشاح، وذات في هذا الموضع يراد بها نفس الشيء وحقيقته، والذي يفهم من بينكم هو معنى يعم جميع الوصل، والالتحامات، والمودات، وذات ذلك هو المأمور بإصلاحها، أي: نفسه وعينه، وباقي الآية بين.

[سورة الأنفال (٨) : الآيات ٢ الى ٤]

إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون (٢) الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم (٤)

وقوله سبحانه: إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ... الآية، إنما لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع، ويصلح مع ذلك للحصر، بحسب القرينة، فقوله هنا: إنما المؤمنون ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط، أي الكاملون.

قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاري الساحلي المالقي في كتابه الذي ألفه في «السلوك» : واعلم أن الإنسان مطلوب بطهارة نفسه، وتزكيتها، وطرق التزكية وإن كثرت، فطريق الذكر أسرع نفعا، وأقرب مراما، وعليه درج أكثر مشائخ التربية، ثم قال: والذكر ضد النسيان، والمطلوب منه عمارة الباطن بالله تعالى في كل زمان، ومع كل حال لأن الذكر يدل على المذكور لا محالة، فذكره ديدنا يوجب المحبة له، والمعرفة به، والذكر وإن اختلف ألفاظه ومعانيه، فلكل معنى [من] معانيه اختصاص بنوع من **التحلية** **والتخلية**، والتزكية، ثم قال: والذكر على/ قسمين: ذكر العامة، وذكر الخاصة. أما ذكر العامة، وهو ذكر الأجور، فهو أن يذكر العبد مولاه بما شاء من ذكره لا يقصد غير الأجور والثواب، وأما ذكر الخاصة، فهو ذكر الحضور، وهو أن يذكر العبد مولاه بأذكار معلومة، على صفة مخصوصة لينال بذلك المعرفة بالله

(١) تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل ناصر الدين البيضاوي ٣٧/١

سبحانه بطهارة نفسه من كل خلق ذميم، وتحليتها بكل خلق كريم. انتهى.

ووجلت: معناه: فزعت، ورقت، وخافت، وبهذه المعاني فسرتها العلماء.

وتليت معناه: سردت، وقرئت، والآيات هنا: القرآن المتلو.

ومن كلام صاحب «الكلم الفارقية» : إن تيقظت يقظة قلبية، وانتبهت انتباهة حقيقية لم تر في وقتك سعة لغير ذكر ربك، واستشعار عظمته، ومهابته، والإقبال على طاعته، ما في." (١)

"{الذين يؤمنون بالغيب} إما موصول بالمتقين ومحله الجر على أنه صفة مقيدة له إن فسر التقوى بترك المعاصي فقط مترتبة عليه ترتب **التحلية** على **التخلية** وموضحة إن فسر بما هو المتعارف شرعا والمتبادر عرفا من فعل الطاعات وترك السيئات معا لأنها حينئذ تكون تفصيلا لما انطوى عليه اسم الموصوف إجمالا وذلك لأنها مشتملة على ماهو عماد الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة فإنها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر القرب الداعية إلى التجنب عن المعاصي غالبا ألا يرى إلى قوله تعالى {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} وقوله عليه السلام الصلاة عماد الدين والزكاة قنطرة الإسلام أو مادحة للموصوفين بالتقوى المفسر بما مر من فعل الطاعات وترك السيئات وتخصيص ماذكر من الخصال الثلاث بالذكر لإظهار شرفها وإنافتها على سائر ما انطوى تحت اسم التقوى من الحسنات أو النصب على المدح بتقدير أعني أو الرفع عليه بتقدير هم وإما مفصول عنه مرفوع بالابتداء خبره الجملة المصدرة باسم الإشارة كما سيأتي بيانه فالوقف على المتقين حينئذ وقف تام لأنه وقف على مستقبل مابعده أيضا مستقبل وأما على الوجوه الأول فحسن لاستقلال الموقوف عليه غير تام لتعلق مابعده به وتبعيته له أما على تقدير الجر على الوصفية فظاهر وأما على تقدير النصب أو الرفع على المدح فلما تقرر من أن المنصوب والمرفوع مدحا وإن خرجا عن التبعية لما قبلها صورة حيث لم يتبعاه في الإعراب وبذلك سميا قطعا لكنهما تابعان له حقيقة ألا يرى كيف التزموا حذف الفعل والمبتدأ في النصب والرفع روما لتصوير كل منهما بصورة متعلق من متعلقات ماقبله وتنبيها على شدة الاتصال بينهما قال أبو علي إذا ذكرت صفات للمدح وخولف في بعضها الإعراب فقد خولف للافتنان أي للتفنن الموجب لإيقاظ السامع وتحريكه إلى الجد في الإصغاء فإن تغيير الكلام المسوق لمعنى." (٢)

---

(١) تفسير الثعالبي = الجواهر الحسان في تفسير القرآن الثعالبي، أبو زيد ٣/١١٣

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١/٢٩

"٢٢٢ – البقرة المؤمنين من يقارنهم
{إلى الجنة والمغفرة} أي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين إليهما وتقديم الجنة على المغفرة مع أن حق **التخلية** أن تقدم على **التحلية** لرعاية مقابلة النار ابتداء
{بإذنه} متعلق بيدعو أي يدعو ملتبسا بتوفيقه الذي من جملته إرشاد المؤمنين لمقارنيهم إلى الخير ونصيحتهم إياهم فهم أحقاء بالمواصلة
{ويبين آياته} المستملة على الأحكام الفائقة والحكم الرائقة
{للناس لعلهم يتذكرون} أي لكي يتذكروا ويعملوا بما فيها فيفوزوا بما دعوا إليه من الجنة والغفران هذا وقد قيل معنى والله يدعوا وأولياء الله يدعون وهم المؤمنون على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه تشريفا لهم وأنت خبير بأن الضمير في المعطوف على الخبر أعني قوله تعالى ويبين لله تعالى فيلزم التفكيك وقيل معناه والله يدعو بأحكامه المذكورة إلى الجنة والمغفرة فإنها موصلة لمن عمل بها إليهما وهذا وإن كان مستدعيا لاتحاد مرجع الضميرين الكائنين في الجملتين المتعاطفتين الواقعتين خبرا للمبتدأ لكن يفوت حينئذ حسن المقابلة بينه وبين قوله تعالى أولئك يدعون إلى النار ولعل الطريق الأسلم ما أوضحناه أولا وإيراد التذكر ههنا للإشعار بأنه واضح لا يحتاج إلى التفكر كما في الأحكام السابقة." (١)
"هو بناء مبالغة من الطغيان كالملكوت والجبروت قلب مكان عينه ولامه فقيل هو في الأصل مصدر وإليه ذهب الفارسي وقيل اسم جنس مفرد مذكر وإنما الجمع والتأنيث لإرادة الآلهة وهو رأي سيبويه وقيل هو جمع وهو مذهب المبرد وقيل يستوي فيه المفرد والجمع والتذكير والتأنيث أي فمن يعمل إثر ما تميز الحق من الباطل بموجب الحجج الواضحة والآيات البينة ويكفر بالشيطان أو بالأصنام أو بكل ماعبد من دون الله تعالى أو صد عن عبادته تعالى لما تبين له كونه بمعزل من استحقاق العبادة
{ويؤمن بالله} وحده لما شاهد من نعونة الجليلة المقتضية لاختصاص الألوهية به عز وجل الموجبة للإيمان والتوحيد وتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان به تعالى لتوقفه عليه فإن **التخلية** متقدمة على **التحلية**
{فقد استمسك بالعروة الوثقى} أي بالغ في التمسك بها كأنه وهو ملتبس به يطلب من نفسه الزيادة فيه والثبات عليه
{لا انفصام لها} الفصم الكسر بغير إبانة كما أن القصم هو الكسر بإبانة ونفي الأول يدل على انتفاء

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٢٢/١

الثاني بالأولوية والجملة إما استئناف مقرر لما قبلها من وثاقة العروة وإما حال من العروة والعامل استمسك أو من الضمير المستتر في الوثقى ولها في حيز الخبر أي كائن لها والكلام تمثيل مبني على تشبيه الهيئة العقلية المنتزعة من ملازمة الاعتقاد الحق الذي لا يحتمل النقيض أصلا لثبوته بالبراهين النيرة القطعية بالهيئة الحسية المنتزعه من التمسك بالحبل المحكم المأمون انقطاعه فلا استعارة في المفردات ويجوز أن تكون العروة الوثقى مستعارة للاعتقاد الحق الذي هو الإيمان والتوحيد لا للنظر الصحيح المؤدي إليه كما قيل فإنه غير مذكور في حيز الشرط والاستمساك بها مستعارا لما ذكر من الملازمة أو ترشيحا للاستعارة الأولى

{والله سميع} بالأقوال

{عليم} بالعزائم والعقائد والجملة اعتراض تذييلي حامل على الإيمان رادع عن الكفر والنفاق بما فيه من الوعد والوعيد." (١)

"الاكتساب في جانب الشر لما فيه من اعتمال ناشئ من اعتناء النفس بتحصيل الشر وسعيها في طلبه

{ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} شروع في حكاية بقية دعواتهم إثر بيان سر التكليف أي لا تؤاخذنا بما صدر عنا من الأمور المؤدية إلى النسيان أو الخطأ من تفريط وقلة مبالاة ونحوهما مما يدخل تحت التكليف أوبأنفسهما من حيث ترتبهما على ما ذكر أو مطلقا إذ لا امتناع في المؤاخذة بهما عقلا فإن المعاصي كالسموم فكما أن تناولها ولو سهوا أو أخطأ مؤد إلى الهلاك فتعاطي المعاصي أيضا لا يبعد أن يفضي إلى العقاب وإن لم يكن عن عزيمة ووعده تعالى بعدمه لا يوجب استحالة وقوعه فإن ذلك من آثار فضله ورحمته كما ينبئ عنه الرفع في قوله عليه السلام رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وقد روي أن اليهود كانوا إذا نسوا شيئا عجلت لهم العقوبة فدعاؤهم بعد العلم بتحقق الموعود للاستدامة والاعتداد بالنعمة في ذلك كما في قوله تعالى {ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك}

{ربنا ولا تحمل علينا إصرا} عطف على ما قبله وتوسيط النداء بينهما لإبراز مزيد الضراعة والإصر العبء الثقيل الذي يأصر صاحبه أي يحبسه مكانه والمراد به التكاليف الشاقة وقيل الإصر الذنب الذي لا توبة له فالمعنى اعصمنا من اقترافه وقرئ آصاراو قرئ ولا تحمل بالتشديد للمبالغة

{كما حملته على الذين من قبلنا} في حيز النصب على أنه صفة لمصدر محذوف أي حملا مثل حملك

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٥٠/١

إياه على من قبلنا أو على أنه صفة لإصرا أي إصرا مثل الإصر الذي حملته على من قبلنا وهو ما كلفه بنو إسرائيل من بخع النفس في التوبة وقطع موضع النجاسة وخمسين صلاة في يوم وليلة وصرف ربع المال للزكاة وغير ذلك من التشديدات فإنهم كانوا إذا أتوا بخطيئة حرم عليهم من الطعام بعض ما كان حلالا لهم قال الله تعالى فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وقد عصم الله عز وجل بفضله ورحمته هذه الأمة عن أمثال ذلك وأنزل في شأنهم ويضع عنهم إصرهم والاغلال التى كانت عليهم وقال صلى الله عليه وسلم بعثت بالحنيفية السهلة السمحة وعن العقوبات التي عوقب بها الأولون من المسخ والخسف وغير ذلك قال صلى الله عليه وسلم رفع عن أمتي الخسف والمسخ والغرق

{ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به} عطف على ما قبله واستعفاء عن العقوبات التي لا تطاق بعد الاستعفاء عما يؤدي إليها التفريط فيه من التكاليف الشاقة التي لا يكاد من كلفها يخلو عن التفريط فيها كأنه قيل لا تكلفنا تلك التكاليف ولا تعاقبنا بتفريطنا في المحافظة عليها فيكون التعبير عن إنزال العقوبات بالتحميل باعتبار ما يؤدي إليها وقيل هو تكرير للأول وتصوير للإصر بصورة مالا يستطاع مبالغة وقيل هو استعفاء عن التكليف بما لا تفي به الطاقة البشرية حقيقة فيكون دليلا على جواره عقلا وإلا لما سئل التخلص عنه والتشديد ههنا لتعدية الفعل إلى مفعول ثان

{واعف عنا} أي آثار ذنوبنا

{واغفر لنا} واستر عيوبنا ولا تفضحنا على رءوس الأشهاد

{وارحمنا} وتعطف بنا وتفضل علينا وتقديم طلب العفو والمغفرة على طلب الرحمة لما أن **التخلية** سابقة على **التحلية**

{أنت مولانا} سيدنا ونحن عبيدك او ناصرنا اومتولى أمورنا

{فانصرنا على القوم الكافرين} فإن من حق المولى أن ينصر عبده ومن يتولى أمره على الأعداء والمراد به عامة الكفرة وفيه إشارة إلى أن إعلاء كلمة الله والجهاد في سبيله تعالى حسبما أمر في تضاعيف السورة الكريمة غاية مطالبهم روي أنه عليه الصلاة والسلام لما دعا." (١)

"{وسارعوا} عطف على أطيعوا وقرئ بغير واو على وجه الاستئناف أي بادروا وأقبلوا وقرئ سابقوا {إلى مغفرة من ربكم وجنة} أي إلى ما يؤدي إليهما وقيل إلى الإسلام وقيل إلى التوبة وقيل إلى الإخلاص

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٧٧/١

وقيل إلى الجهاد وقيل إلى أداء جميع الواجبات وترك جميع المنهيات فيدخل فيها ما مر من الأمور المأمور بها والمنهي عنها دخولا أوليا وتقديم المغفرة على الجنة لما أن **التخلية** متقدمة على **التحلية** ومن متعلقة بمحذوف وقع صفة لمغفرة أي كائنة من ربكم والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار مزيد اللطف بهم وقوله تعالى

{عرضها السماوات والارض} أي كعرضهما صفة لجنة وتخصيص العرض بالذكر للمبالغة في وصفها بالسعة والبسطة على طريقة التمثيل فإن العرض في العادة أدنى من الطول وعن ابن عباس رضي الله عنهما كسبع سموات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض

{أعدت للمتقين} في حيز الجر على أنه صفة أخرى لجنة أو في محل النصب على الحالية منها لتخصصها بالصفة أي هيئت لهم وفيه دليل على أن الجنة مخلوقة الآن وأنها خارجة عن هذا العالم." (١)

"{ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك} حكاية لدعاء آخر لهم مسبوق بما قبله معطوف عليه لتأخر **التحلية** عن **التخلية** وتكرير النداء لما مر مرارا والمراد بالموعود الثواب وعلى إما متعلقة بالوعد كما في قولك وعد الله الجنة على الطاعة أي وعدتنا على تصديق رسلك أو بمحذوف وقع صفة لمصدر مؤكد محذوف أي وعدتنا وعدا كائنا على ألسنة رسلك وقيل التقدير منزلا على رسلك أو محمولا على رسلك ولا يخفى أن تقدير الأفعال الخاصة في مثل هذه المواقع تعسف وجمع الرسل مع أن المنادي هو الرسول صلى الله عليه وسلم وحده لما أن دعوته عليه السلام لاسيما في باب التوحيد وما أجمع عليه الكل من الشرائع منطوية على دعوة الكل فتصديقه تصديق لهم عليهم السلام كيف لا وقد أخذ منهم الميثاق بالإيمان به عليه السلام لقوله تعالى {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب} الآية وكذا الموعود على لسانه من الثواب موعود على ألسنة الكل وإيثار الجمع لإظهار كمال الثقة بانجاز الموعود بناء على كثرة الشهود

{ولا تخزنا يوم القيامة} قصدوا بذلك تذكير وعده تعالى بقوله يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه مظهرين أنهم ممن آمن معه رجاء للانتظام في سلكهم يومئذ وقوله تعالى

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢/٨٥

{إنك لا تخلف الميعاد} تعليل لتحقيق ما نظموا في سلك الدعاء وهذه الدعوات وما في تضاعيفها من كمال الضراعة." (١)

"٥ سورة المائدة اية ٢ ضيعف جدا {ولا يجرمنكم} نهى عن إحلال قوم من الآمين خصوا به مع اندراجهم في النهي عن إحلال الكل كافة لاستقلالهم بأمور ربما يتوهم كونها مصححة لإحلالهم داعية إليه وجرم جار مجرى كسب في المعنى وفي التعدي إلى مفعول واحد وإلى اثنين يقال جرم ذنبا نحو كسبه وجرمته ذنبا نحو كسبته الياه خلا أن جرم يستعمل غالبا في كسب ما لا خير فيه وهو السبب في ايثاره ههنا على الثاني وقد ينقل الأول من كل منهما بالهمزة إلى معنى الثاني فيقال أجرمته ذنبا وأكسبته إياه وعليه قراءة من قرأ يجر منكم بضم الياء {شنان قوم} بفتح النون وقرىء بسكونها وكلاهما مصدر ضعيف إلى مفعوله لا إلى فاعله كما قيل وهو شدة البغض وغاية المقت {أن صدوكم} متعلق بالشنآن بإضمار لام العلة أي لان صدوركم عام الحديبية {عن المسجد الحرام} عن زيارته والطواف به للعمرة وهده آية بينة في عموم آمين للمشركين قطعا وقرىء ان صدوركم على أنه شرط معترض أغنى عن جوابه لا يجر منكم قد أبرز الصد المحقق فيما سبق في معرض المفروض للتوبيخ والتنبيه على ان حقه ان لا يكون وقوعه إلا على سبيل الفرض والتقدير {أن تعتدوا} أي عليهم وإنما حذف تعويلا على ظهوره وإيماء إلى أن المقصد الأصلي من النهي منع صدور الاعتداء عن المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر لا منع وقوعه على القوم مراعاة لجانبهم وهو ثاني مفعولي يجر منكم أي لا يكسبنكم شدو بغضكم لهم لصدهم إياكم عن المسجد الحرام اعتداءكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفي وهذا وإن كان بحسب الظاهر نهيا للشنآن عن كسب الاعتداء للمخاطبين لكنه في الحقيقة نهي لهم عن الاعتداء على أبلغ وجه وآكده فإن النهي عن أسباب الشيء ومباديه المؤدية إليه نهي عنه بالطريق البرهاني وإبطال للسببية وقد يوجه النهي إلى المسبب ويراد النهي عن السبب كما في قوله لا أرينك ههنا يريد به نهي مخاطبه عن الحضور لديه ولعل تأخير هذا النهي عن قوله تعالى وإذا حللتم فاصطادوا مع ظهور تعلقه بما قبله للإيذان بأن حرمة الاعتداء لا تنتهي بالخروج عن الإحرام كانتهاء حرمة الاصطياد به بل هي باقية ما لم تنقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلية وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض لسائر الآمين بالطريق الأولى {وتعاونوا على البر والتقوى} لما كان الاعتداء غالبا بطريق التظاهر والتعاون أمروا إثر ما نهوا عنه بأن يتعاونوا على كل ما هو من باب البر والتقوى ومتابعة الأمر ومجانبة

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٣٢/٢

الهوى فدخل فيه ما نحن بصدده من التعاون على العفو والإغضاء عما وقع منهم دخولا أوليا ثم نهوا عن التعاون في كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي بقوله تعالى {ولا تعاونوا على الإثم والعدوان} فاندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام بالطريق البرهاني وأصل لا تعاونوا لا تتعاونوا فحذف منه إحدى التاءين تخفيفا وإنما أخر النهي عن الأمر مع تقدم **التخلية** على **التحلية** مسارعة إلى إيجاب ما هو مقصود بالذات فإن المقصود من إيجاب ترك التعاون على الإثم والعدوان إنما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى ثم أمروا بقوله تعالى {واتقوا الله} بالاتقاء في جميع الأمور التي من جملتها مخالفة ما ذكر من الأوامر والنواهي فثبت وجوب الاتقاء فيها بالطريق البرهاني ثم علل ذلك بقوله تعالى {أن الله شديد العقاب} أي لمن لا يتقيه فيعاقبكم لا محالة إن لم تتقوه وإظهار الاسم الجليل لما مر مرارا من إدخال الروعة وتربية المهابة وتقوية استقلال الجملة." (١)

"سورة المائدة اية ١٢ إلا عن موسى وهارون عليهما السلام فيكونان هما يريان رأيهما فأخذ بعضهم على بعض الميثاق ثم انصرفوا إلى موسى عليه السلام وكان معهم حبة من عنبهم وقر رجل فنكثوا عهدهم وجعل كل منهم ينهى سبطه عن قتالهم ويخبرهم بما رأى الا كالب ويشع وكان معسكر موسى فرسخا في فرسخ فجاء اوج حتى نظر إليهم ثم رجع إلى الجبل فقور منه صخرة عظيمة على قدر العسكر ثم حملها على رأسه ليطبقها عليهم فبعث الله تعالى الهدهد فقور من الصخرة وسطها المحاذي لرأسه فانتقبت فوقعت في عنق عوج وطوقته فصرعته فاقبل موسى عليه السلام وطوله عشرة أذرع وكذا طول العصا فتراما في السماء عشرة أذرع فما أصاب العصا إلا كعبا وهو مصروع فقتله قالوا فأقبلت جماعة ومعهم الخناجر حتى حزوا رأسه {وقال الله} أي لبني إسرائيل فقد اذاهم المحتاجون إلى ما ذكر من الترغيب والترهيب كما ينبىء عنه الالتفات مع ما فيه من تربية المهابة وتأكيد ما يتضمنه الكلام من الوعد {إني معكم} أي بالعلم والقدرة والنصرة لا بالنصرة فقط فإن تنبيههم على علمه تعالى بكل ما يأتون وما يذرون وعلى كونهم تحت قدرته وملوته مما يحمله على الجد في الامتثال بما أمروا به والانتهاء عما نهوا عنه كأنه قيل إني معكم أسمع كلامكم وأرى أعمالكم وأعلم ضمائركم فأجازيكم بذلك هذا وقد قيل المراد بالميثاق هو الميثاق بالإيمان والتوحيد وبالنقباء ملوك بني إسرائيل الذين ينقبون أحوالهم ويلون أمورهم بالأمر والنهي وإقامة العدل وهو الأنسب بقوله تعالى {لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي} أي بجميعهم والالام موطئة للقسم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٣/٥

المحذوف وتأخير الامان عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع كونهما من الفروع المترتبة عليه لما أنهم كانوا معترفين بوجوبهما مع ارتكابهم لتكذيب بعض الرسل عليهم السلام ولمراعاة المقارنة بينه وبين قوله تعالى {وعزرتموهم} أي نصرتموهم وقويتموهم وأصله الذب وقيل التعظيم والتوقير والثناء بخير وقرء وعزرتموهم بالتخفيف {وأقرضتم الله} بالإنفاق في سبيل الخير وبالتصدق بالصدقات المندوبة وقوله تعالى {قرضا حسنا} إما مصدر مؤكد وارد على غير صيغة المصدر كما في قوله تعالى فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نبات حسن او مفعول ثاني لأقرضتم على أنه اسم للمال المقرض وقوله تعالى {لأكفرن عنكم سيئاتكم} جواب للقسم المدلول عليه بالالام ساد مسد جواب الشرط {ولادخلنكم جنات تجرى من تحتها الانهار} عطف على ما قبله داخل معه في حكم الجواب متأخر عنه في الحصول أيضا ضرورة تقدم التخلية على التحلية {فمن كفر} أي برسلي أو بشيء مما عدد في حيز الشرط والفاء لترتيب بيان حكم من كفر على بيان حكم من آمن تقوية للترغيب بالترهيب {بعد ذلك} الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم الموجب للإيمان قطعا {منكم} متعلق بمضمر وقع حالا من فاعل كفر ولعل تغيير السبك حيث لم يقل وإن كفرتم عطفا على االشرطية السابقة لإخراج كفر الكل عن حيز الاحتمال وإسقاط من كفر عن رتبة الخطاب وليس المراد إحداث الكفر بعد الإيمان بل ما يعم الاستمرار عليه أيضا كأنه قيل فمن اتصف بالكفر بعد ذلك خلا أنه قصد بإيراد ما يدل على الحدوث بيان ترقيهم في مراتب الكفر فإن الاتصاف بشيء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمرار عليه لكنه بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث {فقد ضل سواء السبيل} أي وسط الطريق الواضح ضلالا بينا وأخطأه خطأ فاحشا لا غذر معه أصلا بخلاف من كفر قبل ذلك إذ ربما يمكن ان." (١)

"{ولما سقط فى أيديهم} أي ندموا غاية الندم فإن ذلك كناية عنه لأن النادم المتحسر يعض يده غما فتصير يده مسقوطا فيها وقرىء سقط على البناء للفاعل بمعنى وقع العض فيها فاليد حقيقة وقال الزجاج معناه سقط الندم في أنفسهم إما بطريق الاستعارة بالكناية أو بطريق التمثيل {ورأوا أنهم قد ضلوا} باتخاذ العجل أي تبينوا بحيث تيقنوا بذلك حتى كأنهم رأوه بأعينهم وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخرا عنها للمساعرة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية {قالوا} والله {لئن لم يرحمنا ربنا} بإنزال التوبة المكفرة {ويغفر لنا} ذنوبنا بالتجاوز عن خطيئتنا وتقديم الرحمة على المغفرة مع

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٥/٣

أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم واللام في لئن موطئة للقسم كما أشير إليه وفي قوله تعالى {لنكونن من الخاسرين} لجواب القسم وما حكي عنهم من الندامة والرؤية والقول وإن كان بعد." (١)

"{لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة} تفسيرا لتوليه تعالى إياهم ولا ريب في أن اعتبار القيد الأخير في مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين في تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك إذ التحصيل إنما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل إلا بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم ويستبشروا بمحاسن آثارها بل التولي بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره في عنوان الموضوع ثم الإخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل فالذي يقتضيه نظمه الكريم أن الأول تفسير للأولياء حسبما شرح والثاني بيان لما أولاهم من خيرات الدارين بعد بيان إنجائهم من شرورهما ومكارههما والجملة مستأنفة كما سبق كأنه قيل هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة فقيل لهم ما يسرهم في الدارين وتقديم الأول لما أن التخلية سابقة على التحلية مع ما فيه من مراعاة حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المقتريين وتعجيل إدخال المسرة بتبشير الخلاص عن الأهوال وتوسيط البيان السابق بين بشار الخلاص عن المحذور وبشارة الفوز بالمطلوب لإظهار كمال العناية بتفسير الأولياء مع الإيذان بأن انتفاء الخوف والحزن لاتقائهم عما يؤدي إليهما من الأسباب والبشرى مصدر أريد به المبشر به من الخيرات العاجلة كالنصر والفتح والغنيمة وغير ذلك والآجلة الغنية عن البيان وإيثار الإبهام والإجمال للإيذان بكونه وراء البيان والتفصيل والظرفان في موقع الحال منه والعامل ما في الخبر من معنى الاستقرار أي لهم البشرى حال كونها في الحياة الدنيا وحال كونها في الآخرة أي عاجلة وآجلة أو من الضمير المجرور أي حال كونهم في الحياة الخ ومن البشرى العاجلة الثناء الحسن والذكر الجميل ومحبة الناس عن أبي ذر رضي الله عنه قلت يا رسول الله الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس فقال صلى الله عليه وسلم تلك عاجل بشرى المؤمن هذا وقيل البشرى مصدر والظرفان متعلقان به أما البشرى في الدنيا فهي البشارات الواقعة للمؤمنين المتقين في غير موضع من الكتاب المبين وعن النبي صلى الله عليه وسلم هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٧٣/٣

أو ترى له وعنه صلى الله عليه وسلم ذهبت النبوة وبقيت المبشرات وعن عطاء لهم البشرى عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة قال الله تعالى تتزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة وأما البشرى في الآخرة فتلقي الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة وما يرون من بياض وجوهم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرءون منها وغير ذلك من البشارات فتكون هذه بشارة بما سيقع من البشارات العاجلة والآجلة المطلوبة لغاياتها لا لذواتها ولا يخفى أن صرف البشارة الناجزة." (١)

"{قل} لجمهور المشركين

{يا أيها الناس} أوثر الخطاب باسم الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ وإظهارا لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم

{إن كنتم فى شك من دينى} الذي أتعبد الله عز وجل به وأدعوكم إليه ولم تعلموا ما هو وما صفته

{فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله} في وقت من الأوقات

{ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم} ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب أي فاعلموا أنه تخصيص العبادة به ورفض عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا وتقديم ترك عبادة الغير على عبادته تعالى لتقدم **التخلية** على **التحلية** كما في كلمة التوحيد وللإيذان بالمخالفة من أول الأمر أو إن كنتم في شك من صحة ديني وسداده فاعلموا أن خلاصته إخلاص العبادة لمن بيده الإيجاد والإعدام دون ما هو بمعزل منهما من الأصنام فاعرضوها على عقولكم وأجيلوا فيها أفكاركم وانظروا فيها بعين الإنصاف لتعلموا أنه حق لا ريب فيه وفي تخصيص التوفي بالذكر متعلقا بهم ما لا يخفى من التهديد والتعبير عما هم فيه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل في هذا الباب هو الشك في صحته وأما القطع بعدمها فمما لا سبيل إليه أو إن كنتم في شك من ثباتي على الدين فاعلموا أني لا أتركه أبدا

{وأمرت أن أكون من المؤمنين} بما دل عليه العقل ونطق به الوحي وهو تصريح بأن ما هو عليه من دين التوحيد ليس بطريق العقل الصرف بل بالإمداد السماوي والتوفيق الإلهي وحذف حرف الجر من أن يجوز أن يكون من باب الحذف المطرد مع أن وأن يكون خاصا بفعل الأمر كما في قوله أمرتك الخير فافعل ما أمرت به." (٢)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٦٠/٤

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٧٩/٤

"{ألا تعبدوا إلا الله} مفعول له حذف عنه اللام مع فقدان الشرط أعني كونه فعلا لفاعل الفعل المعلل جريا على سنن القياس المطرد في حذف حرف الجر مع أن المصدرية كأنه قيل كتاب أحكمت آياته ثم فصلت لئلا تعبدوا إلا الله أي لتتركوا عبادة غير الله عز وجل وتتمحضوا في عبادته فإن الإحكام والتفصيل على ما فصل من المعاني مما يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد وما يتفرع عليه من الطاعات قاطبة وقيل أن مفسرة لما في التفصيل من معنى القول أي قيل لا تعبدوا إلا الله

{إنني لكم منه} من جهة الله تعالى

{نذير} أنذركم عذابه إن لم تتركوا ما أنتم عليه من الكفر وعبادة غير الله تعالى

{وبشير} أبشركم بثوابه إن آمنتم به وتمحضتم في عبادته ولما ذكر شؤون الكتاب من إحكام آياته وتفصيلها وكون ذلك من قبل الله تعالى وأورد معظم ما نظم في سلك الغاية والأمر من التوحيد وترك الإشراك وسط بينه وبين قرينيه أعني الاستغفار والتوبة ذكر أن من نزل عليه ذلك الكتاب مرسل من عند الله تعالى لتبليغ أحكامه وترشيحها بالمؤيدات من الوعد والوعيد للإيذان بأن التوحيد في أقصى مراتب الأهمية حتى أفرد بالذكر وأيد إيجابه بالخطاب غب الكتاب مع تلويح بأنه كما لا يتحقق في نفسه إلا مقارنا للحكم برسالته صلى الله عليه وسلم كذلك في الذكر لا ينفك أحدهما عن الآخر وقد روعي في سوق الخطاب بتقديم الإنذار على التبشير ما روعي في الكتاب من تقديم النفي على الإثبات **والتخلية** على **التحلية** ليتجاوب أطراف الكلام ويجوز أن يكون قوله تعالى ألا تعبدوا إلا الله كلاما منقطعا عما قبله واردا على لسانه صلى الله عليه وسلم إغراء لهم على اختصاصه تعالى بالعبادة كأنه صلى الله عليه وسلم قال ترك عبادة غير الله أي الزموه على معنى اتركوا عبادة غير الله تركا مستمرا إنني لكم من جهة الله تعالى نذير وبشير أي نذير أنذركم من عقابه على تقدير استمراركم على الكفر وبشير أبشركم بثوابه على تقدير ترككم له وتوحيدكم ولما سبق إليهم حديث التوحيد وأكد ذلك بخطاب الرسول صلى الله عليه وسلم على وجه الإنذار والتبشير شرع في ذكر ما هو من تتماته على وجه يتضمن تفصيل ما أجمل في وصف البشير والنذير فقيل." (١)

"{واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب} يعني أنه إنما حاز هذه الكمالات وفاز بتلك الكرامات بسبب أنه اتبع ملة آبائه الكرام ولم يتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد وإنما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه في الإيمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال وقدم ذكر تركه لملتهم على

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٨٣/٤

ذكر اتباعه لملة آبائه لأن التخلية متقدمة على التحلية

{ما كان} أي ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع

{لنا} معاشر الأنبياء لقوة نفوسنا ووفور علومنا

{أن نشرك بالله من شيء} أي شيء كان من ملك أو جني أو إنسي فضلا عن الجماد البحث

{ذلك} أي التوحيد المدلول عليه بقوله ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء

{من فضل الله علينا} أي ناشيء من تأييده لنا بالنبوة وترشيحه إيانا لقيادة الأمة." (١)

"{وإن تعدوا نعمة الله} تذكير إجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها وكان الظاهر إيراده عقيبها تكملة لها على طريقة قوله تعالى ويخلق مالا تعلمون ولعل فصل ما بينهما بقوله تعالى أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون للمبادرة إلى إلزام الحجة وإلقام الحجر إثر تفصيل ما فصل من الأفاعيل التي هي أدلة الوحدانية مع ما فيه من سر ستقف عليه ودلالتها عليها وإن لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها من حيثية الإنعام أيضا لكنها حيث كانت مستتبعات الحيثية الأولى استغني عن التصريح بهائم بين حالها بطريق الإجمال أي إن تعدو نعمته الفائضة عليكم مما ذكر وما لم يذكر حسبما يعرب عنه قوله تعالى هو الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا {لا تحصوها} أي لا تطيقوا حصرها وضبط عددها ولو إجمالا فضلا عن القيام بشكرها قد خرجنا عن عهدة تحقيقه في سورة إبراهيم بفضل الله سبحانه {إن الله لغفور} حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والإخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك {رحيم} حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وتذرون من أصناف الكفر التي من جملتها عدم الفرق بين الخالق وغيره وكل من ذلك نعمة وأيما نعمة فالجملة تعليل للحكم بعدم الإحصاء وتقديم وصف المغفرة على نعت الرحمة لتقدم التخلية على التحلية." (٢)

"{إن الله مع الذين اتقوا} تعليل لما سبق من الأمر والنهي والمراد بالمعية الولاية الدائمة التي لا تحوم حول صاحبها شائبة شيء من الجزع والحزن وضيق الصدر وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية المتقين إنما هي من حيث إنهم المباشرون للتقوى وكذا الحال في قوله سبحانه إن الله مع الصابرين ونظائرهما كافة والمراد بالتقوى المرتبة الثالثة منه الجامعة لما تحتها من مرتبة التوقي عن الشرك ومرتبة التجنب عن كل ما

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٧٧/٤

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٠٥/٥

يؤثم من فعل وترك أعني التنزه عن كل ما شغل سره عن الحق والتبتل إليه بشر اشر نفسه وهو التقوى الحقيقي المورث لولايته تعالى المقرونة ببشارة قوله سبحانه ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والمعنى أن الله ولي الذين تبتلوا إليه بالكلية وتنزهوا عن كل ما يشغل سرهم عنه فلم يخطر ببالهم شيء من مطلوب أومحذور فضلا عن الحزن بفواته أو الخوف من وقوعه وهو المعني بما به الصبر المأمور به حسبما أشير إليه وبه يحصل التقريب ويتم التعليل كما في قوله تعالى فاصبر إن العاقبة للمتقين على أحد التفسيرين كما حقق في مقامه وإلا فمجرد التوقي عن المعاصي لا يكون مدارا لشيء من العزائم المرخص في تركها فكيف بالصبر المشار إليه ورديفيه وإنما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل إن الله مع الذين صبروا وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم مبالغة في الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوت الجليلة وروادفه كما أن قوله تعالى {والذين هم محسنون} للإشعار بأنه من باب الإحسان الذي يتنافس فيه المتنافسون على ما فصل ذلك حيث قيل واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وقد نبه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الإحسان في قوله تعالى إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين وحقيقة الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق الذي هو حسنها الوصفي المستلزم لحسنها الذاتي وقد فسره عليه الصلاة والسلام بقوله أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك وتكرير الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم وتقديم التقوى على الإحسان لما أن التخلية متقدمة على التحلية والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين وهو عليه الصلاة والسلام داخل في زمرتهم دخولا أوليا وإما هو عليه الصلاة والسلام ومن شايعه عبر عنهم بذلك مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لإقتداء الأمة به كقول من قال لابن عباس رضي الله عنهما عند التعزية [اصبر نكن بك صابرين فإنما صبر الرعية عند صبر الرأس] عن هرم بن حيان أنه قيل له حين الاحتضار أوص قال إنما الوصية من المال وأوصيكم بخواتيم سورة النحل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله تعالى بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليلته كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية والحمد لله وحده والصلاة والسلام على رسوله وآله أجمعين." (١)

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٥٣/٥

"{ماكثين} حال من الضمير المجرور في لهم {فيه} أي في ذلك الأجر {أبدا} من غير انتهاء أي خالدين فيه وهو نصب على الظرفية لماكثين وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه مع مراعاة تقديم **التخلية** على **التحلية** وتكرير الإنذار بقوله تعالى." (١)

"٥٨ – ٦٠ {وربك} مبتدأ وقوله تعالى {الغفور} خبره وقوله تعالى {ذو الرحمة} أي الموصوف بها خبر بعد خبر وإيراد المغفرة على صيغة المبالغة دون الحرمة للتنبيه على كثرة الذنوب ولأن المغفرة ترك المضار وهو سبحانه قادر على ترك ما لا يتناهى من العذاب وأما الرحمة فهي فعل وإيجاد ولا يدخل تحت الوجود إلا ما يتناهى وتقديم الوصف الأول لأن **التخلية** قبل **التحلية** أو لأنه أهم بحسب الحال إذا المقام مقام بيان تأخر العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله عز وجل {لو يؤاخذهم} أي لو يريد مؤاخذتهم {بما كسبوا} من المعاصي التي من جملتها ما حكي عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات {لعجل لهم العذاب} لاستيجاب أعمالهم لذلك وإثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للإيذان بأن النفي المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبئ عنه تاليها وإثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضي لإفادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم إرادة المؤاخذة فإن المضارع الواقع موقع الماضي يفيد استمرار انتفاء الفعل فيما مضى كما حقق في موضعه {بل لهم موعد} اسم زمان هو يوم بدر أو يوم القيامة والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا بمؤاخذين بغتة {لن يجدوا} البتة {من دونه موئلا} منجى أو ملجأ يقال وأل أي نجا ووأل إليه أي لجأ إليه." (٢)

"أعظم من شفقة الأم وصنعها على موجب مراعاته تعالى وقيل هو بدل من إذ أوحينا على أن المراد به زمان متسع متباعد الأطراف وهو الأنسب بما سيأتي من قوله تعالى فنجيناك من الغم الخ فإن جميع ذلك من المنن الإلهية ولا تعلق لشيء منها الصنع المذكور وأما كونه ظرفا لألقيت كما جوز فربما يوهم أن إلقاء المحبة لم يحصل قبل ذلك ولا ريب في أن معظم آثار إلقائها ظهر عند فتح التابوت {فتقول} أي لفرعون وآسية حين رأتهما يطلبان له عليه السلام مرضعة يقبل ثديها وكان لا يقبل ثديا وصيغة المضارع في الفعلين لحاكية الحال الماضية {هل أدلكم على من يكفله} أي يضمه إلى نفسه ويربيه وذلك إنما يكون

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٠٣/٥

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٢٣١/٥

بقبوله ثديها يروى أنه فشا الخبر بمصر أن آل فرعون أخذوا غلاما في النيل لا يرتضع ثدي امرأة واضطروا إلى تبليغ النساء فخرجت أخته مريم لتعرف خبره فجاءتهم متنكرة فقالت ما قالت وقالوا ما قالوا فجاءت بأمه فقبل ثديها فالفاء في قوله تعالى {فرجعناك إلى أمك} فصيحة معربة عن محذوف قبلها يعطف عليه ما بعدها أي فقالوا دلينا عليها فجاءت بأمك فرجعناك إليها {كي تقر عينها} بلقائك {ولا تحزن} أي لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فإن التخلية متقدمة على التحلية وقيل ولا تحزن أنت بفقد إشفاقها {وقتلت نفسا} هي نفس القبطي الذي استغاثه الإسرائيلي عليه {فنجيناك من الغم} أي غم قتله خوفا من عقاب الله تعالى بالمغفرة ومن اقتصاص فرعون بالإنجاء منه بالمهاجرة إلى مدين {وفتناك فتونا} أي ابتليناك ابتلاء أو فتونا من الابتلاء على أنه جمع فتن أو فتنة على ترك الاعتداد بالتاء كحجوز في حجزة وبدور في بدرة أي خلصناك مرة أخرى وهو إجمال ما ناله في سفره من الهجرة عن الوطن ومفارقة الألاف والمشي راجلا وفقد الزاد وقد روي أن سعيد ابن جبير سأل عنه ابن عباس رضي الله عنهما فقال خلصناك من محنة بعد محنة ولد في عام كان يقتل فيه الولدان فهذه فتنة يا ابن جبير وألقته أمه في البحر وهم فرعون بقتله وقتل قبطيا وآجر نفسه عشر سنين وضل الطريق وتفرقت غنمه في ليلة مظلمة وكان يقول عند كل واحدة فهذه فتنة يا ابن جبير ولكن الذي يقتضيه النظم الكريم أن لا تعد إجارة نفسه وما بعدها من تلك الفتون ضرورة أن المراد بها ما وقع قبل وصوله عليه السلام إلى مدين بقيضة الفاء في قوله تعالى {فلبثت سنين فى أهل مدين} إذ لا ريب في أن الإجارة المذكورة وما بعدها مما وقع بعد الوصول إليهم وقد أشير بذكر لبثه عليه السلام فيهم دون وصوله إليهم إلى جميع ما قاساه عليه السلام في تضاعيف تلك السنين العشر من فنون الشدائد والمكاره التى كل واحد منها فتنة وأي فتنة ومدين بلدة شعيب عليه الصلاة والسلام على ثماني مراحل مصر {ثم جئت} إلى المكان الذين أونس فيه النار ووقع فيه النداء والجؤار وفي كلمة التراخي إيذان بأن مجيئه عليه السلام كان بعد اللتيا والتى من ضلال الطريق وتفرق الغنم في الليلة المظلمة الشاتية وغير ذلك {على قدر} أي تقدير قدرته لأن أكلك وأستنبئك في وقت قد عينته لذلك فما جئت إلا على ذلك القدر غير مستقدم ولا مستأجر وقيل على مقدار من الزمان يوحى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام وهو رأس أربعين سنة وقوله تعالى {يا موسى} تشريف

له عليه الصلاة والسلام وتنبيه على انتهاء الحكاية التي هي تفصيل المرة الأخرى التي وقعت قبل المرة المحكية أولا." (١)

"{فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون} {وله الحمد في السماوات والارض وعشيا وحين تظهرون} إثر ما بين حال فريقي المؤمنين العاملين للصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لهما من الثواب والعذاب أمروا بما ينجي من الثاني ويفضي إلى الأول من تنزيه الله عز وجل عن كل مالا يليق بشأنه سبحانه ومن حمده تعالى على نعمه العظام وتقديم الأول على الثاني لما أن **التخلية** متقدمة على **التحلية** والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها أي إذا علمتم ذلك فسبحوا الله تعالى أي نزهوه عما ذكر سبحانه أي تسبيحه اللائق في هذه الأوقات واحمدوه فإن الإخبار بثبوت الحمد له تعالى ووجوبه على المميزين من أهل السموات والأرض في معنى الأمر به على أبلغ وجه وآكده وتوسيطه بين أوقات التسبيح للاعتناء بشأنه والإشعار بأن حقهما أن يجمع بينهما كما ينبيء عنه قوله تعالى ونحن نسبح بحمدك وقوله تعالى فسبح بحمد ربك وقوله صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر وقوله صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسي سبحان الله وبحمده مائة مرة لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا أحد قال مثل ما قال اوزاد عليه وقوله صلى الله عليه وسلم كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وغير ذلك مما لا يحصى من الآيات والأحاديث وتخصيصهما بتلك الأوقات للدلالة على أن ما يحدث فيها من آيات قدرته واحكام." (٢)

"{وأن اعبدونى} عطف على أن لا تعبدوا على أن فيهما مفسرة للعهد الذي فيه معنى القول بالنهي والأمر أو مصدرية حذف عنها الجار أي ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي وتقديم النهي على الأمر لما أن حق **التخلية** التقدم على **التحلية** كما في كلمة التوحيد وليتصل به قوله تعالى {هذا صراط مستقيم} فإنه إشارة إلى عبادته تعالى التي هي عبارة عن التوحيد والإسلام وهو المشار إليه بقوله

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٦/٦

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٥٤/٧

تعالى هذا صراط على مستقيم والمقصود بقوله تعالى لاقعدن لهم صراطك المستقيم والتنكير للتفخيم واللام في قوله تعالى." (١)

"{ ٦ ١٨

به مبالغة وقرئ لذة بالرفع على أنها صفة أنهار وبالنصب على العلة أي لأجل لذة الشاربين {وأنهار من عسل مصفى} لا يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرها وفي هذا تمثيل لما يجري مجرى الأشربة في الجنة بأنواع ما يستطاب منها ويستلذ في الدنيا **بالتخلية** عما ينغصها وينقصها **والتحلية** بما يوجب غزارتها ودوامها {ولهم فيها} مع ما ذكر من فنون الأنهار {من كل الثمرات} أي صنف من كل الثمرات {ومغفرة} أي ولهم مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها وقوله تعالى {من ربهم} متعلق بمحذوف هو صفة لمغفرة مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي كائنة من ربهم وقوله تعالى {كمن هو خالد فى النار} خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد في هذه الجنة حسبما جري به الوعد كمن هو خالد فى النار كما نطق به قوله تعالى والنار مثوى لهم وقيل هو خبر لمثل الجنة على أن في الكلام حذفا تقديره أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد فى النار أو أمثل أهل الجنة كمثل من هو خالد في النار فعري عن حرف الإنكار وحذف ما حذف تصويرا لمكابرة من يسوي بين المتمسك بالبينة وبين التابع للهوى بمكابرة من سوى بين الجنة الموصوفة بما فصل من الصفات الجليلة وبين النار {وسقوا ماء حميما} مكان تلك الأشربة {فقطع أمعاءهم} من فرط الحرارة قيل إذادنا منهم شوى وجوههم وانمارت فروة رؤسهم فإذا شربوه قطع أمعاءهم." (٢)

"{سابقوا} أي سارعوا مسارعة المسابقين لأقرانهم في المضمار {إلى مغفرة} عظيمة كائنة {من ربكم} أي إلى موجباتها من الأعمال الصالحة {وجنة عرضها كعرض السماء والأرض} أي كعرضهما جميعا وإذا كان عرضها كذلك فماظنك بطولها وقيل المراد بالعرض البسطة وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم **التخلية** على **التحلية** {أعدت للذين آمنوا بالله ورسله} فيه دليل على أن الجنة مخلوقة بالفعل وأن الإيمان وحده كاف في استحقاقها {ذلك} الذي وعد من المغفرة والجنة {فضل الله} عطاؤه {يؤتيه} تفضلا

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ١٧٥/٧

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٩٦/٨

وإحسانا {من يشآء} إيتاءه إياه من غير إيجاب {والله ذو الفضل العظيم} ولذلك يؤتى من يشاء مثل ذلك الفضل الذي لا غاية وراءه." (١)

"وقال القشيري: قوله تعالى: اهدنا الصراط المستقيم الأمر في هذه الآية مضمر، أي: قولوا: اهدنا. والصراط المستقيم: طريق الحق، وهو ما عليه أهل التوحيد، أي: أرشدنا إلى الحق لئلا نتكل على وسائط المعاملات، فيقع على وجه التوحيد غبار الظنون والحسابات لتكون دليلنا عليك. ثم قال: صراط الذين أنعمت عليهم أي: الواصلين بك إليك، ثم قال: غير المغضوب عليهم بنسيان التوفيق والتعامي عن رؤية التأييد، ولا الضالين عن شهود سابق الاختيار، وجريان تصاريف الأقدار. هـ.

تتمات:

الأولى: هذه السورة جمعت معانى القرآن كلها، فكأنها نسخة مختصرة منه، ولذلك سميت أم القرآن، فالإلهيات حاصلة من قوله: الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم، والدار الآخرة من قوله: مالك يوم الدين، والعبادات كلها من الاعتقادات والأحكام الظاهرة التي تقتضيها الأوامر والنواهي، من قوله: إياك نعبد والمقامات وأسرار المعاملات الباطنة- **تخلية وتحلية-** من قوله: اهدنا الصراط المستقيم والأنبياء وغيرهم من قوله: الذين أنعمت عليهم وذكر طوائف الكفار من قوله: غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وقال الشيخ ابن أبي جمرة رضى الله عنه فى بيان تضمنها لكتاب الله: إن لفظ (الحمد) يتضمن كل ما في كتاب الله من الحمد والشكر لأن الحمد أعم من الشكر، وأتى بالعام ليدل على الصفتين. ولفظة (الله) تدل على ما فى الكتاب العزيز من أسماء الترفيع والتعظيم لأنه قيل: أنه اسم الله الأعظم، ولفظ: رب العالمين يدل على ما فيه من أسماء الله، سبحانه، وعلى العوالم وعلى اختلافها وخالقها والمتصرف فيها. ولفظ: الرحمن الرحيم يتضمن كل ما فى الكتاب من المغفرة والرحمة والإنعام والعفو والإفضال، ولفظ مالك يوم الدين يدل على ما فيه من ذكر الآخرة وما فيه من الأهوال، ولفظ إياك نعبد يتضمن ما فيه من التعبدات وإفراده بالألوهية، ولفظ إياك نستعين يدل علی ما فيه من طلب الاستعانة وذكر الاضطرار، ولفظ اهدنا الصراط المستقيم يتضمن ما فيه من طلب الهداية إلى سبيل الخير، ولفظ: صراط الذين أنعمت عليهم

---

(١) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم أبو السعود ٨/٢١١

يتضمن ما فيه من ذكر الخصوص والمرضى عنهم والمعفو عنهم وأهل السعادة، ولفظ غير المغضوب عليهم يتضمن ما فيه من أنواع الكفر والمخالفات ومساوئهم ومآلهم فاستحقت أن تسمى أما. هـ.." (١)

"قال بعض العارفين: (لي أربعون سنة ما أقامني الحق في شيء فكرهته، ولا نقلني إلى غيره فسخطته) .

بخلاف السفهاء من الجهال، فشأنهم الإنكار عند اختلاف الأحوال، فمن رأوه تجرد عن الأسباب وانقطع إلى الكريم الوهاب، قالوا: ما ولاه عن حاله الذي كان عليه؟ وأكثروا من الاعتراض والانتقاد عليه، وكذلك من رأوه رجع إلى الأسباب بعد الكمال، قالوا: قد انحط عن مراتب الرجال. وهو إنما زاد في مراتب الكمال. فالملك كله لله، يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ويضل من يشاء بعدله الحكيم.

ثم شهد الحق تعالى لهذه الأمة بالعدالة والفضل، فقال:

وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ...

قلت: (الوسط) هو العدل الخير الفاضل، وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، كالجود بين الإسراف والبخل، والشجاعة بين التهور والجبن، ثم أطلق على المتصف بها مستويا فيه الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. قاله البيضاوي.

يقول الحق جل جلاله: وكما جعلناكم مهتدين إلى الصراط المستقيم، وجعلنا قبلتكم أفضل الجهات، جعلناكم أمة أفضل الأمم، خيارا عدولا مزكين بالعلم والعمل، لتصلحوا للشهادة على غيركم، فتكونوا يوم القيامة شهداء على الناس، ويزكيكم نبيكم فيشهد بعدالتكم.

قال البيضاوي: روي (أن الأمم يوم القيامة يجحدون تبليغ الأنبياء، فيطالبهم الله ببينة التبليغ وهو أعلم بهم، إقامة للحجة على المنكرين، فيؤتى بأمة محمد صلى الله عليه وسلم فيشهدون، فتقول الأمم: من أين عرفتم؟ فيقولون: علمنا ذلك بإخبار الله في كتابه الناطق على لسان نبيه الصادق. فيؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته فيشهد بعدالتهم) .

وهذه الشهادة، وإن كانت لهم، لكن لما كان الرسول كالرقيب المهيمن على أمته عدي بعلى، وقدمت الصلة للدلالة على اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم. هـ.

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٦٨/١

الإشارة: التفاضل بين الرجال إنما يكون بالعلم والحال، فمن قوي علمه بالله كان أعظم قدرا عند الله، والعلم الذي به الشرف عند الله هو العلم بذات الله وبصفاته وأسمائه، وكذا العلم بأحكام الله إذا حصل معه العلم بالله، فكلما انكشف الحجاب عن القلب كان أقرب إلى الرب، وانكشاف الحجاب يكون على قدر **التخلية** **والتحلية**، فبقدر ما يتخلى القلب عن الرذائل، ويبعد عن القواطع والشواغل، ويتحلى بأنواع الفضائل، ينكشف عنه الحجاب ويدخل مع." (١)

"قلت: كانت الأنصار إذا حجوا أو اعتمروا، يقولون: لا يحول بيننا وبين السماء سقف، حتى يدخلوا بيوتهم، فإذا رجعوا تسوروا الجدران، أو نقبوا في ظهور بيوتهم، فجاء رجل منهم فدخل من الباب، فعير بذلك، فأنزل الحق جل جلاله: وليس البر أي: الطاعة، بأن تأتوا البيوت من ظهورها فتتسوروها، أو تنقبوا من أعلاها، ولكن البر من اتقى المحارم وخالف الشهوات.

أو: ليس البر بأن تعكسوا مسائلكم بأن تسألوا عما لا نفع لكم فيه، وتتركوا مسائل العلم التي تنفعكم في العاجل والآجل. ولكن البر من اتقى ذلك، وأتوا بيوت العلم من أبوابها، فتحسنون السؤال وتتأدبون في المقال، وتقدمون الأهم فالأهم، والأنفع فالأنفع. واتقوا الله فلا تغيروا أحكامه، ولا تعترضوا على أفعاله، لعلكم تفلحون بتوفيقه وهدايته.

الإشارة: اعلم أن البيوت التي يدخلها المريد ثلاثة: بيت الشريعة وبيت الطريقة وبيت الحقيقة، ولكل واحد أبواب فمن أتى البيت من بابه دخل. ومن أتاه من غيره طرد.

فبيت الشريعة له ثلاثة أبواب: الباب الأول: التوبة، فإذا دخل هذا الباب، وحقق التوبة بأركانها وشروطها، استقبله باب الاستقامة، وهي: متابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله، فإذا دخله، وحقق الاستقامة، استقبله باب التقوى بأقسامها. فإذا حقق التقوى ظاهرا وباطنا، دخل بيت الشريعة المطهرة، وتنزه في محاسنه ومعانيه، ثم يروم دخول بيت الطريقة، وله ثلاثة أبواب:

الباب الأول: الإخلاص وهو: إفراد العمل لله من غير حرف ولا حظ، فإذا حقق الإخلاص استقبله باب **التخلية** وهى التطهير من العيوب الباطنة، وهي لا تنحصر، لكن من ظفر بالشيخ أطلعه عليها، وعلمه أدويتها، فإذا حقق **التخلية** استقبله باب **التحلية**، وهي: الاتصاف بأنواع الفضائل كالصبر والحلم والصدق والطمأنينة والسخاء والإيثار، وغير ذلك من أنواع الكمالات. فإذا حقق الإخلاص **والتخلية** **والتحلية** فقد

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١/١٧٤

حقق بيت الطريقة، ثم يستقبله بيت الحقيقة.
فأول ما يقرع باب المراقبة، وهي: حفظ القلب والسر من الخواطر الردية، فإذا تطهر القلب من الخواطر الساكنة، استشرف على باب المشاهدة، وهى: محو الرسوم في مشاهدة أنوار الحي القيوم، أو تلطيف الأواني عند ظهور المعاني، فإذا دخل باب المشاهدة، وسكن فيها، استقبله باب المعرفة، وهي محل الرسوخ والتمكين، وهي الغاية والمنتهى، فبيت الحقيقة هو مسجد الحضرة الربانية. وما بقي بعدها إلا الترقي في المقامات، وزيادة المعارف والكشوفات أبدا سرمدا، منحنا الله من ذلك حظا وافرا بمنه وكرمه.." (١)

"للأنصار: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر، وكتموا صفته- عليه الصلاة والسلام-. ووضع الظاهر موضع المضمر وكأنه يقول: وأعتدنا لهم، إشعارا بأن من هذا شأنه فهو كافر بنعمة الله تعالى، ومن كفر بنعمة الله وأهانها استحق عذابا مهينا.
والذين ينفقون أموالهم رئاء الناس طلبا لمدحهم وخوفا من ذمهم، ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، يتحرون بإنفاقهم مراضية، فالشيطان قرينهم لا يفارقهم، ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا، فلما كان الشيطان قرينهم زين لهم التهالك على الأموال والرياء في الأعمال، وإنما أشرك أهل الرياء مع البخلاء في الوعيد من حيث إنهما طرفا تفريط وإفراط، وهما سواء في القبح واستجلاب الذم.
وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله أي: لا ملامة عليهم ولا تبعة تحيق بهم لو أخلصوا الإيمان وأنفقوا مما رزقهم الكريم المنان. قال البيضاوي: وفيه تنبيه على أن المدعو إلى أمر لا ضرر فيه ينبغي أن يجيب إليه احتياطا، فكيف إذا تضمن المنافع. وإنما قدم الإيمان هاهنا وأخره في الآية الأخرى: لأن القصد بذكره هنا التخصيص، وثم التقليل. هـ. وكان الله بهم عليما لا يخفى عليه شيء من أمورهم وقصدهم.
الإشارة: قال بعض الصوفية: (من أقبح كل قبيح صوفي شحيح) ، فالصوفية العارفون- رضى الله عنهم- الذين هم صفوة العباد متخلقون بأضداد ما وسم به الحق- تعالى- أهل العناد، فهم يجودون بأنفسهم وما خصهم الله بهم من العلوم اللدنية والأسرار القدسية، على من يستحقه من أهل التخلية والتحلية، ويأمرون الناس بالسخاء ومكارم الأخلاق، ويتحدثون بما منحهم الملك الخلاق، ويظهرون الغنى بالله والاكتفاء به عن كل ما سواه، وإذا بذلوا أموالهم أعطوها لله وبالله ومن الله وإلى الله وابتغاء مرضاة الله، هجم عليهم

---
(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٢١/١

اليقين، وتمكنوا من شهود رب العالمين، فلا يقرب ساحتهم الشيطان، ولا يرون في الدارين إلا الملك الديان، تحبهم ملائكة الرحمن، ويحن إليهم الأنس والجان. نفعنا الله بمحبتهم، وخرطنا في مسلكهم، آمين.
ثم رغب الحق- تعالى- فى الإنفاق مع الإخلاص، الذي هو عنوان الدين الخاص، فقال:

[سورة النساء (٤) : آية ٤٠]
إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما (٤٠)
قلت: الذرة: النملة الصغيرة الحمراء. وتطلق على جزء من أجزاء الهباء. ومن نصب (حسنة) فخبر كان. وأنث الضمير باعتبار الخبر. أو لإضافة مثقال إلى ذرة، فاكتسب التأنيث، ومن رفع فهي تامة، وحذف نونها على غير قياس، تشبيها لها بحروف العلة. وضاعف وضعف بمعنى واحد.." (١)

"الكعبة، وقال: لو علمت أنه رسول الله «١» ما منعته، فلوى علي يده، وأخذها منه، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح، ويجمع له السدانة والسقاية، فأمره الله- تعالى- أن يرده إليه، فأمر عليا بأن يرده ويعتذر إليه، وكان ذلك سببا لإسلام عثمان، ونزل الأمر بأن السدانة في أولاده أبدا.
يقول الحق جل جلاله: إن الله يأمركم، يا معشر الأمراء، أن تردوا الأمانات إلى أهلها من أنفسكم، أو من رعيتكم فتنصفوا المظلوم من الظالم، حتى يؤدي ما ائتمن عليه من دين، أو وديعة، أو غصب، أو سرقة، أو غير ذلك من حقوق العباد، بعضهم من بعض، وأن تؤدوا الزكاة إلى من يستحقها، وتصرفوا بيت المال فيمن يستحقه، لا تظلموا أهلها، ولا تضيعوا منها شيئا في غير مستحقها.
ويأمركم إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل في من ينفذ عليه حكمكم، إن الله نعما يعظكم به أي: إن الله يعظكم بأمر نعم ما هو، إن الله كان سميعا بصيرا لا يخفى عليه أحكامكم، ولا ما أخفيتم من أمانات غيركم.
الإشارة: أمر الحق- جل جلاله- شيوخ التربية أن يؤدوا السر إلى من يستحقه من الفقراء، إذا تحققوا أهليتهم له، بحيث تخلوا عن الرذائل، كالحسد والكبر وغيرهما، وتحلوا بالفضائل، كسلامة الصدر وسخاوة النفوس وحسن الخلق، وغير ذلك من أوصاف الكمال، فإن تحققوا **بالتخلية** **والتحلية**، استحقوا الاطلاع على

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥٠٤/١

أسرار الربوبية، التي هي أمانات عند أهل الخصوصية، وأمرهم أن يحكموا بين الفقراء بالعدل، فيمدوا كلا على قدر صدقه وخدمته، والله تعالى أعلم.

ثم أمر الحق تعالى بطاعة الأمراء الذين أمرهم بالعدل وأداء الأمانة، فقال:

[سورة النساء (٤) : آية ٥٩]

يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا (٥٩)

أعاد العامل في قوله: (وأطيعوا الرسول) ، إشارة إلى استقلال الرسول بالطاعة، ولم يعده في أولي الأمر إشارة إلى أنه يوجد منهم من لا تجب طاعته، ثم بينه بقوله: فإن تنازعتم في شيء كأنه قيل: فإن لم يعملوا بالحق فلا تطيعوهم، وردوا ما تخالفتم فيه إلى حكم الله ورسوله. قاله الطيبي، وسيأتي تحرير ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) أي: أنه مرسل من عند الله.." (١)

"ويصطفيهم لحضرته، روي أنه لما نزل تحريم الخمر، قالت الصحابة- رضى الله عنهم-: يا رسول الله فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر؟ فنزلت.

ويحتمل أن يكون هذا التكرير باعتبار الأوقات الثلاثة، أي: الماضي والحال والاستقبال، أو باعتبارات الحالات الثلاثة. فيستعمل التقوى فيما بينه وبين نفسه بالتزكية **والتحلية**، وفيما بينه وبين الناس بالكف عن التعرض لهم، وفيما بينه وبين الله بامتثال أمره واجتناب نهيه والغيبة عن غيره، ولذلك بدل الإيمان بالإحسان في الكرة الثالثة، أو باعتبار المراتب الثلاثة المبدأ والوسط والنهاية، أو باعتبار ما يتقى فإنه ينبغي أن يتقي المحرمات توقيا من العقاب، ثم يتقي الشبهات تحفظا من الحرام، ثم يتقي بعض المباحات تحفظا للنفس عن خسة الشره، وتهذيبا لها عن دنس الطبيعة، قال معناه البيضاوي.

الإشارة: المقامات التي يقطعها المريد ثلاث: مقام الإسلام، ومقام الإيمان، ومقام الإحسان، فما دام المريد مشتغلا بالعمل الظاهر من صلاة وصيام وذكر اللسان، سمي مقام الإسلام، فإذا انتقل لعمل الباطن

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٥١٨/١

من تخلية وتحلية وتهذيب وتصفية، سمي مقام الإيمان، فإذا انتقل لعمل باطن الباطن من فكرة ونظرة وشهود وعيان سمي مقام الإحسان، وهذا اصطلاح الصوفية سموا ما يتعلق بإصلاح الظواهر: إسلاما، وما يتعلق بإصلاح القلوب والضمائر: إيمانا، وما يتعلق بإصلاح الأرواح والسرائر: إحسانا. وجعل الساحلي في البغية كل مقام مركبا من ثلاثة مقامات، فالإسلام مركب من التوبة والتقوى والاستقامة، والإيمان مركب من الإخلاص والصدق والطمأنينة، والإحسان مركب من مراقبة ومشاهدة ومعرفة. وأطال الكلام في كل مقام، لكن من سقط على شيخ التربية لم يحتج إلى شيء من هذا التفصيل. وبالله التوفيق.
ثم تكلم على حرمة الصيد فى الإحرام تبيينا لقوله: غير محلي الصيد وأنتم حرم، فقال:

]سورة المائدة (٥) : الآيات ٩٤ الى ٩٦]
يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم (٩٤) يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما ليذوق وبال أمره عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام (٩٥) أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم وللسيارة وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرما واتقوا الله الذي إليه تحشرون (٩٦)." (١)

"قلت: جملة (لا نكلف) : معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب النعيم المقيم، بما تسعه طاقتهم، ويسهل عليهم، و (ما كنا لنهتدي) : اللام لتأكيد النفي، وجواب «لولا» : محذوف، أي: لولا هدايته إيانا ما اهتدينا.
يقول الحق جل جلاله: والذين آمنوا بالرسل، وعملوا الأعمال الصالحات على قدر طاقتهم، لا نكلف نفسا إلا وسعها أي: ما تسعه طاقتها، فمن فعل ذلك ف أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. ونزعنا ما في صدورهم من غل أي: نخرج من قلوبهم كل غل وعدواة، ونطهرها منه، حتى لا يكون بينهم إلا التودد، فيصيرون أحبابا وإخوانا، وإنما عبر بالماضي لتحقق وقوعه، كأنه وقع ومضى، وكذلك ما يجيء بعدها، ثم وصف الجنة فقال: تجري من تحتهم أي: من تحت قصورهم، الأنهار من عسل وخمر وماء ولبن زيادة في

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٧٥/٢

لذتهم وسرورهم، فالقصور مرتفعة في الهواء، والأنهار تجري تحتها.
وقالوا حينئذ: الحمد لله الذي هدانا لهذا أي: لما جزاؤه هذا النعيم من الإيمان في الدنيا والعمل الصالح، وما كنا لنهتدي بأنفسنا لولا أن هدانا الله بتوفيقه وإرادته، لقد جاءت رسل ربنا بالحق فاهتدينا بإرشادهم، يقولون ذلك اغتباطا وتبجحا بأن ما عملوه في الدنيا يقينا، صار لهم عين اليقين في الآخرة، ونودوا أي: نادتهم الملائكة، أو الحق تعالى: أن تلكم الجنة أي: هذه الجنة أورثتموها أي:
أعطيتموها بما كنتم تعملون أي: بسبب أعمالكم، وهذا باعتبار الشريعة، وأما باعتبار الحقيقة فكل شيء منه وإليه. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «لن يدخل الجنة أحدكم عمله، قالوا: ولا أنت، قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته» «١» .
فالشريعة تنسب العمل للعبد، والحقيقة تعزله عنه، وقد آذنت بها الآية قبله بقوله: وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، فقد نطقوا بما تحققوا به يوم القيامة.
وقال القشيري: إنما قال: أورثتموها بما كنتم تعملون تسكينا لقلوبهم، وتطييبا لهم، وإلا، فإذا رأوا تلك الدرجات، علموا أن أعمالهم المشوبة لم تبلغ تلك الدرجات. هـ. وعن ابن مسعود أنه قال: (يجوزون الصراط بعفو الله، ويدخلون الجنة برحمة الله، ويقتسمون المنازل بأعمالهم) . هـ.
الإشارة: والذين آمنوا بطريق الخصوص، وعملوا الأعمال التي تناسبها، من خرق العوائد واكتساب الفوائد، **والتخلية** من الرذائل **والتحلية** بأنواع الفضائل على حسب الطاقة أولئك أصحاب جنة المعارف، هم فيها خالدون في الدنيا والآخرة، قد نزع الله من قلوبهم المساوىء والأكدار، وطهرها من جملة الأغيار، حتى صاروا إخوانا متحابين لا لغو بينهم ولا تأثيم، تجري من تحت أفكارهم أنهار العلوم، وتفتح لهم مخازن الفهوم، فإذا تمكنوا من

---

(١) أخرجه البخاري فى (الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل) من حديث السيدة عائشة- رضى الله عنها.." (١)

"وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: «كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟! أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده كل شيء؟ أي: وظهر بكل شيء» . وفي ذلك يقول الشاعر:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢١٧/٢

عجبت لمن يبغي عليك شهادة ... وأنت الذي أشهدته كل شاهد

وقال آخر:

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يبصر القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبا ... وكيف يبصر من بالعزة استترا

وأهل طمأنينة الإيمان على قسمين باعتبار القرب والبعد: فمنهم من يطمئن بوجود الحق على نعت القرب والأنس، وهم أهل المراقبة من الزهاد والصالحين، والعلماء العابدين المجتهدين، وهم متفاوتون في القرب على قدر تفرغهم من الشواغل والعلائق، وعلى قدر **التخلية والتحلية**. ومنهم من يطمئن إليه على نعت البعد من قلبه، وهم أهل الشواغل والشواغب، والعلائق والعوائق. وعلامة القرب: وجود حلاوة المعاملة، كلذيذ المناجاة، والأنس به في الخلوات، ووجود حلاوة القرآن والتدبر في معانيه، حتى لا يشبع منه في كل أوان. وعلامة البعد: فقد الحلاوة المذكورة، وعدم الأنس به في الخلوة، وفقد حلاوة القرآن، ولو كان من أعظم علماء اللسان.

وأهل طمأنينة الشهود على قسمين أيضا: فمنهم من تشرق عليه الأنوار، وتحيط به الأسرار، فيغرق في الأنوار وتطمس عنه الآثار، فيسكر ويغيب عن الأثر في شهود المؤثر، ويسمى عندهم هذا المقام: مقام الفناء. ومنهم من يصحو من سكرته، ويفيق من صعقته، فيشهد المؤثر، لا يحجبه جمعه عن فرقه، ولا فرقة عن جمعه، ولا يضره فناؤه عن بقائه، ولا بقاؤه عن فنائه، يعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه، وهو مقام البقاء، ولا يصح وجوده إلا بعد وجود ما قبله، فلا بقاء إلا بعد الفناء، ولا صحو إلا بعد السكر. ومن ترامى على هذا المقام- أعني مقام البقاء- من غير تحقيق مقام السكر والفناء فهو لم يبرح عن مقام أهل الحجاب.

واعلم أن طمأنينة الإيمان تزيد وتنقص، وطمأنينة العيان، إن حصلت، تزيد ولا تنقص. فمواد أسباب زيادة طمأنينة الإيمان أشياء متعددة، فمنهم من تزيد طمأنينته بالتفكر والاعتبار، إما في عجائب المصنوعات وضروب المخلوقات، فيطمئن إلى صانع عظيم القدرة باهر الحكمة. وإما بالنظر في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، وباهر علمه، وعجائب حكمه وأسراره، وإخباره بالأمور الغيبية السابقة والآتية، مع كونه نبيا أميا. فإذا تحقق بمعرفة الرسول فقد." (١)

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٢٦

"قلت: (من) : للبيان، قدمت على المبين اعتناء، فالقرآن كله شفاء. وقيل: للتبيعض، والمعنى: أن منه ما يشفي من المرض الحسي، كالفاتحة وآية الشفاء، ومن المرض المعنوي، كآيات كثيرة.

يقول الحق جل جلاله: وننزل من القرآن ما هو شفاء لما في الصدور، ومن سقام الريب والجهل، وأدواء الأوهام والشكوك، ورحمة للمؤمنين به، العالمين بما احتوى عليه من عجائب الأسرار وغرائب العلوم، المستعملين أفكارهم وقرائحهم في الغوص على درره ويواقيته، أي: وننزل ما هو تقويم دينهم واستصلاح نفوسهم، ورفع الأوهام والشكوك عنهم، كالدواء الشافي للمرض، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «من لم يستشف بالقرآن لا شفاه الله» «١» . ولا يزيد الظالمين الكافرين المكذبين، الواضعين الأشياء في غير محلها، مع كونه في نفسه شفاء من الأسقام، إلا خسارا إلا هلاكا بكفرهم وتكذيبهم به. ولا يفسر الخسران هنا بالنقصان فإن ما بهم من داء الكفر والضلال حقيق بأن يعبر عنه بالهلاك، لا بالنقصان المنبئ عن حصول بعض مبادئ الإسلام، فهم في الزيادة في مراتب الهلاك، من حيث إنهم، كلما جددوا الكفر والتكذيب بالآيات النازلة ازدادوا بذلك هلاكا.

وفيه إيماء إلى أن ما بالمؤمنين من الشبه والشكوك المعترية لهم في أثناء الاهتداء والاسترشاد، بمنزلة الأمراض، وما بالكفرة من الجهل والعناد بمنزلة الموت والهلاك، وإسناد زيادة الخسران إلى القرآن، مع أنهم هم المزدادون في ذلك بسوء صنيعهم باعتبار كونه سببا لذلك، حيث كذبوا به، وفيه تعجيب من أمره حيث جعله مدار الشفاء والهلاك. قاله أبو السعود.

الإشارة: لا يحصل الاستشفاء بالقرآن إلا بعد التصفية والتطهير للقلب، **بالتخلية والتحلية**، على يد شيخ كامل، عارف بأدواء النفوس، حتى يتفرغ القلب من الأغيار والأكدار، ويذهب عنه وساوس النفوس وخواطر القلوب ليتفرغ لسماع القرآن والتدبر في معانيه. وأما إن كان القلب محشوا بصور الأكوان، مصروفا إلى الخواطر والأغيار، لا يذوق له حلاوة، ولا يدري ما يقول، فلا يهتدي لما فيه من الشفاء، إذ لا يستشفي بالقرآن إلا من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد. ولأجل ذلك كان من شأن شيوخ التربية أن يأمروا المريد بالذكر المجرد، حتى تشرق عليه أنواره، وتذهب به عنه أغياره. وحينئذ يأمره بتلاوة القرآن ليذوق حلاوته، فإذا كمل تطهيره، تمتع بحلاوة شهود المتكلم، فيسمعه من الحق بلا واسطة، وهو المراد بالرحمة المذكورة بعد الشفاء. والله تعالى أعلم.

وإذا أدرك العبد هذه النعمة العظمى، وجب عليه دوام الشكر، كما نبه عليه تعالى بذكر ضدها، فقال:

[سورة الإسراء (١٧) : الآيات ٨٣ الى ٨٤]

وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤسا (٨٣) قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا (٨٤)

---

(١) عزاه فى الكنز (٢٨١١٠٦) للدارقطني فى الأفراد، عن أبى هريرة رضي الله عنه.." [١]

"ولم يجعل له أي: للكتاب عوجا شيئا من العوج، باختلاف في اللفظ، وتناقض في المعنى، وانحراف في الدعوة. قال القشيري: صانه عن التناقض والتعارض، فهو كتاب عزيز من رب عزيز، ينزل على عبد عزيز. قيما: مستقيما متناهيا في الاستقامة، معتدلا لا إفراط فيه ولا تفريط، فهو تأكيد لما دل عليه نفي العوج، مع إفادته كون ذلك من صفاته الذاتية، حسبما تنبئ عنه الصيغة. أو قيما بالمصالح الدينية والدنيوية للعباد، على ما ينبئ عنه ما بعده من الإنذار والتبشير، فيكون وصفا له بالتكميل، بعد وصفه بالكمال، أو: قيما على ما قبله من الكتب السماوية، وشاهدا بصحتها ومهيمنا عليها. لينذر: ليخوف الله تعالى به، أو الكتاب، والأول أولى لتناسب المعطوفين بعده، أي: أنزل الكتاب لينذر بما فيه الذين كفروا بأسا: عذابا شديدا من لدنه أي:

صادرا من عنده، نازلا من قبله، في مقابلة كفرهم وتكذيبهم.

ويبشر- بالتشديد والتخفيف، المؤمنين: المصدقين به، الذين يعملون أي: العمال الصالحات التي تنبث في تضاعيفه أن لهم أي: بأن لهم في مقابلة إيمانهم وأعمالهم أجرا حسنا، هو الجنة وما فيها من المثوبات الحسنى، ماكثين فيه أي: في ذلك الأجر أبدا على سبيل الخلود. والتعبير بالمضارع في الصلة- أعني: الذين يعملون- للإشعار بتجدد الأعمال الصالحات واستمرارها، وإجراء الموصول على الموصوف بالإيمان إيماء بأن مدار قبول الأعمال هو الإيمان.

وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه، مع مراعاة تقديم **التخلية** على **التحلية**. وتكرير الإنذار بقوله تعالى: وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا: متعلق بفرقة خاصة، ممن عمه الإنذار السابق، من مستحقي البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم، لغاية شناعة كفرهم وضلالهم، أي:

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٢٦/٣

وينذر، من بين سائر الكفرة، هؤلاء المتفوهين بمثل هذه القولة العظيمة، وهم كفار العرب الذين قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود القائلون: عزير ابن الله، والنصارى القائلون: المسيح ابن الله.

ما لهم به من علم أي: ما لهم باتخاذه الولد شيء من علم أصلا لضلالهم وإضلالهم، ولا لآبائهم الذين قلدوهم، فتاهوا جميعا في تيه الجهالة والضلالة، أو: ما لهم علم بما قالوا، أصواب أم خطأ، بل إنما قالوه رميا بقول عن عمى وجهالة، من غير فكر ولا روية، كقوله تعالى: خرقوا له بنين وبنات بغير علم «١» . أو: ما لهم علم بحقيقة ما قالوا، وبعظم رتبته في الشناعة، كقوله تعالى: وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، لقد جئتم شيئا إدا، تكاد السماوات يتفطرن منه «٢» ، وهو الأنسب لقوله كبرت كلمة أي: عظمت مقالتهم هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته سبحانه إلى ما لا يكاد يليق بجناب كبريائه لما فيه من التشبيه والتشريك، وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يعينه ويخلفه. فما أقبحها مقالة تخرج من أفواههم أي: يتفوهون

---

(١) الآية ١٠٠ من سورة الأنعام.

(٢) الآيات: ٨٨- ٩٠ من سورة مريم.." (١)

"الإشارة: من اتخذ الله وليا، بموالاة طاعته وإفراد محبته، كان الله له وليا ونصيرا عند احتياجه وفاقته، ومجيبا له عند دعائه واستغاثته، ومن اتخذ وليا غير الله خاب ظنه ومناه، فإذا استغاث به جعل بينه وبين المستغيث به موبقا وبرزخا بعيدا، ومن والى أولياء الله فإنما والى الله، إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله «١» . وبالله التوفيق.

ثم ذكر كفرهم بالقرآن، مع كونه آية واضحة للعيان، فقال:

[سورة الكهف (١٨) : الآيات ٥٤ الى ٥٩]

ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلا (٥٤) وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا (٥٥) وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا (٥٦) ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٤٦/٣

وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا (٥٧) وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا (٥٨)

وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا (٥٩)

قلت: جدلا: تمييز، وربك: مبتدأ، والغفور: خبره، وذو الرحمة: خبر بعد خبر، وقيل: الخبر: (لو يؤاخذهم)، والغفور ذو الرحمة: صفتان للمبتدأ،، وإيراد المغفرة على جهة المبالغة دون الرحمة للتنبيه على كثرة الذنوب، وأيضا: المغفرة ترك المؤاخذة، وهي غير متناهية، والرحمة فعل، وهو متناهي، وتقديم الوصف الأول لأن **التخلية** قبل **التحلية**، و (المهلك) بضم الميم وفتح اللام: اسم مصدر، من أهلك، فالمصدر، على هذا، مضاف للمفعول لأن الفعل متعد، وقرئ بفتح الميم، من هلك، فالمصدر، على هذا، مضاف للفاعل.

يقول الحق جل جلاله: ولقد صرفنا أي: كررنا وأوردنا على وجوه كثيرة من النظر العجيب، في هذا القرآن للناس لمصلحتهم ومنفعتهم، من كل مثل من كل خبر يحتاجون إليه، أو: من كل مثل

---

(١) من الآية ١٠ من سورة الفتح.." (١)

"قلوبهم حتى يردوا موارد الكرم، أما في الدنيا فبكشف الحجاب وانقشاع السحاب حتى يشاهدوا رب الأرباب، فما كانوا يؤمنون به غيبا صار عيانا، وأما في الآخرة فبنعيم الحور والقصور، ورؤية الحليم الغفور.

فقد بين الحق تعالى حال المهتدين إثر بيان حال الضالين، وأن إمهال الكافر وتمتيعه بالحظوظ ليس لفضله، وإن منع المؤمن من تلك الحظوظ ليس لنقصه، بل قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا الفانية، وقوم ادخرت لهم طيباتهم للحياة الباقية، قال تعالى: والباقيات الصالحات كأنواع الطاعات، خير عند ربك لبقاء فوائدها ودوام عوائدها.. وقد تقدم تفسيرها» .

والتعرض لعنوان الربوبية والإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم لتشريفه، أي: فهي أفضل ثوابا أي: عائدة مما يتمتع به الكفرة من النعم الفانية، التي يفتخرون بها لأن مآلها الحسرة السرمدية والعذاب الأليم، ومآل الباقيات الصالحات النعيم المقيم في دار الدوام، كما أشير إليه بقوله: وخير مردا أي: مرجعا وعاقبة، وتكرير الخير لمزيد الاعتناء بشأن الخيرية وتأكيد لها في التفضيل، مع أن ما للكفرة بمعزل من أن يكون له خيرية

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٢٨١/٣

في العاقبة، ففيه نوع تهكم بهم. والله تعالى أعلم.

الإشارة: اعلم أن الحق- جل جلاله- يرزق العبد على قدر نيته، ويمده على قدر همته، فمن كانت همته في الحظوظ العاجلة والشهوات الفانية، أمده الله فيها، ومتعه بها ما شاء، على حسب القسمة، ثم أعقبه الندم والحسرة، ومن كانت همته الآخرة، أمده سبحانه في الأعمال التي توصله إلى نعيمها، كصلاة وصيام وصدقة وتدريس علم، وأذاقه من حلاوتها ما يهون عليه مرارتها، ثم أعقبه النعيم الدائم من القصور والحور، وأنواع الطيبات، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

ومن كانت همته الله- أي: الوصول إلى حضرته دون شيء سواه- أمده الله في الأعمال التي توصله إليه، وهي أعمال القلوب من **التخلية والتحلي**ة، **كالتخلية** من الرذائل **والتحلية** بالفضائل، وكقطع المقامات بأنواع المجاهدات، ورأس ذلك أن يوصله إلى شيخ كامل جامع بين الحقيقة والشريعة، بين الجذب والسلوك، قد سلك الطريق على شيخ كامل، فإذا وصله إليه وكشف له عن سر خصوصيته فليستبشر بحصول المطلب وبلوغ الأمل. وبالله التوفيق.

ثم ذكر بعض من مد له فى الضلالة وخصه بزيادة ضلالته، فقال:

[سورة مريم (١٩) : الآيات ٧٧ الى ٨٠]

أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا (٧٧) أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا (٧٨) كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا (٧٩) ونرثه ما يقول ويأتينا فردا (٨٠)

---

(١) راجع تفسير الآية ٤٦ من سورة الكهف.." (١)

"إن في ذلك المذكور، من شئونه تعالى، وأفعاله وأنعامه، لآيات جليلة واضحة الدلالة على عظيم شأنه تعالى، في ذاته وصفاته وأفعاله، وعلى صحة نبوة موسى وهارون- عليهما السلام، لأولي النهى أي: العقول الصافية، جمع «نهية» ، سمى بها العقل، لنهيه عن اتباع الباطل، وارتكاب القبيح، أي: لذوي العقول الناهية عن الأباطيل، التي من جملتها ما يدعيه الطاغية وما يقبله منه الفئة الباغية. وتخصيص كونها آيات لهم، مع أنها آية للعالمين لأنهم المنتفعون بها.

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٣٥٨

منها خلقناكم أي: من الأرض الممهدة لكم، خلقناكم بخلق أبيكم آدم عليه السلام، وأنتم في ضمنه، إذ لم تكن فطرته مقصورة على نفسه عليه السلام، بل كانت أنموذجا منطويا على فطرة سائر أفراد الجنس، انطواء إجماليا، فكان خلقه عليه السلام منها خلقا لكل منها، وقيل: خلقت أبدانكم من النطفة المتولدة من الأغذية المتولدة من الأرض. وقال عطاء: إن الملك الموكل بالرحم ينطلق، فيأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه العبد، فيذره على النطفة، فتخلق من التراب ومن النطفة. هـ.

وفيها نعيدكم بالإماتة وتفريق الأجزاء، والكلام على الأشباح دون الأرواح، فإنها، بعد السؤال، تصعد إلى السماء، كما يأتي عند قوله تعالى: فأما إن كان من المقربين ... «١» الآية. ولم يقل: وإليها نعيدكم إشارة إلى استقرار العبد فيها، ومنها نخرجكم تارة أخرى بتأليف أجزائكم المتفتتة، المختلطة بالتراب، على الهيئة السابقة، ورد الأرواح إليها. وكون هذا الإخراج تارة أخرى: باعتبار أن خلقهم من الأرض إخراج لهم منها، وإن لم يكن على التارة الثانية. والتارة في الأصل: اسم للتور، وهو الجريان، فالتارة واحدة منه، ثم أطلق على كل فعلة واحدة من الفعلات المتحدة، كما مر في المرة. والله تعالى أعلم.

الإشارة: ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه، مما سبق لهم في أزله، ثم هدى إلى الأسباب الموصلة إليه، فمنهم من كان حظه في الأزل قوت الأشباح، هداه إلى أسبابها، وهم أهل مقام البعد، ومنهم من كان حظه قوت القلوب، فهداه إلى أسبابها من المجاهدة في الطاعات وأنواع القربات، وهم أنواع:

فمنهم من شغلهم بتدريس العلوم وتدقيق الفهوم، وتحرير المسائل وتمهيد النوازل، وهداهم إلى أسباب ذلك، وهم حملة الشريعة، إن صحت نيتهم وثبت إخلاصهم. ومنهم من شغلهم بتوالي الطاعات وتعمير الأوقات، وهداهم إلى أسبابها، وقواهم على مشاقها، وهم العباد والزهاد. ومنهم من شغلهم بإطعام الطعام والرفق بالأنام، وتعمير الزوايا وقبول الهدايا، وهداهم إلى أسباب عمارتها والقيام بها، وهم الصالحون. ومنهم: من كان حظه قوت الأرواح، وهم المريدون السائرون، أهل الرياضة والتصفية، **والتخلية** **والتحلية**، والتهذيب والتدريب، وهداهم إلى أسبابها، ووصلهم

(١) الآية ٨٨ من سورة الواقعة.." (١)

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٣/٣٩٥

"فكان متواضعا سهلا لينا، كما قال تعالى: وإنك لعلى خلق عظيم «١» وعلى المؤمنين، فأخبر عنهم بقوله: أشداء على الكفار رحماء بينهم «٢» الآية، «وألزمهم كلمة التقوى» ، «لا إله إلا الله» لأنها تهذب الأخلاق، وتخرج ما في القلب من الأمراض والنفاق لأن النفي: تنزيه **وتخلية**، والإثبات: نور **وتحلية**، فلا يزال النفي يخرج من القلب ما فيه هي الظلمة والمساوئ، حتى يتطهر ويتصف بكمال المحاسن.

قال في نوادر الأصول، لما تكلم على وألزمهم كلمة التقوى: هو «لا إله إلا الله» ، وجه تسميتها بذلك: أنه اتقى بها ونفى ما أحدث من الشرك، حمية للتوحيد وعصبية وغيرة، اقتضاها نور التوحيد والمحبة، فنفى القلب كل رب ادعى العباد ربوبيته، وولهت قلوبهم إليه، فابتدأ هذا القلب- الذي وصفنا- بالنفي لأرباب الأرض، ثم سما عاليا حتى انتهى إلى الرب الأعلى، فوقف عنده، وتذلل وخشع له، واطمأن ووله إليه. وقال لنبيه: سبح اسم ربك الأعلى «٣» أي: إن هذه أرباب متفرقون، والرب الله الواحد القهار، فهداه إلى الرب الأعلى، وقال: وأن إلى ربك المنتهى «٤» . ثم قال: ألزم قلوبهم هذه الكلمة بنور المحبة، كما قال: حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم «٥» ، فبحلاوة الحب، وزينة البهاء، صارت الكلمة لازمة لقلوبهم.

وأما قوله: وكانوا أحق بها وأهلها فإنما صاروا كذلك لأن الله كان ولا شيء، فخلق المقادير، وخلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضل، فقد علم من يخطئه ممن يصيبه. ثم ذكر أحاديث، من ذلك: حديث [ابن عمرو] «٦» : «إن الله خلق خلقه، ثم جعلهم في ظلمة، ثم أخذ من نوره ما شاء، فألقاه عليهم، فأصاب النور من شاء أن يصيبه، وأخطأ من شاء أن يخطئه ... » الحديث «٧» . ثم قال بعد كلام طويل: ثم لما نفخ الروح في آدم أخرج نسم بنيه، أهل اليمين، من كتفه الأيمن في صفاء وتلألؤ، وأصحاب الشمال [كالحمة] «٨» سود من كتفه الأيسر، والسابقون أمام الفريقين، المقربون، وهم الرسل والأنبياء والأولياء،

---

(١) الآية ٤ من سورة القلم.

(٢) من الآية ٢٩ من سورة الفتح.

(٣) الآية الأولى من سورة الأعلى.

(٤) من الآية ٤٢ من سورة النجم.

(٥) من الآية ٧ من سورة الحجرات.

(٦) فى الأصول [ابن عمر] والمثبت هو الصحيح، فالحديث مروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٧) أخرجه بنحوه الترمذي وحسنه فى (الإيمان، باب افتراق هذه الأمة، ح ٢٦٤٢) وأحمد فى المسند (ح ٦٨٥٤) ومطولا (ح ٦٦٤٤) والحاكم (١/ ٣٠- ٣١) «وصححه ووافقه الذهبي» وكذا صححه ابن حبان (ص ٤٤٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وقال الهيثمي فى المجمع (٧/ ١٩٣- ١٩٤) : «رواه أحمد بإسنادين، والبزار والطبراني، ورجال أحد إسنادى أحمد ثقات» .
(٨) فى الأصول [كالحمية] والمثبت من نوادر الأصول، وهو الصحيح.
والحم: الأسود من كل شيء، والاسم: الحمة. انظر اللسان (حمم ٢/ ١٠٠٩) .." [1]

"القديم وحده، كما كان وحده. فالنفوس أربعة: أمارة، ولوامة، ولهامة، ومطمئنة، وهي في الحقيقة نفس واحدة، تتطور وتتقلب من حال إلى حال، باعتبار **التخلية والتحلية**، والترقية والتردية، فأصلها الروح، فلما تظلمت سميت نفسا أمارة، ثم لوامة، ثم لهامة، ثم مطمئنة.

قال القشيري: أيحسب الإنسان، أي: الإنسان المحجوب بنفسه وهواه، ألن نجمع عظامه؛ أعماله الحسنة والسيئة، بلى قادرين على أن نسوي بنانه، أي: صغار أفعاله الحسنة والسيئة، بل يريد الإنسان المحجوب ليفجر أمامه، بحسب الاعتقاد والنية، قبل الإتيان بالفعل، أي: يعزم على المعاصي في المستقبل قبل أن يفعل، يسأل أيان يوم القيامة؟ لطول أمله، ونسيان آخرته، ولو فتحت بصيرته لشاهد القيامة في كل ساعة ولحظة، بتعاقب تجلي الإفناء والإبقاء. فإذا برق البصر: تحير من سطوات أشعة سبحات التجلي الأحدي الجمعي، وخسف القمر، أي: ستر نور قمر القلب بنور شمس الروح، وجمع الشمس والقمر، أي: جمع شمس الروح وقمر القلب، بالتجلي الأحدي الجمعي، يعني: فيغيب نور قمر الإيمان في شعاع شمس العرفان، يقول الإنسان يومئذ: أين المفر؟ من خوف الاضمحلال والاستهلاك، وليس عنده حينئذ قوة التمكين فيخاف من الاصطلام، إلى ربك يومئذ المستقر بالرسوخ والتمكين، بعد الفرار إلى الله، قال تعالى: {ففروا إلى الله} [الذاريات: ٥٠] . هـ. بالمعنى.
ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم من المجاهدة، حيث يرى ثمرتها، وما أخر، حيث يرى شؤم تفريطه فيها، فالمشاهدة على قدر المجاهدة، فبقدر ما يقدم منها تعظم مشاهدته، وبقدر ما يؤخر منها تقل. بل الإنسان

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ٤٠٤/٥

على نفسه بصيرة، يرى ما ينقص من قلبه وما يزيد فيه، ويشعر بضعفه وقوته، إن صحت بصيرته، وطهرت سريرته، فإذا فرط في حال سيره لا يقبل عذره، ولو ألقى معاذيره. وبالله التوفيق.
قلت: اختلف المفسرون في وجه المناسبة في هذه الآية، فقال بعضهم: ما تضمنه من الاقتدار على حفظه وإبقائه في قلبه، بإخراجه عن كسبه وإمساكه وحفظه، فالقادر على." (١)
"(١٥٦) - {الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون}.

{الذين إذا أصابتهم مصيبة} المصيبة: ما يصيب الإنسان من مكروه، روي أنه طفئ سراج رسول الله ، فقال: "إنا لله وإنا إليه راجعون"، فقيل: أمصيبة هي؟ قال: "نعم، كل شيء يؤذي المؤمن فهو له مصيبة" (٢).

* * *

(١) في "ك": (أنفسهم). (٢) رواه أبو داود في "المراسيل" (٤١٢) عن عمران القصير.

الجزء: ١ - الصفحة: ٣٥٠

{قالوا إنا لله} إقرار على أنفسنا بالملك.

{وإنا إليه راجعون} إقرار على أنفسنا بالهلك (١)، وليس الصبر بالاسترجاع باللسان فقط، بل لا بد معه من الإذعان بالجنان.

* * *

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ابن عجيبة ١٨٨/٧

(١٥٧) –) {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون}.

والمبشر به محذوف دل عليه قوله تعالى: {أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة} الصلاة في الأصل: الدعاء، ومن الله: إفاضة الكمالات والسعادات، فهي من باب **التحلية**، كما أن السلام وه‍ التطهير والتجريد من باب التزكية **والتخلية**، وجمعها للتنبيه على كثرتها وتنوعها، والمراد بالرحمة: اللطف والإحسان.

{وأولئك هم المهتدون} للحق والصواب، حيث استرجعوا واستسلموا لقضاء الله تعالى.

عظم الله تعالى الصبر بوجوه: بالبشارة العامة، وبقوله: {أولئك} بعد وصفهم بما وصفهم؛ إشعارا بأن ذلك الوصف يوجب هذه الكرامة المذكورة بعده، وبتكرير (أولئك)، وبتقديم {عليهم}؛ أي: عليهم خاصة، وبتنكير {صلوات} وجمعه؛ أي: إمداد رأفات متصلة متتالية، وتنويرات لا يعرف كنهها ولا يقدر قدرها، وبتقييدها بقوله: {من ربهم ورحمة} أية رحمة، وبتوسيط (هم)، وتعريف المهتدين بلام الماهية.

* * *

* * *." (١)

"{وبشر الذين آمنوا}: خاصة؛ لأن المبشر به مشروط بالإيمان، فالبشارة به تنقلب إنذارا في حق الكفار، لا للاستغراق؛ كما ذهب إليه من قال: عمم الإنذار إذ قلما من أحد ليس فيه ما ينبغي أن ينذر منه (١)؛ لأن تبليغ الإنذار ولو بإرسال الخبر إلى كل من في عصره ليس في وسعه (٢).

وإطلاق المؤمنين للتعميم لمن آمن من الثقلين، وبذلك ينجبر (٣) القصور السابق إلى الوهم من تخصيص الإنذار بأحدهما لأصالته في أمر البعثة؛ لأن المفهوم إنما يعتبر إذا لم يعارضه المنطوق، وهذا الشرط مفقود هاهنا؛ لأن العبارة وإن كانت ساكتة عن العموم لكن الدلالة ناطقة به بقرينة ما في قرينه من التعميم، وإنما

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ١/٤٥٦

قدم الإنذار على التبشير لأنه أهم، ولأن التحلية بعد التخلية أتم.

{أن لهم} في محل النصب بـ (بشر) على حذف الباء.

{قدم صدق} سميت السابقة والمسعاة الجميلة قدما لأن السعي والسبق إنما يكون بالقدم؛ كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد، وإضافتها إلى الصدق للدلالة على زيادة فضل، وأنها متحققة، لو أن صاحبها قد نالها بصدق القول والنية.

* * *." (١)

"(١) في (ف) و (م): "منها"، والمثبت من (ك) و"الكشاف" (٢/ ٣٧٧). (٣) انظر: "الكشاف" (٢/ ٣٧٧). (٤) "وبينها" في (م). (٢) نسبت لعكرمة والضحاك والجحدري وزيد بن علي. انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٥٩)، و"الكشاف" (٢/ ٣٧٧)، و"البحر المحيط" (١٢/ ١٩٦).

الجزء: ٥ - الصفحة: ١١٨

قوله (١): {إنني لكم منه}: من جهته {نذير وبشير}؛ أي: هلا تعبدوا إلا الله، أو: التزموا ترك عبادة غير الله تعالى، على أن (أن) مصدرية، و (لا) نافية.

وإنما قدم {نذير} على {بشير} (٢) لأن الإنذار أعم وأهم.

(٣) - {وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير}.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٤/٢١٠

{وأن استغفروا ربكم} عطف على {ألا تعبدوا} (٣).

{ثم توبوا إليه}؛ أي: استغفروا من الكفر والمعصية، ثم توبوا إلى الله تعالى بالطاعة، فالتراخي على الحقيقة، ويجوز أن يراد التراخي في الرتبة؛ لأن التخلية أفضل من التحلية (٤).

والاستغفار ينتظم الندم على ما سلف، وإحسان العمل في المؤتنف، حتى يكون راجعا بعمله إلى ربه، ولهذا قدم ذكر الاستغفار على التوبة؛ أي: اطلبوا مغفرة ربكم بالإسلام، والندم على سالف الإجرام، والثبات على الطاعة في باقي الأيام، وارجعوا إلى الله تعالى بالإخلاص والاستسلام، على الثبات والدوام.

* * *." (١)

"(١) بعدها في (ك): " {وأن استغفروا ربكم} عطف على أن لا تعبدوا"، وموضعها ليس هنا بل فيما بعد كما سيأتي، والمثبت من (ف) و (م)، وهو الموافق لما في "الكشاف" (٢/ ٣٧٧). (٢) من قوله: "أي: هلا تعبدوا .. " إلى هنا سقط من (ك). (٣) "عطف على أن لا تعبدوا" سقط من (ك). (٤) في (ك): "التحلية أفضل من التخلية".

الجزء: ٥ - الصفحة: ١١٩

{يمتعكم متاعا حسنا}: في خفض عيش وسعة، وأمن ودعة.

{إلى أجل مسمى}: معين (١) عند الله تعالى، فهو آخر أعماركم المقدرة؟ إذ لا يهلككم بعذاب الاستئصال.

{ويؤت كل ذي فضل} في العمل والطاعة {فضله}: جزاء فضله في الآخرة.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣٠٥/٤

أو: كل ذي فضل في الدين فضله في الثواب والدرجات (٢)، فإن الدرجات تتفاضل في الجنة بحسب تفاضل الأعمال.

{وإن تولوا}: وإن تتولوا، وقرئ: (تولوا) من ولى (٣).

{فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير}؛ أي: يوم القيامة، وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل.

4)) - {إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء}.

{إلى الله مرجعكم} جميعا (٤): رجوعكم في ذلك اليوم.

{وهو على كل شيء}: بيان لوجه كبر ذلك اليوم بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء لا إلى غيره، فهو قادر على أشد ما يريده من العذاب، ولا يمكنهم التفصي عنه.

* * *

(١) في (ك): "يعني". (٢) "والدرجات": ليست في (م). (٣) انظر: "المختصر في شواذ القراءات" (ص: ٥٩). (٤) قوله: "جميعا" جعلت في (ف) و (ك) من ضمن الآية، والصواب هنا أنها ليست منها.

الجزء: ٥ - الصفحة: ١٢٠." (١)

"وقوله: {أخي} عطف بيان، لا بدل (١)؛ لأن إبدال الشيء من (٢) أقل منه فاسد لا يتصور، نص عليه الشيخ في "دلائل الإعجاز" (٣).

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣٠٦/٤

أو {وزيرا} و {هارون} مفعولاه، وقدم ثانيهما على أولهما عناية بأمر الوزارة.

* * *

(٣١) - {اشدد به أزري}.

{اشدد به أزري}: قو به ظهري.

والشد: جمع يستمسك (٤) به المجموع، ومثله: الربط والعقد.

والأزر: الظهر، يقال: آزرني فلان على أمري؛ أي: كان لي ظهرا، ومنه: المئزر؛ لأنه يشد على الظهر، وكذا الإزار.

* * *

(٣٢) - {وأشركه في أمري}.

{وأشركه في أمري} الإشراك: الجمع بين الشيئين أو أكثر في معنى على أنه لهم بجعل جاعل. وقد أشرك الله تعالى بين موسى وهارون في النبوة، وقوى به أزره كما دعا.

* * *

(١) في (م) زيادة: "كما ذكره". والذي ذكره هو الزمخشري والبيضاوي، لكن الزمخشري أتبعه بقوله: وإن

جعل عطف بيان آخر جاز وحسن. (٢) في (م): "في". (٣) انظر: "دلائل الإعجاز" للجرجاني (ص: ١٤٧). (٤) في (م): "يتمسك".

الجزء: ٦ - الصفحة: ٤٣٣

وقرئا على لفظ الخبر جوابا للأمر (١)، ولمن قرأ بهما على لفظ الأمر للدعاء أن يقف على {هارون}، ويجعل {أخي} مرفوعا على الابتداء والجملة خبر.

* * *

(٣٣ - ٣٤) - {كي نسبحك كثيرا (٣٣) ونذكرك كثيرا}.

{كي نسبحك كثيرا (٣٣) ونذكرك كثيرا} فإن التعاون يهيج الرغبات، ويؤدي إلى تكاثر الخير وتزايده، قدم التسبيح وهو تنزيه الله تعالى عما لا يجوز وصفه به، على الذكر وهو ثناؤه تعالى بما يليق به؛ لأن **التخلية** قبل **التحلية**.

* * *

(٣٥) - {إنك كنت بنا بصيرا}.." [1]

"(١٣٩ - ١٤٥) - {فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٣٩) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (١٤٠) كذبت ثمود المرسلين (١٤١) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (١٤٢) إني لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعون (١٤٤) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين}.

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٦/٤

{فكذبوه فأهلكناهم} بسبب تكذيبهم إياه بريح صرصر عاتية.

{إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين (١٣٩) وإن ربك لهو العزيز الرحيم (١٤٠) كذبت ثمود المرسلين (١٤١) إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون (١٤٢) إني لكم رسول أمين (١٤٣) فاتقوا الله وأطيعون (١٤٤) وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين} (١) تقدم تفسيره في هذه السورة.

* * *

(١٤٦) - {أتتركون في ما هاهنا آمنين}.

{أتتركون} إنكار لأن يتركوا كذلك، وتذكير بالنعمة في **تخلية** (٢) الله تعالى إياهم وأسباب تنعيمهم.

{في ما هاهنا}: في الذي استقر (٣) في هذا المكان من النعيم.

{آمنين} من العذاب والزوال والموت، ثم فسره بقوله:

* * *

(١) في (ف) و (ك) و (م): " {إن في ذلك لآية} إلى قوله تعالى: {إلا على رب العالمين}. (٢) في (ك): "**تحلية**"، وفي (ع): "تخلفة". (٣) في (ف): "يستقر".

الجزء: ٧ - الصفحة: ٤١١

(١٤٧) - {في جنات وعيون}.

{في جنات وعيون} وهذا أيضا إجمال ثم تفصيل.

* * *

(١٤٨) - {وزروع ونخل طلعها هضيم}.." (١)

"حر شوقه، وظهرت شمس فضله منالجانب الغربي فبهرت بالشروق، وأصبح كل صب وهو إلى بهجتها مشوق، زار الشام ثم ما سلم حتى ودع، بعد أن فرع بروضها أفنان الفنون فأبدع، وأسهم لكل من أهلها نصيبا من وداده، فكان أوفرهم سهما هذا المحب الذي رفع بصحبته سمك عماده، وعلق بمحبته شغاف فؤاده، فإنه دنا من قلبه فتدلى، وفاز من حبه بالسهم المعلى، أدام الله تعالى لك البقا، وأحسن لنا بك الملتقى، ومن علينا منك بنعمة قرب اللقا، آمين بمنه ويمنه، هذا، وقد وصل من ذلك الخل الوفي، كتاب كريم هو اللطف الخفي، بل هو من عزيز مصر القميص اليوسفي، جاء به البشير ذو الفضل السني، الخل العز الأجل التاج المحاسني، مشتملا على عقود الجواهر، بل النجوم الزواهر، بل الآيات البواهر، تكاد تقطر البلاغة من حواشيه (١) ، ويشهد بالوصول إلى طرفها الأعلى لموشيه، فليت شعري بأي لسان، أثني على فصوله الحسان، العالية الشان، الغالية الأثمان، التي هي أنفس من قلائد العقيان، وأبدع من مقامات بديع الزمان، فطفقت أرتع من معانيها وفي أمتع رياض، وأقطع بأن في منشئها اعتياضا لهذا العصر عن عياض (٢) :

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها ... عقود مدح فلا أرضى لها كلمي ولا سيما فصل التعزية والتسلية، المشتمل على عقد **التخلية** بل عقود **التحلية**، لتلميذكم الولد إبراهيم، فإنه له كرقية السليم، بعد أن كاد يهيم، فجاء ولله دره في أحسن المحال، ووقع الموقع حتى كأن الولد نشط ببركه من عقال:

وإذا الشيء أتى في وقته ... زاد في العين جمالا لجمال

---

(١) تفسير ابن كمال باشا ٣٩٢/٦

(١) تكاد... حواشيه: سقطت من ق.

(٢) البيت لعمارة اليمني (النكت العصرية: ٣٣) من قصيدة يمدح فيها الفائز الفاطمي ووزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك ومطلعها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمدا يقوم بما أولت من النعم." (١)

"عن المدرسة القادرية وشيخها عبد القادر الجيلاني وجهوده في الإحياء السني ودوره في نهضة الأمة وترشيد التصوف السني، فقد لعبت المدرسة القادرية دورا مهما جدا في حركة الإصلاح والتجديد والتغيير الاجتماعي وتهيئة الأمة للجهاد في سبيل الله. وعندما جاء نور الدين للحكم استفاد من الجهود العلمية والتربوية التي سبقته وأدركت دولته أن التعليم هو الدعامة الإساسية في بناء الشخصية المتكاملة من جميع النواحي العقائدية، والثقافية والفكرية... إلخ واعتبرت الإنسان الكنز الذي لا يقدر بأي ثمن، فجعلته مدار اهتمامها، وقطب الرحى في تفكيرها فعمدت إلى بناء المؤسسات التعليمية من مدارس ودور القرآن والحديث، وأحيت رسالة المسجد ليسهم في عملية البناء والتصحيح الجديدة، وتوجيه وتوعية الأمة وتعبئتها تعبئة عامة شاملة لمواجهة الأخطار ومجابهة التحديات الداخلية الباطنية والخارجية الصليبية، وكونت مجلسا عاما يشرف على العملية التعليمية والصياغة التربوية يضم أهل الحل والعقد وهيئة كبار العلماء العاملين المخلصين والقادة العسكريين والفقهاء والشيوخ المستنيرين وكان نور الدين أحد أعضاء هذا المجلس الأعلى الذي يشرف على التخطيط العام والشامل، وكان يجلس مع العلماء والشيوخ يتدارسون الأمور إلى ما يحقق المصلحة الإسلامية (١) ، ورسم هذا المجلس الأعلى للتخطيط والتنسيق بين السياسات العامة الواجب اتباعها نحو إعداد الأمة الإسلامية كلها إعداد جديدا، وبنائها بناء سليما على طريقة السلف الصالح، فقرروا ضرورة تأسيس مئات المدارس ونشر التعليم الإسلامي في جميع أنحاء البلاد، كما قرروا إقامة مئات المساجد للقيام بواجب التزكية **والتحلية**، بالفضائل **والتخلية** من الرذائل، واستقدموا آلاف العلماء، والمربين المشهورين للقيام بواجب التدريس في المدارس والتوجيه في المساجد وكانوا من خريجي المدرستين الغزالية والقادرية (٢)

---

(١) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ٢/٤٤٨

(١) لا طريق غير الجهاد ص ٣٣٤.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٤.." [١]

"وفي الحديث القدسي: " لم يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن " . والوجه وجهه، والضمائر تعود اليه، وهاهنا مزلقة تقشعر منها الرؤوس، وتشمئز النفوس.

حكى الإمام الرازي – رحمه الله – في كتاب " الإشارات في التعبير " ، قال: أخبرنا أحمد بن عمرو الصوفي بمكة – حرسها الله – قال: أخبرني أبو بكر الطوسي، قال: قال عثمان الأحول تلميذ الخراز – رضي الله عنه – : بات عندي أبو سعيد، فلما مضى بعض الليل صاح بي: يا عثمان، قم أسرج، فقمت وأسرجت، فقال لي: ويحك رأيت الساعة كأني في الآخرة والقيامة قد قامت، فنوديت فوقفت بين يدي الله تعالى وأنا أرتعد، لم يبق علي شعرة إلا وقد قامت، فقل " جل وعلا " : أنت الذي تشير إلي في السماع وإلى سلمى وبثينة، لولا أني أعلم أنك صادق في ذلك لعذبتك عذابا لم أعذب به أحد من العالمين، انتهى.

فنعوذ بالله من جسارة، تؤدي إلى خسارة. وقد وقع في هذا الخطر ابن الفارض، وابن سبعين والششتري وأضرابهم، وهو باب ضنك، وللعبد في مطرح النعال، سعة عن جناب الكبير المتعال.

وقد يكون السامع في فهمه أخف حالا من المعبر، فإن الفهم أقرب إلى الغلبة، والتعبير أقرب إلى الاختبار، ومثال ما سنح في فكري مما حضر لي الآن قول امرئ القيس:

" الله أنجح ما طلبت به ... والبر خير حقيبة الرجل

شرحه وقوله " :

أنا موضعين لحتم غيب ... ونسحر بالطعام والشراب

فإن هذه القطعة موعظة عظيمة في ذكر الآخرة والزهد في الدنيا وإن لم يقصد نفس ذلك المعنى، ويزيد العاقل فيقول: هذا رجل دهري "كان " لا يؤمن بيوم الحساب، قد مقت الدنيا لمجرد ما رأى من الانتقال عنها إلى الفناء، فكيف لا يمقتها من يؤمن بالجنة وأن الدنيا لا تساوي شيئا إذا قيست إليها ولا تزن عند الله جناح بعوضه، وان الاشتغال بها " يعوق " عن الملك العظيم، والنعيم المقيم، ويعرض للحساب الشديد والعذاب الأليم، وقوله:

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال

---

(١) السيرة الزنكية، ٤٩٢/١

ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

فإن العابد يفهم منه أنه لو كان يسعى لمعيشة الدنيا الحسيسة الفانية لكفاه أدنى شيء، ولكنه يسعى للملك العظيم، في دار النعيم، وهو المجد حقا، فليس إلا الجد والاجتهاد، ومسامرة النوافل والأوراد، والعارف يفهم منه أنه لو كان يسعى لمجرد التنعم في الجنة لكفاه إقامة الرسم الشرعي، والوقوف عند الحد المرعي، ولكنه يسعى للوصول والنظرة، والحضور والحضرة، فليس إلا زيادة الاعتناء بصفاء الأسرار، والفناء عن الأغيار، وقوله:

تنورتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عال

فإن المريد قد يفهم منه " أن " الضمير للحقيقة، وأهلها بيثرب وهم محمد وأصحابه صلى الله عليه وسلم وعلى الصحابة أجمعين. وكون نيل ذلك من أذرعات وهو موضع بالشام " مناسب، لأن الشام " مكان مرتفع باعتبار الغور، وليس يبلغ السالك ذلك إلا بعد بلوغ المنزلة الرفيعة " من الاستقامة والطهارة ومن الهمة " الرفيعة فإن العبد يفتح له على قدر همته وبنظره العالي يقرب الفتح بإذن الله تعالى، بل النظر العالي وهو ما يكون إلى الحق دون شيء دونه هو كلية الأمر وعماده، رزقنا الله منه قسطا وافرا بمنه آمين.

وقول عنترة:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

إني امرؤ سمح الخليقة ماجد ... لا أتبع النفس اللجوج هواها

فإن هذا في باب العفة والتحلي بمكارم الأخلاق في الجملة صريح، وباعتبار الرياضة والمطلوب من **التحلية والتخلية** عند السالكين إشارة، وهي كافية في المقصود، لأن مخالفة الهوى هو ملاك الأمر كله، ومثل هذا لا ينحصر في شعر العرب " فقلما يخلو بيت أو أبيات من معنى أو معان فإن الحكمة قد أنزلت على ألسنة العرب " .

وقد قال الله تعالى في الشعراء:)أنهم يقولون ما لا يفعلون(ومثل ذلك في كلام المولدين، وقد تقدم من شعر أبي نواس، وفال أبو الطيب:

لك يا منازل في القلوب منازل ... أقفرت أنت وهن منك أواهل

فإنه يفهم منه سوى مقصود الشاعر أمور:." (١)

---

(١) المحاضرات في اللغة والأدب، ص/٩٦

"هو زوجي وأبي، فلما دفن عمر معهم، فو الله ما دخلت إلا وأنا مشدودة على ثيابي حياء من عمر".(١)

(ب) عن أم المؤمنين حبيبة رملة بنت أبى سفيان- رضي الله عنها- أنه لما جاءها نعى أبيها دعت بطيب، فمسحت ذراعيها وقالت: "مالي بالطيب من حاجة، لولا أني سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تحد(٢) على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا"(٣)

(١)

المبحث الثاني

المحافظة على أداء الفرائض

والإكثار من النوافل

(١) إلى جانب ما أمر به المسلم والمسلمة من البعد عن المعاصي، والتحلي بالورع عن مواقعة الشبهات، وهو ما يسمى لدى بعضهم **بالتخلية**؛ تأتي أهمية الالتزام بالطاعات فرائضها ونوافلها – وهو ما يطلق عليه لفظ **التحلية**، وبذلك يكون المسلم أهلا لمعونة الله تعالى وتوفيقه. يقول الله تعالى في الحديث القدسي: "من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، ويصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ولإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه"(٤)

)

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (جـ٦ – ص٢٠٢).

(٢) الإحداد: ترك المرأة للزينة عند وفاة أحد الأشخاص الذين يمتون لها بصلة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيح (جـ٣- ص٢٨٥) كتاب الطلاق – باب والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا .. إلى قوله: بما تعملون خبيرا.

---

(١) ٢٦

(٤) أخرجه البخاري، واللفظ له (جـ٤- ص ١٢٩) كتاب الرقاق- باب التواضع " وأخرجه أحمد بنحو. (جـ٦ - ص٢٥٦).." [١]

"استغراق له إذ ذاك إلا في بحار الجهل والنقصان. دون بحار الكمال والعرفان. ولا يكاد يندفع السؤال عنهم إلا بالتزام أنهم ظفروا بما يدل على أفضلية إفراد القلب ويلتزم القول بأن في ضم اللسان إليه إخلالا بجمعية الفكر)وأيضا(في قوله أول الجواب الأول يحتاج إلى إدمان الإثبات بعد النفي نوع مناقشة فإن الأظهر يحتاج إلى إدمان كلمة التوحيد مثلا والقول بأنه اختار ذلك للإشارة إلى أن المقصود الأهم الإثبات لا يخلو عن دغدغة لكن هذا بحث لا يضر في المقصود كما لا يخفى وما أحسن قوله والحاصل الخ. لكن ذلك الأستاذ أعز من بيض الأنوق. بل أشبه شيء بالأبلق العقوق. ولا تغتر بالهيئات. والجلوس في التكيات. فليس التشابه في منظر. دليل التشابه في مخبر.

وفي البرج يجتمع الكوكبان ... وما زحل ثم كالمشتري

وعندي بعد كلام. لا تسعه كؤوس الأرقام. ولا تظنه من باب الإنكار. على أحد من المشايخ الأخيار. فذلك لدي من أقبح المعايب. لا يرتكبه إلا كل صخب الشوارب. بل أمر آخر يطول الكلام بذكره. وأكره سماع نهيق حمر جهلة المتصوفة من نشره.

الرابع: بأي شيء يصير الفقيه صوفيا الجواب أن الفقيه يصير صوفيا بسلوكه نحو ما سلك الصوفية. قدس الله تعالى أسرارهم الزكية. وروح قلوبنا بنفحاتهم الذكية. وذلك بأن يتخلى عن الرذائل. ويتحلى بأنواع الفضائل. وقد اختلفوا في معنى التصوف اختلافا كثيرا مذكورا في محله. وفي آخر الفتاوى الحديثية طرف منه نفيس فارجع إليه)واختار السيد(قدس سره أنه الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا فيسري حكمها من الظاهر في الباطن وباطنا فيسري حكمها من الباطن في الظاهر فيحصل للتأدب بالحكمين كمال أي كمال وقال بعض الأجلة:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا ... وكلهم قال قولا غير معروف

ولست أمنح هذا الاسم غير فتى ... صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

وحصول نحو ما عند الصوفي للفقيه قلما يتفق من غير سلوك على يد شيخ كامل يعرف الداء والدواء وأكثر الفقهاء اليوم كالعطارين الذين يعرفون العقاقير ولا يعرفون خواصها أو يعرفون ذلك لكن لا يعرفون

---

(١) حياة الصحابيات، ص/١٦

الداء الذي تنفع معه تلك الخاصة أو يعرفون ذلك أيضا لكن لا يعرفون كمية ما ينفع فلا تغتر بفقهك إن كنت فقيها. وتوجه إلى ربك جل شأنه **بالتخلية** **والتحلية** تكن وجيها. واسلك طريقة القوم. لتسلم من العتاب واللوم.

على نفسه فليبك من ضاع عمره ... وليس له منها نصيب ولا سهم

ولا تظن أنك من غير طلب. تنال الإرب. وبدون جد. تنال وصال دعد. فتلك أماني كاسدة. وآراء أصلحك الله تعالى فاسدة.

أراك تطلب دنيا ليس تدركها ... فكيف تدرك أخرى لست تطلبها

نسأل الله التوفيق. والهداية لأقوم طريق.

الخامس: ما التربية والوعظ يتأتى من الأستاذ تقريرا وتحريرا)الجواب(أن التربية كعلاج الطبيب للمريض فتتوقف على معرفة الداء ودرجته والدواء وكميته وربما تكون بتوجيه الشيخ المربي بهمة نفسه القدسية نحو من يربه نظير ما يقال في السلحفاة أو دابة أخرى أنها تربي بيضتها بالنظر ومتى قصرت فيه فسدت فكم فرق بينها وبين الوعظ كما لا يخفى على المصنف.

السادس: بأي شيء تفترق الأمة بضعا وسبعين فرقة كما في الحديث والمرتد لا يكون فرد من الأمة الفاعلة للافتراق.." (١)

"أ – البساطة والوضوح:

كان مسلكه واضحا و بسيطا يبتعد عن التقعير والتعقيد، ذلك أنه موجه لجمهور الناس، إذ من مقتضيات ذلك مراعاة سير الضعفاء في ميدان البحث والاستدلال، فكانت حججه في الجملة واضحة جلية عبارة ومضمونا وصياغة، ومن مترتبات هذا السمعى **تحلية** القلوب والعقول بالتوحيد بيسر ووضوح، فإذا حيل دون ذلك بمشوشات فكرية أو(علمية) عمدت رسائل النور وفق مسلك القرآن الكريم إلى **تخلية** القلوب من الآراء المناوئة أوالمخالفة، فكان المسلك جامعا بين البناء (الإنشاء) والهدم (النقد) في أسلوب بسيط بين. يشهد لهذا المعنى ما استقاه الأستاذ بديع الزمان من القرآن الكريم في وضوحه وبساطته، فيقول – رحمه الله – :" القرآن إنما يبحث عن الكائنات استطرادا للاستدلال على ذات الله وصفاته، ومن شرط الدليل أن يكون ظاهرا وأظهر من النتيجة، والنتيجة معرفة ذات الله وصفاته وأسمائه.فلو قال على م يشتهيه أهل

---

(١) غرائب الاغتراب، ص/٣٧

الفن: " يا أيها الناس فانظروا إلى الشمس في سكونها، وإلى الأرض في حركتها لتعرفوا عظمة قدرة خالقها "، لصار الدليل أخفى وأغمض من النتيجة وأبعد بمراتب من فهم أكثر البشر في أكثر الأزمان والأعصار، مع أن حق الأكثر المطلق أهم في نظر الإرشاد والهداية. فمراعاة فهمهم لا تنافي استفادة المتفلسفين المتعمقين القليلين. ولكن في مراعاة هذا الأقل محرومية الأكثر في أكثر الأوقات."(١)

---

(١) – المثنوي العربي النوري ٧٢." (١)

"فقد نجحت رسائل النور في الاقتباس من القرآن الكريم والنسج على منواله في أساسها العقدي من جهة وتساوقها مع مكونات النفس البشرية، إذ ليس بمستطاع الخطاب العقدي الصحيح أن يؤتي أكله ما لم يكن متناغما مع مكونات النفس البشرية، وقد رام القرآن الكريم تحقيق مقاصده وفق ما استودع الله سبحانه وتعالى في مكنونات النفس البشرية،فنبه الإنسان إلى الأساس العقدي الذي تقوم عليها علاقة الإنسان بالله والكون وأخيه الإنسان ليؤكد الأساس العقدي لرسالة المسلم في الحياة، وأحدث بذلك التنبيه " أعظم انقلاب يحدث ضمن المخلوقات ودائرة الممكنات في تاريخ العالم.. وهو الآخرة، ويرشده إلى أعظم مسألة تخصه وهو الحامل للأمانة الكبرى وخلافة الأرضتلك.. هي مسألة التوحيد (الأساس العقدي) الذي يدور عليه سعادته وشقاوته الأبديتان، وفي الوقت نفسه يزيل القرآن الشبهات الواردة دون انقطاع، ويحطم أشد أنواع الجحود والإنكار المقيت "(١) بأساليب الحوار العقدي المتضمنة فيه، فكان معملا لأسلوبي البناء والهدم في اللحظة نفسها، فينشئ عقيدة التنزيه على أنقاض عقيدة سابقة الوثنية، يحلي القلب بالتوحيد في اللحظة نفسها التي يخليه من الشرك وفق مسلك أهل السلوك بطريقة **التحلية والتخلية** في اللحظة نفسها، **تحلية وتخلية** عقلية وقلبية في الوقت نفسه.

ج/التركيب الأخلاقي لماهية الإنسان:

---

(١) /الشعاعات ٣١١." (٢)

---

(١) رسائل عن النورسية، ١٠٨/١٥

(٢) رسائل عن النورسية، ٥٩/١٩

"ذلك ما نثره الأستاذ النورسي ذوقا، بعد تفكر وتدبر، إذ قال رحمه الله: (إذا أسندت المخلوقات غير المحدودة والأشياء غير المعدودة إلى الواحد الأحد؛ فكل شيء عندئذ يكون بذلك الارتباط قد نال مظهرا من ذلك الانتساب، ويكون موضع تجل من ذلك النور الأزلي، فتمد علاقات ارتباطه بقوانين حكمته، وبدساتير علمه، وبنواميس قدرته جل وعلا، وعندها يرى كل شيء بحول الله وقوته، ويحظى بتجل رباني، يكون بمثابة بصره الناظر إلى كل شيء، ووجهه المتوجه إلى كل شيء، وكلامه النافذ في كل شيء! وإذا انقطع ذلك الانتساب، ينقطع أيضا كل شيء من الأشياء عن ذلك الشيء، وينكمش الشيء بقدر جرمه)(١).

فهذا النص بيان لما يفعله الانتساب في وجدان المؤمن من **تخلية وتحلية**، ومن تهذيب وتشذيب، وتصفية وتزكية، ترقيه إلى منزلة الصفاء والإخلاص، حيث مرآة التجلي تعكس ما تعكس من أنوار وأسرار – ذلك (أن الإنسان يسمو بنور الإيمان إلى أعلى عليين، فيكتسب بذلك قيمة تجعله لائقا بالجنة (...) لأن الإيمان يربط الإنسان بصانعه الجليل، ويربطه بوثاق شديد، ونسبة إليه. فالإيمان إنما هو انتساب، لذا يكتسب الإنسان بالإيمان قيمة سامية من حيث تجلي الصنعة الإلهية فيه، وظهور آيات نقوش الأسماء الربانية على صفحة وجوده)(٢).

إن ظهور الصنعة الإلهية على صفحة الإنسان، وعكس مرآته لجمال أسمائه الحسنى، ونقوشها العليا، لا يكون إلا بعد صفاء المرآة. ولا صفاء إلا بخدمة، وإخلاص، وتفان في السير إلى الله. إن الانتساب معناه (الانخراط) في الخدمة كما قدمنا. أي الدخول في الأعمال، والمراقبة لكل ما يتعلق بذلك ورعايته، لتحقيق العبودية الحقة بـ(الرعاية لحقوق الله) كما عبر الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله(٣).

---

(١) المكتوبات : ٢ / ٣٣٣ .

(٢) الكلمات : ١ / ٣٤٨ .

(٣) عنوان كتابه المطبوع بتحقيق عبد القادر أحمد عطا، نشر دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الرابعة : ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .." (١)

---

(١) رسائل عن النورسية، ٢١/٢٥٠

"على كل شيء قدير. ثانيها سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله اكبر ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم. ثالثها سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم. رابعها رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الرحيم. خامسها اللهم صلى وسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد فهذه الخمسة الاذكار قد جمعت أفضل أنواع التهليل وأفضل أنواع التسبيح ومن أفضل أنواع الاستغفار في اختصار وأخصر كيفيات الصلاة على النبي صلى حديث أبي أيوب خالد بن زيد (سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر) جاء في الحديث ان الله اصطفي من الكلام أربعا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر أخرجه النسائي والحاكم في المستدرك من حديث أبى هريرة وأبى سعيد قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وأخرجا أيضا من حديث أبي هريرة انه صلى الله عليه وسلم قال خذوا حسبكم قالوا يا رسول الله من عدو قد حضر قال لا ولكن حسبكم من النار قولوا سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر فانهن يأتين يوم القيامة محسنات ومعقبات وهن الباقيات الصالحات قوله محسنات بفتح النون أي مقدمات امامكم وقوله ومعقبات بكسر القاف أى مؤخرات يعقبونكم من ورائكم وأخرج ابن السنى من حديث ابن عباس انهن في ذنب المسلم مثل الاكلة في جنب ابن آدم وأخرج ابن النجار والديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة خير الكلام أربع لا يضرك بأيهن بدأت فذكرهن ولمسلم والنسائى وابن ماجه من حديث سمرة بن جندب أحب الكلام الى الله أربع فذكرهن زاد النسائى وهن من القرآن (ولا حول ولا قوة الا بالله) جاء في الحديث انها كنز من كنوز الجنة أخرجه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث أبى موسى وأخرجه النسائي أيضا من حديث أبى هريرة وزاد فيه ولا ملجأ من الله الا اليه قال الخطابي يعنى الكنز في هذا أى وفيما يشبهه من الاحاديث الاخر الذي يحرزه قائله والثواب الذي يدخر له فيه (سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم) جاء في الحديث انهما كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان الى الرحمن أخرجه أحمد والشيخان والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقوله (وبحمده) الواو فيه للحال أي اسبحه تسبيحا متلبسا بحمدى له وقدم التسبيح على التحميد لان التسبيح تنزيه عن صفات النقص والثانى ثناء بصفات الكمال **والتخلية** بالمعجمة مقدمة على **التحلية** بالمهملة قال الكرماني التسبيح اشارة الى الصفات السلبية أي التي يجب سلبها عن الله وتنزيهه عنها والحمد اشارة الى الصفات الوجودية أي التى يجب أثباتها له تعالى والثناء عليه بها وكرر في هذا الحديث التسبيح تأكيدا للاعتناء بجميع التنزيه من جهة كثرة المخالفين

والواصفين له تعالى بما ليس بلائق في حقه بخلاف صفات الكمال فلا نزاع في ثبوتها له تعالى (رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الرحيم) جاء في الحديث ان كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة رب اغفر لى وتب على انك أنت التواب الرحيم أخرجه أبو داود والترمذى والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث ابن عمر وقال الترمذي حسن صحيح غريب وهذا لفظ أبي داود وللترمذي والنسائي وابن ماجه التواب الغفور وفي أخري للنسائي اغفر لى وارحمنى وتب على انك أنت التواب الغفور." (١)

"(وحض) بتشديد المعجمة أي ورغب وحث (العباد على التزامه) أي حملهم على قبول تكليفه بوصف دوامه (وتقلد إيجابه) أي بإطاعة جنابه فيما أوجبه في كتابه: (فكان جل جلاله) أي عظمت عظمته وعز جماله (هو الذي تفضل) أي اعطاه من فضله (وأولى) أي أنعم عليه بما علم المولى بأنه الأولى وهذا قبل ظهور وجوده لما تعلق به من كرمه وجوده (ثم طهر وزكى) أي طهره **بالتخلية** وزكاه **بالتحلية** في عالم دنياه بما ينفعه في عقباه من **التحلية** وأما قول الدلجي ثم طهره من عبادة الأصنام فلا يناسب لمقامه عليه السلام (ثم مدح) أي مدحه (بذلك، وأثنى) أي عليه مع أنه من آثار فعله وأنوار فضله فهو الحامد والمحمود كما أنه هو الشاهد والمشهود في جميع ميادين الوجود فليس في الدار غيره موجود، (ثم أثاب) أي جازاه (عليه الجزاء الأوفى) أي بالجزاء الأوفر والحظ الأكبر أو نصبه على المصدر من غير فعله، (فله الفضل بدءا وعودا) أي فله الإحسان على وجه الزيادة في الابتداء والإعادة، (والحمد أولى، وأخرى) ، أي في الدنيا والعقبى وفي نسخة والحمد أولى وأخرى عطفا على الفضل أي وله الحمد كما في قوله تعالى هو له الحمد في الأولى والآخرة فهذه النسخة أولى من الأولى كما لا يخفى ويجوز أن يكونا اسمي تفضيل أي وله أولي الحمد وأخراه الخ والمراد استيعابه كقوله تعالى ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا وأما قول بعضهم إن اسم التفضيل لا يستعمل إلا مضافا أو موصولا بمن أو معرفا باللام فمنقوض بقوله سبحانه ولعذاب الآخرة أخزى كانوا هم أظلم واطغى المهم إلا أن يعتبر من المقدرة في حكم المذكورة (ومنها ما أبرزه) أي أظهره (للعيان) بكسر العين أي للمعاينة (من خلقه) بفتح الخاء المعجمة خلافا لمن توهم وضبطه بالضم إذ المراد هنا شمائله الظاهرة ومن لبيان ما الموصولة (على أتم وجوه الكمال) أي أكمل أنواع وجوه كمال الجمال وهي صفات اللطف والإكرام (والجلال) وهي صفات القهر والانتقام أو المراد بالكمال النعوت الثبوتية وبالجلال

(١) بهجة المحافل وبغية الأماثل العامري الحرضي ٣٩٧/٢

الصفات السلبية وهي قولنا في حقه ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا في زمان ولا في مكان وسائر الأمور الحدوثية فحينئذ يقال معناه المنزه عن شوائب النقصان في نظر أرباب الحال وفي نسخة بكسر الخاء المعجمة بمعنى الخصال، (وتخصيصه) أي ومن جعله مخصوصا (بالمحاسن الجميلة) أي الحسنة من الأفعال، (والأخلاق الحميدة) أي المحمودة من الأحوال، (والمذامي الكريمة) أي المرضية من الأقوال، (والفضائل العديدة) أي الكثيرة التي عدها من المحال وهو من العد ومعناه الكثير لا من العدد فيتوهم أنها حصرت واحصيت ويروى السديدة أي الفضائل الواقعة على سنن السداد (وتأييده) أي ومن تقويته (بالمعجزات الباهرة) أي البارعة الفائقة الغالبة القاهرة، (والبراهين الواضحة) أي وبالادلة الظاهرة (والكرامات البينة) أي الخوارق اللائحة وهي أعم من المعجزات فإنها مقرونة بالتحدي مع عدم المعارضة مما يصدق الله تعالى بهما انبياءه في دعوى النبوة سميت معجزة للاعجاز عن الاتيان بمثلها وسميت آية لكونها علامة دالة على تصدق الله تعالى لهم مع أن المقام مقام يذم." (١)

"عليه الصلاة والسلام) أي من جملة ما خص في الإعطاء ولم يعط مثله لسائر الأنبياء (قصة الإسراء) أي إسرائه إلى السماء (وما انطوت) أي اشتملت (عليه من درجات الرفعة) أي بحسب ما ثبت في اثناء الأنباء (مما نبه عليه الكتاب العزيز) أي من بعض الإسراء (وشرحته صحاح الأخبار) أي وبينته الأحاديث والآثار وفي نسخة صحائح الأخبار قال الحلبي وكلاهما جمع صحيح وإطلاق كل منهما فصيح (قال الله تعالى: سبحان الذي أسرى بعبده) أي سيره (ليلا منصوب على الظرفية وتنكيره للدلالة على تقليل المدة الاسرائية مع ما فيه من الصنعة التجريدية فإن السري والإسراء كلاهما هو السير بالليل واختير زيادة الهمزة للمبالغة في مقام التعدية المقرونة بالمصاحبة والمعية المشيرة إلى **التخلية** من مقام التفرقة إلى **التحلية** والتجلية في مرتبة الجمعية من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الآية) أي الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير ثم سبحان علم للتسبيح بمعنى التنزيه ولعل إيراده هنا للتنبيه على أنه منزه عن المكان وإن إسراءه عليه الصلاة والسلام لإعلاء الشأن ولإطلاعه على عجائب الملك والملكوت في ذلك الزمان وهو مضاف إلى الموصول الذي بعده كما يدل عليه قوله فسبحان الله ونحوه ونصبه على المصدرية وأغرب السمين في إعرابه حيث قال وهو منصرف لوجود الزيادة والعلمية وقال والنجم إذا هوى قوله إلى لقد رأى من آيات ربه الكبرى وقد الفت رسالة مستقلة في خصوص هذه المسألة وبدأتها بتفسير صدر سورة

(١) شرح الشفا الملا على القاري ١/٣٤

الإسراء وختمتها بتفسير صدر سورة والنجم وذكرت فيما بينهما بعض ما يتعلق بهذه الكرامة العظمى وسميتها المدراج العلوي في المعراج النبوي وهنا اتبع كلام الشيخ في تبيين مبناه وتعيين معناه واتتبع كلام شراحه وحواشيه واختار ما ألقاه من مقتضاه ثم الظاهر من الآية المذكورة أن ابتداء الإسراء كان من نفس المسجد لحديث بينا أنا في الحجر عند البيت بين النائم واليقظان أتاني جبريل بالبراق وليطابق المبتدأ المنتهي لأنه ليس حرم للمسجد الأقصى أو من الحرم كما قال صاحب البردة:

سريت من حرم ليلا إلى حرم وسماه مسجدا لإحاطته به ولحديث أنه كان في بيت أم هانيء بعد صلاة العشاء فأسري به ورجع من ليلته وقص عليها من قصته ويمكن الجمع بينهما بأن كان في بيت أم هانئ فرجع بعد صلاة العشاء إلى المسجد وأتى الحجر عند البيت كما يشير إليه قوله بين النائم واليقظان عند نزوله رجع إليها وقص عليها القصة وكان ذلك قبل الهجرة بسنة ثم وجه تسميته الأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام والمراد ببركة حوله بركات الدين والدنيا لأنه مهبط الوحي ومتعبد الأنبياء من لدن موسى إلى زمن عيسى عليهم الصلاة والسلام وهو محفوف بالأنهار والأشجار والأزهار والأثمار وفي الحديث بارك الله فيما بين العريش والفرات وخص فلسطين بالتقديس ذكره الدلجي ومن جملة إراءة الآيات ذهابه في لحظة مسيرة أربعين ليلة." (١)

"(وقد قتل عبد الملك بن مروان) أي ابن الحكم بن أبي العاص بن أبي أمية كان معاوية جعله على ديوان المدينة وهو ابن ست عشرة سنة وولاه أبوه مروان هجر ثم جعله خليفة بعده وكانت خلافته بعد أبيه سنة خمس وستين توفي عبد الملك بدمشق سنة ست وثمانين (الحارث) أي ابن سعيد (المتنبي) الكذاب (وصلبه وفعل ذلك) أي مثل ذلك (غير واحد من الخلفاء) أي من بني أمية والعباسيين (والملوك) المتغلبين من الأمراء والسلاطين (بأشباههم) من الشياطين (وأجمع علماء وقتهم على تصويب فعلهم والمخالف في ذلك) الفعل (من كفرهم) أي من جهته (كافر) لجحده كفرهم (وأجمع فقهاء بغداد أيام المقتدر بالله) جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد (من المالكية) بيان لمن أجمع من فقهاء بغداد (وقاضي قضاتها أبو عمر المالكي على قتل الحلاج) وهو حسين بن منصور الحلاج المشهور من أهل البيضاء بلدة بفارس ونشأ بواسط والعراق صحب ابا القاسم الجنيد وغيره (وصلبه لدعواه الإلهية والقول بالحلول) كغيره من المتصوفة المتصفة بسمة الإسلام من

---

(١) شرح الشفا الملا على القاري ٣٨٦/١

الوجودية وغيرهم قالوا إن السالك إذا وصل فربما حل الله فيه كالماء في العود الأخضر بحيث لا تمايز ولا تغاير ولا اثنينية وصح أن يقول هو أنا وأنا هو مع امتناعه حقيقة لصيرورة أحد شيئين بعينه الآخر والآخر بعينه هو لحكم العقل ضرورة بدون احتياج إلى حجة ولا يمتنع مجازا بأن يكون بطريق واحدة إما اتصالية كجمع مائين في إناء واحد أو اجتماعية كامتزاج ماء وتراب حتى صار طينا وإما بطريق كون وفساد كصيرورة ماء بالغليان هواء واحدا أو استحالة أي تغير كصيرورة جسم بعد كونه سوادا بياضا أو عكسه وهذا كله في حق الله تعالى محال لتنزهه عن الحلول والاتصال والانفصال وما للتراب ورب الأرباب وإنما هو انعكاس نور من أنواره وسر من أسراره يلمح في قلب السالك المتصف **بالتخلية والتحلية** وكمال التصفية فقد يتوهم أنه حل فيه كما يتوهم الطفل أنه يرى الشمس في الماء (وقوله أنا الحق مع تمسكه في الظاهر) من حاله (بالشريعة) في سائر أقواله وأفعاله حتى قيل إنه كعادته كل ليلة يصلي الف ركعة في الحبس (ولم يقبلوا توبته) بمقتضى مذهب المالكية مع أن قوله أنا الحق ليس بظاهر في دعوى الألوهية لأن الحق يأتي بمعنى الثابت وضد الباطل هذا وقد اعتذر الغزالي في مشكاة الأنوار عن الألفاظ الي كانت تصدر منه قيل ضرب الحلاج بأمر المقتدر ألف سوط وقطعت أطرافه وجز رأسه وأحرقت جثته وكان ذلك نهارا لثلاثاء لسبع بقين من ذي القعدة سنة تسع وثلاثمائة قيل إنه لما صلب جرى دمه في الأرض وينتقش الله الله قال القطب الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني عثر الحلاج فلم يجد من يأخذ بيده ولو أدركته لأخذت بيده ويقال إنه قال يوما للجنيد أنا الحق فقال له الجنيد أنت بالحق أي خشية تفسد فكوشف فيه لما يؤول حاله من الصلب قال بعضهم والدليل على صحة باطنه أنه كان يقطع يداه ورجلاه وهو يقول حسبي الواحد بإفراد الواحد وقد زار قبره بعض أهل الكشف فرأى نورا ساطعا من قبره إلى السماء." (١)

"حر شوقه، وظهرت شمس فضله منالجانب الغربي فبهرت بالشروق، وأصبح كل صب وهو إلى بهجتها مشوق، زار الشام ثم ما سلم حتى ودع، بعد أن فرع بروضها أفنان الفنون فأبدع، وأسهم لكل من أهلها نصيبا من وداده، فكان أوفرهم سهما هذا المحب الذي رفع بصحبته سمك عماده، وعلق بمحبته شغاف فؤاده، فإنه دنا من قلبه فتدلى، وفاز من حبه بالسهم المعلى، أدام الله تعالى لك البقا، وأحسن لنا بك الملتقى، ومن علينا منك بنعمة قرب اللقا، آمين بمنه ويمنه، هذا، وقد وصل من ذلك الخل الوفي، كتاب كريم هو اللطف الخفي، بل هو من عزيز مصر القميص اليوسفي، جاء به البشير ذو الفضل السني،

---

(١) شرح الشفا الملا على القاري ٢/٥٣٤

الخل العز الأجل التاج المحاسني، مشتملا على عقود الجواهر، بل النجوم الزواهر، بل الآيات البواهر، تكاد تقطر البلاغة من حواشيه (١) ، ويشهد بالوصول إلى طرفها الأعلى لموشيه، فليت شعري بأي لسان، أثني على فصوله الحسان، العالية الشان، الغالية الأثمان، التي هي أنفس من قلائد العقيان، وأبدع من مقامات بديع الزمان، فطفقت أرتع من معانيها وفي أمتع رياض، وأقطع بأن في منشئها اعتياضا لهذا العصر عن عياض (٢) :

ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها ... عقود مدح فلا أرضى لها كلمي ولا سيما فصل التعزية والتسلية، المشتمل على عقد **التخلية** بل عقود **التحلية**، لتلميذكم الولد إبراهيم، فإنه له كرقية السليم، بعد أن كاد يهيم، فجاء ولله دره في أحسن المحال، ووقع الموقع حتى كأن الولد نشط ببركه من عقال:

وإذا الشيء أتى في وقته ... زاد في العين جمالا لجمال

(١) تكاد ... حواشيه: سقطت من ق.

(٢) البيت لعمارة اليمني (النكت العصرية: ٣٣) من قصيدة يمدح فيها الفائز الفاطمي ووزيره الملك الصالح طلائع بن رزيك ومطلعها:

الحمد للعيس بعد العزم والهمم ... حمدا يقوم بما أولت من النعم." (١)

"وفي الحديث القدسي: " لم يسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن ". والوجه وجهه، والضمائر تعود اليه، وهاهنا مزلقة تقشعر منها الرؤوس، وتشمئز النفوس.

حكى الإمام الرازي - رحمه الله - في كتاب " الإشارات في التعبير "، قال: أخبرنا أحمد بن عمرو الصوفي بمكة - حرسها الله - قال: أخبرني أبو بكر الطوسي، قال: قال عثمان الأحول تلميذ الخراز - رضي الله عنه -: بات عندي أبو سعيد، فلما مضى بعض الليل صاح بي: يا عثمان، قم أسرج، فقمت وأسرجت، فقال لي: ويحك رأيت الساعة كأني في الآخرة والقيامة قد قامت، فنوديت فوقفت بين يدي الله تعالى وأنا أرتعد، لم يبق علي شعرة إلا وقد قامت، فقل " جل وعلا ": أنت الذي تشير إلي في السماع وإلى سلمى وبثينة، لولا أني أعلم أنك صادق في ذلك لعذبتك عذابا لم أعذب به أحد من العالمين، انتهى. فنعوذ بالله من جسارة، تؤدي إلى خسارة. وقد وقع في هذا الخطر ابن الفارض، وابن سبعين والششتري وأضرابهم، وهو

(١) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ت إحسان عباس المقري التلمساني ٤٤٨/٢

باب ضنك، وللعبد في مطرح النعال، سعة عن جناب الكبير المتعال.

وقد يكون السامع في فهمه أخف حالا من المعبر، فإن الفهم أقرب إلى الغلبة، والتعبير أقرب إلى الاختبار، ومثال ما سنح في فكري مما حضر لي الآن قول امرئ القيس:

" الله أنجح ما طلبت به ... والبر خير حقيبة الرجل

شرحه وقوله ":

أنا موضعين لحتم غيب ... ونسحر بالطعام والشراب

فإن هذه القطعة موعظة عظيمة في ذكر الآخرة والزهد في الدنيا وإن لم يقصد نفس ذلك المعنى، ويزيد العاقل فيقول: هذا رجل دهري "كان " لا يؤمن بيوم الحساب، قد مقت الدنيا لمجرد ما رأى من الانتقال عنها إلى الفناء، فكيف لا يمقتها من يؤمن بالجنة وأن الدنيا لا تساوي شيئا إذا قيست إليها ولا تزن عند الله جناح بعوضه، وان الاشتغال بها " يعوق " عن الملك العظيم، والنعيم المقيم، ويعرض للحساب الشديد والعذاب الأليم، وقوله:

فلو أن ما أسعى لأدنى معيشة ... كفاني ولم أطلب قليل من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

فإن العابد يفهم منه أنه لو كان يسعى لمعيشة الدنيا الحسيسة الفانية لكفاه أدنى شيء، ولكنه يسعى للملك العظيم، في دار النعيم، وهو المجد حقا، فليس إلا الجد والاجتهاد، ومسامرة النوافل والأوراد، والعارف يفهم منه أنه لو كان يسعى لمجرد التنعم في الجنة لكفاه إقامة الرسم الشرعي، والوقوف عند الحد المرعي، ولكنه يسعى للوصول والنظرة، والحضور والحضرة، فليس إلا زيادة الاعتناء بصفاء الأسرار، والفناء عن الأغيار، وقوله:

تنورتها من أذرعات وأهلها ... بيثرب أدنى دارها نظر عال

فإن المريد قد يفهم منه " أن " الضمير للحقيقة، وأهلها بيثرب وهم محمد وأصحابه صلى الله عليه وسلم وعلى الصحابة أجمعين. وكون نيل ذلك من أذرعات وهو موضع بالشام " مناسب، لأن الشام " مكان مرتفع باعتبار الغور، وليس يبلغ السالك ذلك إلا بعد بلوغ المنزلة الرفيعة " من الاستقامة والطهارة ومن الهمة " الرفيعة فإن العبد يفتح له على قدر همته وبنظره العالي يقرب الفتح بإذن الله تعالى، بل النظر العالي وهو ما يكون إلى الحق دون شيء دونه هو كلية الأمر وعماده، رزقنا الله منه قسطا وافرا بمنه آمين.

وقول عنترة:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها

إني امرؤ سمح الخليقة ماجد ... لا أتبع النفس اللجوج هواها

فإن هذا في باب العفة والتحلي بمكارم الأخلاق في الجملة صريح، وباعتبار الرياضة والمطلوب من **التحلية** **والتخلية** عند السالكين إشارة، وهي كافية في المقصود، لأن مخالفة الهوى هو ملاك الأمر كله، ومثل هذا لا ينحصر في شعر العرب " فقلما يخلو بيت أو أبيات من معنى أو معان فإن الحكمة قد أنزلت على ألسنة العرب ".

وقد قال الله تعالى في الشعراء:) أنهم يقولون ما لا يفعلون (ومثل ذلك في كلام المولدين، وقد تقدم من شعر أبي نواس، وقال أبو الطيب:

لك يا منازل في القلوب منازل ... أقفرت أنت وهن منك أواهل

فإنه يفهم منه سوى مقصود الشاعر أمور:." (١)

"فترضى} ثم ختمها كذلك بأحوال ثلاثة فيما يتعلق بالدنيا، وهي قوله تعالى: {ألم يجدك يتيما فآوى، ووجدك ضالا} أي عن علم الحكم والأحكام {فهدى، ووجدك عائلا فأغنى} . ثم ذكر في سورة {ألم نشرح} أنه تعالى

يعطيك في الآخرة ما هو أعلى وأكثر، فلا تبال بما قالوه، فهو وعد فيه تسلية بعد ما نفى عنه ما يكره، فهو **تحلية** بعد **تخلية**، وقيل: المعنى لنهاية أمرك خير من بدايته، فإنه لا يزال يتصاعد في الرفعة والكمال، {ولسوف يعطيك ربك فترضى} [الضحى: ٥] ، وعد شامل لما أعطاه من كمال النفس وظهور الأمر، وإعلاء الدين، ولما ادخر له مما لا يعرف كنهه سواه واللام للتأكيد، وقول الزمخشري، وتبعه البيضاوي: اللام للابتداء، دخل على الخبر بعد حذف المبتدأ والتقدير، ولأنت سوف، رده ابن الحاجب وغيره، بأن فيه تكلفين، وهما تقدير محذوف، وخلع اللام عن معنى الحال، لئلا يجتمع دليلان حال، واستقبال قال: وليست للقسم؛ لأنها إنما تدخل على المضارع مؤكدا بالنون.

قال ابن هشام: وهو ممنوع، بل تارة تجب اللام وتمتنع النون، وذلك مع الفعلين كالآية، ومع تقدم المعمول

---

(١) المحاضرات في اللغة والأدب الحسن اليوسي ص/٩٦

بين اللام والفعل نحو: {ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون} ، ومع كون الفعل للحال نحو: {لا أقسم} ، وتارة يمنعان، وذلك مع الفعل المنفي نحو تالله تفتؤ، وتارة يحبان نحو وتالة لأكيدن، "ثم ختمها" أي: الأحوال المتعلقة بنبوته، "كذلك بأحوال ثلاثة فيما يتعلق بالدنيا" من حيث النبوة، لكن تعلق الثلاثة الأول بالنبوة من حيث كونها حاصلة بها، والثلاثة الثانية بمعنى: أن سببها إكرامه بالنبوة وإن كان أولاها حصل قبل النبوة، والاثنان بعد النبوة، ولو أسقط كذلك، فإن التنبيه على تعلقها بالنبوة، "وهي قوله تعالى: {ألم يجدك} " منت الوجود بـمعنى العلم، {يتيما} مفعوله الثاني، أو المصادفة ويتيما حال، أي: لا أب لك، وقيل: لا مثل لك، {فآوى} بأن ضمك إلى عمك أبي طالب، {ووجدك ضالا} ، أي: عن علم الحكم" "بكسر ففتح" جمع حكمة، أي: معرفة العلل والأسباب، فقوله: "والأحكام" عطف مسبب على سبب، وليس الحكم مفرد الأحكام؛ لأنه يصير ما بعده مرادفا، ولا ينافي ذلك أن بعض الأحكام تعبدي؛ لأنه بالنسبة لنا، أما هو صلى الله عليه وسلم، فكان عارفا بالعلة {فهدى} أي: هداك إلى معرفتها، وهذا أحد تفاسير في الآية، كما يأتي للمصنف، {ووجدك عائلا} ذا عيال {فأغنى} [الانشراح: ٨] بما حصل لك من ربح التجارة، كذا قصره البيضاوي، ولم يجعله شاملا لذلك، ولغيره من مبدئه إلى نهاية ما حصل له، أو يقصره على ما حصل له من الغنائم والفتوحات؛ لأن ربح التجارة حصل به أصل الغنى، وما بعده حصل به الزيادة بعد اطمئنان النفس بالأول، فكانت النعمة في الحقيقة هي الربح؛ لأنها التي حصل بها دفع الحاجة، هذا ولم يذكر." (١)

"للخنا، أسدده بكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، ثم أجعل السكينة لباسه، والبر شعاره، التقوى ضميره، والحكمة معقوله، والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والعدل سيرته، والحق شريعته، والهدى إمامه، والإسلام ملته،

ونون مقصورة" قبيح الكلام، وهذا مع ما قبله يفيد أنه لا يصدر عنه صلى الله عليه وسلم شيء منه قليل ولا كثير؛ لأن الفحش بمعناه، أو فعال للنسبة، كتما رأى ليس بذي قول للخنا، ولما ذكر صفات **التخلية**، بقوله: ليس بفظ، إلى هنا ذكر صفات **التحلية** بطريق وعد من لا يخلف وعده، مستأنفا لمقصد أعلى مما قبله، ولذا لم يعطفه، أو في جواب سؤال هو، فما تفعل به بعد أن صنته عن النقائص، فقال: "اسدده"

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية الزرقاني، محمد بن عبد الباقي ٣٢٨/٨

أوفقه للسداد، وهو الصواب، واقصد من القول والعمل "بكل جميل" حسن صورة كان، أو معنى يليق به، "وأهب" بفتحتين" أعطي "له كل خلق "بضمتين وتسكن اللام" السجية والطبيعة، "كريم" عزيز نفيس، "ثم اجعل" مضارع المتكلم، وهو الله "السكينة" "بالفتح والتخفيف" الوقار والطمأنينة، وفيها لغة بالكسر والتشديد، حكاها في المشارق، وبها قرئ شذا "لباسه"، أي: ما يظهر عليه من الخشوع والتثبت، فشبه المعقول بالمحسوس تقريبا للفهم، ومبدأ هذا الوقار يلوح للقلب في مراقبته، فلذا قال تعالى: {أنزل السكينة في قلوب المؤمنين} [الفتح: ٤] ، فلكل وجهة، "و" اجعل "البر" الطاعة والإحسان، أي: زيادته، والخير والرحمة "شعاره": لباسه الذي يلي جسده، سمي به؛ لأنه لابس شعره وبدنه، ويقابله الدثار، وهو ما يتغطى به، ولما كانت السكينة ظاهرة فيه صلى الله عليه وسلم في سائر أحواله، ويراها كل أحد، برا وفارجا، جعلها لباسا، والبر والخير والرحمة، وإن لازمه أيضا وعم أحواله إنما يقف عليه المؤمنون ببصائرهم، جعله شعارا، فانظر حسن موقعه مع ما قبله وما بعده أيضا، وهو "والتقوى ضميره"؛ لأن الضمير ما يضمر في القلب وينوي في الخاطر، بحيث لا ينسى، فتأمل كيف انتقل من الظاهر للخفي، ثم الأخفى مع ما فيه من شبه اللف والنشر مع الأمور السلبية والتقوى ما بقي العذاب في الآخرة، ولها مراتب: أولها التبري عن الكفر، والثاني: التنزه عن كل ما يؤثم، والثالث: التنزه عما يشغل السر عن الله، وبهذا علم التئامها مع الضمير "والحكمة" كل كلام جامع لما يرشد إلى الحق، فيشمل المواعظ والأمثال لانتفاع الناس بها، وتطلق على القرآن والعلوم الشرعية، والقضاء بالعدل، وبه فسر ادع إلى سبيل ربك بالحكمة، "معقوله" مصدرا واسم مفعول، فالمراد إنها تعقله وإدراكه، أو ما يعقله، كان حكم ومواعظ وعلوم نافعة؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، "واجعل "الصدق والوفاء طبيعته" أي: إن الله جبله أنه لا ينطلق بغير ما وافق الواقع، وإذا عاقد أحدا أو عدلا يخلفه، "والعفو والمعروف" ما يعرفه ويألفه العقلاء.." (١)

"أي: ما تركك منذ اعتنى بك، وما أبغضك منذ أحبك، وحذف "الكاف" من "قلى" اكتفاء بكاف ودعك؛ ولأن رءوس الآيات بالياء فأوجب اتفاق الفواصل حذفها.

وهذا يعم كل أحواله، وإن كان حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها، كما أن الدار الآخرة هي خير له مما قبلها، ثم وعده بما تقربه به عينه وتفرح به نفسه،

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية الزرقاني، محمد بن عبد الباقي ٤١٣/٨

على طريق الاستعارة، ففيه إيماء إلى أن الله تعالى لم يتركه أصلا، فإنه معه أينما كان، وإنما الترك لو تصور من جانبه ظاهر مع دلالته بهذا المعنى على الرجوع والتوديع، إنما يكون لمن يحب ويرجى عوده، وإليه أشار الجرجاني، بقوله:

إذا رأيت الوداع فاصبر ... ولا يهمنك البعاد

وانتظر العود عن قريب ... فإن قلب الوداع عادوا

فقوله: {وما قلى} ، مؤكدا له، وهذا لم أر من ذكره مع غاية لطفه، "والقلى" "بكسر القاف والقصر"، وقد يمد "البغض"، مصدر قلي بوزن رمى، "أي: ما تركك منذ اعتنى بك" وهو من أول أمره تفسير ما ودعك، "وما أبغضك منذ أحبك"، تفسير للقلا، وفي الشفاء، أيك ما تركك وما أبغضك وقيل: ما أهملك بعد أن اصطفاك وزعم شارح أن المشهور الثاني واختار الأول لمناسبته لما قبله، والإهمال عدم التقييد مع الترك، فهو ترك مخصوص "وحذف الكاف من قلى اكتفاء بكاف ودعك" فهو اختصار للعلم به؛ "ولأن رؤوس الآي بالياء، فأوجب اتفاق الفواصل حذفها"، ولئلا يخاطبه بالبغض، وإن كان منفيا، أو ليطعمه وأصحابه وأمته، واستحسن، "وهذا يعم كل أحواله، وأن كل حالة يرقيه إليها هي خير له مما قبلها" إذ كأنه قيل: ما ودعك لبغض، وسترى منزلتك، ففيه إفادة الترقي في الأحوال في الدنيا، "كما أن الدار الآخرة هي خير له مما قبلها" كما قال: {وللآخرة خير لك من الأولى} ، واللام للابتداء مؤكدة، أو جواب قسم، ففيه تعظيم آخر، أي: كما أعطاك في الدنيا يعطيك في الآخرة مما هو أعلى وأكثر، فلا تبال بما قالوه، فهو وعد فيه تسلية بعدما نفي عنه ما يكره، فهو **تحلية** بعد **تخلية**، "ثم وعده" بقوله: {ولسوف يعطيك ربك فترضى} ، "بما تقر" "بفتح القاف الفوقية" "به عينه" أي: تسكن "وبتحتية أوله وشدة القاف مكسورة ونصب عينه"، يقال: قرت العين وأقر الله العين.

قال في فتح الباري: قرة العين يعبر بها عن المسرة ورؤية ما يحبه الإنسان ويوافقه؛ لأن عينه قرت، أي: سكنت حركاتها عن التلفت لحصول غرضها، فلا تتشوف شيء آخر، فكأنه مأخوذ من القرار، وقيل: معناه أنام الله عينك، وهو يرجع إلى هذا، وقيل: بل هو مأخوذ من القر، وهو البرد، أي: أن عينه بارة لسروره ولذا قيل: دمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارة، ومن ثم." (١)

---

(١) شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية الزرقاني، محمد بن عبد الباقي ٤٤٦/٨

"الكاتب: محمد رشيد رضا

الإصلاح والإسعاد على قدر الاستعداد

يرى الباحثون في العمران والمشتغلون بعلم الاجتماع بعد النظر في تاريخ الأمم أن كل إصلاح وجد في العالم؛ فإنما كان بواسطة رجال فاقوا شعوبهم ببعد النظر، وصحة الفكر، وعلو الهمة، وقوة العزيمة والإرادة، فتقدموهم ثم قدموهم وارتقوا بهم إلى المكانة العالية، والمنزلة السامية، ولا فصل في هذا بين الإصلاح الديني والعلمي، والإصلاح المادي والسياسي.

ويقول هؤلاء الناظرون: ما بال بعض الممالك والأقطار تمر عليها القرون والأعصار، وهي تضعف وتذل، وتذوب وتضمحل، ولا ينبت في أرضها رجل عظيم، ينقذها من هذا الرجز الأليم، ما بال الشعوب الإسلامية قد تحول عزها إلى ذل، وكثرها في كل خير إلى قل، وعلمها إلى جهل، ولم يظهر فيها ملك حكيم، ولا إمام عليم، يجدد لها مجدها، ويرجع إليها عزها، وأين مصداق ما يروونه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم من قوله: (إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها؟) .

إنما يقول هذا الباحثون في الظواهر، والناظرون في الصور السطحية، والذين يكتنهون الحقائق ويغصون في الأعماق ويفقهون الأسرار، وتنفذ أشعة بصائرهم إلى ما وراء الأستار، يعلمون أنه ما قام مصلح في أمة من الأمم بعمل من الأعمال تغيرت له حالة الأمة، وارتقت بهم من الحضيض إلى القمة، إلا بعد أن استعدت تلك الأمة لقبول ذلك الإصلاح بتأثير الزمان، وتقلب الحدثان، أو انتشار العلم والعرفان، فللإصلاح شرطان: أولهما استعداد الأمة لقبوله، والثاني الزعيم الداعي إليه من طريقه الطبيعي مع الكفاءة والاضطلاع، فإذا ظهر مثل هذا الكفؤ للقيام بالإصلاح في قوم ورآهم غير مستعدين لقبول إصلاحه فإنما يشتغل بالسعي في إعدادهم وتهيئتهم للأخذ بأركان ذلك الإصلاح، ولا يدعوهم إليها في

أول الأمر، وربما يقضي عمره في إيجاد الوسائل غير بائح بسر من أسرار المقاصد، إلا ما يودعه في أطواء الكلام، من الإجمال والإبهام، كالكناية والتورية، وما يشبه الإلغاز والتعمية، فإذا هو صرح للقوم بالمراد، ودعاهم إلى خلاف ما هم عليه من التقاليد والعاد، تقوم عليه القيامة، وتتوجه إليه سهام الملامة، بل تنصب عليه قذائف القاذفين، ولعنات اللاعنين، وينزل به البلاء المبين، ويكون في عمله من الخاسرين.

المصلح إما داع ذو بيان، يستصرخ الشعور والوجدان، ويستنفر العقل والجنان، دالا على طريق الإسعاد، هاديا إلى سبيل الرشاد، وإما ملك مستبد، حكيم مستعد، على أمة خاملة، ورعية جاهلة، يحملها بالقهر والإلزام، على ما يطلب ويرام، وكل منها مطالب بمراعاة استعداد الأمة ودرجة قابليتها؛ ولكن الأول يحتاج من ذلك أكثر مما يحتاج إليه الثاني؛ لأنه يدعو النفوس إلى العمل باختيارها، وإنما العمل الاختياري ما توجهت إليه الإرادة بباعث العلم والإذعان بأن فيه اجتناب مفسدة، أو اجتلاب مصلحة، وليس لأحد سلطان على النفوس يفهمها ما لم تستعد لفهمه، ويقنعها بما لا تحيط بعلمه، وإذا عجز المستبد عن التسلط على الضمائر، والسيطرة على السرائر، فلا يعجز عن التصرف بالظواهر، بأن يلزم الناس بالأعمال النافعة، وإن لم يعتقدوا نفعها حتى إذا جاء وقت الجني والقطوف، عرفوا ما لم يكن معروف، فكانوا كمن يقاد للجنة بالسلاسل.

إن كون الإصلاح والإسعاد على قدر الاستعداد، قاعدة عامة شاملة للإصلاح الذي جاء به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فإن الله تعالى لم يبعثهم إلا معدين، ومصلحين للمستعدين، وقد {كان الناس أمة واحدة} (البقرة: ٢١٣) في الجهالة والهمجية، والوقوع في شرك الشرك والوثنية،] فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين [، بعدما استعد بعض الناس لفهم التوحيد وقبول الدين، ورجي أن يعدوا بإيمانهم الآخرين، ولنقص الاستعداد وضعف العقول أيد الله تعالى الأنبياء بالآيات البينات، التي اعتاد الأكثرون على الخضوع لمثلها مما يخالف المألوفات، ولا

ينطبق على سائر العادات، ومع هذا كله كانوا يضربونهم ويطردونهم، وفي بعض الأحيان يقتلونهم، ومنهم من لم يؤمن به أحد أو إلا الرجل والرجلان، ومنهم من آمن به العدد الكثير، ثم ارتدوا وفسقوا بعد زمن قليل أو كثير، وقد بينا من قبل استعداد العرب لبعثة النبي صلى الله عليه وسلم، وما امتازوا به على الأمم لقبول إصلاحه (راجع ج ٤ م ٣) .

إنما مثل النوع الإنساني في مجموعه كمثل الفرد الواحد من أفراده، فالشعب الجاهل من شعوبه كالطفل لا يمكن أن تجعله رجلا كاملا إلا بتربيته على أخلاق الرجولية بالتدريج الطبيعي، فإذا كلفته بما يكلف به الرجال من عويص المسائل، وحل عقد المشاكل، فأمرك لا يطاع؛ لأنه بما لا يستطاع، كذلك حال من يكلف شعبا من الشعوب أو أمة من الأمم بأن تجاري في طور ضعفها الأمم القوية، وتباري في إبان جهلها من سبقها في جميع الطرق العلمية، من غير أن يربيها على ذلك بالتدريج الذي عرف من سنن الله تعالى في الأولين، كالابتداء بإزالة الموانع، والتثنية بإدالة المنافع، أو بتقديم التخلية على التحلية كما يقول السادة الصوفية، وإنما نعني التقديم والتأخير في المرتبة لا في الزمن.

تربية الأمم ليست بالمركب الذلول، وطريقها ليس بالطريق المعبد؛ وإنما هي الحرون في الخزون يتوقع راكبها الهلكة في كل حركة، وما كان بسمرك هو المربي لألمانيا والمبدع للوحدة الجرمانية ولا بيكنسفليد هو المربي لإنكلترا ولا غامبتا هو المربي لفرنسا ولا غورجيقوف هو المربي لروسيا ولا أمثال هؤلاء السياسيين من الفلاسفة والعلماء، وإنما ربى أوربا كلها أولئك الذين اضطهدوا وأذلوا وأبعدوا وصلبوا وقتلوا تقتيلا أن دعوا الناس لإصلاح عقائدهم وع،ائدهم وتغذية عقولهم بلبان العلم والعرفان، فأعدوا أقوامهم لكل ما هم فيه الآن من العزة والشمم، والسيادة على الأمم، أولئك الذين كانوا يرمون بالكفر والزندقة وإفساد الاعتقاد والجناية على البلاد والعباد، فصاروا الآن يوصفون بالإمامة، ويحلهم التاريخ محل الكرامة، ويذكرون بالتعظيم والتبجيل، وترفع لهم الهياكل وتنصب

التماثيل، وأعظمهم عندي لوتر مصلح الدين، ومزيل العقبة الكبرى من طريق جميع الأوربيين.

من أسباب الاستعداد لقبول إصلاح ما معاشرة من صلح حالهم به من قبل ومشاهدة أطوارهم، والوقوف على أخبارهم، عندما وقفوا ببابه، وأنشأوا يأخذون بأسبابه، ومن أسبابه أن يتسلط على الأمة من يسلبها ثوب مجدها، وينزع عنها تاج كرامتها ويستأثر بمنافعها، ويستولي على مرافقها، ومن أسبابه أن يمر عليها حين من الدهر مهددة بقلب كيانها، وتقويض أركانها، وإزالة سلطانها، ممن يقدر على ذلك، من الدول والممالك، ومن أسبابه أن يرى أحد شعبين متجاورين أو متمازجين الشعب الآخر قد انسلخ من تقاليده السخيفة، وعاداته الضارة، واستبدل بها ما عز به جانبه، واتسعت في هذه الحياة مذاهبه، فصلح حاله، وكبرت في السعادة آماله، وماذا عسانا نستفيد من تعداد الأسباب إذا كنا نجهل الموانع التي تزاحمها فتحول دون تأثيرها، أو لم يكن لنا سبيل للخوض فيها؟

إنما عددنا ما عددناه تمهيدا لذكر مثال من أمثلة الاستعداد في الشعوب الإسلامية التي يضرب بها المثل في التأخر بعد التقدم، والانخفاض بعد الارتفاع وهو ما كان من مسلمي الهند:

دخل الإنكليز بلاد الهند فكان أقرب الناس إلى الاستفادة منهم الوثنيون الذين كانوا من قبل دون المسلمين في كل علم وعمل، فطفق الوثني يتعلم، والمسلم يتحسر ويتألم، أو يشكو في نفسه ويتظلم، حتى مر الزمن الطويل، الذي انقرض به جيل وتجدد جيل، والمسلم يعادي اللغة الإنكليزية، ويكفر متعلم العلوم الأوربية.

فلما رأى المسلمون نتائج ذلك باتساع ثروة الوثنيين وكثرة الموظفين فيهم، واجتماع شملهم ونفوذ كلمتهم، استعد أفراد منهم إلى معرفة الحقيقة، ووجوب سلوك الطريقة، ومن فضل الله على الناس أنهم كلما استعدوا لشيء يسر لهم أسبابه، وأفاضه عليهم بها، فكان أعلاهم همة وأقواهم عزيمة هو الساعي الأول والداعي إلى العمل، وهو السيد أحمد خان فأسس مدرسته الشهيرة في مدينة عليكره ودعا

قومه إلى التربية الصحيحة والتعليم القويم، ونبذ ما كانوا عليه من أسباب الخمول القديم، فأجابه النزر اليسير، وكافأه الجماهير بالتفسيق والتكفير، ولولا حماية الحكومة الإنكليزية له ومساعدتها إياه لأخرجوه أو قتلوه، حتى إذا ما ظهرت في هذه السنين آثاره وتبين لمسلمي الهند أن الخير إنما يرجى لهم من تلامذته، وأن السعادة إنما تفيض عليهم من ينبوع مدرسته، أشادوا بذكره، وعظموا من أمره، واعترف العلماء والجهلاء والأذكياء والأغبياء بأنه المصلح العظيم، والمجدد الحكيم، والإمام العليم، ولو قام فيهم بهذه الدعوة منذ خمسين سنة لما وجد منهم ملبيا، ولا صادف مصغيا.

هذا هو السيد أحمد خان الذي كان السيد جمال الدين الأفغاني ممن يتهمه بالمروق من الدين، والتصدي بإغراء الإنكليز لإفساد عقائد المسلمين، والسيد جمال الدين هو من أعظم المصلحين والحكماء الراسخين، وقد كان يتهم من بعض الناس في مصر بمثل ما يتهم به السيد أحمد خان من بعض الوجوه، ألا يدلنا هذا على أن مصر أبعد من الهند عن الاستعداد؟ بلى وإنني أذكر في هذا المقام كلمتين إحداهما قالها مؤرخ مسيحي وهي:

أن السيد جمال الدين جاء قبل وقته بخمسين سنة، فالمسلمون لما يستعدوا لفهمه والاسترشاد بعلمه. والثانية قالها صاحب أكبر جريدة إسلامية في الهند وهي:

أن المصريين لا يزالون مغترين بمثل ما كان عليه الهنديون منذ خمسين سنة، مغترين بما بقي لهم من الحكام وفضلات الأيام، فلا ينتبهون حتى يفقدوا كل شيء حتى الأسماء الإسلامية في كراسي الإمارة والحكم كما وقع لإخوانهم الهنديين.

أقول وإن لم يصح حديث التجديد في كل مئة سنة: لا يكاد يمر على أمة كأمتنا قرن من القرون يخلو من إمام عليم يصلح لتولي زعامة الإصلاح، وإنما تظهر آثار الرجال باستعداد أقوامهم، ولذلك كان فيهم من يكتم علمه؛ لأنه لا يجد له حملة كما نقل عن بعض الأئمة، ومنهم كان يغلبه لسانه أو قلمه على الإفصاح

بشيء من الحق فيقابله الناس بالإعراض، ويحسبونه من معضلات الأمراض، أو
يترك سدى، ويرمى كالشيء اللقا، فالإمام الغزالي صرح برأيه في إصلاح
المسلمين، بعدما بلغ رتبة الإمامة في جميع علوم الدين، ولكن لم يوجد من يعمل
برأيه القويم، ولا من يزن بما وضعه من (القسطاس المستقيم) ، وكذلك الإمام
أحمد بن تيمية لم يترك بدعة إلا وفندها، ولا سنة إلا ودعا إليها وأيدها؛ ولكنه لم
يؤخذ بإرشاده إلا بعد قرون حيث جددت الدعوة إليه من قوم مستعدين له من بعض
الوجوه، على أن إظهار الحق خير من كتمه وإخفائه، فإن لم يفد في الإصلاح
والإسعاد، فلا بد أن يفيد في التهيئة والإعداد، ولا شك أنه يوجد في كثير من البلاد
التي استحوذ عليها الجهل من يصلح للإمامة وللقيام بالزعامة، فإن لم يقدروا على
الإصلاح فلا بد أن يهيئوا الأمة له، ويعدوها لقبوله، وربما كان السنوسي السابق
وخليفته الحاضر من المعدين لا من المصلحين، وربما كان أتباعه قد استعدوا
لنهضة عملية، أما المصريون فقد ظهر فيهم شيء قليل من بوادر الاستعداد
للإصلاح المعنوي والمادي ويرجى نموه ببقاء الحرية ودوامها.
كما مضت سنة الله تعالى في جعل الإصلاح البشري والإسعاد الكسبي على
قدر الاستعداد، جرت سنته كذلك في التكوين والإيجاد؛ فإنه قدر لكل مكون من
المكونات أجلا محدودا يستعد فيه للظهور بشكل من الأشكال، أو صورة من الصور
{وكل شيء عنده بمقدار} (الرعد: ٨) فإذا جاء الأجل الموعود، ظهر بذلك
الشكل في الوجود، وذلك من كمال النظام والحكمة {وخلق كل شيء فقدره تقديرا} (الفرقان: ٢) نعم
إنه قدره بالتدريج في أزمنة متعاقبة عبر عنها بالأيام {الذي
خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن
فاسئل به خبيرا} (الفرقان: ٥٩) .
". (١)

---

(١) مجلة المنار محمد رشيد رضا ٦٨١/٤

"الكاتب: محمود أفندي شكري الآلوسي

الذكر ورابطة النقشبندية

لما اطلع السيد محمود شكري أفندي الألوسي عالم العراق المصلح الشهير على ما كتبناه في رابطة النقشبندية - استحسنه وفضله على جميع ما كتبه العلماء في ذلك، وأرسل إلينا القصيدة الآتية، وقال: إنها للشيخ عثمان بن سند النجدي نزيل البصرة - رحمه الله - وكان من رجال أواسط القرن الثالث عشر في إبطال الرابطة التي يقول بها المتصوفة.

أخل الفؤاد إذا ما كنت ذاكره ... تكن فتى بسلاف الذكر قد سكرا

فكيف يدعو لإخلاء الفؤاد من الـ ... ـأغيار طرا ليصفو الذكر للفقرا

فكيف يدعو إلى تصوير صورته ... في خاطر فيه نور الله قد سفرا

فأصقل فؤادك بالذكر اللذيذ وكن ... ممن عن الغير في أذكاره نفرا

لم يحل قط شهود الله في خلد ... إلا إذا لم يكن فيه سواه يرى

وإن يكن من أناس من يشاهدهم ... مولاه يذكر ما أنوارهم نظرا

إذ صورة المصطفى صحت بها كتب ... وما بتصويرها أصحابه أمرا

لو كان من ديننا تصوير مشيخة ... لكان أجدر لكن تقتفي الأثرا

فحسبنا باتباع المصطفى شرفا ... إن مال نحو اتباع غيرنا وجرى

فيا مريد الهدى استمسك بعروته ... وقل إذا السالك استهداك معتبرا

دع التوجه إلا للذي فطرا ... واسلك على الشرع واترك ما سواه ورا

فسالك لسبيل المصطفى ثبتت ... أقدامه ومريد غيره عثرا

إن الطريق إن عرفتها عمل ... بالشرع فاعمل به وانظر لما نظرا

وبعد تخلية فاعمل بتحلية ... وإن تحلية أخذ بما أمرا

من سار لله نقى السر من كدر ... لا ينظر الله سرا أشرب الكدرا

وأخرج عن النفس والأغيار تحظ به ... لم يحظ بالله مملوء الحشا غيرا

ولا تظن اشتغالا بالعلوم شقى ... إن الشقاء لمن غير العلوم يرى
فالعلم يحمله من كل ما خلف ... عدو له فهم من غيرهم أمرا
ينفون تحريف ذي الأبطال عنه فكم ... مدقق منهم دين الهدى نصرا
لاتحتقر سالكا علما فسالكه ... سام وتاركه بالجهل قد حقرا
وارج الحوائج من مولاك لا بشر ... وإن سما من مقام الصالحين ذرى
لو كان مستلبا منه الذباب ولم ... يقدر الله إنقاذا لما قدرا
فافزع إلى الخالق المعبود معتصما ... في كل ما حدث إن جل أو صغرا
واعبد كأنك مولى العالمين ترى ... فإن تكن لا ترى مولاك فهو يرى
واحذر دسائس نفس ربما قتلت ... ففي الدسائس منها دقق النظرا
الذكر ركن عظيم من طريقتهم ... وخيره ما عن المختار قد أثرا
جد في السير للرحمن مقتفيا ... آثار من فات كل الخلق حين سرى
وكل مؤمنة أو مؤمن فله ... حق عليك فأحبب منهما الأثرا
واخش احتقارك للعاصي لمعصية ... فرب عاص تعدى ذنبه غفرا
فمكر ربك لا تأمن وكن رجلا ... مستمسكا أبدا من شرعه بعرى
لا ناظرا عملا لكن لرحمة من ... كل الأنام اليه دائما فقرا
معلقا منك آمالا بذيل ندى ... من فضله الجم ذرات الورى
غمرا اذكره في خلوة أو جلوة لترى ... مما له عند أملاك سموا ذكرا
وبالنواجذ فاعضض شرع مرسله ... ودع أقاويل أقوام جرت هذرا
ما خالف الشرع مردود وقائله ... بذا روينا عن الهادي لنا خبرا
والدين أكمله المولى فليس به ... نقص فيكمله من نقصه ظهرا
إن الأطبا أساة الدين هم علما ... قد دققوا في معاني السنة النظرا
حامون حوزتها عن كل مؤتفك ... مزين في طريق الله كل فرا
لا توقعن نظرة يوما على عمل ... إن رمت إخلاص أقوام بدوا غررا
إخلاصهم عرف الرفاق زاد على ... أن لا يكون لإخلاص له نظرا

لا مثل من حقروا أعمال غيرهم ... واستعظموا كل فعل منهم صدر
________." (١)

"الكاتب: محمد رشيد رضا

____

نابتة المدارس والمكاتب [*]

أناخ الصيف بكلكله، وضرب الحر بجرانه، فأنشأت المدارس والمكاتب توصد أبوابها، وتنثر على البلاد أزاهر طلابها، وتهدي إليهم جنى جناتها، فمن طلابها من يغادرها موقتا لزيارة الوطن، وصلة الرحم، ويعود إليها جم النشاط، وافر الاغتباط؛ ليتم المدة، ويكمل العدة، ومنهم من يودعها الوداع الأخير، بقلب الحفيظ ولسان الشكور، وهم المتخرجون الذين تم فصالهم، وبلغوا في هذه المعاهد رشدهم، وآن لهم أن يخدموا الملة والأمة بالاستقلال، ويطلبوا بالثبات في خدمتهم درجة الكمال.

يرى الكثيرون من الناس أن الطالب الذي يغادر معهد العلم لأجل صلة الأهل ومودة القربى لا يطلب منه في مدة الصلة إلا الراحة من تعب الدرس، وترويض الجسم وترويح النفس، بما يباح له من اللعب والهو، وأن المتخرج قد استراح من عهد التحصيل والتعلم، ودخل في طور الاستلال والتنعم، فما عليه إلا أن يهتم بجمع المال، والتمتع بما يقدر عليه من الحلال، ومنهم من لا يرى قيد الحلال ضروريا، ولكنه ربما يشترط المحافظة على عرف الكبراء، وعادات الأغنياء، فما عرفوه من المنكرات كان عنده معروفا، وما أنكروه من الفضائل والخيرات كان عنده منكرا.

لهذا كان سيرة الكثيرين من طلاب العلوم والفنون سيئة في اعتقاد الأمة، وصورتهم المعنوية مشوهة في نظرها العقلي، فهي تتهم نابتة العلوم الدنيوية بتهمة

____

(١) مجلة المنار محمد رشيد رضا ١٢/٣٥٠

ونابتة العلوم الدينية بتهمة أخرى، وقد يكون لكل من الفريقين أنصار من الأهل والأصدقاء، وأصحاب الحاجات والخلطاء، يعتزون بهم، ويقتنعون من الجاه بعصبيتهم، فينصر أحدهم الآخر ظالما كان أو مظلوما، ويؤيده لائما ومليما، فيسري بذلك دود الفساد في جسم الأمة حتى تكون من الهلكى، ويتعارض الجاه بين رجال الدين ورجال الدنيا، فيتصادم حزباهما، ويقع الشقاق بينهما.

أيها النابتة الجديدة، قد آن لهذا التباين أن يزول، قد آن للمتعلمين أن يتجردوا من الأهواء والحظوظ، قد آن لهم أن يعلموا أن للعلم فائدة فوق فائدة الحرفة، وثمرة أشرف من ثمرة الكسب والتجارة، قد آن لهم أن يعلموا أن المدرس والحاكم، (عامل الحكومة) والطبيب والمهندس، ووكيل الدعوى ومحرر الجريدة منكم إذا لم يكن لهم غرض من عملهم إلا الكسب الذي يعيشون به؛ فلا فرق بينهم وبين الصائغ والحائك والحداد والنجار والحمال، كل أولئك يعملون ما لابد للأمة منه لأجل أن يعيشوا بثمرة عملهم.

تذكروا أن لكم وراء الكسب بعلمكم وعملكم عملا تقدرون عليه ولا يقدر عليه غيركم، ومقاما عاليا يسهل عليكم العروج إليه دون سواكم، تذكروا أنكم أنتم المطالبون بإخراج أمتكم من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ورفعها من حضيض الفساد إلى أوج الرشاد، وإنقاذها من مضيق الفقر والفاقة، إلى بحبوحة الغنى والثروة، أنتم المطالبون بذلك بمعرفتكم قيمة أنفسكم، وبحسن سيرتكم في خاصة أنفسكم، وبتعارفكم وتآلفكم وتعاونكم فيما بينكم، وبهدايتكم وإرشادكم لغيركم، وعلى كل من الراحلين إلى البلاد منكم واجبات، أذكركم بها بهذه الكلمات.

ينبغي أن يوطن كل واحد منكم نفسه على خدمة الأمة ورفع شأنها وأن يراها أهلا لذلك بما منحها الله من القوى إذا هو شكر الله عليها باستعمالها في ذلك، فمن يوطن نفسه على ذلك ويحملها على الاستعداد له تعل همته، وتعظم مروءته، وتتعلق آماله بمعالي الأمور، ويتنزه عن سفسافها، ومن لم يرج عن نفسه الإصلاح كان جدير بأن لا يرجوه غيره منه، وأن لا يكون مصلحا بعلمه ولا عمله، ومن لم

يكرم نفسه لا يكرم.
يشتبه على بعض الناس تكريم النفس وحملها على معالي الأمور بالعجب والغرور، والفرق بينهما كالفرق بين الظلمات والنور، والظل والحرور، فالأول يكون عالي الأخلاق حسن الأعمال مع التواضع والنزاهة والبراءة من التبجح والدعوى فهو قدوة حسنة في أخلاقه وآدابه وأعماله، وأما الثاني فهو يدعي ما ليس فيه، ولا تهمه إلا حظوظ نفسه، ويحب أن يحمد بما لا يفعل، ويحتقر العاملين، ويغمط الحقوق، فيكون قدوة سيئة في أخلاقه وأقواله وأفعاله.
إن المعجب المغرور يرى نفسه في مرآته جميلا ولكنه في مرآة غيره دميم مشوه، فهو لا يغش ولا يخدع إلا نفسه الخبيثة، وأما عالي الهمة وكبير النفس فإنه يراها دائما مقصرة؛ لأنه لا يعمل عملا إلا وهو يرى أن الواجب عليه والمستطاع له أكثر منه وأكمل، ولا يحجبه عن اعتقاده هذا حمد الحامدين له، ولا ثناء الراضين عن عمله، المعجبين بعلمه وأدبه، فإذا فطنتم أيها الأخوة لهذا الفرق فاجعلوه ميزانا لكم في محاسبة أنفسكم؛ لئلا تكونوا حسانا في مرآة أنفسكم قباحا في مرآة غيركم.
إن من الناس من يكون استعداده لمعالي الأمور والقيام بالمصالح العامة قويا، ومنهم من يكون استعداده لذلك ضعيفا، منهم من تحرك هذه الذكرى همته للعمل الذي يقوي الاستعداد، ومنهم من لا يقيم لها وزنا، ولا يفهم لها معنى، فمن رأى أنها هدته إلى كنز ما كان يعرفه، أو زادته شوقا إلى شيء كان يحن إليه ويألفه، فليحمد الله تعالى، وليبشر بأن سيكون ممن ترتقي بهم أمتهم، وتعتز بهم دولتهم، وتعمر بهم بلادهم، ومن رأى أنها من لغو القول، أو من قبيل تكليف المشي على الماء، أو العروج إلى السماء؛ فليعلم أنه خلق ليكون أجيرا يعمل ليأكل فلا يغشن نفسه بدعوى ما لم يخلق له.
ألا وإن العمل يقوي الاستعداد الضعيف، فمتى وضعتم هذا الغرض الشريف (ترقية الأمة) نصب أعينكم ووطننتم أنفسكم على السعي له في طريقه والدخول عليه من بابه، فإنكم في كل يوم تزدادون فضيلة وهمة وإقداما.

ألا وإن **التخلية** مقدمة على **التحلية**، فينبغي أن تطالبوا أنفسكم بأن يراكم قومكم في منصرفكم هذا اليوم خيرا مما فارقوكم عليه خلقا وأدبا ورأيا وعملا وقولا، يجب أن لا يروا منكم ما ينكرون، وأن لا يسمعوا منكم ما يكرهون، يجب أن يروا منكم العفة والنزاهة والتقوى والصدق والغيرة والحماسة والفتوة، يجب أن لا تدعوا لهم مجالا للشك في دينكم، ولا إخلاصكم لأمتكم ودولتكم، فإن ارتفعت همتكم إلى ذلك فأبشروا؛ فإن فوزكم فيما تريدون من إيقاظ الأمة وعزة الدولة سيكون قريبا.

لا تظنوا أن من كان فاقدا لشيء من تلك الفضائل، أو مبتلى بشيء من المعايب، وتكلف إخفاء عيبه، وإظهار فضيلة ليست خلقا له، يعد مرائيا منافقا، فإن الرياء والنفاق هو أن يصر المرء على عيبه، ويرضى بالبقاء عليه، ويحاول أن يوصف بضده، أو أن يعمل العمل أمام الناس ليقولوا: فلان عمل. وهولا يرغب في ذلك العمل ولا في أن يكون من أهله، ولست في هذا أرغبكم بالرياء وإنما أرغبكم في التكلف الذي هو طريق التخلق، فالحلم بالتحلم، كما أن العلم بالتعلم، والترك داعية النسيان والهجر وسيلة السلوان، على أن من يتكلف الخير رياء، أقرب إلى الخير والكمال ممن يعمل السوء جهارا، وقد قالوا: الرياء قنطرة الإخلاص.

أراني أطلت عليكم في مسألة واحدة ما كنت أريد الإطالة فيها؛ كيلا يفوتني القصد فيما يبنى عليها، وهو ما ينبغي أن تحثوا الناس عليه، وترغبوهم فيه، وإنني أذكر منه ما خطر ببالي من المهمات.

أول ما تعنون به الترغيب في العلم في المكاتب والمدارس الرسمية والدينية الأهلية على حسب الرغبة والميل وتيسر الأسباب.

لا حديث كحديث العلم والتعليم يجب التوسع فيه، والتبسط في أرجائه ومناحيه، فبينوا للأمة فوائد التعليم الأهلي الوطني وأقنعوهم بأن ترقي الأمة لا يكون إلا به، ورغبوهم أيضا في مكاتب الحكومة، وبينوا لهم كيف يتوقف ترقي الدولة على نابغي المتخرجين في مكاتبها الملكية والعسكرية والعلمية والقضائية وكيف تتزاحم

العناصر العثمانية فيها؛ لأن هذا العصر هو عصر المباراة بين العناصر.
من فروع أحاديث العلم أو أصوله مسألة اللغة فبينوا للأمة وجه الحاجة إلى إتقانها لغتها، وجعلها هي القطب لترقيها في نفسها وبينوا لها وجهة توقف ترقية الدولة على إتقانها لغتها، وجعلها هي القطب لترقيها في نفسها، وبينوا لها وجه توقف ترقية الدولة على إتقان لغتيها: لغتها الرسمية المنسوبة إلى مؤسسها وهي العثمانية، ولغتها الدينية من حيث هي أكبر دول الإسلام وهي العربية، التي تستمد منها الدولة علوم الدين والأدب والقضاء.
ويحسن الانتقال من الترغيب في التعليم العسكري إلى الترغيب في الجندية نفسها، حببوا هذه الخدمة الجليلة للأمة، بينوا لها الفرق العظيم بين الجندي البائس الحقير الجائع العاري الحافي في زمن عبد الحميد، وبين الجندي العزيز الكريم الشبعان الكاسي الذي خصص له في ميزانية الحكومة الدستورية أكثر من أربعة آلف قرش في السنة؛ ليبين كل من العرب والأرنؤود لأهل بلادهم أنه لا يليق بهم أن يكونوا أشد العناصر تقصيرا في هذه الخدمة الشريفة من حيث هم أجدر العناصر بالسبق إليها والتبريز فيها لما هم عليه من الشجاعة والحمية والإقدام.
أخبروا أهل كل مدينة وكل قرية وكل حلة وكل دار تحلون فيها عن همة أبناء وطننا الأرمن أنهم يمرنون جميع أولادهم في جميع مكاتبهم ومدارسهم على التعليم العسكري بلغتهم فسيكون جميع أفراد هذا الجيل الجديد من الأرمن جنودا، سواء منهم الغني والفقير والرفيع والوضيع، يقولون: من دخل من أبنائنا في جندية الدولة كان متعلما متمرنا لا يلقى تحكما ولا إهانة بل يكون سابقا مقدما سريع الترقي، ومن لم يدخل منهم لا يضره هذا التعليم الذي يروض بدنه ويعلي همته ويزيد نشاطه وقد يفيد في يوم ما، فإذا رضي بعض قومكم بأن لا يكون للتعليم الأهلي عين في بلادهم ولا أثر بعد العلم بأن التعليم عام في الأرمن شامل لجميع ذكرانهم وإناثهم، فهل يرضون أيضا أن يسبقوهم في ميدان الشجاعة والإقدام، كما سبقوهم في حلبة العلم والعرفان، إن كانت قد مرضت عقولهم ولقست نفوسهم حتى رضوا بالأولى فهل

خمدت حميتهم وتضاءلت شجاعتهم فيرضوا بالأخرى؟ هذا ما لا يعترفون به أبدا بل لا يعترفون بالأولى أيضا، وإنما يعتذورن عنها، فطالبوهم بإزالة العذر بالقول والعمل.

من هذا الباب أدخلوا على قلوبهم، من هذه النافذة أشرفوا على خفايا الغيرة من زوايا سرائرهم، بهذا الأسلوب من القول حركوا سواكن النجدة والحمية من نفوسهم، ثم أقنعوهم بأن الإحصاء الدقيق لنفوسهم هو الوسيلة الأولى من وسائل الخدمة العسكرية الشريفة، وأن للإحصاء فوائد أخرى أهمها تكثير عدد المبعوثين.

على ذكر المبعوثين أقول: إنني أعلم أنه لا بد لكم من الخوض في أمر المبعوثين، وأعلم أن كثيرا منكم يغلون أو يغرقون في تنقدهم فأوصيكم في هذا المقام بثلاث:

١- أن يكون جل كلامكم في ذلك علميا كبيان معنى الحكومة النيابية، وما ينبغي أن يكون عليه النواب المبعوثون من العلم بالمصالح العامة ومن الصفات والأخلاق كاستقلال الرأي والإخلاص والشجاعة وحسن البيان وقوة العارضة، وما يترتب على ذلك من ترقية الأمة وعمران بلادها، ومن إصلاح حال الدولة ورفعة شأنها، فالبحث في هذا هو الذي يعد الأمة إلى حسن الاختيار في الانتخاب الآتي.

٢- أن تذكروا المحسن من المبعوثين بإحسانه والهمام بهمته؛ لتعرف الأمة قدره وتكرمه؛ فيكون الشكر مدعاة المزيد من حسن خدمته والارتقاء فيها، وما وجب شكر المحسن في الشرع وحسن في نظر العقل إلا ليكون مدعاة المزيد من الإحسان، وليكون ذلك رافعا لهمة المستعد الخامل وشجاعة الجبان المتوكل.

٣- أن تتنزهوا عن الطعن في الضعفاء العاجزين والذين رضوا أن يكونوا من غيرهم كقدح الراكب، أو صدى الناعب، وحسبكم أن تكونوا أدباء نزهاء غير غاشين ولا مخادعين، وأن تتحاموا بذلك إخراج الأضغان، وتأريث العداوة والبغضاء، انظروا إلى الحسن وكبروه وأعلوا شأنه، وغضوا أبصاركم عن القبح وادفنوه بالإعراض عنه والإهمال له.

ما وصلت إلى هذا الرجا من أرجاء القول إلا ورأيتني أمام ميدان واسع، ويأذن لي ما بقي من المقال بالايجاف والإيضاع فيه، رأيتني أمام مسألة مقاومة الجامدين والغافلين من الأمة لإصلاح المصلحين وتنفير العامة عنهم ليحبط عملهم أو يبطئ نموه فتتأخر ثمراته، هذا مرض من أعضل أمراض هذه الأمة قد قوي في هذا العصر باختلاف طرق التربية وأساليب التعليم، وقد أشرنا إلى هذا في أوائل المقال.

فعليكم أيها الشبان العقلاء أن تتبعوا في علاجه طريق التحصيل المنطقية في تمييز الضروب المنتجة من الضروب العقيمة دون طريق الإسقاط. عليكم أن تعظموا شأن الإصلاح والمصلحين ولا تذكروا خصومهم بسوء، عليكم ببيان الحق للأمة فمتى بان وظهر زهق الباطل وإن لم تحاربوا أهله جهارا، عليكم أن تكبروا قيمة حرية الفكر واستقلال الرأي، وأن تدعوا المخالفين إلى المناظرة الأدبية بالكتاب، دون السعاية والاغتياب، والتنابز بالألقاب، فمن أعرض عن ذلك ظهر عجزه، وبطل كيده وسحره، {فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون * فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين} (الأعراف: ١١٨- ١١٩) .

لا ترضوا بالترفع عما يزيد الشقاق في الأمة بل وجهوا عنايتكم للتأليف بين العناصر المختلفة، والأديان والمذاهب المتعددة، اجمعوا ولا تفرقوا، بشروا ولا تنفروا، يسروا ولا تعسروا، إن يد الله مع الجماعة، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، بذلك يقوى استعداد الأمة للإصلاح القريب، والعاقبة للمتقين.

عليكم أن تحثوا الأمة على النشاط في الكسب، رغبوها في ترقية الزراعة وفي الاستعانة على ذلك بتعلم طرقها الحديثة في مدارس الحكومة، رغبوها في إحياء الصناعة الوطنية والاستزادة منها، استعملوا المصنوعات الوطنية ورغبوا الأغنياء والحكام في استعمالها؛ فإن هذه هي الطريقة المثلى لرواجها، رغبوا أهل الوطن في الاشتراك المالي في الزراعة والصناعة والتجارة فإن هذا أقرب طرق الألفة والاتحاد.

وأخص طلاب العلوم الدينية بأن يترفعوا عن الظهور بمظهر الفاقة، أو

يرضوا لأنفسهم بشيء من المهانة، وأذكرهم بأنهم أجدر الناس بعزة النفس وكرامتها، والزهد فيما في أيديهم من حطامها، فعليهم أن يكونوا قدوة في أخلاقهم وفضائلهم، لتقبل أقوالهم في الحث على الفضيلة والتقوى، علموا الناس السنة، نفروهم من البدعة، فكل حديث في الدين بدعة سيئة، وأما الابتداع في أمور الدنيا فتعتريه الأحكام الخمسة، ابنوا وعظكم دائما على آيات القرآن، وامزجوه بالأحاديث الصحيحة مع عزوها إلى مخرجيها، قاوموا دجل الدجالين، واجمعوا بين مصالح الدنيا وحكمة الدين {ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين} (القصص: ٧٧) .

(*) المدارس في عرف الآستانة: معاهد العلم الديني القديمة وإن قرئ فيها غيره، والمكاتب: معاهد العلم النظامية العصرية، وكتبنا هذه المقالة في الآستانة فالكلام فيها موجه إلى العثمانيين أولا وبالذات، ففيها ما هو خاص بهم وأكثر نصائحها عامة، وما ننشره هنا أصح مما نشر بجريدة الحضارة وفيه زيادة.." (١)

"الكاتب: محمد رشيد رضا

أسئلة مختلفة من بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

(س ٣٩ - ٤٦) من صاحب الإمضاء في بيروت

حضرة صاحب الفضل والفضيلة سيدنا ومولانا العالم العلامة الإمام، مفتي الأنام، ومرجع العلماء الأعلام، شيخ الإسلام، الأستاذ الجليل السيد محمد رشيد أفندي رضا صاحب مجلة المنار الغراء حفظه الله تعالى.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعد فإنني لما رأيت الأحوال الحاضرة في مصر من التهتكات الموبقة التي تصرع شرف الإنسانية وتهدم دعائم الفضيلة

---

(١) مجلة المنار محمد رشيد رضا ٥٤٢/١٣

تزداد حينا بعد حين، وتفشو في تلك البلاد من أدناها إلى أقصاها دفعتني الغيرة الدينية إلى استجواب فضيلتكم عما يأتي:

(١) إن تهتك النساء وتلبسهن بجميع أنواع التبرج الشائن من لبس الرقيق الشفاف، والضيق الذي يجسم أعضاءهن ويصفها، فضلا عن القصير الذي تبدو دونه السيقان والسواعد والأعناق وأعالي الصدور مع كمال زينتها وتمام تحليتها – لمن أكبر دواعي الفساد، وأقوى أسباب الفتنة في الدين والأخلاق والحياة، وإنه يتفاحش إلى حد مستفظع، فلم تغض الحكومة المصرية الإسلامية الطرف عن ذلك وما معنى كونها إسلامية؟ ألم يكن من واجبها كبح جماح الفتن، وقضم علائق الفحش الذي يؤدي إلى ضعف قوتها ووهن شوكتها بانغماس رعيتها فيه؟

(٢) أليس من الواجب على علماء هذا القطر أن يقوموا بصد ذلك التيار الجارف بكل ما استطاعوا من قوة سواء لدى الحكومة أو الشعب الغافل؟ ألم يكن سكوتهم عن ذلك ذنبا عظيما وإثما مبينا؟

(٣) ما السبب الداعي لسكوت الحكومة والعلماء عن ذلك مع أنه أكبر ضرر وأعظم خطر على الأمة المصرية وما جاورها من البلاد الإسلامية كالسودان وكذلك الحجاز ونجد وغيرها؟

(٤) إن مجلتكم المنار من الأمور المهمة التي تبث في نفوس المسلمين في جميع الأقطار روحا إسلامية عالية، وتنفي عنها كل جرثومة من الرذائل حتى غدت مطمح أنظار المسلمين جميعا، ومحط آمالهم في جميع الأصقاع والأنحاء فكان عليها أن لا تألو جهدا في محاربة كل هذه النقائص والمنكرات بعزيمة لا تعرف الفتور، وهمة لا يعتورها وهن، فما سبب الإحجام عن الاستمرار في ذلك الجهاد الشريف مع أنها عنوان الفضائل الإسلامية؟

(٥) إن انتشار الإلحاد بصورة هائلة في جميع العالم الإسلامي ليدعو إلى الدهشة والحيرة فما سبب ذلك؟ على أنه يوجد في تلك البلدان التي وقعت تحت أنياب الإلحاد علماء إسلاميون بكثرة لا تقع تحت حصر، فهل العلماء يقومون

بواجبهم الديني في الإغارة على جنود المادة والطبيعة بكل وسيلة تستطاع تحصينا للدين وحفظا له أن يمسه شرر ذلك وخطره منها؟ قد اعتنق الجم الغفير من المسلمين هذه العقيدة الباطلة ونبذوا الدين وراءهم ظهريا، أما كان الواجب على العلماء الفطاحل أن يتخذوا جميع الاحتياطات اللازمة في تفنيد آرائهم، وبيان فساد معتقداتهم، حتى يتضح الحق ويزهق الباطل ليكون ذلك حصنا منيعا لحفظ الدين في نفوس أبنائه؟

(٦) هل يحسن من المسلمين أن يأخذوا أزواجهم إلى البلاد الأوربية للنزهة، فيتزينون بزيهم ويخلع النساء عن أنفسهن ثياب الحشمة التي هي من شعائر الدين والفضيلة، ولا ندري ما يكون سبب ذلك من أضراب المنكر فما حكم هذا؟

(٧) فما دواء كل ذلك؟ وما هي الطريقة التي يجب على الحكومة والعلماء عملها لمنع هذه المسائل كلها؟

(٨) إن في مصر، بل في جميع البلاد الإسلامية مدارس أجنبية أنشئت للدعاية إلى الإلحاد أو المسيحية ومقاومة الإسلامية، وآثارها الفاسدة ظاهرة للعيان، فما السبب الداعي لانكباب المسلمين عليها ووضع أبنائهم وبناتهم تحت نيرانها وضلالها؟ حتى أنه يبلغ عدد البنات المسلمات في هذه المدارس مبلغا عظيما، رأيت ذلك وأنا في مصر ورأيتهن لابسات القبعة (البرنيطة) سافرات عن وجوهن وغير ذلك، فما الواجب على المسلمين تجاه هذه الحالة؟

(٩) هل يجوز للعامي الذي لا يعرف نحوا ولا صرفا مطلقا أن يقرأ الكتب الدينية الإسلامية ككتب الفقه وفتاوى العلماء وغيرها لأجل أن يعمل بها وهو يلحن في القراءة أم لا؟ تفضلوا بالجواب على صفحات مجلة المنار الأغر ليكون النفع عاما؛ ولكم الأجر والثواب.

... ... محمد علي ... اليماني

... ... الطالب سابقا بالأزهر الشريف

أجوبة المنار، على هذه الأسئلة على ما فيها من التكرار، الموجب للاختصار

٣٩- تهتك النساء وإقرار الحكومة المصرية له

تهتك النساء في مصر يفحش ويتفاقم شره، ويستشري ضره عاما بعد عام حتى صار يخشى منه انفصام عرى الأسر (العائلات) وانتكاث فتل الأمة، وأما سبب سكوت الحكومة المصرية عليه وإقرارها له فهو يرجع إلى التفرنج وسيطرة الإفرنج على البلاد بامتيازاتهم وبمساعدة أعوانهم المتفرنجين من رجال الحكومة وغيرهم.

والإفرنج المستعمرون يعنون بإفساد دين الأمة وأخلاقها لتنحل جميع الروابط التي تكون بها أمة لها كون خاص، ومقومات ومشخصات تحيا بها وتأبى بطبعها أن تكون مستعبدة مستعمرة لغيرها، وكان بدء هذا الفساد الديني الأخلاقي في عهد إسماعيل باشا أي قبل الاحتلال البريطاني، فكان ممهدا لكل ما فعله رجاله من مقاومة التعليم الديني على ضعفه في مدارس الحكومة، ومن حرية الفسق والفجور، وقد صار الألوف من رجال الحكومة ملاحدة معطلين أو فاسقين لا يصلون ولا يصومون ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله من السكر والزنا والقمار، بل منهم من يهزءون بمن يرونه يصلي ويصوم، ويعدونه متأخرا أو رجعيا! !

وأما تسمية الحكومة إسلامية فمعناها أنها تمثل شعبا أكثر أفراده مسلمون، فهي تراعي شعائرهم ومواسمهم وتقاليدهم الدينية سواء كانت ثابتة في أصل دينهم أو مبتدعة فيه كالموالد وبناء المساجد والقباب على قبور الصالحين وتشييدها ووضع السرج عليها من أموال الأوقاف، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة لعن من يفعلون هذا، وليس معناه أنها حكومة إسلامية كحكومة الخلفاء السابقين أو الحكومة السعودية في نجد والحجاز والحكومة الإمامية في اليمن - تقيم الشريعة وتلتزمها في سياستها وجميع قوانينها، وتمنع المنكرات الدينية كلها.

وجملة القول: إن ما فشا في البلاد من تبرج النساء وتهتكهن ما كان ليفشو إلى هذه الدركة السفلى لولا استحسان الكثيرين من رجال الحكومة، ومن في طبقتهم من الأغنياء المترفين له، ومجاهرتهم في اقترافه.

٤٠- ما يجب على العلماء من مقاومة هذا الإلحاد والفساد

إن وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - وأنكره الإلحاد والفساد - من الأمور المعلومة من دين الإسلام بالضرورة، وهذه الفريضة هي سياج الدين وحفاظ الفضيلة في الأمة ووقايتها من الرذيلة أن تفشو فيها، بل إنكار المنكر واجب في الإسلام باليد فاللسان فالقلب، وهذا أضعف الإيمان كما ثبت في الحديث الصحيح المشهور، والعلماء أول المطالبين بإقامة هذه الفريضة لعلمهم بوجوبها وشدة خطر تركها وما لها من أحكام؛ ولأن كلامهم أجدر بالقبول والتأثير، وسبب تقصير أكثرهم في إقامتها ضعفهم في الدين والأخلاق، وامتهان الحكام لهم بامتهانهم لأنفسهم، كما قال شاعرهم الحكيم:

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما

ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

وقد كان من سيرتنا في المنار من سنته الأولى (سنة ١٣١٥) إلى اليوم مطالبتهم بإقامة هذه الفريضة والإنحاء عليهم باللائمة لتقصيرهم فيها، حتى أنهم كرهونا وقاومونا وصاروا يصدون العامة عن قراءة المنار لأجل ذلك، وكان أول من لامنا واعتذر عن العلماء في سكوتهم عن إنكار المنكرات شيخنا الأستاذ العالم العاقل الشيخ حسين الجسر عفا الله عنه، فقد رد علينا في جريدة طرابلس، واضطررنا إلى الرد عليه في المجلد الثاني من المنار من غير تصريح باسمه، ونحمد الله تعالى أن كثر في هذه السنين العلماء والوعاظ الذين يقاومون الإلحاد والفساد، وينهون عن الفواحش والمنكرات الفاشية والبدع والخرافات المزمنة، ووزارة الأوقاف تساعدهم على ذلك، وهذا من فوائد كون دين الحكومة الرسمي الإسلام، وإن تألفت في مصر جمعيات تعنى بذلك كجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية، وجمعية الشبان المسلمين، وجمعية الهداية في القاهرة، وقد سبقتها ولحقتها جمعيات أخرى في البلاد المصرية تدعو إلى هداية السلف الصالح وترك البدع كلها، وإننا ولله الحمد نساعد أكثر هذه الجمعيات ولنا فيها الإخوان والمريدون

المخلصون، وأنشئت لبعض هذه الجمعيات ولبعض الأفراد مجلات وجرائد تقوم بهذا الواجب أيضا.

٤١- عمل مجلة المنار وما وصفها به السائل من الإحجام

إننا قد أنكرنا تبرج النساء وتهتكهن مرارا كثيرة بأساليب مختلفة في مجلدات المنار المتعددة، ولا نزال نعود إلى الإنكار عند سنوح المناسبة، كما ننكر دائما على سائر المعاصي والبدع، ونرد على أهل الإلحاد والشيع، ونفند شبهات المبشرين، وزيغ الماديين، ونبين في مقابلة هذا الكفر والضلالة، ما جاء به الإسلام من الهداية، وكونها هي السبب الوحيد لسعادة الدنيا والآخرة، والجامع الأعظم لكل ما يجب من **تخلية** **وتحلية**، هو تفسيرنا للكتاب الحكيم، الذي شهد له العلماء في مصر وغيرها، العارفون بما يحتاج إليه المسلمون وسائر البشر في هذا العصر من الإصلاح بأنه خير تفسير لكتاب الله عز وجل، الذي أكمل الله به الدين، ويليه باب الفتاوى العامة التي نشرح فيها ما يسألنا عنه القراء من جميع الأقطار من حل المشكلات، والترغيب في الواجبات، والترهيب عن المنكرات، ويليه باب المقالات الشارحة لأهم ما يهم المسلمين من أمر دينهم وأمتهم وحكومتهم ... إلخ، وكثيرا ما لامنا القراء على عدم فتح أبواب في المنار للمباحث الأدبية واللغوية والفنية وغيرها مما يحبه جماهير الناس، فيكون مرغبا في قراءته؛ لأنهم يملون بالطبع من جعل جميع مباحثه في المسائل الإسلامية التي يقصد منها إحياء هداية الدين والدفاع عنه، فلا نجد فيه سعة لما يقترحونه وإن كان فيه مصلحة لنا.

فإذا كان السائل يرى من الواجب أن نكتب في كل جزء منه مقالا في إنكار تبرج النساء وتهتكهن، وأن ترك هذا إحجام عن الواجب - فنحن لا نوافقه على هذا الرأي ولا نظن أن أحدا من أهل الرأي يوافقه عليه، وقد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتخول الناس بالموعظة خشية السآمة والملل من التكرار.

٤٢- سبب فشو الإلحاد وما يجب على العلماء من مقاومته

أما سبب فشو الإلحاد فقد بيناه في المنار مرارا، وهو أمران أهمهما عدم التعليم الإسلامي الصحيح الذي يقتضيه حال هذا العصر، وعدم التربية الملية الوجدانية على هدايته، والثاني فشو الأفكار المادية والشبهات العلمية على الدين في المدارس المصرية من أجنبية وأميرية وتولي المتخرجين فيها لأمور الحكومات وسائر المصالح العامة.

وأما ما يجب على العلماء من مقاومة ذلك وصد تياره، فالقول فيه كالقول في مسألة مقاومة البدع والمنكرات، أكثر العلماء الرسميين المقلدين يعجزون عن مقاومة شبهات الإلحاد، إما لأنهم لا يفهمونها ولا يفهمون الدين كما يجب أن يفهمه من يقوم بذلك بالحجة والبرهان، وإما لضعفهم في البيان أو في الغيرة على الدين، على أنه قد وجد فيهم وفي غيرهم أفراد يقومون بهذا الواجب على قوة أو ضعف ولو تم للإستاذ الإمام رحمه الله تعالى ما كان يحاوله من إصلاح الأزهر ولم يصده عنه الجمود والاستبداد، أو لو تم لنا ما قمنا به بعده من إنشاء جمعية ومدرسة للدعوة والإرشاد، ولم يقض عليها نفوذ الاستعمار وفشو الإلحاد، لما خطر هذا السؤال لملقيه علينا ببال.

٤٣- سفر النساء المسلمات إلى أوربة مع أزواجهن ... إلخ

من الغريب أن يسأل مسلم: هل يحسن هذا الأمر أم لا؟ وأن يسأل عن حكمه مع علمه بما فيه من المنكرات التي ذكر بعضها، وأن من النساء من صرن يسافرن إلى أوربة منفردات أو مع أخدانهن من الرجال، وأمثال هؤلاء لا يخطر لهم الدين ببال، ولا مراعاة أحكامه في حرام ولا حلال، ويقل فيهم من يسافر مع امرأته ويكون ملازما لها في سفرها، فلا يخالف أحكام الإسلام وآدابه إلا فيما يجب عليها من الستر وعدم الخلوة بأجنبي، وعدم حضور مجالس السكر ورقص الخلاعة وأمثال ذلك.

٤٤- تعليم أبناء المسلمين وبناتهم في المدارس الأجنبية من إلحادية وتبشيرية

تقدم أن أحد سببي فشو الإلحاد والإباحة في المسلمين تعلمهم في هذه المدارس مع تركهم لتعلم دينهم وتربيتهم، وأما سبب انكبابهم عليها فثلاثة أمور (١) الشعور العام بأن ما فيها من العلوم والفنون ضروري للحياة المدنية الراقية في هذا العصر (٢) الجهل بما فيه من الضرر والفساد الديني والقومي مع ظهور نتائجه (٣) عدم وجود حكومة إسلامية أو جمعيات إسلامية راقية تكفل لهم تحصيل ما يشعرون بأنه لا بد منه من العلوم والفنون على الوجه الذي يرجى نفعه، ويؤمن ضرره، بإنشاء مدارس راقية في تعليمها وتربيتها ونظامها، تشتمل على التعليم في جميع مراتبه لجميع العلوم النافعة، وما وجد من المدارس الإسلامية لبعض الأفراد أو الجمعيات، لم يقصر المسلمون في الإقبال عليها، وإن لم تبلغ درجة الكليات والجامعات الأجنبية في استعدادها ومرغباتها.

وهنالك سبب رابع هو أعم الأسباب، وهو التقليد والتيار الاجتماعي الذي يجرف الجماهير، إلى حيث لا يعلمون من المصير، وقد سألت رجلا عطارا: لم ترسل ابنتك إلى المدرسة وما تقصد أن تستفيد منها؟ قال: لا أدري! أنا أعمل كما يعمل الناس.

٤٥- الدواء لجميع هذه العلل

والواجب على الحكومة والعلماء عمله

قد طرقنا أبواب هذا البحث مئات من المرات منذ أنشئ المنار إلى اليوم - أي في مدة ثلث قرن - بعنوان الداء والدواء وباسم الاصلاح وبغير هذا من الأسماء، ولا يزال المسلمون يتساءلون عنه، ولا يفقه أكثرهم ما كتب ولا ما قيل، وذلك أنه ليس لهم حكومة إسلامية ولا هيئات إسلامية تقوم بما يجب من ذلك، والخلاصة المختصرة التي نجيب بها هذا السائل أن الدواء الوحيد لذلك هو قيام حكومة إسلامية راشدة توفق لأعوان من عقلاء العلماء بكل مصلحة من المصالح، ولا سيما التعليم والإرشاد، ومساعدة العالم الإسلامي لها أينما وجدت، وكان هذا رأي حكيم الإسلام، وموقظ الشرق الأكبر السيد جمال الدين الأفغاني رحمه الله تعالى الذي سعى طول

حياته لأجله، فإن لم توجد هذه الحكومة فالدواء تربية عدد كثير من المسلمين وتعليمهم ما يجب من مداواة الداء والعمل بعد الشفاء، وكان هذا رأي حكيم الإسلام الثاني شيخنا الأستاذ الإمام (رحمهما الله تعالى) وقد بيناهما مرارا.

هذا وإننا نرى في آفاق الأقطار الإسلامية المظلمة، وما يحيط بها من الأخطار نورا يبشرنا بتحقيق أمل حكيمينا المصلحين كليهما، فأما أمل الثاني فما أشرنا إليه في هذه الأجوبة من وجود أفراد من العلماء المصلحين وجماعات للهداية الصحيحة وأكثرهم من تلاميذه أو الآخذين عنهم، وأما أمل الأول فهو وجود الحكومة السعودية في نجد والحجاز، فإذا كان ما ظهرت آياته في الأقطار الإسلامية من التنبه والشعور بالحياة الملية والإصلاح الإسلامي قويا؛ فإنه يؤيد هذا الرجل النادر المثال في استعداده للإصلاح الاسلامي الديني المدني (ألا وهو عبد العزيز آل السعود) يؤيده بالرجال وبالمال وبالرأي العام.

٤٦- قراءة العامي لكتب الدين

قد سبق أن سئلنا هذا السؤال وأجبنا عنه، وخلاصة ما يقال فيه أنه لا ينبغي للعامي أن يعتمد على فهمه في قراءة كتب الفقه والعقائد، بل عليه أن يتلقى ذلك عن العلماء، ثم يطالع ما يسهل فهمه مع مراجعتهم فيما يشكل منه.

______." (١)

"الكاتب: محمد رشيد رضا

الأزهر الأزهر

الانقلاب الأكبر

أحمد الله عز وجل أن حق رجائي وصدق مقالي الذي بسطته في تصدير كتاب (المنار والأزهر) إذ بينت أن الشيخ الظواهري قد بلغ من إفساده الغاية،

---

(١) مجلة المنار محمد رشيد رضا ٥٠٤/٣٠

وأنه لا يوجد في العلماء من هو أهل لرياسته وإصلاح هذا الفساد غير واحد يعرفه أهل الأزهر كلهم ويعرفه غيرهم، ووصفته بصفاته التي لا يجرؤ أحد أن يدعيها لغيره، بعد أن صرحت بهتاف مجاوري الأزهر في ثورتهم باسمه ولقبه.

ثم نصحت لهم قائلا:

إخواني: إنكم ستنالون ما ترضون: من تولي من تمقتون عنكم، وتولية من تحبون عليكم، لا بقوة مظاهرتكم لزيد وتظاهركم على عمرو؛ بل لأنه الحق والخير والمصلحة؛ ولأن الأمة الإسلامية كلها معكم فيه؛ ولأنكم في عهد وزارة تقدر هذه القوى الأربع قدرها، وجديرة بأن ترضي الله بإرضائها ... إلخ ما قلنا وما هو ببعيد.

نشرت هذا التصدير في الجزء السادس من منار هذا المجلد (٣٤) الذي صدر في آخر شهر شعبان (سنة ١٣٥٣) وحدث بعد ذلك من الأحداث ما جعل بعض الناس يظنون أن قدم الشيخ الظواهري في الأزهر أرسخ من قدم محمد توفيق باشا نسيم في الوزارة، وأن مجلس الأزهر الأعلى في تأييد شيخه الظواهري وإخضاع العلماء والطلاب له أذلة مرغمين، أو يحرمهم من كل ما لهم من حقوق العلم والدين، فقلت في آخر الجزء الذي قبل هذا وهو التاسع الذي صدر في سلخ ذي الحجة (إن الشيخ الظواهري سيخرج من الأزهر مذؤوما مدحورا، ولا يجد له من مجلسه الأعلى، ولا من غيره وليا ولا نصيرا) وكذلك كان فقد قضى الله أن لا يمر هذا الشهر (المحرم سنة ١٣٥٤) حتى يخرج الظواهري منه مذؤوما مدحورا، ويتولى رياسته الأستاذ الأكبر المصلح الشيخ محمد مصطفى المراغي مؤيدا منصورا.

لا غرو فما نحن ممن يرمي الأقوال على عواهنها، ويتبع فيها هوى النفس، وإنما نتكلم عن سنن الله عز وجل في الاجتماع، وما هذه الكلمة في بابها ولا هذه اليتيمة بالفذة بين أترابها، فقد كتبت في الجزء الرابع من المجلد ٢٩ (الذي صدر في سلخ المحرم سنة ١٣٤٧) عن توليته للمشيخة بعد الثناء على دولة مصطفى

باشا النحاس باختياره لها:

(إن بيان ما أجملته من الحكم بأن هذا المنصب لا يصلح في هذا الوقت إلا هذا الرجل، يتوقف تفصيله على بيان حالة الأزهر من نواحيها المتعددة، وبيان مزايا الشيخ العقلية والإدارية، ومعرفته بحالة العصر من نواحيها المختلفة، وما يحتاج إليه الإسلام من التجديد والإصلاح، وفوق هذا كله استقلاله في فهم الدين والعلم، فهو في الذروة العليا من نجباء تلاميذ الأستاذ الإمام رحمه الله، فعسى أن يجعله الله هو المتمم لما بدأ به أستاذه وأستاذنا من إصلاح الأزهر) .

ونشرت في الجزء الخامس الذي صدر في سلخ ربيع الأول من تلك السنة مذكرة الأستاذ في إصلاح الأزهر التي قدمها للحكومة، وقرر فيها بما أوتي من الشجاعة (أن نتائج الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أمته وعلى دينه، وقد صار من الحتم لحماية الدين لا لحماية الأزهر أن يغير التعليم في المعاهد، وأن تكون الخطوة إلى هذا جريئة يقصد بها وجه الله تعالى، فلا يبالي ما تحدثه من ضجة وصريخ فقد قرنت كل الإصلاحات العظيمة في العالم بصريخ) .

وكتبت في الجزء السابع الذي صدر في سلخ جمادى الأولى منها مقالا في (إصلاح الأزهر وما يتبعه من المعاهد) بينت فيها وجوه حاجته إلى الإصلاح، وتأثير رياسة المراغي في ذلك؛ حتى تعلقت به آمال الشعوب الإسلامية، وشخصت له أبصار الشعوب الأوربية.

ثم نوهت في فاتحة المجلد الثلاثين الذي صدر في المحرم سنة ١٣٤٨ ببشائر الإصلاح، والرد على الشامتين من دعاة النصرانية الذين صرحوا في بعض صحفهم وكتبهم بأن أفكار الشيخ محمد عبده التي تغلغلت في عقول المفكرين، وكان لها المجال الواسع لدى الشبان المسلمين، تلقى أشد الإنكار من أرباب العمائم الجامدين، قالوا: (ولهذا تجد مريدي الشيخ عبده متضائلين، لا يقدرون أن يجهروا بأفكارهم لقلة عددهم، ولشدة مقاومة الجامدين لهم) .

ثم قلت: (وإننا نبشر هؤلاء الشامتين، الذين يتربصون ريب المنون

بالإسلام والمسلمين، بأن طلائع النصر قد رفعت أعلامها على رؤوس المصلحين، وانتهت رياسة علماء الدين إلى أحد تلاميذ الأستاذ الإمام، ونوابغ مريديه الأعلام، وهو الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر، وقد لقي من جلالة ملك مصر وحكومته من المساعدة بقدر ما كان يلقى الشيخ محمد عبده نفسه من المناهضة والمعارضة ... إلخ، ومنه أن رسالة التوحيد صارت تقرأ في القسم العالي من الطلبة النظاميين، وتفسير المنار هو المرجع لمدرسي التفسير فيه) على أن تلك السنة (١٣٤٨) لم تنتصف إلا وقد انتصفت منا فتن الدهر باستقالة الشيخ المراغي من هذه الرياسة، فكتبت في الجزء السادس الذي صدر في سلخ جمادى الآخرة منها بصفحة واحدة ذكرت فيها ما راع العالم الإسلامي من نبأ استقالته، وما أكبروه من خلقه العالي بها، وصرحت بأنه (لابد للمسلمين أن يستفيدوا من مواهبه في يوم من الأيام) .

نعم، وها هو ذا قد طلع صباحه وذر قرن شمسه، وحق إلهام المنار، وصدق قوله.

حكمة الفصل بين الرياستين:

كل ما قرره الأستاذ المصلح في مذكرته للحكومة من سوء حالة الأزهر والمعاهد الدينية، وشدة حاجتها إلى الإصلاح، بل حاجة الدين الإسلامي إليه كان قليلا بالنسبة إلى ما أدخله عليه الشيخ الظواهري بعد ذلك من الفساد والإفساد في التعليم والإدارة، والنفاق والشقاق في العقائد والأخلاق، حتى قال أحد كبار العلماء الواقفين على الدخائل إنه لا يمضي على هذه الحال خمس عشرة سنة، ويبقى في الأزهر ومعاهده أحد يعرف حقيقة الإسلام، وكان كلما اشتد الفساد اشتدت دعاية شيخ الأزهر في إطراء الأزهر، وتعليم الأزهر، وإصلاح الأزهر! !

لو أن الشيخ الظواهري عرف قدر نفسه، وطور وقته فاستقال من رياسة الأزهر والمعاهد عقب استقالة الوزارة الممقوتة رغم أنفها، حتى لا يضطر إلى الاستقالة رغم أنفه لخفي على كثير من أهل الأزهر وغيرهم كثير من مساويه،

ومن ريائه، ومن دعايته الباطلة التي كان يضل بها الناس عن إفساده، ولما علم الناس بأخلاقه ودخائله وما علموه بإصراره على غيه من إقدامه على إذلال أهل الأزهر كافة من الشيوخ المدرسين، ومن الشبان المجاورين له أو حرمانهم من العلم والدين والرزق إذا لم يقبلوا الذل بالخضوع والخنوع لمن يعتقدون فساده وإفساده لهم ولمعاهدهم، ولقد كان ظهور هذه الغاية السوءى لهم خيرا من بقائها خفية عليهم.

ولو أن الشيخ الظواهري استقال من أول الأمر، لكان من الممكن أن يخلفه من لا يقدر على إدارة الأزهر وإصلاح ما فسد فيه من الشيوخ المشهورين، فإما أن تتجدد الثورة لمقاومته، فيصدق جماهير الناس قوله وقول أعوانه في أهل الأزهر إنهم ثوار متمردون، وإما أن يخضعوا فيستمر الاستبداد، وما ولده من الإفساد وكل منهما شر مناف للمصلحة.

فإصرار الظواهري على غيه وبغيه كان شرا له وخيرا للأزهر ومعاهده وللإسلام والمسلمين، وكان خير ما فيه انتهى إليه من اقتناع جلالة الملك كالحكومة والأمة بأنه لا يوجد في العلماء أحد يصلح لهذه الرياسة إلا الشيخ محمد مصطفى المراغي، وأن من الضروري أن يعهد بها إليه، ويعطى حق الاستقلال فيها، كما اشترطه في مشيخته الأولى التي استقال منها مختارا عندما نوزع في استقلاله.

إن خير ما استفاد الأزهر من سوء سيرة الظواهري أنه تألم منها، وشعر بسوء عاقبتها فثار في وجهها وهب لمقاومتها، وخير من هذا أنه عرف الرجل الوحيد الذي يرجى أن ينقذه منها، وصرح بطلبه وجعله الركن الركين لثورته، فلم تكن كثورة الطفل الذي يشكو ألم المرض ويأبى الدواء، بل عرف المرض وعرف الطبيب النطاسي الذي يجب تفويض أمر العلاج إليه، وحاول الهدم لأجل البناء، وجمع كما يقول علماؤه بين **التخلية والتحلية**، فهذه فائدة ثورة الأزهر التي رجوت خيرها، وكنت أرد على كل من يستنكرها وينكر على أهلها صورتها وشكلها ويخشى سوء عاقبتها، وإن كانوا موقنين أنهم على حق فيها.

ذلك بأن الأزهر كان كالمصاب بداء السل أو مرض السكتة، يبرح به الداء

ويهوي به إلى الفناء وهو لا يشعر، وكان هوى السلطان يعبث به، فيميل معه كيف شاء، ولقد جاء المصلح الحكيم الأول (الأستاذ الإمام) فكان الشيوخ يواتونه ما كان السلطان راضيا عنه، فلما رأوه معه بين بين صاروا يدارونه في الإدارة لقوة حجته، ولا ينفذون له ما يقتنعون به، حتى إذا أظهر الأمير له العداء تظاهروا كلهم عليه، وأجمعوا على أن الأزهر معهد ديني محض لا يجوز الاشتغال فيه بغير العبادة وعلومها، لا علاقة له بأهل الدنيا ولا بعلومها، حتى رضوا أن يكون للقضاء الشرعي مدرسة مستقلة يدير أمر التربية والتعليم فيها ناظر مدني لا ديني، ثم جاء طور آخر فوض أمره إلى الحكومة، ووضع له قانونا جديدا أخضع له جميع الشيوخ على علاته.

جمود الأزهر بالأمس وثورته اليوم:

كان الأزهر يتقلب في هذه الأطوار ويعبث به الأمير وحده، ثم تعبث به حكومته بأمره، وشيوخه كما قلنا ليس لأحد منهم في ذلك رأي، والطلاب لا يشعرون بما يراد بهم من خير أو شر، وعلم أو جهل، فاستقال المصلح الحكيم الأستاذ الإمام من إدارته، فاهتز مسلمو الهند لاستقالته، وأنحوا بالتثريب والتأنيب على الأمير وحكومته، وعلى علماء الأزهر وعلى الأمة المصرية، ولم يرتفع للأزهر صوت ولو ثار أهله عشر ثورتهم هذه، وأرادوا بها بقاء الإمام وعدم قبول استقالته لتم لهم ما أرادوا، فقد كانت الحرية يومئذ أتم منها اليوم.

فالفضل الأكبر في إيقاظ الأزهر من نومه، وفي ثورته الحية الشريفة لسوء إدارة الشيخ الظواهري وعناده، وإصراره على ما كان من استبداده، ومطاردته للعلماء والمجاورين في الجامع الأزهر نفسه، حتى جعل الجند والشرطة يدخلونه بنعالهم، ويخرجون طلابه من المسجد ومن حجراتهم مقهورين حاسري الرؤوس حفاة الأقدام، يعتلونهم إلى السجون كقطاع الطرق والمجرمين عتلا، ويسومونهم خسفا وذلا {ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب

عظيم} (البقرة: ١١٤) .
لا أبغي الآن أن أعيد ذكر تلك المساوي لبيان ما كان من مفاسدها، وإنما أريد أن أحمد الله على حسن عاقبتها بخذلان فاعلها، وإبطال كيده للإسلام ومعاهده، وأن أذكر أهل الأزهر بما يجب عليهم من حمد الله وشكره أن بدلهم بذلك الشر خيرا، وبذلك الإفساد إصلاحا؛ فإنه إذا أراد بقوم خيرا جعل لهم النقم عبرة وتمحيصا، ومن النعم تربية وتأديبا، ووسد أمورهم إلى أهلها، ويسر لهم القيام بحقها.
نصيحتي الثانية للأزهر:
وإني لأقول لهم كلمة نصح ثانية لعلهم لا يسمعونها من غيري في طور هذه النعمة، كالكلمة التي قلتها في حال اشتداد الثورة، وإني لأشد يقينا بصحة هذه مني بتلك، وقد نطق الزمان بصدقها، أقول: إنكم نلتم خير ما طلبتم بثورتكم في خير الأحوال من نفي وإثبات، وسلب وإيجاب، وهو ما أيدتكم به الأمة ورضيته لكم وأجابت الحكومة وجلالة الملك إليه، وهو أهون الأمرين اللذين يتوقف عليهما إصلاح الأزهر، وبقي أشقهما وأعسرهما، وهو استعدادكم لقبول الإصلاح الذي اتفقتم والأمة على أنه قد وسد إلى خير أهله، وأقدرهم على النهوض بأعبائه، فما أنتم فاعلون اليوم؟
إنما يستفيد الناس في كل حال وزمان بقدر استعدادهم، فقد نشأ السيد جمال الدين نابغة القرون في بلاد بالأفغان ولم يشعر بمزاياه إلا بعض أمرائها، ثم جاء مصر فاستفاد منه بعض المستعدين للانقلاب السياسي والمدني والأدبي، ولم يستفد من رأيه وتأثيره في بالإصلاح الديني والعلمي إلا الشيخ محمد عبده، وله اعترف السيد بأنه خليفته في كل انقلاب دعا إليه، وقد أتيح للشيخ من دعوة هذا الإصلاح وممارسته في إدارة الأزهر الرسمية، وفي تدريس التوحيد والتفسير والبلاغة والمنطق ما لم يتح لأستاذه السيد، وكان الآخذون عنه أكثر عددا، وأوسع زمنا، ثم كان عاقبته فيه ما أشرنا إليه آنفا، وما أغنت عنه كثرتهم من الإصلاح شيئا؛ إذ لم يكونوا يبغون أخذ الإصلاح عنه؛ لأنهم لم يكونوا مستعدين له، وقل من كان منهم

يفكر فيه.

وها أنتم أولاء تجاه ثاني المصلحين، وثالث القمرين، ولقد كان يطلب العلم في الأزهر كما يطلبه غيره؛ ولكنه كان أقرب أهله إليهما في عقلهما وأخلاقهما، ولا سيما الشجاعة وعزة النفس، واستقلال الإرادة والفهم، وبهذا كان أجدر من خلف الأستاذ الإمام بإصلاح الأزهر، فيجب أن يكون حظه من استعدادكم في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أكبر من حظ أستاذه وأستاذنا من استعدادهم في النصف الأول منه، عسى أن يكون متمما لما بدأ، ولا يتسنى له هذا إلا إذا كان استعدادكم للقبول متمما لاستعداده للإيجاب، فالمراغي لا يقدر على أن يخلق الأزهر خلقا جديدا، وغاية ما يرجى له من سعيه وجهده، أن يبلغ به أحسن ما استعد له أهله بعد زوال المانع الذي كان يحول دون ذلك، بل قال الحكماء الربانيون: إن للرب الخلاق ذي القوة المتين سننا في التكوين يعد بها الشيء للشيء، فيتعلق الإيجاد بالاستعداد بمقتضى الحكمة في التقدير، وامتناع الجزاف والخلق الأنف فيه، وهو معنى الإيمان بالقدر، ونص القاعدة الاجتماعية في قوله تعالى: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} (الرعد: ١١) وإن للمنار مقالة في هذا الموضوع عنوانها (الإصلاح والإسعاد على قدر الاستعداد) نشرت في المجلد الرابع منه (٦٨١) سنة ١٣١٩.

يوشك أن يكون الأزهر اليوم أقل علما وإخلاصا في الطلب مما كان في أول هذا القرن، ومما كان في قرون التدلي التي قبله، ولعله صار على ضعفه في العلم أشد شعورا بالحاجة إلى الإصلاح أو استعدادا له، ولا يصح هذا الرجاء عند الشيخ المراغي إلا بقدر ما يرى في العلماء والطلاب من المشاركين له في الصفات الثلاث التي كان بها أهلا للإصلاح، الشجاعة وعزة النفس واستقلال الإرادة والفهم، وما وراءهن إلا العلم بحقيقة الإصلاح، وحسن النية فيه، وطلب الغاية العليا منه، وهي ما في الإسلام والقرآن من روح الانقلاب العام المصلح للبشر، ومقاصده العشرة التي بيناها في كتاب الوحي المحمدي، وهذه كلها أمور كسبية تعليمية، وأما

تلك الصفات الثلاث فهي وهبية في الأصل، وإنما تفيد فيها التربية الصحيحة للنابتة الجديدة تربية الإرادة وجهاد النفس، وأين أنتم من هذه التربية وأين هي منكم؟ قد ذكرتكم آنفا في هذا المقال بمذكرة الأستاذ التي قدمها للحكومة عقب توليته الأولى لرياسة الأزهر، وقوله فيها: إن الإصلاح الذي يحتاج إليه الإسلام كله لا الأزهر وحده يقتضي قلب نظام التعليم من أساسه ... إلخ، وعلمتم أنه كان وضع قانونه لأجل النهوض بهذا القلب والتجديد، متوقعا ما يلزمه ويقترن به عادة من الصراخ والعويل، فحيل بينه وبين ما يريد فاستقال، وخلفه من نهض بضد ما أراد، وهو الهدم والإفساد، وأهمه سوء التصرف في مناهج التعليم، وإقناع المعلمين والمتعلمين بأن الترقي لا يكون إلا بالنفاق والدسائس والسعاية، ولا غاية له إلا متاع الدنيا، فاستشرى الفساد فصار الإصلاح أشق، ولن يتم إلا بما قلناه إجمالا، وسنفصله في مقال آخر إن شاء الله تعالى.

". (١)

"بنفسه، وأنه خلق من النار، وأنه خير من آدم، فتكبر عليه فكان من الظالمين الهالكين.

ترك العجب شرط في حسن وكمال الأخلاق:

تربية النفوس تكون **بالتخلية** عن الرذائل، **والتحلية** بالفضائل، والعجب هو أساس الرذائل. فأول الترك تركه، وهو المانع من اكتساب الفضائل، فشرط وجودها تركه كذلك. ومن لم يكن معجبا بنفسه كان بمدرجة التخلق بمحاسن الأخلاق والتنزه عن نقائصها، لأن الإنسان مجبول على محبة الكمال وكراهة النقص. فإذا سلم من العجب فإن تلك الجبلة تدعوه إلى ذلك التخلق والتنزه. فإذا نبه على نقصه لم تأخذه العزة، وإذا رغب في الكمال كانت له وإليه هزة فلا يزال بين التذكيرات الإلهية والجبلة الإنسانية الخلقية يتهذب ويتشذب حتى يبلغ ما قدر له من كمال. ولهذه المعاني التي تتصل بتفسير هذه الآية الكريمة- وهي أصول في علم الأخلاق- عنونا عليها بآية الأخلاق.

(١) مجلة المنار محمد رشيد رضا ٣٤/٧٦٤

تأكيد الأوامر والنواهي المتقدمة بطريق الإيجاز:

{كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها}

المناسبة:

إن الغاية التي يسعى إليها كل عاقل هي السعادة الحقة، وإن التكاليف الإسلامية كلها شرعت لسوقه إليها، ولما كانت أصولها قد تضمنتها الآيات السابقة أمرا ونهيا بطريق الإطناب والتفصيل- أعيد الحديث عنها في هذه الآية بطريق الإيجاز والإجمال. قصدا للتأكيد وتقرير هذه الأصول العظيمة في النفوس، مع اشتمال هذه الآية الموجزة على ما لم يشتمل عليه ما تقدمها. وهذا من بديع التأكيد، لاشتماله على السابق مع شيء جديد.." (١)

"وأل فيه للعهد. الغيب: الخلوة عندما يغيب الإنسان عن عيون البشر، التبشير الاخبار بما يسر، المغفرة ستره الذنب بالتجاوز عنه وعدم المؤاخذة به. الأجر: الجزاء على العمل. الكريم: الطيب الشريف في نفسه النافع في أثره الذي لا يشوب ذاته نقص، ولا منفعته ضرر، وأفاد المضارع في تنذر تحديد الإنذار للمتبعين، وذكر اسم الرحمن ليفيد التركيب أنهم يخشونه مع العلم برحمته، وذلك يقتضي جمعهم بين الخوف والرجاء.

الترتيب:

ذكر المنتفعين بعد المأيوس من انتفاعهم ترقيا من الأدنى إلى الأعلى، ولأنهم كالزبدة التي يحصل عليها بعد طرح غيرها، ولإراحة القلب من أولئك لتتوجه العناية التامة إلى هؤلاء، وذكرت الخشية بعد الاتباع لانها لا تحصل إلا به. وجيء بعد بالتبشير مقرونا بالفاء لأنه إنما يكون لأهل الاتباع والخشية بسبب اتباعهم وخشيتهم. وذكر الأجر بعد المغفرة لأن **التحلية** بعد **التخلية** والتزين بعد ازالة الادران.

المعنى:

انما يتجدد انذارك وينتفع به الذين آمنوا وهم الذين اتبعوا القرآن وخافوا الله في خلواتهم لصدق ايمانهم

---

(١) آثار ابن باديس ابن باديس، عبد الحميد ١/٢٧٧

خاشين نقمته راجين رحمته، وهؤلاء كما تنذرهم وينتفعون بانذارك بشرهم على اتباعهم للقرآن وخشيتهم بالغيب للرحمن بمغفرة ذنوبهم وجزاء شريف رفيع طيب نافع لا نقص فيه ولا تنغيص- على أعمالهم.

دفع إشكال:

أمر النبي- صلى الله عليه وآله وسلم- بالإنذار العام، ثم كان ممن أنذرهم قوم مأيوس منهم، وهؤلاء هم المراد بقوله تعالى:." (١)

"هكذا نجد الجاهلية الأولى توحد الله رب العالمين في ربوبيته، ولكن القوم كانوا يتناقضون فيشركون في عبادته غير ملتزمين بما يلزمهم توحيدهم في ربوبيته وكيفية الالتزام، إذا كان الله قد تفرد بخلق السماوات والأرض وما فيهما وتفرد بتدبير خلقه وأرزاقهم وآجالهم، فيجب أن يفرد بالعبادة، هذا ما يقتضيه المنطق السليم ويدعو إليه العقل الصريح، ويوجب الشرع الحكيم {أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون} (١).

هكذا يتناقض الجاهليون الأولون يؤمنون ويشركون، وصدق الله العظيم حين يقول: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} (٢).

وأما مشايخ الصوفية وأتباعهم فإنهم يشركون بالله في ربوبيته وعبوديته بل ويصرفون الناس عن عبادته تعالى، بل إنهم يصرفون الناس عن كل ما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام من شريعة وعقيدة، ويزهدون فيه من أطاعهم حتى يخلصوا لهم في طاعتهم وخدمتهم دون مزاحم.

وكل من يدين بدين الصوفية فهو يشرك بالله في الربوبية والعبادة، عرف بذلك من عرف وجهل من جهل، ولا تقبل دعواهم بأنه يشهد ألا إله إلا الله، حيث إنهم يأتون بما يناقضه في كل وقت، بل كل لحظة، ولأن الإيمان بالله لا يقبل إلا الكفر بالطاغوت كما نص على ذلك القرآن الكريم: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم} (٣).

فليفطن القارئ أن الآية قدمت الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله تعالى على ضوء كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) لأن **التخلية** قبل **التحلية** كما يقولون.

إذا كان هذا شرك المشركين الأولين، شرك في العبادة، وتوحيد في الربوبية، وشرك مشايخ الصوفية شرك في العبادة والربوبية ويدل على ذلك ما سمعناه من أقوال مشايخهم ودعاياتهم وتصريحاتهم، يتبين من هذه

---

(١) آثار ابن باديس ابن باديس، عبد الحميد ٨٢/٢

المقارنة أن مشايخ الصوفية أشد كفرا وزندقة، وأبعد عن الطريق الموصل إلى الله، ألا وهو التمسك بدين الله الذي جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام شريعة

---

(١) سورة النحل الآية ١٧

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٦

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٦." (١)

"فيه النفوذ وصار لها من التأثير والأهمية ما يجعل الإلمام بها مهما لكل داعية لدفع أثرها من النفوس فالكفر يسبق الإيمان **والتخلية** تسبق **التحلية** وهدم الأنقاض يسبق البناء قال تعالى: {فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها} (١) وهو

رابعا العلم بطرق الدعوة ووسائلها وغاياتها:

أو بعبارة عامة- العلم بفن الدعوة. فالدعوة إلى الله فن لا يستطيعه إلا من آتاه الله أسبابه وسعى إليها سعيا حثيثا فالأمر يقتضي الاستعداد أولا ثم التدريب أو الممارسة ثانيا.

والدعوة إلى الله. . ليست هي الخطابة ولا القدرة على الحديث بألوانه المختلفة، إنما هي قبل ذلك كله إخلاص والتزام وقدوة ومواقف يقفها الداعية لله انتصارا للحق وانتصارا من البغي.

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦." (٢)

"بالفطرة، هي في أصل فطرة الخلق، خلق الله خلقه بها بل أخذ عليهم الميثاق عليها: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا} (١) إنما أجابوا «بلى» لسبق المعرفة، فاجتمع في معرفة الخلق بربهم وتوحيدهم له في ربوبيته الفطرة والميثاق فلم يبق إلا العمل لله والتوجه له بالعبادة، ومن هنا كان التوحيد أول واجب على العبد فإن من عرف ربه لزمه التعبد له.

الأساس الثاني: معرفة معنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله فإنها شعار الملة وقاعدة التوحيد، دل تركيبها على

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية مجموعة من المؤلفين ٢٩٠/١٢

(٢) مجلة البحوث الإسلامية مجموعة من المؤلفين ١٦٨/٣٦

التوحيد المراد لله المطلوب من العبد أبلغ دلالة، وفي معرفة معنى كلمة التوحيد قاعدتان العلم بهما هو العلم بالتوحيد، من لم يحصلها لم يحصل التوحيد وهما:

أولا: العلم بأنه لا توحيد إلا بنفي وإثبات، نفي جنس الإلهية وجميعها عما سوى الله وإثباتها لله وحده، ولا بد من اجتماع هذا النفي وهذا الإثبات لحصول التوحيد، فإن الشرك إثبات الألوهية لله مع إثباتها أو شيء منها لغيره معه، فمن أثبت الألوهية لله لا يكون موحدا حتى ينفيها عما سواه، وعلى هذا ركبت كلمة التوحيد، فأولها نفي لا إله وآخرها إثبات إلا الله أولها **تخلية** وآخرها **تحلية**، نسخت ثم رسخت، سلبت ثم أوجبت، نقضت ثم

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٧٢." (١)

"وقد قدم المغفرة على الفضل - وكلاهما في الآخرة - وذلك لتقديم **التخلية** على **التحلية**، ولكون رفع المفاسد أولى من جلب المصالح (١)

{والله واسع عليم} واسع في كل شيء، وهو واسع بالرحمة والستر والفضل، عليم بكل شيء، وبما تنفقونه، فيجازيكم عليه.

وقد ختم آخر آيات الأمثال بما ختم به أولها ترغيبا وترهيبا (٢)

وبعد أن أنهى ضرب الأمثال في الإنفاق والمال المنفق بهذا الكلام الحكيم، بين بأنه يؤتي الحكمة من يشاء ويوفقه إلى علم ما خفي من هذه الأمثال المتقنة والأقوال الحسنة، ويوفقه للعمل بذلك فقال - تعالى - منبها على ترجيح العمل بأمر الرحمن وقبول وعده بأنه على مقتضى العقل والحكمة، وأن أمر الشيطان ووعده على وفق الهوى

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية مجموعة من المؤلفين ٧٢/٨١

(١) روح المعاني/الألوسي ٣/ ٤٠. ') "<

(٢) نظم الدرر/البقاعي ١/ ٥٢٢. ') "<." (١)

"١١٤ ـ (الثالث، عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاة بعد أن نزلت) بالبناء للفاعل، وفي نسخة أنزلت بزيادة الهمزة أوله مبنيا للمفعول (عليه سورة إذا جاء نصر الله والفتح) وتسمى سورة النصر (إلا يقول فيها) أي: في ركوعها وسجودها كما يأتي في الحديث بعده (سبحانك) أي: تنزيها لك عما لا يليق بك من كل نقص، وسبحان منصوب على أنه واقع موقع المصدر بفعل محذوف تقديره: سبحت سبحانك، ولا يستعمل إلا مضافا وهو مضاف إلى المفعول: أي: سبحتك، ويجوز أن يكون مضافا للفاعل: أي: نزهت نفسك كما تقدم (اللهم) يا أ (وبحمدك) الواو للحال ومتعلق الظرف محذوف: أي: متلبسا بحمدك من أجل توفيقك لي، وقيل: عاطفة لجملة على جملة: أي: أنزهك وأتلبس بحمدك، وقيل: زائدة: أي: أسبحك مع ملابسة حمدك: وقدم التسبيح على التحميد لأنه تنزيه عن النقائص، والحمد ثناء بصفات الكمال، وال**تخلية** مقدمة على **التحلية** (اللهم اغفر لي) أي: ما هو نقص بالنظر إلى علي مقامي وإن لم يكن ذنبا في نفس الأمر، إذ الأنبياء معصومون من الذنب مطلقا كما تقدم، وتقدم وجه آخر في بيان المطلوب غفرانه (متفق عليه. وفي رواية في «الصحيحين» عنها) أيضا (كان رسول الله) الأصح كما نقله المصنف في «شرح مسلم» عن المحققين والأكثرين من الأصوليين أن «كان» في مثل هذا المقام لا تفيد التكرار. وقال ابن الحاجب: تفيده وكذا ابن دقيق العيد لكن قال عرفا وهو واضح (يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا) أي: يا ربنا، أو بدل من قوله اللهم، لا وصف له، لأن الميم تمنع منه عند سيبويه (وبحمدك اللهم اغفر لي) وتقدم وجه عدم أخذ الفقهاء بقضية هذا الحديث حيث قالوا: إنه يقول في الركوع: سبحان ربي العظيم، وفي السجود: سبحان ربي الأعلى، دون ما ذكر في هذا الحديث من أن ما ذكروه هو ما واظب عليه طول عمره وغيره مما ضمه إليه تارة واقتصر عليه أخرى، كان في بعض الأوقات." (٢)

"سائر خصال البر والصلة والإحسان لأن آكدها رعاية حق الجوار، وبهذا الاعتبار يصح أن يقال فيه إنه نصف الإسلام، لأن الأحكام إما أن تتعلق بالحق أو بالخلق، وهذا أفاده الثاني لأن وصلة الخلق تستلزم

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية مجموعة من المؤلفين ٢٠٩/٩٢

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٦/٢

رعاية جميع حقوقهم.

٧٣٠٩ - (وعن أبي شريح) بضم الشين المعجمة وفتح الراء آخره مهملة قبلها تحتية ساكنة (الخزاعي) تقدمت ترجمته (رضي الله عنه) في باب ملاطفة اليتيم (أن النبي قال: من كان يؤمن با واليوم الآخر فليحسن إلى جاره) ذكر حديث أبي هريرة قبل هذا، لأن ما في ذلك من باب الدرء **والتخلية**، وما في هذا من باب جلب النفع **والتحلية**، ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح، وأشار المصنف بالجمع بينهما إلى أن كمال الإيمان لا يحصل إلا بالجمع بين الأمرين، فيكف عنه أذاه ويحسن إليه بما تصل إليه قدرته (من كان يؤمن با واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن با واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت) ولعل ح كمة الفصل بين الجمل في هذه الرواية الإيماء إلى أن مضمون كل منها مطلوب لذاته من غير اعتبار انضمام غيره إليه وإن كان أفضل، ولذلك وصل بينهما في الروايات الأخر (رواه مسلم) في كتاب الإيمان من «صحيحه» (بهذا اللفظ) ورواه أحمد والترمذي.

(وروى البخاري بعضه) قلت: بل جميعه إلا أن في اللفظ اختلافا يسيرا فقال في كتاب الأدب من الصحيح في باب «من كان يؤمن با واليوم الآخر فلا يؤذ جاره» عن أبي شريح العدوي قال: سمعت أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي «من كان يؤمن با واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن با واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته، ثم فسر الجائزة ومن كان يؤمن با واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت».." (١)

"(وقال تعالى): {ولمن خاف مقام ربه}) موقفه الذي يقف فيه العباد للحساب. أو قيامه على أحواله من قام عليه إذا راقبه. أو مقام الخائف عند ربه للحساب بأحد المعنيين فأضافه إلى الرب تفخيما وتهويلا ربه، ومقام مفخم للمبالغة ({جنتان}) جنة لعقيدته وأخرى لعمله، أو جنة لفعل الطاعات وأخرى لاجتناب المعاصي، أو جنة يثاب بها، وأخرى يتفضل بها عليه أو روحانية وجسمانية (الآيات) إلى أواخر السورة. وفيه أن هذه الآيات من آيات الوعد المثيرة للرجاء لا من آيات الوعيد الباعثة للخوف وكأن المصنف عقب الآيات الأول بها إيماء إلى أنه ينبغي أن يكون للمؤمن خوف يمنعه من العصيان ورجاء يبعثه على الطاعة وعمل البر، وقدم تلك على هذه لأنها أدلة الباب وأساس بنيانه، وإيماء إلى أن الخوف من باب **التخلية**، والرجاء من باب **التحلية**، بالمهملة والأول مقدم، وختم بما هو من قبيل الأول لمناسبته بالباب فقال:

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٢/٤٤٤

(وقال تعالى): {وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون} أي يسأل بعض أهل الجنة بعضا عن أحواله وأعماله ({قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين}) خائفين من عصيان الله تعالى معتنين بطاعته، أو وجلين من المعاقبة ({فمن الله علينا}) بالرحمة والتوفيق ({ووقانا عذاب السموم}) عذاب النار النافذة في المسام نفوذ السموم ({إنا كنا من قبل}) أي: من قبل ذلك في الدنيا ({ندعوه}) نعبده أو نسأله الوقاية ({إنه هو البر}) المحسن، وقرىء بفتح الهمزة: أي لأنه ({الرحيم}) الكثير الرحمة (والآيات) الواردة (في الباب) أي في باب الخوف (كثيرة جدا) بكسر الجيم أي قطعا (والغرض) أي المطلوب (الإشارة إلى بعضها) تبركا وتشرفا (وقد حصل).

(وأما في الأحاديث) المرفوعة (فكثيرة جدا فنذكر منها طرفا) أي جانبا، والطرف حال لأنه كان وصفا لظرف قدم عليه ومن فيه للبيان (وبا) لا بغيره (التوفيق) وهو لغة جعل الأسباب موافقة للمسببات. وشرعا خلق قدرة الطاعة في العبد.." (١)

"(وفي رواية) هي «للصحيحين» أيضا كما في «المشكاة» وهي عند النسائي وابن ماجه كما في «الجامع الكبير» («الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض») جاء في رواية ابن مردويه عن ابن عمر مرفوعا «قالت عائشة: ينظر بعضهم إلى بعض، قال: شغل الناس يومئذ عن النظر وسموا بأبصارهم إلى السماء موقوفون أربعين سنة لا يأكلون ولا يشربون» (متفق عليه) أخرجه البخاري في الرقاق ومسلم في أبواب صفة الجنة والنار (غرلا بضم الغين المعجمة) وسكون الراء (أي غير مختونين) في «المصباح»: الغرلة مثل القلفة وزنا ومعنى، وغرل غرلا من باب تعب: إذا لم يختن فهو أغرل والأنثى غرلاء والجمع غرل من باب أحمر اهـ. والله أعلم .

٥١ ـ باب الرجاء

بفتح الراء وبالمد: هو ضد الخوف، وعرف بأنه تأمل الخبر وقرب وقوعه. ويطلق على الخوف ومنه قوله تعالى: {مالكم لا ترجون وقارا} (نوم:١٣) وقال الراغب في «مفرداته»: قيل مالكم لا تخافون؟ ووجه ذلك أن الرجاء والخوف يتلازمان. وفي «الرسالة القشيرية»: الرجاء تعليق القلب بمحبوب في المستقبل، والفرق

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ١٢١/٤

بينه وبين التمني أن التمني يصاحبه الكسل ولا يسلك صاحبه طريق الجد وضده صاحب الرجاء، وقدم المصنف الخوف عليه لأنه باعتبار نتائجه من باب **التخلية** بالخاء المعجمة إذ ينتج ترك المخالفة، والرجاء من باب **التحلية** بالمهملة إذ يبعث على صالح العمل إذ لولا الرجاء لما وجد عمل، أما تمني الثواب لا مع صالح العمل فذلك أمنية وليس من الرجاء في شيء. وفي الحديث عن شداد بن أوس عن النبي «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم في «المستدرك».." (١)

"يغمس (صبغة في الجنة) وسمى ما ذكر صبغة لظهور أثره عليهم ظهور أثر المصبوغ.

قال تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة. ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة} (القيامة:٢٢، ٢٥) ثم قوله فيصبغ الخ ثابت في «صحيح مسلم» ساقط فيما وقفت عليه من نسخ الرياض ولعله من قلم الناسخ سهوا ولعل حكمة تقديم شأن أهل النار لكونه من باب الإنذار وهو **كالتخلية** على ما يتعلق بأهل الجنة الذي هو من باب البشارة لكونه **كالتحلية** بالمهملة، والظاهر أن تقديم المفعول المطلق هنا على نائب الفاعل وتأخيره ثمة للتفنن في التعبير (فيقال له) أي عقب إذاقته لأول ما يلقاه من النعيم الذي هو جزء يسير مما أعد له من النعيم كما تؤذن الفاء، والمبادرة بذلك للتشريف (هل رأيت) أي وجدت (بؤسا) أي شدة (قط هل مر بك بؤس قط) يحتمل أن يكون بمعنى ما قبله وكرر تأكيدا وإطنابا لزيادة التذكير بالنعمة التي آل إليه أمرها حتى هان عليه ما لاقاه في الدنيا في جانبها يقال ما يأتي، ويحتمل أن لا يكون كذلك بأن المسؤول عنه أولا ما وجد مشقته وشدته وثانيا ما نزل به مما لم يكن كذلك لما عارضه من خفي لطف إلهي (فيقول لا وا) وصرح بالمحذوف بعد لا النافية الدال عليه سياق الكلام بقوله (ما مر بي بؤس) أي شدة (قط ولا رأيت شدة قط) لأن المقام للإطناب شكرا لما أبيح من تلك المنة التي يقصر عن بيان أدناها البيان (رواه مسلم) في التوبة من صحيحه وكذا رواه النسائي في الجهاد من سننه، كذا قال الحافظ المزي في «الأطراف» وتعقبه الحافظ ابن حجر في «النكت الظراف» عليه بأنهما حديثان، وكان عليهما إفرادهما وذلك بين من سياقهما ولفظ حديث مسلم عن يزيد عن حماد بن سلمة عن ثابت عن

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٤/١٤٦

أنس ما ذكر، ولفظ حديث النسائي عن بهز عن حماد «يؤتى بالرجل من أهل الجنة فيقول الله عز وجل يا ابن آدم كيف وجدت منزلتك؟ فيقول ربي: خير منزل، فيقول عز وجل: سل وتمن، فيقول أسألك." (١)

"تجابوا إليه (ثم قال: اللهم اغفر لأبي سلمة) ذكره بكنيته دون اسمه وهو عبد الله لأنه اشتهر بها (وارفع درجته) وهذا أحسن ترتيب لأن الأول من باب **التخلية** بالمعجمة والثاني من باب **التحلية** بالمهملة، وفيه أن الأوزار تتقاعد بصاحبها عن رفعة المنار والمراد واجعل له درجة علية عندك (في المهديين) بتشديد الياء الأولى: أي الذين هداهم الله بالإسلام سابقا والهجرة إلى خير الأنام لاحقا، والظرف في محل الحال من الضمير المضاف إليه لكون المضاف إليه كجزئه: أي ارفع درجته حال كونه منغمرا في عداد المهديين المشرفين بالاهتداء (واخلفه) بوصل الهمزة وضم اللام: أي كن له خلفا وخليفة (في عقبه) بفتح فكسر: أي فيمن يعقبه من ولد وغيره (في الغابرين) بالمعجمة فالموحدة: أي الباقين بدل بإعادة العامل، ويحتمل كونه حالا مما قبله (واغفر لنا) هذا من باب الخضوع لمقام الربوبية كما تقدم أو هو مجاز عن إعلاء الرتبة من ذكر اللازم وإرادة الملزوم (وله) وقوله (يا رب العالمين) مناسبة ختم الدعاء به واضحة إذ من كان موجدا للعالم ماكلا أمورهم مصلحا شؤونهم هو الذي يطلب منه ذلك، والعالمين بفتح اللام اسم جميع عالم لا جمعه لاختصاص عالمين بأولى العقول من إنس وجن وملك وشمول عالم لما سوى الله تعالى من سائر الأجناس، والجمع لا يكون أخص من مفرده، وقيل جمعه مرادا به العموم للعقلاء وغيرهم وغلب العقلاء لشرفهم، وعلى الأول ابن مالك في آخرين (وافسح) بهمزة وصل وفتح المهملة الأولى: أي أوسع (له في قبره) يقال فسحت له فسحا من باب نفع فرجت له عن مكان يسعه كذا في «المصباح» (ونور) أي أوجد النور العظيم المتكاثف (له فيه، رواه مسلم).

١٥٢ ـ باب ما يقال (باب ما يقال) للمفعول عند الميت بالبناء للمفعول أي ما يطلب قوله من كل حاضر (عند الميت) من قريب وغيره

(وما يقوله من مات له ميت)." (٢)

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٢٤٨/٤

(٢) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٢١٦/٦

"، وهو اثنان: واحد في عرصات الموقف من شرب منه لم يظمأ أبدا، والثاني داخل الجنة، قاله القرطبي وغيره. وفي الحديث بشارة لهذه الأمة زاد الله شرفها، فهنيئا لمن كان رسول الله فرطه (رواه مسلم).

٧١٠٣٠ . (وعنه أن رسول الله قال: ألا) بتخفيف اللام حرف أتى به لتنبيه السامع لما بعده (أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا) بالعفو عنها بالغفران أو يمحوها من ديوان الكتبة فيكون دليل غفرها، جعل العفو مسببا عن مدخول الباء، يومىء إليه أن الممحو الصغائر المتعلقة بحق الله تعالى لأنها المكفرة بالطاعات، ولما كان تكفير الخطايا **تخلية** بالمعجمة قدمه على قوله (ويرفع به الدرجات) أي في الجنة لكونه **تحلية** بالمهملة وهي متأخرة عن تلك. وفيه شرف ما يذكر فيه وإن لم يقتصر على تكفير المأثم بل ضم لذلك إعلاء الدرجات وذكر ذلك قبل ذكر المحدث عنه به، فيه تشويق أي تشويق فيكون ذلك أقر في ذهن السامعين لشدة طلبهم له فلذا قال (قالوا بلى) أي دلنا عليه (يا رسول الله) أي وشأن الرسول الحرص على ما ينفع أمته، ولا نفع كالمذكور في الحديث (قال إسباغ الوضوء) بالرفع: أي هو إسباغ الوضوء مع ما يعده مما تقدم فيه العطف للربط، وإسباغه إتمامه (على المكاره) أي من نحو شدة البرد (وكثرة الخطا) بضم المعجمة (إلى المساجد) وتلك تكون من بعد الدار وكثرة التكرار. وفي الصحيح أن بنى سلمة أرادوا أن ينتقلوا من محلتهم لمحل بقرب المسجد فقال «دياركم تكتب آثاركم» (وانتظار الصلاة بعد الصلاة) قال الباجي: هذا في المشتركتين من الصلوات في الوقت، وأما غيرهما فلم يكن من علم الناس، قال المصنف: وفي التخصيص نظر (فذلكم الرباط) أي المرغب فيه، وأصل الرباط الحبس على الشيء كأنه حبس نفسه على هذه الطاعة. قيل ويحتمل أنه أفضلها، وجاء في رواية لمسلم تكرار هذه الجملة مرتين، وفي الموطأ تكرارها ثلاثا، فقيل التكرار للاهتمام به وتعظيم شأنه، وقيل." (١)

"٧١٠٥٩ . (وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله قال: ألا) بتخفيف اللام حرف استفتاح لتنبيه المخاطب لما بعده (أدلكم على ما) أي الذي أو شيء (يمحو الله به الخطايا) بإذهابها من ديوان الحفظة أو بترك المؤاخذة عليها في الآخرة، والمراد الصغائر المتعلقة بالله تعالى، ولا يضر كون الباء سببية لأن السببية لذلك يجعل الله سبحانه وتعالى (ويرفع به الدرجات) أي يعطي به المنازل الرفيعة في الجنة، إذ التفاوت فيها إنما يظهر بذلك وظاهره جمع الأمرين لفاعل ما يأتي، وقدم الأول على الثاني لأنه من باب

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٣٥٩/٦

التخلية بالمعجمة، والثاني من باب التحلية بالمهملة، والأول مقدم على الثاني (قالوا: بلى يا رسول الله، قال: إسباغ الوضوء) أي استيعاب أعضائه بالغسل والمسح مع استيفاء آدابه ومكملاته (على) بمعنى مع (المكاره) جمع مكره بفتح الميم من الكره وهو المشقة، ومنها طلب الماء وشراؤه بثمن المثل بشرطه فإنه يشق على النفس (وكثرة) بفتح الكاف قال في «المصباح» الكسر رديء ويقال خطأ (الخطأ) بضم ففتح وبالقصر جمع خطوة (إلى المساجد) فيه فضل الدار البعيد عن المسجد على القريبة ويدل له أحاديث الباب، ولا ينافيه عده «من شؤم الدار بعدها عن المسجد» لأن بعدها وإن كان فيه شؤم من حيث إنه قد يؤدي إلى تفويت الصلاة عن وقتها لكن فيه فضل عظيم إذا توجه منها إلى الصلاة بالمسجد فشؤمها وفضلها اعتباريان فلا تنافي (وانتظار الصلاة بعد الصلاة) أي الجلوس لانتظارها بعد انقضاء. عمل الأولى منفردا أو جماعة وذلك لدوام فكره وتعلق قلبه بها، فهو دائم المراقبة والحضور غير ملته عن فضل عبادات بدله بشيء (فذلكم) عدل إليه عن هذا الذي هو القياس للدلالة على بعد منزلته وعظمها فهو نظير {ذلك الكتاب لا ريب فيه} (البقرة:٢) (الرباط) لا غيره كما أفاده تعريف الجزءين الدال على الحصر لكنه إضافي: أي ما ذكر من الثلاث هو المستحق أن يسمى رباطا، وغيره الذي هو الرابط الحقيقي وهو." [(١)]

"٨١١٥٤ . (وعن سلمان رضيالله عنه قال: قال رسول الله : لا يغتسل رجل) تقدم أن المرأة كذلك في ندب الغسل للجمعة إن طلب منها الحضور (يوم الجمعة) ظاهره ولو بعد فعلها وهو غير مراد كما يدل عليه باقي الروايات (ويتطهر ما استطاع من طهر) قال البرماوي: التنكير فيه للتكثير ليشمل قص الشارب وقلم الظفر وحلق العانة وتنظيف الثياب وفي نسخة من البخاري من الطهر بالتعريف (ويدهن) بالتشديد: أي يطلى بالدهن (من دهنه) بضم الدال (أو يمس من طيب بيته) أي يمس شيئا من ذلك، فأو للتفصيل وفي قوله طيب بيته إيماء إلى ندب اتخاذ الطيب في البيت واعتياد الطيب، وقدم التطهير لما فيه من التخلية بالمعجمة عن الأوساخ ثم الادهان لما فيه من ترك الشعث وختم بالطيب لأنه كالتحلية بالمهملة، وقد زاد أبو داود في روايته «ويلبس من صالح ثيابه» (ثم يخرج) زاد ابن خزيمة «إلى المسجد» وزاد أحمد «ثم يمشي وعليه السكينة» (فلا يفرق) بالرفع عطف على ما قبله (بين اثنين) ولأبي داود «ثم لم يتخط رقاب الناس» قال البرماوي: وقوله فلا يفرق الخ كناية عن التبكير، فإنه إذا بكر لا يتخطى الرقاب ولا يفرق بين الناس (ثم يصلي ما كتب له) أي فرض من صلاة الجمعة أو ما قدر له من الصلاة فرضا أو نفلا (ثم ينصت)

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٣٩١/٦

بضم التحتية على الأفصح من أنصت إذا سكت، ويجوز فتحها، قال المصنف: يقال أنصت وانتصت ونصت بمعنى. وتعقب قول القاضي عياض أن التعبير بانتصت بدل أنصت في حديث أبي هريرة السابق في تكفير الجمعة لما بينها وبين الجمعة وزيادة ثلاثة أيام وهم من الراوي بأنه ليس وهما بل هي لغة صحيحة، قال البرماوي: ويجيء أنصت أيضا متعديا يقال أنصته (إذا تكلم الإمام) أي خطب زاد ابن حبان «حتى يقضي صلاته» (إلا غفر له ما بينه) أي بين يوم الجمعة (وبين الجمعة الأخرى) قال البرماوي: يحتمل الجمعة الماضية والمستقبلة لأنها تأنيث الآخر بفتح الخاء لا بالكسر، والمغفرة تكون للمستقبل كالماضي قال تعالى:." (١)

"

١٤٥٦ - وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : { أحب الكلام إلى الله أربع ، لا يضرك بأيهن بدأت : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر } أخرجه مسلم .

s(وعن سمرة بن جندب رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : { أحب الكلام إلى الله أربع لا يضرك بأيهن بدأت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر } أخرجه مسلم) يعني إنما كانت أحبه إليه تعالى لاشتمالها على تنزيهه وإثبات الحمد له والوحدانية والأكبرية .

وقوله (لا يضرك بأيهن بدأت) دل على أنه لا ترتيب بينها ولكن تقديم التنزيه أولى ؛ لأنه تقدم **التخلية** بالخاء المعجمة على **التحلية** بالحاء المهملة والتنزيه **تخلية** عن كل قبيح وإثبات الحمد والوحدانية والأكبرية **تحلية** بكل صفات الكمال ، لكنه لما كان تعالى منزهة ذاته عن كل قبيح لم تضر البداءة **بالتحلي**ة وتقديمها على **التخلية** والأحاديث في فضل هذه الكلمات مجموعة ومتفرقة بحر لا تنزفه الدلاء ولا ينقصه الإملاء وكفى بما في الحديث من أنها الباقيات الصالحات ، وأنها أحب الكلام إلى الله تعالى .." (٢)

" ١٥٥٨ - (اللهم إني أعوذ بك من الكسل والعجز والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر وفتنة الدجال اللهم آت) أعط (نفسي تقواها) أي تحرزها عن متابعة أهوى وارتكاب الفجور ذكره القاضي . وقال الطيبي : ينبغي أن تفسر التقوى بما يقابل الفجور كما في آية { فألهمها فجورها وتقواها } وهي

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، ٤٧٦/٦

(٢) سبل السلام، ٢٦٧/٧

الاحتراز عن متابعة الهوى والفواحش لأن الحديث كالتفسير والبيان للآية فدل قوله آت على أن الإلهام في الآية هو خلق الداعية الباعثة على الاجتناب عن المذكورات (وزكها) طهرها من كل خلق ذميم (أنت خير من زكاها) أي من جعلها زاكية يعني لا مزكي لها إلا أنت فإنه تعالى هو الذي يزكي النفوس فتصير زاكية أي عاملة بالطاعة فالله هو المزكي والعبد هو المتزكي . قال الطيبي : فإسناد التزكية إلى [ص ١٥٤] النفس في الآية هو نسبة الكسب إلى العبد لا خلق الفعل كما زعمه المعتزلة لأن الخبر به يقتضي المناسبة المشاركة بين كسب العبد وخلق القدرة فيه قال الحراني : والتزكية اكتساب الزكاة وهي نماء النفس بما هو لها وهو بمنزلة الغذاء للجسم (أنت وليها) التي يتولاها بالنعمة في الدارين (ومولاها) سيدها وهذا استئناف على بيان الموجب وأن إيتاء التقوى وتصليح التزكية فيها إنما كان لأنه هو المتولي أمرها وربها ومالكها فالتزكية إن حملت على تطهير النفس عن الأفعال والأقوال والأخلاق الذميمة كانت بالنسبة إلى التقوى مظاهرة ما كان مكمنا في الباطن وإن حملت على الإنماء والإعلان بالتقوى كانت **تحلية** بعد **التخلية** فإن المتقي شرعا من اجتنب النواهي وأتى بالأوامر

(اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع) أي علم لا أعمل به ولا أعلمه ولا يبدل أخلاقي وأقوالي وأفعالي أو علم لا يحتاج إليه في الدين ولا في تعلمه إذن شرعي ذكره المظهري (ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع) أي لا تقنع بما آتاها الله ولا تفتر عن الجمع حرصا أو المراد به النهمة وكثرة الأكل (ومن دعوة لا يستجاب لها) قال العلائي : تضمن الحديث الاستعاذة من دنيء أفعال القلوب وفي قرنه بين الاستعاذة من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع إشارة إلى أن العلم النافع ما أورث الخشوع وفيه أن السجع لا يذم لكن إذا حصل بلا تكلف ولا إعمال فكر بل لكمال فصاحة والتكلف مذموم

(حم عبد بن حميد م) في الدعوات (ن) في الاستعاذة (عن) ابن عمرو أو عامر أو عمارة أو أنيسة (زيد بن أرقم) بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح القاف غير منصرف بن زيد بن قيس الخزرجي شهد الخندق وما بعدها ورواه عنه أيضا الترمذي مختصرا قال عبد الله بن الحرث قلنا لزيد علمنا فقال لا أعلمكم إلا ما كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعلمنا فذكره ." (١)

" ٢٩٨٧ - (أيما راع غش رعيته) أي مرعيته يعني خانهم ولم ينصح لهم (فهو في النار) أي يعذب بنار جهنم شاء الله أن يعذبه قال الزمخشري : والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي

---

(١) فيض القدير، ١٥٣/٢

الغنم وراعي الرعية ويقال من راعى هذا الشيء أي متوليه وصاحبه والرعي حفظ الشيء لمصلحته وذهب جمهور الصوفية إلى أن المراد بالراعي في هذا الخبر وما أشبهه كخبر كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته هو الروح الإنساني ورعية جوارحه فيجب أن يسلك بها في **التخلية والتحلية** أعدل المسالك وأن يعدل في مملكة وجودها لأنها بحسب الصورة هي المملكة وسلطان صولتها هو المالك ومرادهم بعدلها أن يستعمل كل جارحة فيما طلب منها شرعا على جهة الرفق والاقتصاد وأن يبدل كل خلق ذميم بخلق حميد قويم بناء على أن الخلق يقبل التغيير وهو القول المنصور اه

(ابن عساكر) في التاريخ (عن معقل) بفتح الميم وسكون المهملة (ابن يسار) ضد اليمين ." (١)

" بعض الأمتعة فلا تتعبه كالشيء الثقيل وفيه إشارة إلى أن سائر التكاليف صعبة شاقة على النفس ثقيلة وهذه سهلة عليها مع أنها تثقل الميزان كثقل الشاق من التكاليف وقد سئل بعض السلف عن سبب ثقل الحسنة وخفة السيئة فقال لأن الحسنة حضرت مرارتها وغابت حلاوتها فثقلت فلا يحملنك ثقلها على تركها والسيئة حضرت حلاوتها وغابت مرارتها فلذلك خفت فلا يحملنك خفتها على ارتكابها قوله سبحان الله تقدم معناه في باب فضل التسبيح من كتاب الدعوات قوله وبحمده قيل الواو للحال والتقدير أسبح الله متلبسا بحمدي له من أجل توفيقه وقيل عاطفة والتقدير أسبح الله وأتلبس بحمده ويحتمل أن يكون الحمد مضافا للفاعل والمراد من الحمد لازمه أو ما يوجب الحمد من التوفيق ونحوه ويحتمل ان تكون الباء متعلقة بمحذوف متقدم والتقدير واثنى عليه بحمده فيكون سبحان الله جملة مستقلة وبحمده جملة أخرى وقال الخطابي في حديث سبحانك اللهم ربنا وبحمدك أي بقوتك التي هي نعمة توجب علي حمدك سبحتك لا بحولي وبقوتي كأنه يريد أن ذلك مما أقيم فيه السبب مقام المسبب واتفقت الروايات عن محمد بن فضيل على ثبوت وبحمده الا أن الإسماعيلي قال بعد أن أخرجه من رواية زهير بن حرب وأحمد بن عبدة وأبي بكر بن أبي شيبة والحسين بن علي بن الأسود عنه لم يقل أكثرهم وبحمده قلت وقد ثبت من رواية زهير بن حرب عند الشيخين وعند مسلم عن بقية من سميت من شيوخه والترمذي عن يوسف بن عيسى والنسائي عن محمد بن آدم وأحمد بن حرب وبن ماجة عن علي بن محمد وعلي بن المنذر وأبو عوانة عن محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسي وبن حبان أيضا من رواية محمد بن عبد الله بن

---

(١) فيض القدير، ١٥٢/٣

نمير كلهم عن محمد بن فضيل كأنها سقطت من رواية أبي بكر وأحمد بن عبدة والحسين قوله سبحان الله العظيم هكذا عند الأكثر بتقديم سبحان الله وبحمده على سبحان الله العظيم وتقدم في الدعوات عن زهير بن حرب بتقديم سبحان الله العظيم على سبحان الله وبحمده وكذا هو عند احمد بن حنبل عن محمد بن فضيل وكذا عند جميع من سميته قبل وقد وقع لي بعلو في كتاب الدعاء لمحمد بن فضيل من رواية علي بن المنذر عنه بثبوت وبحمده وتقديم سبحان الله وبحمده قال بن بطال هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر انما هي لأهل الشرف في الدين والكمال كالطهارة من الحرام والمعاصي العظام فلا تظن ان من ادمن الذكر وأصر على ما شاءه من شهواته وانتهك دين الله وحرماته انه يلتحق بالمطهرين المقدسين ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى ولا عمل صالح قال الكرماني صفات الله وجودية كالعلم والقدرة وهي صفات الاكرام وعدمية كلا شريك له ولا مثل له وهي صفات الجلال فالتسبيح إشارة إلى صفات الجلال والتحميد إشارة إلى صفات الاكرام وترك التقييد مشعر بالتعميم والمعنى أنزهه عن جميع النقائص واحمده بجميع الكمالات قال والنظم الطبيعي يقتضي تقديم **التحلية** على **التخلية** فقدم التسبيح الدال على التخلي على التحميد الدال على التحلي وقدم لفظ الله لأنه اسم الذات المقدسة الجامع لجميع الصفات والأسماء الحسنى ووصفه بالعظيم لأنه الشامل لسلب ما لا يليق به واثبات ما يليق به إذ العظمة الكاملة مستلزمة لعدم النظير والمثيل ونحو ذلك وكذا العلم بجميع المعلومات والقدرة على جميع المقدورات ونحو ذلك وذكر التسبيح متلبسا بالحمد ليعلم ثبوت الكمال له نفيا واثباتا وكرره تأكيدا ولأن الاعتناء بشأن التنزيه أكثر من جهة كثرة المخالفين ولهذا جاء في القرآن بعبارات مختلفة نحو سبحان وسبح بلفظ الأمر وسبح بلفظ الماضي ويسبح بلفظ المضارع ولأن التنزيهات تدرك بالعقل بخلاف الكمالات فانها تقصر عن إدراك حقائقها كما قال بعض المحققين الحقائق الإلهية لا تعرف الا بطريق ." (١)

"٧٠٠٨ - قوله (حدثنا أحمد بن إشكاب)

بكسر الهمزة وسكون المعجمة وآخره موحدة غير منصرف ؛ لأنه أعجمي وقيل بل عربي فينصرف وهو لقب ، واسمه مجمع وقيل معمر وقيل عبيد الله وكنية أحمد أبو عبد الله وهو الصفار الحضرمي نزيل مصر ، قال البخاري : آخر ما لقيته بمصر سنة سبع عشرة وأرخ ابن حبان وفاته فيها ، وقال ابن يونس : مات سنة سبع عشرة أو ثمان عشرة . قلت : وليس بينه وبين علي بن إشكاب ولا محمد بن إشكاب قرابة .

---

(١) فتح الباري - ابن حجر - دار المعرفة، ٥٤١/١٣

قوله (حدثنا محمد بن فضيل)

أي ابن غزوان بفتح المعجمة وسكون الزاي ولم أر هذا الحديث إلا من طريقه بهذا الإسناد ، وقد تقدم في الدعوات وفي الأيمان والنذور وأخرجه أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان كلهم من طريقه قال الترمذي حسن صحيح غريب . قلت : وجه الغرابة فيه ما ذكرته من تفرد محمد بن فضيل وشيخه وشيخ شيخه وصاحبيه .

قوله (عن عمارة)

في رواية قتيبة " عن ابن فضيل حدثنا عمارة " وقد تقدمت في الأيمان والنذور .

قوله (كلمتان حبيبتان إلى الرحمن)

كذا في هذه الرواية بتقديم " حبيبتان " وتأخير " ثقيلتان " وقد تقدم في الدعوات وفي الأيمان والنذور بتقديم " خفيفتان " وتأخير " حبيبتان " وهي رواية مسلم عن زهير بن حرب ومحمد بن عبد الله بن نمير وأبي كريب ومحمد بن طريف وكذا عند الباقين ممن تقدم ذكره ومن سيأتي عن شيوخهم ، وفي قوله " كلمتان " إطلاق كلمة على الكلام وهو مثل كلمة الإخلاص وكلمة الشهادة ، وقوله "كلمتان " هو الخبر و " حبيبتان " وما بعدها صفة والمبتدأ سبحان الله إلى آخره والنكتة في تقديم الخبر تشويق السامع إلى المبتدأ وكلما طال الكلام في وصف الخبر حسن تقديمه ؛ لأن كثرة الأوصاف الجميلة تزيد السامع شوقا ، وقوله " حبيبتان " أي محبوبتان ، والمعنى : محبوب قائلهما ، ومحبة الله للعبد تقدم معناها في "كتاب الرقاق " وقوله " ثقيلتان في الميزان " هو موضع الترجمة ؛ لأنه مطابق لقوله : وأن أعمال بني آدم توزن ، قال الكرماني : فإن قيل فعيل بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث ولا سيما إذا كان موصوفه معه ، فلم عدل عن التذكير إلى التأنيث ؟ فالجواب أن ذلك جائز لا واجب وأيضا فهو في المفرد لا المثنى سلمنا لكن أنث لمناسبة الثقيلتين والخفيفتين أو ؛ لأنها بمعنى الفاعل لا المفعول والتاء لنقل اللفظة من الوصفية إلى الاسمية وقد يطلق على ما لم يقع لكنه متوقع كمن يقول خذ : ذبيحتك للشاة التي لم تذبح فإذا وقع عليها الفعل فهي ذبيح حقيقة ، وخص لفظ الرحمن بالذكر ؛ لأن المقصود من الحديث بيان سعة رحمة الله تعالى على عباده حيث يجازي على العمل القليل بالثواب الكثير .

قوله (خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان)

وصفهما بالخفة والثقل لبيان قلة العمل وكثرة الثواب وفي هذه الألفاظ الثلاثة سجع مستعذب وقد تقدم في

الدعوات بيان الجائز منه والمنهي عنه وكذا في الحدود في حديث سجع كسجع الكهان ، والحاصل أن المنهي عنه ما كان متكلفا أو متضمنا لباطل لا ما جاء عفوا عن غير قصد إليه ، وقوله " خفيفتان " فيه إشارة إلى قلة كلامهما وأحرفهما ورشاقتهما ، قال الطيبي : الخفة مستعارة للسهولة وشبه سهولة جريانها على اللسان بما خف على الحامل من بعض الأمتعة فلا تتعبه كالشيء الثقيل ، وفيه إشارة إلى أن سائر التكاليف صعبة شاقة على النفس ثقيلة وهذه سهلة عليها مع أنها تثقل الميزان كثقل الشاق من التكاليف ، وقد سئل بعض السلف عن سبب ثقل الحسنة وخفة السيئة ؟ فقال : لأن الحسنة حضرت مرارتها وغابت حلاوتها فثقلت فلا يحملنك ثقلها على تركها ، والسيئة حضرت حلاوتها وغابت مرارتها فلذلك خفت فلا يحملنك خفتها على ارتكابها .

قوله (سبحان الله)

تقدم معناه في باب فضل التسبيح من "كتاب الدعوات " .

قوله (وبحمده)

قيل الواو للحال والتقدير : أسبح الله متلبسا بحمدي له من أجل توفيقه وقيل : عاطفة والتقدير أسبح الله وأتلبس بحمده ، ويحتمل أن يكون الحمد مضافا للفاعل والمراد من الحمد لازمه أو ما يوجب الحمد من التوفيق ونحوه ، ويحتمل أن تكون الباء متعلقة بمحذوف متقدم والتقدير وأثني عليه بحمده فيكون " سبحان الله " جملة مستقلة و " بحمده " جملة أخرى ، وقال الخطابي في حديث : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك أي بقوتك التي هي نعمة توجب علي حمدك سبحتك لا بحولي وبقوتي كأنه يريد أن ذلك مما أقيم فيه السبب مقام المسبب ، واتفقت الروايات عن محمد بن فضيل على ثبوت وبحمده إلا أن الإسماعيلي قال بعد أن أخرجه من رواية زهير بن حرب وأحمد بن عبدة وأبي بكر بن أبي شيبة والحسين بن علي بن الأسود عنه لم يقل أكثرهم " وبحمده " . قلت : وقد ثبت من رواية زهير بن حرب عند الشيخين وعند مسلم عن بقية من سميت من شيوخه والترمذي عن يوسف بن عيسى والنسائي عن محمد بن آدم وأحمد بن حرب وابن ماجه عن علي بن محمد وعلي بن المنذر وأبو عوانة عن محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسي وابن حبان أيضا من رواية محمد بن عبد الله بن نمير كلهم عن محمد بن فضيل كأنها سقطت من رواية أبي بكر وأحمد بن عبدة والحسين .

قوله (سبحان الله العظيم)

هكذا عند الأكثر بتقديم " سبحان الله وبحمده " على " سبحان الله العظيم " وتقدم في الدعوات عن زهير بن حرب بتقديم " سبحان الله العظيم " على " سبحان الله وبحمده " وكذا هو عند أحمد بن حنبل عن محمد بن فضيل وكذا عند جميع من سميته قبل ، وقد وقع لي بعلو في "كتاب الدعاء " لمحمد بن فضيل من رواية علي بن المنذر عنه بثبوت " وبحمده " وتقديم " سبحان الله وبحمده " قال ابن بطال هذه الفضائل الواردة في فضل الذكر إنما هي لأهل الشرف في الدين والكمال كالطهارة من الحرام والمعاصي العظام فلا تظن أن من أدمن الذكر وأصر على ما شاءه من شهواته وانتهك دين الله وحرماته أنه يلتحق بالمطهرين المقدسين ويبلغ منازلهم بكلام أجراه على لسانه ليس معه تقوى ولا عمل صالح ، قال الكرماني صفات الله وجودية كالعلم والقدرة وهي صفات الإكرام وعدمية كلا شريك له ولا مثل له وهي صفات الجلال فالتسبيح إشارة إلى صفات الجلال والتحميد إشارة إلى صفات الإكرام وترك التقييد مشعر بالتعميم ، والمعنى أنزهه عن جميع النقائص وأحمده بجميع الكمالات ، قال : والنظم الطبيعي يقتضي تقديم **التحلية** على **التخلية** فقدم التسبيح الدال على التخلي على التحميد الدال على التحلي وقدم لفظ الله ؛ لأنه اسم الذات المقدسة الجامع لجميع الصفات والأسماء الحسنى ، ووصفه بالعظيم ؛ لأنه الشامل لسلب ما لا يليق به وإثبات ما يليق به إذ العظمة الكاملة مستلزمة لعدم النظير والمثيل ونحو ذلك ، وكذا العلم بجميع المعلومات والقدرة على جميع المقدورات ونحو ذلك ، وذكر التسبيح متلبسا بالحمد ليعلم ثبوت الكمال له نفيا وإثباتا وكرره تأكيدا ولأن الاعتناء بشأن التنزيه أكثر من جهة كثرة المخالفين ولهذا جاء في القرآن بعبارات مختلفة نحو سبحان وسبح بلفظ الأمر وسبح بلفظ الماضي ويسبح بلفظ المضارع ولأن التنزيهات تدرك بالعقل بخلاف الكمالات فإنها تقصر عن إدراك حقائقها كما قال بعض المحققين : الحقائق الإلهية لا تعرف إلا بطريق السلب كما في العلم لا يدرك منه إلا أنه ليس بجاهل ، وأما معرفة حقيقة علمه فلا سبيل إليه ، وقال شيخنا شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني في كلامه على مناسبة أبواب صحيح البخاري الذي نقلته عنه في أواخر المقدمة : لما كان أصل العصمة أولا وآخرا هو توحيد الله فختم بكتاب التوحيد ، وكان آخر الأمور التي يظهر بها المفلح من الخاسر ثقل الموازين وخفتها فجعله آخر تراجم الكتاب ، فبدأ بحديث " الأعمال بالنيات " وذلك في الدنيا ، وختم بأن الأعمال توزن يوم القيامة ، وأشار إلى أنه إنما يثقل منها ما كان بالنية الخالصة لله تعالى ، وفي الحديث الذي ذكره ترغيب وتخفيف ، وحث على الذكر المذكور لمحبة الرحمن له والخفة بالنسبة لما يتعلق بالعمل والثقل بالنسبة لإظهار

الثواب ، وجاء ترتيب هذا الحديث على أسلوب عظيم وهو أن حب الرب سابق وذكر العبد وخفة الذكر على لسانه تال ثم بين ما فيهما من الثواب العظيم النافع يوم القيامة انتهى ملخصا ، وقال الكرماني : تقدم في أول "كتاب التوحيد " بيان ترتيب أبواب الكتاب وأن الختم بمباحث كلام الله ؛ لأنه مدار الوحي ، وبه تثبت الشرائع ولهذا افتتح ببدء الوحي والانتهاء إلى ما منه الابتداء ونعم الختم بها ولكن ذكر هذا الباب ليس مقصودا بالذات بل هو لإرادة أن يكون آخر الكلام التسبيح والتحميد ، كما أنه ذكر حديث الأعمال بالنيات في أول الكتاب لإرادة بيان إخلاصه فيه كذا قال ، والذي يظهر أنه قصد ختم كتابه بما دل على وزن الأعمال ؛ لأنه آخر آثار التكليف فإنه ليس بعد الوزن إلا الاستقرار في أحد الدارين إلى أن يريد الله إخراج من قضى بتعذيبه من الموحدين فيخرجون من النار بالشفاعة كما تقدم بيانه ، قال الكرماني : وأشار أيضا إلى أنه وضع كتابه قسطاسا وميزانا يرجع إليه ، وأنه سهل على من يسره الله تعالى عليه وفيه إشعار بما كان عليه المؤلف في حالتيه أولا وآخرا ، تقبل الله تعالى منه وجزاه أفضل الجزاء . قلت : وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم الحث على إدامة هذا الذكر ، وقد تقدم في باب فضل التسبيح من وجه آخر عن أبي هريرة حديث آخر لفظه : من قال " سبحان الله وبحمده " في يومه مائة مرة حطت خطاياه ، وإن كانت مثل زبد البحر ، وإذا ثبت هذا في قول " سبحان الله وبحمده " وحدها فإذا انضمت إليها الكلمة الأخرى فالذي يظهر أنها تفيد تحصيل الثواب الجزيل المناسب لها ، كما أن من قال الكلمة الأولى وليست له خطايا مثلا فإنه يحصل له من الثواب ما يوازن ذلك ، وفيه إيراد الحكم المرغب في فعله بلفظ الخبر ؛ لأن المقصود من سياق هذا الحديث الأمر بملازمة الذكر المذكور ، وفيه تقديم المبتدأ على الخبر كما مضى في قوله "كلمتان " وفيه من البديع : المقابلة والمناسبة والموازنة في السجع ؛ لأنه قال " حبيبتان إلى الرحمن " ولم يقل للرحمن لموازنة قوله " على اللسان " وعدى كلا من الثلاثة بما يليق به وفيه إشارة امتثال قوله تعالى (وسبح بحمد ربك) وقد أخبر الله تعالى عن الملائكة في عدة آيات أنهم يسبحون بحمد ربهم ، وفي صحيح مسلم عن أبي ذر قلت : يا رسول الله بأبي أنت وأمي أي الكلام أحب إلى الله قال ما اصطفى الله لملائكته سبحان ربي وبحمده سبحان ربي وبحمده ، وفي لفظ له أن أحب الكلام إلى الله سبحانه : سبحان الله وبحمده .." (١)

---

(١) فتح الباري لابن حجر، ٢١/١٦٤

"والحديث أخرجه مسلم في الإيمان عن أبي بكر بن أبي شيبة وأخرجه ابن ماجه في الفتن عن أبي بكر بن أبي شيبة قال أبو بكر لم يرو أبو الأحوص عن أبي حصين غير هذا الحديث

قوله فلا يؤذ جاره الإيذاء معصية لا يلزم منها نفي الإيمان والمراد منه نفي كمال الإيمان وأما تخصيص الإيمان بالله واليوم الآخر من بين سائر ما يجب به الإيمان فللإشارة إلى المبدأ والمعاد يعني إذا آمن بالله الذي خلقه وأنه يجازيه يوم القيامة بالخير والشر لا يؤذ جاره قوله فليكرم ضيفه والأمر بالإكرام يختلف بحسب المقامات وربما يكون فرض عين أو فرض كفاية وأقله أنه من باب مكارم الأخلاق ولا شك أن الضيافة من سنن المرسلين وقال الداودي يزيد في إكرامه على ما كان يفعل في عياله قال الكرماني فإن قلت ما وجه ذكر هذه الأمور الثلاثة قلت هذا الكلام من جوامع الكلم لأنها هي الأصول إذ الثالث منها إشارة إلى القولية والأولان إلى الفعلية الأول منهما إلى **التخلية** عن الرذائل والثاني إلى **التحلية** بالفضائل يعني من كان له صفة التعظيم لأمر الله لا بد له أن يتصف بالشفقة على خلق الله عز وجل إما قولا بالخير أو سكوتا عن الشر وإما فعلا لما ينفع أو تركا لما يضر

٦٠١٩ - حدثنا (عبد الله بن يوسف) حدثنا (الليث) قال حدثني (سعيد المقبري) عن (أبي شريح العدوي) قال سمعت (أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم) النبي فقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآ خر فليكرم ضيفه جائزته قال وما جائزته يا رسول الله قال يوم وليلة والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذالك فهو صدقة عليه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت (

مطابقته للترجمة ظاهرة ورجاله كلهم قد ذكروا عن قريب." (١)

"قوله من يضمن لي إطلاق الضمان عليه مجاز إذ المراد لازم الضمان وهو أداء الحق الذي عليه قوله ما بين لحييه بفتح اللام وسكون الحاء المهملة تثنية لحي وهما العظمان في جانبي الفم والمراد بما بينهما اللسان وبما بين رجليه الفرج قوله أضمن له بالجزم لأنه جواب الشرط ووقع في رواية الحسن تكفلت له وفيه أن أعظم البلاء على العبد في الدنيا اللسان والفرج فمن وقي من شرهما فقد وقي أعظم الشر

٥٧٤٦ - حدثنا (عبد العزيز بن عبد الله) حدثنا (إبراهيم بن سعد) عن (ابن شهاب) عن (أبي سلمة) عن (أبي هريرة) رضي الله عنه قال قال رسول الله من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢٠١/٣٢

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه
مطابقته للترجمة ظاهرة ورجاله قد ذكروا غير مرة والحديث من أفراده
قوله بالله واليوم الآخر إنما خصهما بالذكر إشارة إلى المبدأ و المعاد وخصص الأمور الثلاثة ملاحظة لحال الشخص قولا وفعلا وذلك إما بالنسبة إلى المقيم أو المسافر أو الأول **تحلية** والثاني **تخلية**
٦٤٤٦ – حدثنا (أبو الوليد) حدثنا ل (يث) حدثنا (سعيد المقبري) عن (أبي شريح الخزاعي) قال سمع (أذناي ووعاه قلبي) النبي يقول الضيافة ثلاثة أيام جائزته قيل وما جائزته قال يوم وليلة ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليسكت (انظر الحديث ٦١٠٩ وطرفه)
مطابقته للترجمة في آخر الحديث وأبو الوليد هشام بن عبد الملك وأبو شريح اسمه خويلد الخزاعي
والحديث مضى في كتاب الأدب في باب من
كان يؤمن بالله واليوم الآخر
فلا يؤذ جاره فإنه أخرجه هناك عن عبد الله بن يوسف عن الليث إلى آخره ومضى الكلام فيه هناك." (١)

"الأسماء والصفات متلازمان في الوجود والعدم بالتحقيق ولأن انتفاء تقديس الأسماء والصفات يستلزم انتفاء تقديس الذات لأنها قائمة بالذات ومقتضياتها لكن انتفاء تقديس الذات منتف، وإذا حصل الاعتراف والاعتقاد بأنه منزه عن جميع النقائص وما لا ينبغي أن ينسب إليه ثبتت الكمالات ضرورة التزاما وحصل توحيد الربوبية وثبت التقديس في كل كمال عن المشابهة والمماثلة والشركة وكلا ما لا يليق فثبت أنه الرب على الإطلاق للأنفس والآفاق فهو المستحق لأن يشكر ويعبد بكل ما يمكن على الانفراد بالحق والحقيقة وتوحيد الربوبية حجة ملزمة وبرهان موجب توحيد الألوهية فتتضمن هذه الكلمة إثبات التوحيدين كما تتضمن إثبات الكمالين، وهذان الإثباتان في ضمنهما كل مدح ممكن فيما يرجع إلى الله تعالى ولما كان الاتصاف بالكمال الوجودي مشروطا بخلوه عما ينافيه قدم التسبيح على التحميد في الذكر ما تقدم **التخلية** عن **التحلية** ومن هذا القبيل تقدم النفي على الإثبات في لا إله إلا الله انتهى.
والواو في قوله: (وبحمده) للحال أي أسبحه متلبسا بحمدي له من أجل توقه لي للتسبيح ونحوه، وقيل عاطفة أي أسبح وأتلبس بحمده وأما الباء فيحتمل أن تكون سببية أي أسبح الله وأثني عليه بحمده، وقال

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ٢٥٣/٣٣

ابن هشام في مغنيه: اختلف في الباء من قوله فسبح بحمد ربك فقيل: إنها للمصاحبة والحمد مضاف للمفعول أي سبحه حامدا له أي نزهه عما لا يليق به وأثبت له ما يليق به. قال البدر الدماميني في شرحه للمغني: قصد أي ابن هشام تفسير التسبيح والحمد بما ذكره إذ هو الثناء بالصفات الجميلة.

فان قلت: من أين يلزم الأمر بالحمد وهو إنما وقع حالا مقيدة للتسبيح ولا يلزم من الأمر بشيء الأمر بحاله المقيدة له بدليل اضرب هندا جالسة؟ وأجاب: بأنه إنما يلزم ذلك إذا لم يكن الحال من نوع الفعل المأمور به ولا من فعل الشخص المأمور كالمثال المذكور أما إذا كانت بعض أنواع الفعل المأمور به نحو: حج مفردا أو قارنا أو كانت من فعل المأمور به نحو: ادخل مكة محرما فهي مأمور بها وما تكلم فيه في المغني من هذا القبيل انتهى.

قال في المغني: وقيل الباء للاستعانة والحمد مضاف للفاعل أي سبحه بما حمد به نفسه إذ ليس كل تنزيه محمودا ألا ترى أن تسبيح المعتزلة اقتضى تعطيل كثير من الصفات، وقال الخطابي: المعنى وبمعونتك التي هي نعمة توجب علي حمدك سبحتك لا بحولي وقوتي يريد أنه مما أقيم فيه المسبب مقام السبب ثم إن جنس الحمد كما قاله بعض العلماء لما وقع ذكره بعد التقديس عن كل ما لا يليق به تعالى بغير تخصيص بعض المحامد تضمن الكلام، واستلزام إثبات جميع الكمالات الوجودية الجائزة له مطابقة ولزم منه التقديس عن كل ما لا يليق وهو كل ما ينافيها ولا يجامعها هذا مع أن كلمة الجلالة تدل على الذات المقدسة المستجمعة للكمالات أجمع، وكذا الضمير في وبحمده إلى الهوية الخاصة السبوحية القدوسية الجامعة لجميع خاصيات الذات الواجبة وخواصها فهذه الكلمة اشتملت على اسمي الذات اللذين لا أجمع منهما. أحدهما فيه اعتبار عليه أحكام الشهادة والغيب والآخر فيه علية أحكام الغيب وغيب الغيب، وأيضا تشتمل على جميع التقديسات والتنزيهات وعلى جميع الأسماء والصفات وعلى كل توحيد.

وختم بقوله: (سبحان الله العظيم) ليجمع بين مقامي الرجاء والخوف إذ معنى الرحمن يرجع إلى الإنعام والإحسان ومعنى العظيم يرجع إلى الخوف من هيبته تعالى، وقوله سبحان إلى آخره مبتدأ وما بينه وبين الخبر صفة له بعد صفة.

وقد أورد صاحب المصابيح سؤالين فقال: فإن قلت: المبتدأ مرفوع وسبحان الله في المحلين منصوب فكيف وقع مبتدأ مع ذلك؟ وأجاب: بأن لفظهما محكي، وقال في الثاني فإن قلت: الخبر مثنى والمخبر عنه غير متعدد ضرورة أنه ليس ثم حرف عطف يجمعهما. ألا ترى أنه لا يصح قولك زيد عمرو قائمان.

وأجاب: بأنه على حذف العاطف أي سبحان الله وبحمده وسبحان الله العظيم كلمتان خفيفتان على اللسان إلى آخره.

وقد نص أهل." (١)

"والمراد به المصدر أي التطهر ، وروي بالفتح على حذف المضاف ، أي استعماله ، وفي بعض الروايات الوضوء بدل الطهور. (شطر الإيمان) أي نصفه ، قيل : المراد به الترغيب في الطهور ، وتعظيم ثوابه ، حتى كأنه بلغ إلى نصف ثواب الإيمان. وقيل : الإيمان يكفر الصغائر والكبائر والوضوء لا يكفر إلا الصغائر ، فكان في مرتبة نصف الإيمان. وقيل : المراد بالإيمان الصلاة ، ولا تصح الصلاة إلا بالطهارة فصارت كالشطر. وتوضيحه أن صحة الصلاة باستجماع الشرائط الخارجة عنها ، والأركان الداخلة فيها. والطهارة أقوى الشرائط وأعظمها. فجعلت كأنها لا شرط سواها ، واعتبرت الأركان والشرائط نصفا ، والطهارة وحدها نصفا آخر على سبيل المبالغة والإدعاء. وقيل : المراد بالطهور ههنا **التخلية** عن الرذائل من العقائد الزائغة ، والأخلاق الذميمة ، والجرائم ، والآثام ، ولأحداث والأخباث. ومن المعلوم أن الإيمان موجب **التخلية** عن الرذائل **والتحلية** بالفواضل ، فيكون الطهور شطر الإيمان. ويرد هذا الاحتمال رواية "الوضوء شطر الإيمان" وكذا رواية إسباغ الوضوء. وقيل : المراد بالشطر الجزء ، والمعنى أن الطهارة جزء من أجزاء الإيمان ، وركن من أركان الإسلام ، وقد تقدم أن الأعمال من أجزاء الإيمان. وهذا أيضا ضعيف ، يرده حديث رجل من بني سليم بلفظ "الطهور نصف الإيمان" ، وأيضا إنما يعرف استعمال الشطر لغة في النصف. (والحمد لله) أي تلفظه. (تملأ) بالتأنيث على تأويل الكلمة أو الجملة ، وروي بالتذكير على إرادة اللفظ والكلام ، أو المضاف المقدر أي ثوابها لو قدر مجسما لملأ. (الميزان) فمعناه بيان عظيم أجرها وأن ثوابها يملأ الميزان ، أو محمول على أن الأقوال والأعمال والمعاني تتجسد يوم القيامة عند الوزن ، وقد تظاهرت نصوص الشرع من القرآن والسنة على وزن الأعمال ، وثقل الموازين وخفتها ، وأما القول بأن." (٢)

"على أفضلية التسبيح مطلقا وهو مخالف لحديث جابر ، فإنه يدل على أفضلية التهليل مطلقا : وقد جمع القرطبي بما حاصله إن هذه الأذكار إذا أطلق على بعضها أنه أفضل الكلام أو أحبه إلى الله ، فالمراد

---

(١) شرح القسطلاني = إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، ٤٨٤/١٠

(٢) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح، ٨/٢

إذا انضمت إلى أخواتها بدليل حديث سمرة عند مسلم أحب الكلام أربع لا يضرك بأيهن بدأت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر : ويحتمل أن يكتفي في ذلك بالمعنى فيكون من اقتصر على بعضها كفى ، لأن حاصلها التعظيم والتنزيه ومن نزهه فقد عظمه ومن عظمه فقد نزهه – انتهى. وقيل : يحتمل أن يجمع بأن تكون "من" مضمرة في قوله أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وفي قوله أفضل الكلام وكذا في قوله الآتي أحب الكلام بناء على أن لفظ أفضل وأحب متساويان في المعنى. قلت : ويؤيد ذلك ما وقع في رواية أحمد (ج٥ص١١) أربع من أطيب الكلام وهن من القرآن لا يضرك بأيهن بدأت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا اللہ والله أكبر. وقال الشوكاني في تحفة الذاكرين (ص٢٤٣) تحت رواية سمرة : أحب الكلام إلى الله أربع الخ. في الحديث دليل على أن هذه الأربع الكلمات أحب إلى الله تعالى ، ولا ينافيه ما سيأتي من أن سبحان الله وبحمده أحب الكلام إلى الله ، لأن التسبيح والتحميد هن من جملة هذه الأربع المذكورة هنا (وفي رواية أحب الكلام إلى الله أربع)أي أربع كلمات (سبحان الله) أي اعتقد تنزهه عن كل ما لا يليق بجمال ذاته وكمال صفاته وهذا بمنزلة **التخلية** ولذا أردفه بما يدل على أنه المتصف بالأسماء الحسنى والصفات العلى المستحق لإظهار الشكر وإبداء الثناء وهو بمنزلة **التحلية** ولذا قال (والحمد لله) ثم أشار إلى أنه متوحد في صفاته السلبية ونعوته الثبوتية فقال (ولا إله إلا الله) ثم أو ما إلى أنه لا يتصور كنه كبريائه وعظمة إزاره وردائه بقوله (والله أكبر) ثم قال (لا يضرك بأيهن) أي." [(١)]

"مزكي لها إلا أنت كما قال : (أنت وليها) أي : المتصرف فيها ومصلحها ومزينها ، وقيل : ناصرها ، وهذا راجع إلى قوله : ((آت نفسي تقواها)) كأنه يقول : انصرها على فعل ما يكون سببا لرضاك عنها لأنك ناصرها (ومولاها) أي : ناصرها وعاصمها . وقيل : عطف تفسيري ، وقيل : هذا راجع إلى قوله : ((زكها)) يعني طهرها بتأديبك إياها كما يؤدب المولى عبده . وقال الطيبي : أنت وليها ومولاها . استئناف على بيان الموجب وأن إيتاء التقوى وتحصيل التزكية فيها إنما كان لأنه هو متولي أمورها ومالكها فالتزكية إن حملت على تطهير النفس عن الأفعال والأقوال والأخلاق الذميمة كانت بالنسبة إلى التقوى مظاهر ما كان مكمنا في الباطن وإن حملت على الإنماء والإعلان والإعلاء بالتقوى كانت **تحلية** بعد **التخلية** لأن المتقي شرعا من اجتنب النواهي وأتى بالأوامر (اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع) يعني من علم لا أعمل به ولا أعلمه الناس ولا يصل بركته إلى قلبي ولا يبدل أفعالي وأقوالي وأخلاقي المذمومة إلى المرضية

---

(١) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح، ٨٩٥/٧

ولا يهذبها .

ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها . رواه مسلم .

٢٤٨٥- (٥) وعن عبد الله بن عمر قال : كان من دعاء رسول الله {صلى الله عليه وسلم} : اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ،

". (١)

"رواية بعبارة النصف فإنه قد يكون بمعنى النصف كما قيل في الحديث المشهور علم الفرائض نصف العلم وقيل المراد بالإيمان حقيقته لأن الإيمان طهارة القلب عن الشرك والطهور طهارة الأعضاء من الحدث والخبث وحاصله أن الطهارة نصفان أي فجنسها نوعان طهارة الظاهر وطهارة الباطن وقال بعض المحققين الطهور تزكية عن العقائد الزائغة والأخلاق الذميمة وهي شطر الإيمان الكامل فإنه تخلية وتحلية والأظهر والله أعلم أن الإيمان على حقيقته المنبئة عن نفي الألوهية لغيره تعالى وإثبات الربوبية والتوحيد الذاتي له سبحانه وهذا المركب هو معنى الكلمة الطيبة التي عليها مبنى الإيمان ولذا قال تعالى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى البقرة ولا يضرنا إيراد الحديث في كتاب الطهارة فإنه بحسب فهم بعض المصنفين وبما قلنا تظهر المناسبة التامة بين الجملة السابقة واللاحقة في قوله والحمد لله أي تلفظه أو تصوره تملأ الميزان بالتأنيث على تأويل الكلمة أو الجملة وقيل بالتذكير على إرادة اللفظ أو الكلام أو المضاف المقدر أي لو قدر ثوابه مجسما لملأ." (٢)

"والصفات والأفعال والآثار وغيره كالهباء المنثور من أثر غبار الأغيار في أعين أعيان الموحدين الأبرار لا شريك له في الألوهية والربوبية له الملك باطنا وظاهرا وله الحمد أولا وآخرا وهو على كل شيء دخل تحت مشيئته وتعلق بإرداته قدير تام القدرة كامل الإرادة وسبحان الله تنزيه له عن صفات النقص وزوال الكمال والحمد لله على صفتيه الجمال والجلال قال العسقلاني لم يختلف الرواة في تقديم الحمد على التسبيح لكن عند الإسماعيلي بالعكس والظاهر أنه من تصرف الرواة لأن الواو لا تستلزم الترتيب اه وفيه إشارة إلى أن من قدم التسبيح راعى الترتيب فإن التصفية والتخلية تتقدم عادة على التجلية والتحلية

---

(١) مشكاة المصابيح مع شرحه مرعاة المفاتيح، ٤٧٦/٨

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٢٠٢/٢

والحاصل أن تقديم سبحان الله على الحمد لله رواية شاذة والجمهور على العكس كما في الحصن للجزري أيضا ولا إله إلا الله الموصوف بصفات الكمال المنزه عن النقص والزوال والله أكبر من كل ما يخطر بالبال ولا حول ولا قوة إلا بالله في كل الأحوال ومعناه لا تحول عن المعصية وغيرها ولا قوة على الطاعة ونحوها إلا بعصمته وإعانته وبمشيئته وإرادته ثم قال رب اغفر لي وفي نسخة اللهم اغفر لي أو قال ثم دعا شك الراوي قاله ابن الملك في البخاري اللهم اغفر لي أو دعا قال الشيخ أو للشك ويحتمل أن يكون للتنويع ويؤيد الأول ما عند الإسماعيلي ثم قال رب اغفر لي غفر له أو قال فدعا استجيب له شك الوليد ذكره الأبهري وفي الحصن اللهم اغفر لي أو يدعو من غير لفظ ثم قال والله أعلم استجيب له أي ما دعاه من خصوص المغفرة أو من عموم المسألة قال ابن الملك المراد بها الاستجابة اليقينية لأن الاحتمالية ثابتة في غير هذا الدعاء فإن توضأ وصلى قال الطيبي قوله فإن توضأ يجوز أن يعطف على قوله دعا أو على قوله قال لا إله إلا الله والأول أظهر والمعنى من استيقظ من النوم فقال كيت وكيت ثم إن دعا استجيب له فإن صلى قبلت صلاته اه وكأنه اختار الأول لقربه اللفظي مع أنه يلزم منه الشك." (١)

"فيها فكنت أسمعه إذا قام من الليل يقول سبحان رب العالمين الهوي بفتح الهاء ونصب الياء المشددة قال الطيبي الحين الطويل من الزمان وقيل مختص بالليل والتعريف هنا لإستغراق الحين الطويل بالذكر بحيث لا يفتر عنه بعضه والتنكير لا يفيده نصا كما تقول قام زيد اليوم أي كله أو يوما أي بعضه ومنه قوله تعالى أسرى بعبده ليلا الإسراء أي بعضا منه ثم يقول سبحان الله وبحمده الهوى فالأول تنزيه مجرد والثاني تنزيه ممزوج بالحمد إشارة إلى تقديم **التخلية** على **التحلية** رواه النسائي أي بهذا اللفظ وللترمذي نحوه أي بمعناه وقال هذا حديث حسن صحيح." (٢)

"استعمال الدواء **والتخلية** مقدمة على **التحلية** بل مقدمة **للتحلية** رواه مسلم وسنذكر حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه اتقوا النار تمامه ولو بشق تمرة أي بنصفها والمعنى ادفعوها عن أنفسكم بالخيرات ولو كان الاتقاء بتصدق بعض تمرة يعني لا تستقلوا شيئا من الصدقة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة أي يطيب بها قلب المسلم أو بكلمة من كلمات الأذكار فإنها بمنزلة صدقة الفقير في باب علامات النبوة إن شاء الله تعالى أي في ضمن حديث طويل لعدي مذكور في الباب لكن لفظه فمن لم يجد فبكلمة طيبة وكان

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٤/٣٢٧

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٤/٣٣١

صاحب المصابيح أتي ببعض الحديث أو بحديث مستقل هنا مناسبة لهذا الباب فعده المؤلف من باب التكرار فأسقطه واكتفى بذكره في ذلك الباب والله أعلم بالصواب

$الفصل الثاني

عن عبد الله بن سلام قال لما قدم النبي المدينة جئت أي إليه لاطلع عليه وأسلم لديه فلما تبينت وجهه أي أبصرت وجهه ظاهرا وقيل تأملت وتفرست بأمارات لائحة في سيماه وأصل معناه تكلفت في البيان عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب بالإضافة وينون أي بوجه ذي كذب فإن الظاهر عنوان الباطن فكان أول ما قال بالرفع وينصب يا أيها الناس خطاب العام بكلمات جامعة للمعاملة مع الخلق والحق أفشوا السلام أي أظهروه وأكثروه على من تعرفونه وعلى من لا تعرفونه وأطعموا الطعام أي لنحو المساكين والأيتام وصلوا الأرحام أي ولو بالسلام وصلوا بالليل أي أوله وآخره والناس نيام لأنه وقت الغفلة فلأرباب الحضور مزيد المثوبة أو لبعده عن الرياء والسمعة تدخلوا الجنة بسلام أي من الله أو من ملائكته من مكروه أو تعب ومشقة رواه الترمذي وابن ماجه والدارمي." (١)

"وفي مذهبنا لا حنث لما في الحديث أن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس وإنما يصلح فيها التسبيح والتحميد وغيرهما من ذكر الله ا هـ وقال علماؤنا لا تعد في العرف كلاما ومبنى الإيمان على العرف سبحان الله تنزيه عن النقصان ونعت الحدثات والحمد لله توصيف بالجلال والجمال ونعوت الكمال ولا إله إلا الله توحيد للذات وتفريد للصفات والله أكبر إثبات الكبرياء والعظمة مع اعتراف بالقصور عن المحمدة قال لا أحصى ثناء عليك وفي رواية لمسلم والترمذي أحب الكلام إلى الله أربع سبحان الله أي أعتقد تنزهه عن كل ما لا يليق بجمال ذاته وكمال صفاته وهذا بمنزلة **التخلية** ولذا أردفه بما يدل على أنه المنصف بالأسماء الحسنى والصفات العلى المستحق لإظهار الشكر وإبداء الثناء وهو بمنزلة **التحلية** ولذا قال والحمد لله ولا إله إلا الله ثم أشار إلى أنه متوحد في صفاته السلبية ونعوته الثبوتية ثم أومأ إلى انه لا يتصور كنه كبريائه وعظمة أزاره وردائه بقوله والله أكبر ثم قال وإن كان هذا الترتيب هو مقتضى مفهوم أهل التأديب والتهذيب لكن لا يضرك بأيهن بدأت قال الطيبي إن الترتيب المذكور هو العزيمة والباقي رخصة قال ابن الملك يعني بدأت بسبحان الله أو بالحمد لله أو بلا إله إلا الله أو بالله أكبر جاز وهذا يدل على أن كل جملة منها مستقلة لا يجب ذكرها على نظمها المذكور لكن مراعاتها أولى لأن المندرج في المعارف

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٢٠٣/٦

يعرفه أولا بنعوت جلاله أعني تنزيه ذاته عما يوجب نقصا ثم بصفات كماله وهي صفاته الثبوتية التي بها يستحق الحمد ثم يعلم أن من هذا صفته لا مماثل له ولا يستحق الألوهية غيره فيكشف له من ذلك أنه أكبر إذ كل شيء هالك إلا وجهه ا هـ وهو كلام حسن المبتدأ والمنتهى رواه مسلم وعن أبي هريرة قال قال رسول الله لأن أقول سبحان الله مصدر منصوب بفعل واجب إضماره أي أسبح سبحان الله والحمد لله أي ثابت سواه حمد أو لم يحمد ثولا إلا إلا الله أي موجود أو معبود أو." (١)

"النفس عن الإفعال والأقوال والأخلاق الذميمة كانت بالنسبة إلى التقوي مظاهر ما كان مكمنا في الباطن حملت على الإنماء والإعلاء بالتقوي كانت **تحلية** بعد **التخلية** لأن المتقى شرعا من اجتنب النواهي وأتي بالأوامر وعن بعض العارفين تقوي البدن الكف عمالا يتيقن حله وتقوي القلب عما سوى الله في الدارين وعدم الإلتفات إلى غيره سبحانه اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع قال الطيبى أي علم لا أعمل به ولا أعلم الناس ولا يهذب الإخلاق والأقوال والأفعال أو علم لا يحتاج إليه في الدين أو لا يرد في تعمله إذن شرعي وقال الغزالي العلم لا يذم لذاته لأنه من صفات الله تعالى بل لأسباب ثلاثة أما لكونه وسيلة إلى إيصال الضرر إليه أو الشرالي غيره كعلم السحر والطلسمان فإنهما لا يصلحان إلا للإضرار بالخلق والوسيلة للشر وأما لكونه مضرا بصاحبه في ظاهر الأمر كعلم النجوم فإنه كله مضر وأقل مضاره إنه شروع فيما لا يعني وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان بغير فائدة غاية الخسران وأما لكونه دقيقا لا يستقبل به الحائض فيه كالتعليق بدقيق العلوم قبل جليها وكالباحث عن الأسرار الإلهية إذ تطلع الفلاسفة والمتكلمون إليها ولم يستقلوا بها ولا يستقل بها والوقوف بها على طرف بعضها إلا الأنبياء والأولياء فيجب كف الناس عن البحث عنها وردهم إلى ناطق به الشرع ا هـ وبه يعلم فساد قول ابن حجر لا يحيط بها إلا نبي أو ولي فإن الإحاطة صفة خاصة لله تعالى ولذا قال الإمام الجلالة المقام لا يستقل بها والوقوف على طرف بعضها إلا الأنبياء والأولياء عليهم والصلاة والسلام ومن قلب لا يخشع أي لا يسكن ولا يطمئن بذكر الله ومن نفس لا تشبع بما آتاها الله ولا تقنع بما رزقه الله ولا تفتر عن جمع المال لما فيها من شدة الحرص أومن نفس تأكل كثيرا قال ابن الملك أي حريصة على جمع المال وتحصيل المناصب وقيل على حقيقته إما لشدة حرصه إما حرصه على الدنيا لا يقدر ان يأكل قدر ما يشبع." (٢)

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١٢٥/٨

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٣٥٩/٨

"عد كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه وقيل ما تكلم الربيع بن خيثم بكلام الدنيا عشرين سنة وكان إذا أصبح وضع قرطاسا نقيا وقلما فكلما تكلم به كتبه ثم يحاسب نفسه عند المساء هذا وعن بعضهم من في قوله من حسن إسلام المرء تبعيضية ويجوز أن تكون بيانية اه وبيانه أن تركه ما لا يعنيه هو حسن إسلام المرء وكماله فيه وتقديم الخبر لكون التركيب من باب على التمرة مثلها زبدا قال الطيبي وعلى أن تكون تبعيضية إشارة إلى قوله الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه الحديث بعد الإيمان والإسلام وأنت تعلم أن **التحلية** مسبوقة **بالتخلية** فالترك بعض من الاحسان فيكون إشارة إلى الانسلاخ عما يشغله عن الله فإذا أخذ السالك في السلوك تجرد بحسب أحواله ومقاماته شيئا فشيئا مما لا يعنيه إلى أن يتجرد عن جميع أوصافه ويتوجه بكليته إلى الله سبحانه وإليه يلمح قوله تعالى بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن البقرة وقول إبراهيم عليه السلام إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين البقرة قال النووي هذا أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام قال أبو داود وهي أربعة الأول حديث نعمان بن بشير الحلال بين والحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن الثاني من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه الثالث لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه الرابع الأعمال بالنيات وقيل بدل الثالث ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس وأنشد الإمام الشافعي رضي الله عنه في معناه عمدة الخير عندنا كلمات أربع قالهن خيرا لبريه اتق الشبهات وازهد ودع ما ع ليس يعنيك واعملن بنيه قلت مدار الأربعة السنية على تصحيح النية فإنه إذا عمل بالنية المرتبطة بحسن الطوية يورث له اتقاء الشهبات أكلا وترك ما لا يعنيه قولا وفعلا ويترتب عليها الزهد في الدنيا والزهد فيما في أيدي الناس بالأولى فيحب المؤمنين ويحبونه لله تعالى فنية المؤمن خير من عمله كما ورد في حديث وقد جعلت." (١)

"ألسنة الناس قلة صيامها وصدقتها وصلاتها وفي نسخة من قلة صيامها قال الطيبي القرينة الثانية ليست فيها من وقلة نصب على نزع الخافض اه وكأنه ثبت عنده رواية النصب كما
تقتضي مراعاة المناسبة بين القرينتين وإلا فلو روي أو قرىء بالرفع فوجهه ظاهر والله أعلم وأنها بالكسر تصدق بحذف إحدى التاءين وضم القاف والجملة حال وإن روي بفتح إن عطفا على أنها معمول تذكر فله وجه فتذكر والمعنى أنها تتصدق بالأثوار من الأقط أي بقطع منه جمع ثور بالمثلثة وهو قطعة من الاقط ذكره الجوهري ففي الكلام تجريد أو توكيد وفي ذكره إشارة إلى أن صدقتها بالنسبة لتلك المرأة قليلة جدا

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١١٧/١٤

ثم في القرينة الثانية توسطت العبادة المالية بين عبادتي البدنية لعلها بسبب طرفيها تنجبر قلتها ولا تؤذي بلسانها جيرانها عطف على تصدق أو حال من ضميره قال هي في الجنة لأن مدار أمر الدين على اكتساب الفرائض واجتناب المعاصي إذ لا فائدة في تحصيل الفضول وتضييع الأصول كما هو واقع فيه أكثر العلماء وكثير من الصلحاء حيث لم يقم الأولون بما يجب عليهم من العمل ولم يحصل الآخرون ما يجب عليهم من العلم وأما الصوفية الجامعون بين العلم والعمل المقرونين بالإخلاص فهم يقدمون رعاية الاحتماء إلى إعطاء الدواء سالكين سبيل الحكماء فيقولون التخلية مقدمة على التحلية ولذا جعلوا التوبة أول منازل السائرين ومقامات الطائرين وفي كلمة التوحيد إشارة إلى هذا المعنى بطريق النفي والإثبات دائما إلى أن الصفات السلبية مقدمة على النعوتية الثبوتية فكأنه يلزم من الأولى حصول الثانية بخلاف العكس والله أعلم رواه أحمد والبيهقي في شعب الإيمان وكذا البزار وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد وابن أبي شيبة بإسناد صحيح ذكره ميرك وعنه أي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال إن رسول الله وقف على ناس جلوس أي جالسين أو ذوي جلوس فقال ألا أخبركم بخيركم من شركم أي مميزا منه حال من المتكلم قال أي الراوي." (١)

"العدد مفوض إلى صاحب الوحي ولعل فيه إشارة إلى أن مثوبته مزيدة بوصف الجمعية على العدد المشهور في الكثرة ويمكن أن يكون بالنظر إلى صاحب الحساب عدد الثلاث مأخوذ من الثلاثة الحروف في آخر الملهوف وعدد السبعين من مجموع الميم واللام وهذا من أنواع التعمية والإبهام والله أعلم بالمرام واحدة فيها صلاح أمره كله أي في الدنيا وثنتان وسبعون له درجات يوم القيامة فيه إشارة خفية إلى بشارة جلية وهي أن المغفرة الواحدة تعم جميع ذنوبه في الدنيا ويعوض عن سائر أعداد المغفرة بالدرجات العلى في العقبى ولعل هذا الحديث مأخذ ما قاله بعض العلماء كالنووي وغيره أن المكفرات إذا اجتمعت فتتوجه أولا إلى محو الصغائر ثم إلى تخفيف الكبائر من السيئات ثم تكون سببا لرفع الدرجات العاليات وقال الطيبي فيه إن غفران الذنوب مقدمة على فتح باب رحمة الله تعالى في الدنيا والعقبى ومن ثم قدمها في قوله تعالى ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر الفتح على قوله ويتم نعمته عليك ويهديك الفتح لأن التحلية بعد التخلية اه فتأمل يظهر لك ما لا يخفى وعنه أي عن أنس رضي الله تعالى عنه وعن بالعاطف مع إعادة العامل ليصح العطف على الضمير المجرور على القول المشهور عبد الله أي ابن مسعود

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١٤/٢٨٥

قالا أي كلاهما قال رسول الله الخلق عيال الله عيال المرء بكسر العين من يعوله ويقوم برزقه وإنفاقه وهو بالنسبة إلى غيره مجاز صورة وإلا فهو الرزاق كما أنه هو الخلاق وقد قال تعالى وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها هود فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله أي من هييء ووفق إلى الإحسان إلى خلقه تعالى كما ورد خير الناس أنفعهم للناس وفي الجامع الصغير الخلق كلهم عيال الله فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله وقال رواه أبو يعلى في مسنده والبزار عن أنس والطبراني عن ابن مسعود روى البيهقي الأحاديث الثلاثة في شعب الإيمان ولعله عدل عن الضمير بأن يقول رواها." (١)

"نزلت في جذر قلوب الرجال فإن نزول الأمانة بمعنى الإيمان هو المناسب لأصل قلوب المؤمنين ثم يعلمون إيقانه واتقانهم بتتبع الكتاب والسنة وأما الأمانة فهي جزئية من كلية ما يتعلق بالإيمان والقرآن والله سبحانه وتعالى أعلم متفق عليه وعنه أي عن حذيفة رضي الله تعالى عنه قال كان الناس أي أكثرهم يسألون رسول الله عن الخير أي عن الطاعة ليمتثلوها أو عن السعة والرخاء ليفرحوا به ويستعينوا بالدنيا على الأخرى وكنت أسأله عن الشر أي عن المعصية أو الفتنة المترتبة على التوسعة مخافة أن يدركني أي خشية أن يلحقني الشر نفسه أو بسببه وهذا الطريق هو مختار الحكماء وكثير من الفضلاء أن رعاية الاحتماء أولى في دفع الداء من استعمال الدواء وأن **التخلية** مقدمة على **التحلية** وفي كلمة التوحيد إشارة إلى ذلك حيث نفي السوي ثم أثبت المولى بل مدار جل معرفة الله سبحانه على النعوت التنزيهية كقوله تعالى جل جلاله ليس كمثله شيء الشورى دون الصفات الثبوتية لظهور وجودها في خالق الأشياء بالضرورة العقلية قال الطيبي رحمه الله تعالى المراد بالشر الفتنة ووهن عرى الإسلام واستيلاء الضلالة وفشو البدعة والخير عكسه يدل عليه ما نقله الراوي عنه قال قلت يا رسول الله إنا كنا في جاهلية أي أيام غلب فيها الجهل بالتوحيد والنبوة وما يتبعهما من سائر أحكام الشريعة فقوله وشر عطف تفسيري أو المعني به الكفر فهو تخصيص بعد تعميم فجاءنا الله بهذا الخير أي الخير العظيم وهو الإسلام ببركة بعثتك ومفهومه أنه ذهب بالشر عنا بهدم قواعد الكفر والضلال ولعله حذف وجعل من باب الاكتفاء لا سيما وهما ضدان لا يجتمعان فهل بعد هذا الخير أي الثابت من شر أي من حدوث بعض شر قال نعم قلت وهل بعد ذلك الشر من خير قال نعم

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١٤/٢٩١

وفيه دخن بفتحتين أي كدورة إلى سواد والمراد أن لا يكون خيرا صفوا بحتا بل يكون مشوبا بكدورة وظلمة قلت وما دخنه قال قوم يستنون بتشديد النون الأولى أي يقتدون بغير سنتي." (١)

"لكونه من الألفاظ المشتركة فإنه يطلق الفلق على الصبح وعلى المطمئن من الأرض فشبهت ما جاءه في اليقظة موافقا لما رآه في المنام بالفلق لإنارته وإضاءته وصحته وقال القاضي شبه ما جاءه في اليقظة ووجده في الخارج طبقا لما رآه في المنام بالصبح في إنارته ووضوحه والفلق الصبح لكن لما كان مستعملا في هذا المعنى وفي غيره كالفلق في قوله قل أعوذ برب الفلق الفلق وغير ذلك أضيف إليه للتخصيص والبيان إضافة العام إلى الخاص كقولهم عين الشيء ونفس الشيء وقال الطيبي للفلق شأن عظيم ولذلك جاء وصفا لله تعالى في قوله سبحانه فالق الإصباح الأنعام وأمر بالاستعاذة برب الفلق لأنه ينبيء عن انشقاق ظلمة عالم الشهادة وطلوع تأثير الصبح بظهور سلطان الشمس وإشراقها الآفاق لأن الرؤيا الصالحة مبشرات تنبيء عن وفور أنوار عالم الغيب وآثار مطالع الهامات شبه به الرؤيا التي هي جزء يسير من أجزاء النبوة وتنبيه من تنبيهاتها لمشتركي العقول على ثبوت النبوة لأن النبي إنما سمي نبيا لأنه ينبيء من عالم الغيب الذي لا تستقل العقول بإدراكه وفي شرح مسلم للنووي قالوا إنما ابتدأ بالرؤيا لئلا يفجأه الملك ويأتيه صريح النبوة بغتة فلا يحتملها قوى البشرية فبديء بتباشير الكرامة وصدق الرؤية استئناسا قلت وهو مقتضى الأمور التدريجية في الأمور الدينية والدنيوية وكأن الرؤيا شبهت بالفلق الذي هو الصبح وهو مقدمة طلوع الشمس المشبه به إتيان جبريل بالوحي المنزل الذي هو نور وكتاب مبين يهدي الله لنوره من يشاء النور ثم بون بين بين النور الحسي الآفاقي والنور العلمي الخلاقي ثم حبب إليه الخلاء بالمد أي الخلوة المناسبة لمرتبة التخلية عن الغير المقدمة على التحلية المترتبة عليها بثبوت نور وجوده وظهور كرمه وجوده قال النووي الخلوة شأن الصالحين وعباد الله العارفين قال الخطابي حبب إليه الخلوة لأن معها فراغ القلب وهي معينة على التفكر وبها ينقطع عن مألوفات البشر ويخشع قلبه." (٢)

"التخلية والتحلية ومقام الفناء والبقاء ونفي السوى وإثبات المولى كما تشير إليه الكلمة العليا ثم اعلم أن هذا معجزة فإن من المحال العادي أن يعيش من ينشق بطنه ويستخرج قلبه وكأن بعضهم حملوها على المعاني المجازية ولذا قال التوربشتي ما ذكر في الحديث من شق النحر واستخراج القلب وما يجري

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١٥/٣٣٩

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ١٧/١٠

مجراه فإن السبيل في ذلك التسليم دون التعرض بصرفه من وجه إلى وجه بنقول متكلف ادعاء للتوفيق بين المنقول والمعقول هربا مما يتوهم أنه محال ونحن بحمد الله لا نرى العدول عن الحقيقة إلى المجاز في خبر الصادق عن الأمر لعدم المحال به على القدرة ثم أتيت بطست بفتح الطاء." (١)

"يقول تعالى : { وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم (قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون }(١) .

والإنسان / – كما علمناه عنه بطريق الملاحظة – له جوانب ثلاث متلازمة ، لا تنفك عنه ابدا – إلا بطريق الاستثناء .. كالمجانين – ، وهذه الجوانب الثلاث هي :

جانب الفكر – وهذا تعالجه العقيدة ، وتدرس في علم خاص يسمى : العقيدة ، أو الكلام ، أو المقولات ، أو الإلهيات .

وهذا العلم .. هو أشرف العلوم ، لتعلقه بإثبات وجود الله ، وصفاته

والإيمان به .. الخ . فإن شرف العلم من شرف المعلوم .

جانب النفس – وهذا يعالجه علم الأخلاق ، أو علم **التخلية** **والتحلية** ، أو ما سمي – بعدئذ – بعلم التصوف .

وجانب الأعضاء – فما تقوم به من أفعال يعالجه علم الفقه ، فهي الأمور العملية التي يقوم بها الإنسان في اليوم والليلة .

وهذا الجانب هو مقصود الشرائع ، والأمران الآخران هو مقصود الأديان – بمعناها الضيق – ، وتتضافر جميعها لكي تجعل من حياة الإنسان حياة مقبولة معقولة توفر السعادة لصاحبها ، ولكي تؤدي إلى السعادة العظمى .. وهي السعادة الأخروية .

فالإنسان لا يستطيع العيش من غير نظام / لأنه عاقل ، ومن يعقل يحتاج إلى تنظيمات لتفسه ، وفي علاقته مع غيره ، والعقل يعقل صاحبه عما لا يرتضى ، فعلى العقل أن يميز بين ما يرتضى وما لا يرتضى .

---

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ٧٦/١٧

(١) البقرة / ٣٥ إلى ٣٩ .." (١)

"وقد نقلنا هذا الكلام على طوله – وإن حذفنا منه جملا – ارتأينا أنها لا تتصل بموضوعنا ؛ لأنه يرسم صورة دقيقة للأفق النفسي والمجال التشريعي والمدى الظرفي لهذه السورة الجليلة التي زعم البعض يغفر الله لهم أن آية أو أكثر منها نسخت بآيات نزلت قبلها. فهل هنالك أعجب من هذا الزعم؟ ! ذلك بأن الزكاة شرعت في القرآن المكي وأكد شرعها في القرآن المدني ، وغاية ما ورد في شأنها وليس خاصا بها في رأينا كما سنبينه من بعد تعيين مصارفها وبيان المستحقين لها ، فلا يعقل أن يكون تشريع الزكاة ناسخا لما جاء في آخر سورة نزلت من القرآن قبيل لحاق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى ، وتكاد أغراضها كلها تنحصر في تعيين وتبيان طبيعة العلاقة بين المسلمين بعضهم ببعض باعتبارهم كيانا دوليا ومجتمعا متكاملا متكافلا وبينهم وبين غيرهم من الأمم على اختلاف مللها ونحلها ومواقعها بناء على ذلك الاعتبار.

ومن هذا المنطلق كان الشيخ ابن عاشور – رحمه الله – أكثر توفيقا من غيره وأعمق فهما وأوضح بيانا وهو يشرح قوله تعالى في هذه السورة الجليلة { خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها } (١) الآية ، فقال: " لما كان من شرط التوبة – قلت: إذ نزلت في من وصفتهم آية قبلها بأنهم { مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم } (٢) - تدارك ما يمكن تداركه مما فات ، وكان التخلف عن الغزو مشتملا على أمرين ، هما عدم المشاركة في الجهاد ، وعدم إنفاق المال في الجهاد ، جاء في هذه الآية إرشاد لطريق تداركهم ما يمكن تداركه مما فات ، وهو نفع المسلمين بالمال والإنفاق العظيم على غزوة تبوك استنفد المال المعد لنوائب المسلمين ، فإذا أخذ من المتخلفين شيء من المال انجبر به بعض الثلم الذي حل بمال المسلمين. والتاء في (تطهرهم) تحتمل أن تكون تاء الخطاب ، نظرا لقوله: (خذ) ، وأن تكون تاء الغائبة عائدة إلى الصدقة ، وأيا ما كان فالآية دالة على أن الصدقة تطهر وتزكي ، والتزكية جعل الشيء زكيا ، أي: كثير الخيرات ، فقوله: (تطهرهم) إشارة إلى مقام **التخلية** من السيئات ، وقوله: (وتزكيهم) إشارة إلى مقام **التحلية** بالفضائل والحسنات ، ولا جرم أن **التخلية** مقدمة على **التحلية** ، فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم.

---

(١) جمع الجذاذ في جهدي التلميذ والأستاذ، ص/٢٤

(١) الآية رقم (١٠٣) سورة التوبة

(٢) الآية رقم (١٠٦) سورة التوبة." [١]

"هكذا نجد الجاهلية الأولى توحد الله رب العالمين في ربوبيته ، ولكن القوم كانوا يتناقضون فيشركون في عبادته غير ملتزمين بما يلزمهم توحيدهم في ربوبيته وكيفية الالتزام ، إذا كان الله قد تفرد بخلق السموات والأرض وما فيهما وتفرد بتدبير خلقه وأرزاقهم وآجالهم ، فيجب أن يفرد بالعبادة ، هذا ما يقتضيه المنطق السليم ويدعو إليه العقل الصريح ، ويوجب الشرع الحكيم { أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون } (١) .

هكذا يتناقض الجاهليون الأولون يؤمنون ويشركون ، وصدق الله العظيم حين يقول : { وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون } (٢) .

وأما مشايخ الصوفية وأتباعهم فإنهم يشركون بالله في ربوبيته وعبوديته بل ويصرفون الناس عن عبادته تعالى ، بل إنهم يصرفون الناس عن كل ما جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام من شريعة وعقيدة ، ويزهدون فيه من أطاعهم حتى يخلصوا لهم في طاعتهم وخدمتهم دون مزاحم .

وكل من يدين بدين الصوفية فهو يشرك بالله في الربوبية والعبادة ، عرف بذلك من عرف وجهل من جهل ، ولا تقبل دعواهم بأنه يشهد ألا إله إلا الله ، حيث إنهم يأتون بما يناقضه في كل وقت ، بل كل لحظة ، ولأن الإيمان بالله لا يقبل إلا الكفر بالطاغوت كما نص على ذلك القرآن الكريم : { فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم } (٣) .

فليفطن القارئ أن الآية قدمت الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله تعالى على ضوء كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) لأن **التخلية** قبل **التحلية** كما يقولون .

إذا كان هذا شرك المشركين الأولين ، شرك في العبادة ، وتوحيد في الربوبية ، وشرك مشايخ الصوفية شرك في العبادة والربوبية ويدل على ذلك ما سمعناه من أقوال مشايخهم ودعاياتهم وتصريحاتهم ، يتبين من هذه المقارنة أن مشايخ الصوفية أشد كفرا وزندقة ، وأبعد عن الطريق الموصل إلى الله ، ألا وهو التمسك بدين الله الذي جاء به رسول الله عليه الصلاة والسلام شريعة

(١) مجلة مجمع الفقه الإسلامي، ٧٤٩٥/٢

(١) سورة النحل الآية ١٧

(٢) سورة يوسف الآية ١٠٦

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٦." (١)

"فيه النفوذ وصار لها من التأثير والأهمية ما يجعل الإلمام بها مهما لكل داعية لدفع أثرها من النفوس فالكفر يسبق الإيمان والتخلية تسبق التحلية وهدم الأنقاض يسبق البناء قال تعالى : { فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها } (١) وهو

رابعا العلم بطرق الدعوة ووسائلها وغاياتها :

أو بعبارة عامة– العلم بفن الدعوة . فالدعوة إلى الله فن لا يستطيعه إلا من آتاه الله أسبابه وسعى إليها سعيا حثيثا فالأمر يقتضي الاستعداد أولا ثم التدريب أو الممارسة ثانيا .

والدعوة إلى الله . . ليست هي الخطابة ولا القدرة على الحديث بألوانه المختلفة ، إنما هي قبل ذلك كله إخلاص والتزام وقدوة ومواقف يقفها الداعية لله انتصارا للحق وانتصارا من البغي .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٦." (٢)

"ثمار الوقف الاستحقاقى وما يعتبر منها تركه من عدمه

F حسن مأمون .

شوال ١٣٧٥ هجرية – ٣ يونية ١٩٥٦ م

M 1 – ما زرعته المستحقة فى الأرض الموقوفة على ذمتها ومن مالها الخاص تكون ثماره ملكا لها ويورث عنها شرعا .

٢ – انتقال الاستحقاق إلى بنتها فقط بعد وفاتها يوجب على باقى الورثة غيرها أجر مثل ما يخصهم بالميراث فيما نتج من الأرض المنزرعة من وقت وفاة صاحبة الاستحقاق إلى وقت جمع المحصول وإخلاء الأرض من الزراعة ويكون هذا الأجر استحقاق لبنتها فى الوقف .

---

(١) مجلة البحوث الإسلامية، ٢٩٠/١٢

(٢) مجلة البحوث الإسلامية، ١٦٨/٣٦

٣ – ما صرف على الزراعة من مصاريف فى المدة يضمن كل واحد من الورثة ما يخصه فى ذلك مضافا إلى أجر مثل الأرض .

٤ – ما بقى من الأرض غير المنزرعة يكون ريعها مستحقا لأمها (أصلها) مدة حياتها فإذا لم تستوفه قبل وفاتها يكون تركة عنها شرعا، أما ما قابل المدة بعد وفاتها فيكون استحقاق لبنتها فقط ولا شىء لباقى الورثة فيه لأنه استحقاق لريع وقف فى هذه الحالة

Q من الأستاذ الشيخ عبد القادر خالد المحامى قال إنه بتاريخ ١٩ يونية ١٩٠٢ وقفت المرحومة السيدة فاطمة هانم كريمة المرحوم محمد باشا فاضل الأعيان المبينة بكتاب وقفها الصادر منها أمام محكمة مصر الشرعية بالتاريخ المذكور .

ثم توفيت الواقفة المكورة فآل إلى كريمتها السيدة خديجة رستم فاضل ريع مائتين وخمسة وأربعين فدانا من أعيان هذا الوقف طبقا لإنشاء وشروط الواقفة واستولت السيدة خديجة المذكورة على هذا القدر جميعه .

ثم توفيت السيدة خديجة بتاريخ ٧ أغسطس سنة ١٩٥١ وكان جزء من هذه الأطيان الموقوفة منزرعا قطنا على ذمتها وصرف على زراعتها من مالها الخاص، وقد جمع محصول هذا القطن وبيع بمبلغ أحد عشر ألفا من الجنيهات وذلك بعد وفاتها – وأنه طبقا لشروط الواقفة انتقل استحقاق ريع هذه الأطيان من بعدها إلى بنتها السيدة فاطمة مرتضى فقط – أما تركتها إرثا فقد انحصرت فى بنتها المذكورة وفى أبناء أخويها المتوفين قبلها إسماعيل فاضل وعمر فاضل وهم حسين وعزيز ولدى عمر فاضل – وأحمد وجميل وعثمان أبناء إسماعيل فاضل فقط .

وطلب السيد السائل معرفة الحكم الشرعى فيما يعتبر تركة يقسم بين ورثة السيدة خديجة المذكورة طبقا لأحكام قانون المواريث وما يعتبر استحقاق فى الوقف المذكور لبنتها باعتبارها المستحقة الوحيدة لهذه الأطيان جميعها بعد وفاة والدتها ساء فى ذلك ما كان منزرعا قطنا على ذمتها وما لم يكن كذلك

An إنه ظاهر من السؤال أنه لا نزاع فى أصل استحقاق السيدة فاطمة مرتضى لجميع ما كانت تستحقه والدتها السيدة خديجة رستم فى هذا الوقف .

وإنما لنزاع فيما يعتبر تركة عن السيدة خديجة المذكورة من ريع الأطيان التى كانت تستحقها سواء فى ذلك ما كان منزرعا على ذمتها وما لم يكن كذلك، ولبيان حكم موضوع الاستفتاء .

نقول إن ما تقضيه نصوص الفقهاء فى كتبهم ورجحوه وأفتى به المرحوم الشيخ المهدى فى فتاواه وتابعه

غيره من المفتين هو أن المقدار الذى زرعته السيدة خديجة رستم المذكورة على ذمتها من هذه الأطيان المستحقة لها من الوقف المشار إليه وصرفت عليها من مالها تكون هذه الزراعة ملكا خالصا لها وتورث جميعها عنها وعند وفاتها لأنه ثمار ملكها .

ومادام استحقاق ريع هذه الأطيان قد انتقل إلى كريمتها فاطمة خاصة بعد وفاتها كما جاء بالسؤال فيجب على باقى الورثة وهم أبناء أخوى الست خديجة الخمسة لجهة الوقف أجر مثل ما يخصهم ميراثا من الأرض المنزرعة من وقت وفاة الست خديجة رستم وهو ٧ أغسطس سنة ١٩٥١ إلى حين جمع المحصول وتحلية الأرض من الزراعة وتستحق هذا القدر بنتها فاطمة باعتباره استحقاق فى الوقف وهى المستحقة الوحيدة له .

وحينئذ يقسم مبلغ الأحد عشر ألف جنيه بين ورثتها طبقا لأحكام قانون المواريث فتستحق فاطمة بنتها نصفها وهو خمسة آلاف ونصف فرضا ويستحق أبناء أخويها الخمسة الباقى وهو خمسة آلاف ونصف بالسوية بينهم تعصيبا .

ويجب على أبناء الأخوين أجر مثل نصف الأرض المنزرعة قطنا من يوم ٧ أغسطس سنة ١٩٥١ وهو تاريخ وفاة الست خديجة إلى وقت تخلية الأرض من الزراعة ويعتبر هذا الأجر استحقاق لريع الوقف يعطى بنتها المذكورة المستحقة الوحيدة بعدها .

وبعدها أن تجرى المحاسبة على ما عسى أن يكون صرف على القطن من مصاريف فى تلك المدة ويضمن كل واحد من الورثة ما يخصه فى ذلك مضافا لأجر مثل الأرض .

أما باقى الأرض غير المنزرعة فإن السيدة خديجة تستحق من ريعها ما ابل المدة التى كانت موجودة فيها على قيد الحياة إلى وفاتها، فما أصاب هذه المدة ولم تستوفه قبل وفاتها يعتبر تركة عنها يقسم بين ورثتها المذكورين طبقا لما ذكرناه، وأما ما قابل المدة بعد وفاتها فيعتبر استحقاقا لبنتها لا يشاركها فيه أحد من باقى الورثة لأنه استحقاق لريع وقف .

ومن هذا يعلم الجواب عن السؤال حيث كان الحال ما ذكر به والله سبحانه وتعالى أعلم .

بسم الله الرحمن الرحيم تقديم للمرحلة الخامسة من الفتاوى الإسلامية الصادرة عن دار الافتاء المصرية فى أحكام المواريث بقلم صاحب الفضيلة الامام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر الحمد لله الذى قدر فهدى، ذى الطول والانعام، والشكر لله الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم .

والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله، خاتم النبيين الذى أرسله الله بالهدى والدين الحق، شريعة ظاهرة بينة عادلة شاملة، احتواها كتاب الله، وفصلتها سنة رسول الله .

ولقد محت هذه الشريعة ظلما وظلمات سيطرت على الإنسانية، واضاءت حياة الانسان وأسعدت خاتمته بالعدل والعدالة، فما تركت من أمور هذه الحياة أمرا إلا ونظمته، طلبا لاستقرار بنى الانسان وحجبا لأسباب الشقاق، والشقاق عن المجتمع، ليعيش متساندا متعاونا على البر والتقوى، يعرف أن ما جمع من مال إنما مآله الى غيره، الذى قد يحسن تدبيره فتنمو به الحياة، وقد يسيء الوارث حيازته فيذهب هباء ويصير نقمة بعد أن جمعه المورث وعدده وربما ظن أن ماله أخلده، ولأهمية المال وارثه تواردت على الإنسانية نظم وشرائع للميراث، وما تزال تختلف فى ذلك أمم الأرض .

لكن شريعة الله الإسلام قد قالت كلمتها فى ذلك، فجاء القرآن عادلا، لأنه حكم الله الذى خلق فسوى، قرر للتوريث نظاما، صان به نظام الملكية الفردية – عقارا أو منقولا – بل وكل ما كان مثمرا يعود على مالكه بالنماء والارتقاء، وأقر الإسلام انتقال الملكية إلى الورثة بمجرد موت المورث، دون توقف على قضاء أو تراض ووزعت هذه الشريعة التركة بين مستحقيها توزيعا عادلا، بريا من الحيف والشطط، بعد أن بينت الحقوق صحفة رقم ٥٠٢٧ المتعلقة بها، ورتبتها فى القضاء أو الاقتضاء ولم تغفل بيان أسباب الأرث وشروط التوريث وموانعه وحظ كل وارث من التركة، ومن يرث ومن يحرم أو يحجب من الأرث، وكيفية قسمة التركة بين الورثة بالعدل، مقدرة للنساء حظوظا حرمن منها فى شرائع سابقة، ولم يترك التشريع الأسلامى شيئا مما يقتضيه استقرار الأمر فى انتقال ملكية التركة من يد المورث إلى ورثته وذوى الحقوق عليه، إلا حدده قطعا لأسباب المغالبة والمخاصمة بين الناس فى شأن الأموال الموروثة .

ولما كان للأموال أثرها البارز فى هذه الحياة وفى استقرار الصلات بين الناس لاسيما فى الحفاظ على دوام المودة بين ذوى القربى، وعلاقات أفراد الأسرة فيما يتوارثون حث الإسلام على تعلم وتعليم قواعد الميراث وأحكامه التى فصلت فى القرآن والسنة .

وفى هذا روى ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعلموا القرآن وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض .

وعلموها الناس، فاتى امرؤ مقبوض والعلم مرفوع، ويوشك أن يختلف اثنان فى الفريضة فلا يجدان أحدا يخبرهما .

(أخرجه أحمد والنسائى والدارقطنى، ومثله عند ابن ماجه وللحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة) وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله تعلموا الفرائض فإنها من دينكم .

ولقد برز من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ورضى الله عنهم فى علم الفرائض كثيرون كان من أشهرهم زيد بن ثابت وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود .

وتوارث الفقهاء هذا العلم فيما ورثوا عن صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولما دون الفقه الإسلامى ونشأت مذاهبه كانت أحكام المواريث من أهم أبوابه وأدق مباحثه وأفرده كثير من الفقهاء بالتأليف بل جعلوه علما مستقلا سموه علم الفرائض، وعلم الميراث .

والخلاف بين فقهاء المسلمين فى التوريث والانصباء محصور فى مسائل قليلة، لأن أحكام الميراث فى الأغلب قد قطع فيها القرآن بالقول الفصل، كالرد على أحد الزوجين، وما يتعلق بأرث الحمل من أبيه وغيره .

ولقد ظل القضاء والفتوى فى مصر يجريان فى منازعات الأرث على العمل بأرجح الأقوال فى فقه مذهب الأمام أبى حنيفة رضى الله عنه زمنا غير قصير أعمالا لنصوص قوانين ولوائح المحاكم الشرعية التى كان آخرها المادة ٢٨٠ من لائحة ترتيب هذه المحاكم الصادرة بالقانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ وستجد فى الفتاوى التى تنشر عن سجلات دار ألإفتاء المصرية فى هذه المرحلة الخامسة، الكثير من أحكام الميراث منثورة فى صور ووقائع عديدة متنوعة، وستطلعنا هذه المرحلة على نمط تتفاوت عباراته، ولا تتغاير أحكامه، ملتزمة – فيما اختلفت فيه – مذهب أبى حنيفة .

وانى لأدعو الله سبحانه أن يثيب السادة الذين بذلوا ويبذلون الجهد الوفير فى أختيار الفتاوى المنشورة وتأصيل مبادئها وأرساء قواعدها لافادة الدارسين، ونفع السائلين أولئك العاملين – بدار الأفتاء المصرية – رجال المكتب الفنى للمفتى السادة المستشارين ورؤساء المحاكم والقضاة وأعوانهم من الباحثين والادارين فقد أخرجوا للناس علما موروثا طويت صحفه، ذلك لتنشر وتذكر .

فلهم كل الشكر وحسن الذكر حيث تابعوا ويتابعون العمل حتى صدرت هذه الفتاوى كتابا مقروءا .

ولاسرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف كل التقدير لما تبذل فى نشر هذا التراث الفقهى على الناس، يتفقهون به فى دينهم .

وستتلو هذه المرحلة مرحلة أخرى لفتاوى الميراث . اللهم تقبل هذا العمل خالصا لوجهك وخدمة لدينك

الإسلام من كل من شارك فيه وأعان على نشره وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

شيخ الأزهر (جاد الحق على جاد الحق)." [1]

"النظافة فى الحج

F عطية صقر .

مايو ١٩٩٧

Mالقرآن والسنة

Q هل صحيح أن الحاج ممنوع من الاستحمام والتطيب حتى لو تغيرت رائحته بالعرق ونحوه ، مع أن الإسلام دين النظافة ؟

An روى البزار بسند صحيح أن عمر رضى الله عنه وجد ريح طيب من معاوية وهو محرم ، فقال له . ارجع فاغسله ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الحاج الشعث التفل " . والشعث من عليه أثر التراب من السفر، والتفل البعيد العهد بالماء ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم "أما الطيب الذى بك فاغسله عنك ثلاث مرات " .

وقال فيمن مات وهو محرم "لا تخمروا رأسه ولا تمسوه طيبا، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا" .

نعم الإسلام دين النظافة، سواء أكانت **تخلية** أم **تحلية**، **تخلية** بالغسل وإزالة الزوائد التى تتجمع معها الأوساخ ، **وتحلية** بالطيب وسائر الروائح الزكية ونحوها .

ولكن الحاج فى أثناء إحرامه ، وقد تكون مدته قصيرة جدا، ممنوع من **التحلية** بالروائح الطيبة لأنها من باب الكماليات .

والحج يقوم على التجرد منها والوقوف أمام الله بأقل ما يستر العورة، تشبها بما سيكون الناس عليه يوم يحشرون إلى ربهم {ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم } الأنعام : ٩٤ .

وقد جاء فى الأحاديث أن الله يباهى الملائكة بالواقفين على عرفة ويقول "انظروا إلى عبادى أتونى شعثا غبرا ضاحين من كل فج عميق ... " .

أما **التخلية** عن الأمور التى تضر الجسم وتضر بالرفاق والمجتمع الكبير فإن الإسلام أباح الاغتسال والتطهر

(١) فتاوى دار الإفتاء المصرية، ٥٨/٧

أثناء الإحرام ، ومنع العطور التى هى زائدة على النظافة العادية .

وقد ورد أن ابن عباس رضى الله عنهما دخل حمام الجحفة وهو محرم ، فقيل له : أتدخل الحمام وأنت محرم ... ؟ فقال : إن الله ما يعبأ بأوساخنا شيئا .

وأخرج الجماعة إلا الترمذى أن أبا أيوب الأنصارى كان يغتسل بصب الماء عليه والتدليك . وقال هكذا رأيته صلى الله عليه وسلم يفعل .

على أن الاغتسال والتطهر بوجه عام مشروط أو مندوب لعدة أعمال فى الحج .

فعن ابن عمر أنه قال : من السنة أن يغتسل إذا أراد الإحرام ، وإذا أراد دخول مكة . رواه البزار والدارقطنى والحاكم وصححه . وكذلك يسن الغسل للوقوف بعرفة .

والطيب جائز قبل الإحرام حتى لو امتد أثره إلى ما بعد الإحرام ، ففى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كأنى أنظر إلى وبيص الطيب –أى بريقه –فى مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محرم .

وعنها أيضا قالت : كنا نخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فننضح جباهنا بالمسك عند الإحرام ، فإذا عرقت إحدانا سال على وجهها فيراه النبى صلى الله عليه وسلم فلا ينهانا . رواه أحمد وأبو داود .

وجوز الفقهاء استعمال الصابون وغيره من كل ما يزيل الأوساخ أثناء الإحرام .

وعند الشافعية والحنابلة يجوز أن يغتسل بصابون له رائحة ، لأن المقصود به النظافة لا التطيب .

هذا ، وكثير من الناس الذين فهموا النصوص خطأ يمتنعون عن الاغتسال وتغيير الملابس ويؤثرون البقاء على ما هم عليه حتى بعد انتهاء أعمال الحج وانتظار العودة إلى البلاد ، ويظنون أن ذلك من الدين ، مع ما قد يفوح منهم من رائحة كريهة ، وبخاصة فى أيام الحر، وهم بذلك يخلقون مجالا لبعض الأمراض ، إلى جانب إيذاء الغير بروائحهم الكريهة." (١)

"ثمار الوقف الاستحقاقى وما يعتبر منها تركه من عدمه

F حسن مأمون .

شوال ١٣٧٥ هجرية – ٣ يونية ١٩٥٦ م

---

(١) فتاوى دار الإفتاء المصرية، ٣١٨/٩

M 1 – ما زرعته المستحقة فى الأرض الموقوفة على ذمتها ومن مالها الخاص تكون ثماره ملكا لها ويورث عنها شرعا .

٢ – انتقال الاستحقاق إلى بنتها فقط بعد وفاتها يوجب على باقى الورثة غيرها أجر مثل ما يخصهم بالميراث فيما نتج من الأرض المنزرعة من وقت وفاة صاحبة الاستحقاق إلى وقت جمع المحصول وإخلاء الأرض من الزراعة ويكون هذا الأجر استحقاق لبنتها فى الوقف .

٣ – ما صرف على الزراعة من مصاريف فى المدة يضمن كل واحد من الورثة ما يخصه فى ذلك مضافا إلى أجر مثل الأرض .

٤ – ما بقى من الأرض غير المنزرعة يكون ريعها مستحقا لأمها (أصلها) مدة حياتها فإذا لم تستوفه قبل وفاتها يكون تركة عنها شرعا، أما ما قابل المدة بعد وفاتها فيكون استحقاق لبنتها فقط ولا شىء لباقى الورثة فيه لأنه استحقاق ىريع وقف فى هذه الحالة

Q من الأستاذ الشيخ عبد القادر خالد المحامى قال إنه بتاريخ ١٩ يونية ١٩٠٢ وقفت المرحومة السيدة فاطمة هانم كريمة المرحوم محمد باشا فاضل الأعيان المبينة بكتاب وقفها الصادر منها أمام محكمة مصر الشرعية بالتاريخ المذكور .

ثم توفيت الواقفة المكورة فآل إلى كريمتها السيدة خديجة رستم فاضل ريع مائتين وخمسة وأربعين فدانا من أعيان هذا الوقف طبقا لإنشاء وشروط الواقفة واستولت السيدة خديجة المذكورة على هذا القدر جميعه .

ثم توفيت السيدة خديجة بتاريخ ٧ أغسطس سنة ١٩٥١ وكان جزء من هذه الأطيان الموقوفة منزرعا قطنا على ذمتها وصرف على زراعتها من مالها الخاص، وقد جمع محصول هذا القطن وبيع بمبلغ أحد عشر ألفا من الجنيهات وذلك بعد وفاتها – وأنه طبقا لشروط الواقفة انتقل استحقاق ريع هذه الأطيان من بعدها إلى بنتها السيدة فاطمة مرتضى فقط – أما تركتها إرثا فقد انحصرت فى بنتها المذكورة وفى أبناء أخويها المتوفين قبلها إسماعيل فاضل وعمر فاضل وهم حسين وعزيز ولدى عمر فاضل – وأحمد وجميل وعثمان أبناء إسماعيل فاضل فقط .

وطلب السيد السائل معرفة الحكم الشرعى فيما يعتبر تركة يقسم بين ورثة السيدة خديجة المذكورة طبقا لأحكام قانون المواريث وما يعتبر استحقاق فى الوقف المذكور لبنتها باعتبارها المستحقة الوحيدة لهذه الأطيان جميعها بعد وفاة والدتها ساء فى ذلك ما كان منزرعا قطنا على ذمتها وما لم يكن كذلك

An إنه ظاهر من السؤال أنه لا نزاع فى أصل استحقاق السيدة فاطمة مرتضى لجميع ما كانت تستحقه والدتها السيدة خديجة رستم فى هذا الوقف .

وإنما لنزاع فيما يعتبر تركة عن السيدة خديجة المذكورة من ريع الأطيان التى كانت تستحقها سواء فى ذلك ما كان منزرعا على ذمتها وما لم يكن كذلك، ولبيان حكم موضوع الاستفتاء .

نقول إن ما تقضيه نصوص الفقهاء فى كتبهم ورجحوه وأفتى به المرحوم الشيخ المهدى فى فتاواه وتابعه غيره من المفتين هو أن المقدار الذى زرعته السيدة خديجة رستم المذكورة على ذمتها من هذه الأطيان المستحقة لها من الوقف المشار إليه وصرفت عليها من مالها تكون هذه الزراعة ملكا خالصا لها وتورث جميعها عنها وعند وفاتها لأنه ثمار ملكها .

ومادام استحقاق ريع هذه الأطيان قد انتقل إلى كريمتها فاطمة خاصة بعد وفاتها كما جاء بالسؤال فيجب على باقى الورثة وهم أبناء أخوى الست خديجة الخمسة لجهة الوقف أجر مثل ما يخصهم ميراثا من الأرض المنزرعة من وقت وفاة الست خديجة رستم وهو ٧ أغسطس سنة ١٩٥١ إلى حين جمع المحصول وتحلية الأرض من الزراعة وتستحق هذا القدر بنتها فاطمة باعتباره استحقاق فى الوقف وهى المستحقة الوحيدة له .

وحينئذ يقسم مبلغ الأحد عشر ألف جنيه بين ورثتها طبقا لأحكام قانون المواريث فتستحق فاطمة بنتها نصفها وهو خمسة آلاف ونصف فرضا ويستحق أبناء أخويها الخمسة الباقى وهو خمسة آلاف ونصف بالسوية بينهم تعصيبا .

ويجب على أبناء الأخوين أجر مثل نصف الأرض المنزرعة قطنا من يوم ٧ أغسطس سنة ١٩٥١ وهو تاريخ وفاة الست خديجة إلى وقت تخلية الأرض من الزراعة ويعتبر هذا الأجر استحقاق لريع الوقف يعطى بنتها المذكورة المستحقة الوحيدة بعدها .

وبعدها أن تجرى المحاسبة على ما عسى أن يكون صرف على القطن من مصاريف فى تلك المدة ويضمن كل واحد من الورثة ما يخصه فى ذلك مضافا لأجر مثل الأرض .

أما باقى الأرض غير المنزرعة فإن السيدة خديجة تستحق من ريعها ما ابل المدة التى كانت موجودة فيها على قيد الحياة إلى وفاتها، فما أصاب هذه المدة ولم تستوفه قبل وفاتها يعتبر تركة عنها يقسم بين ورثتها المذكورين طبقا لما ذكرناه، وأما ما قابل المدة بعد وفاتها فيعتبر استحقاقا لبنتها لا يشاركها فيه أحد من

باقى الورثة لأنه استحقاق لريع وقف .
ومن هذا يعلم الجواب عن السؤال حيث كان الحال ما ذكر به والله سبحانه وتعالى أعلم .
بسم الله الرحمن الرحيم تقديم للمرحلة الخامسة من الفتاوى الإسلامية الصادرة عن دار الافتاء المصرية فى أحكام المواريث بقلم صاحب الفضيلة الامام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر الحمد لله الذى قدر فهدى، ذى الطول والانعام، والشكر لله الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله محمد بن عبد الله، خاتم النبيين الذى أرسله الله بالهدى والدين الحق، شريعة ظاهرة بينة عادلة شاملة، احتواها كتاب الله، وفصلتها سنة رسول الله .
ولقد محت هذه الشريعة ظلما وظلمات سيطرت على الإنسانية، واضاءت حياة الانسان وأسعدت خاتمته بالعدل والعدالة، فما تركت من أمور هذه الحياة أمرا إلا ونظمته، طلبا لاستقرار بنى الانسان وحجبا لأسباب الشقاق، والشقاق عن المجتمع، ليعيش متساندا متعاونا على البر والتقوى، يعرف أن ما جمع من مال إنما مآله الى غيره، الذى قد يحسن تدبيره فتنمو به الحياة، وقد يسيء الوارث حيازته فيذهب هباء ويصير نقمة بعد أن جمعه المورث وعدده وربما ظن أن ماله أخلده، ولأهمية المال وارثه تواردت على الإنسانية نظم وشرائع للميراث، وما تزال تختلف فى ذلك أمم الأرض .
لكن شريعة الله الإسلام قد قالت كلمتها فى ذلك، فجاء القرآن عادلا، لأنه حكم الله الذى خلق فسوى، قرر للتوريث نظاما، صان به نظام الملكية الفردية - عقارا أو منقولا - بل وكل ما كان مثمرا يعود على مالكه بالنماء والارتقاء، وأقر الإسلام انتقال الملكية إلى الورثة بمجرد موت المورث، دون توقف على قضاء أو تراض ووزعت هذه الشريعة التركة بين مستحقيها توزيعا عادلا، بريا من الحيف والشطط، بعد أن بينت الحقوق صحفة رقم ٥٠٢٧ المتعلقة بها، ورتبتها فى القضاء أو الاقتضاء ولم تغفل بيان أسباب الأرث وشروط التوريث وموانعه وحظ كل وارث من التركة، ومن يرث ومن يحرم أو يحجب من الأرث، وكيفية قسمة التركة بين الورثة بالعدل، مقدرة للنساء حظوظا حرمن منها فى شرائع سابقة، ولم يترك التشريع الأسلامى شيئا مما يقتضيه استقرار الأمر فى انتقال ملكية التركة من يد المورث إلى ورثته وذوى الحقوق عليه، إلا حدده قطعا لأسباب المغالبة والمخاصمة بين الناس فى شأن الأموال الموروثة .
ولما كان للأموال أثرها البارز فى هذه الحياة وفى استقرار الصلات بين الناس لاسيما فى الحفاظ على دوام المودة بين ذوى القربى، وعلاقات أفراد الأسرة فيما يتوارثون حث الإسلام على تعلم وتعليم قواعد الميراث

وأحكامه التى فصلت فى القرآن والسنة .
وفى هذا روى ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعلموا القرآن وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض .
وعلموها الناس، فاتى امرؤ مقبوض والعلم مرفوع، ويوشك أن يختلف اثنان فى الفريضة فلا يجدان أحدا يخبرهما .
(أخرجه أحمد والنسائى والدارقطنى، ومثله عند ابن ماجه وللحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة) وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله تعلموا الفرائض فإنها من دينكم .
ولقد برز من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، ورضى الله عنهم فى علم الفرائض كثيرون كان من أشهرهم زيد بن ثابت وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود .
وتوارث الفقهاء هذا العلم فيما ورثوا عن صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم .
ولما دون الفقه الإسلامى ونشأت مذاهبه كانت أحكام المواريث من أهم أبوابه وأدق مباحثه وأفرده كثير من الفقهاء بالتأليف بل جعلوه علما مستقلا سموه علم الفرائض، وعلم الميراث .
والخلاف بين فقهاء المسلمين فى التوريث والانصباء محصور فى مسائل قليلة، لأن أحكام الميراث فى الأغلب قد قطع فيها القرآن بالقول الفصل، كالرد على أحد الزوجين، وما يتعلق بأرث الحمل من أبيه وغيره .
ولقد ظل القضاء والفتوى فى مصر يجريان فى منازعات الأرث على العمل بأرجح الأقوال فى فقه مذهب الأمام أبى حنيفة رضى الله عنه زمنا غير قصير أعمالا لنصوص قوانين ولوائح المحاكم الشرعية التى كان آخرها المادة ٢٨٠ من لائحة ترتيب هذه المحاكم الصادرة بالقانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١ وستجد فى الفتاوى التى تنشر عن سجلات دار ألإفتاء المصرية فى هذه المرحلة الخامسة، الكثير من أحكام الميراث منثورة فى صور ووقائع عديدة متنوعة، وستطلعنا هذه المرحلة على نمط تتفاوت عباراته، ولا تتغاير أحكامه، ملتزمة – فيما اختلفت فيه – مذهب أبى حنيفة .
وانى لأدعو الله سبحانه أن يثيب السادة الذين بذلوا ويبذلون الجهد الوفير فى أختيار الفتاوى المنشورة وتأصيل مبادئها وأرساء قواعدها لافادة الدارسين، ونفع السائلين أولئك العاملين – بدار الأفتاء المصرية – رجال المكتب الفتى للمفتى السادة المستشارين ورؤساء المحاكم والقضاة وأعوانهم من الباحثين والادارين

فقد أخرجوا للناس علما موروثا طويت صحفه، ذلك لتنشر وتذكر .

فلهم كل الشكر وحسن الذكر حيث تابعوا ويتابعون العمل حتى صدرت هذه الفتاوى كتابا مقروءا .

ولاسرة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف كل التقدير لما تبذل فى نشر هذا التراث الفقهى على الناس، يتفقهون به فى دينهم .

وستتلو هذه المرحلة مرحلة أخرى لفتاوى الميراث . اللهم تقبل هذا العمل خالصا لوجهك وخدمة لدينك الإسلام من كل من شارك فيه وأعان على نشره وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

شيخ الأزهر (جاد الحق على جاد الحق)." (١)

"النظافة فى الحج

F عطية صقر .

مايو ١٩٩٧

Mالقرآن والسنة

Q هل صحيح أن الحاج ممنوع من الاستحمام والتطيب حتى لو تغيرت رائحته بالعرق ونحوه ، مع أن الإسلام دين النظافة ؟

An روى البزار بسند صحيح أن عمر رضى الله عنه وجد ريح طيب من معاوية وهو محرم ، فقال له . ارجع فاغسله ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "الحاج الشعث التفل " . والشعث من عليه أثر التراب من السفر، والتفل البعيد العهد بالماء ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم "أما الطيب الذى بك فاغسله عنك ثلاث مرات " .

وقال فيمن مات وهو محرم "لا تخمروا رأسه ولا تمسوه طيبا، فإنه يبعث يوم القيامة ملبيا" .

نعم الإسلام دين النظافة، سواء أكانت **تخلية** أم **تحلية**، **تخلية** بالغسل وإزالة الزوائد التى تتجمع معها الأوساخ ، **وتحلية** بالطيب وسائر الروائح الزكية ونحوها .

ولكن الحاج فى أثناء إحرامه ، وقد تكون مدته قصيرة جدا، ممنوع من **التحلية** بالروائح الطيبة لأنها من باب الكماليات .

والحج يقوم على التجرد منها والوقوف أمام الله بأقل ما يستر العورة، تشبها بما سيكون الناس عليه يوم

(١) فتاوى الأزهر، ٧/٥٨

يحشرون إلى ربهم {ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم } الأنعام : ٩٤ .

وقد جاء فى الأحاديث أن الله يباهى الملائكة بالواقفين على عرفة ويقول "انظروا إلى عبادى أتونى شعثا غبرا ضاحين من كل فج عميق ... " .

أما **التخلية** عن الأمور التى تضر الجسم وتضر بالرفاق والمجتمع الكبير فإن الإسلام أباح الاغتسال والتطهر أثناء الإحرام ، ومنع العطور التى هى زائدة على النظافة العادية .

وقد ورد أن ابن عباس رضى الله عنهما دخل حمام الجحفة وهو محرم ، فقيل له : أتدخل الحمام وأنت محرم ... ؟ فقال : إن الله ما يعبأ بأوساخنا شيئا .

وأخرج الجماعة إلا الترمذى أن أبا أيوب الأنصارى كان يغتسل بصب الماء عليه والتدليك . وقال هكذا رأيته صلى الله عليه وسلم يفعل .

على أن الاغتسال والتطهر بوجه عام مشروط أو مندوب لعدة أعمال فى الحج .

فعن ابن عمر أنه قال : من السنة أن يغتسل إذا أراد الإحرام ، وإذا أراد دخول مكة . رواه البزار والدارقطنى والحاكم وصححه . وكذلك يسن الغسل للوقوف بعرفة .

والطيب جائز قبل الإحرام حتى لو امتد أثره إلى ما بعد الإحرام ، ففى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : كأنى أنظر إلى وبيص الطيب –أى بريقه –فى مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو محرم .

وعنها أيضا قالت : كنا نخرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فننضح جباهنا بالمسك عند الإحرام ، فإذا عرقت إحدانا سال على وجهها فيراه النبى صلى الله عليه وسلم فلا ينهانا . رواه أحمد وأبو داود .

وجوز الفقهاء استعمال الصابون وغيره من كل ما يزيل الأوساخ أثناء الإحرام .

وعند الشافعية والحنابلة يجوز أن يغتسل بصابون له رائحة ، لأن المقصود به النظافة لا التطيب .

هذا ، وكثير من الناس الذين فهموا النصوص خطأ يمتنعون عن الاغتسال وتغيير الملابس ويؤثرون البقاء على ما هم عليه حتى بعد انتهاء أعمال الحج وانتظار العودة إلى البلاد ، ويظنون أن ذلك من الدين ، مع

ما قد يفوح منهم من رائحة كريهة ، وبخاصة فى أيام الحر، وهم بذلك يخلقون مجالا لبعض الأمراض ، إلى جانب إيذاء الغير بروائحهم الكريهة." (١)

"وحمد الله ثلاثا وثلاثين ، وكبر الله ثلاثا وثلاثين ، فتلك تسعة وتسعون ، وقال في تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر (١) .

ويسن عندهم أن يقول بعد ذلك : " اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك " ويختم ذلك بقوله : { سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين } (٢) وزاد الحنابلة على ما استدلوا به الحديث الذي استدل به الشافعية . (٣)

والأولى البدء بالتسبيح لأنه من باب **التخلية** ، ثم التحميد لأنه من باب **التحلية** ، ثم التكبير لأنه تعظيم . (٤)

التحميد في صلاة العيدين بعد التحريمة :

٩ - هو سنة عند الحنفية للإمام والمؤتم ، فيثني ويحمد مستفتحا : " سبحانك اللهم وبحمدك ،

---

(١) حديث : " من سبح الله في دبر كل صلاة " أخرجه مسلم (١ / ٤١٨ - ط الحلبي) .

(2) حديث : قوله في ختام ذكر الصلاة " سبحان ربك رب العزة . . . " أخرجه أبو يعلى من حديث أبي سعيد وإسناده ضعيف ، كما في تفسير ابن كثير (٦ / ٤٣ - ط دار الأندلس) .

(٣) مراقي الفلاح ١٧١ - ١٧٣ ، وابن عابدين ١ / ٣٥٦ ، وكشاف القناع عن متن الإقناع ١ / ٣٦٥ - ٣٦٧ .

(٤) مراقي الفلاح ١٧٢ .." (٢)

"من فضائل السنة

---

(١) فتاوى الأزهر، ٣١٨/٩

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية، ٢٦٩/١٠

فضل طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم

- عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى). قالوا يا رسول الله، ومن يأبى قال(من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى)البخاري.

قوله صلى الله عليه وسلم (كل أمتي يدخل الجنة إلا من أبى) أي امتنع وظاهره أن العموم مستمر لأن كلا منهم لا يمتنع من دخول الجنة ولذلك قالوا (ومن يأبى) فبين لهم أن إسناد الامتناع إليهم عن الدخول مجاز عن الامتناع عن سنته وهو عصيان الرسول صلى الله عليه وسلم ، والموصوف بالإباء وهو الامتناع إن كان كافرا فهو لا يدخل الجنة أصلا وإن كان مسلما فالمراد منعه من دخولها مع أول داخل إلا من شاء الله تعالى . . فتح الباري بشرح صحيح البخاري .

من فضائل الطهارة

الطهور شطر الإيمان

- عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الطهور شطر الإيمان)مسلم.

الطهور يعنى بذلك طهارة الإنسان ، شطر الإيمان نصف الإيمان ، وذلك لأن الإيمان **تخلية** و **تحلية** ، يعنى تبرؤا من الشرك والفسوق ، تبرؤا من المشركين و الفساق بحسب ما معهم من الفسق فهو تخل ، والطهور أن يتطهر الإنسان طهارة حسية ومعنوية من كل ما فيه أذى ، فلهذا جعله الرسول عليه الصلاة والسلام شطر الإيمان . شرح رياض الصالحين - العثيمين .

...

تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء

- عن أبي هريرة قال سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء)مسلم.." (١)

"- عن أبي مالك الأشعري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (الحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض)مسلم

---

(١) ارواء الضمآن من فضائل الرحمن، ص/٦

قوله صلى الله عليه وسلم (والحمد لله تملأ الميزان) ذكر ابن علان ما مختصره : أي هذه الجملة بخصوصها لأنها أفضل صيغ الحمد ولذا بدئ بها الكتاب العزيز ، والحمد لله : هو الثناء على الله بالجميل الاختياري و الإذعان له والرضا بقضائه.

والميزان : المراد منه حقيقته أي ما توزن به الأعمال ، إما بأن تجسم الأعمال أو توزن صحائفها ، فتطيش بالسيئة وتثقل بالحسنة.

وهذه الكلمة كان لها الثواب العظيم بحيث تملأ كفة الميزان مع سعتها ، لأن معاني الباقيات الصالحات في ضمنها ، لأن الثناء تارة يكون بإثبات الكمال ، وتارة بنفي النقص ، وتارة بالاعتراف بالعجز ، وتارة بالتفرد بأعلى المراتب ، والألف واللام في الحمد لاستغراق جنس المدح ، والحمد مما علمناه وجهلناه ، وإنما يستحق الإلهية من اتصف بذلك ، فاندرج الجميع تحت (الحمد لله).

وقوله (وسبحان الله والحمد لله تملآن أو تملأ ما بين السماوات والأرض) شك من الراوي ، والمعنى لا يختلف أي (سبحان الله والحمد لله) تملأ ما بين السماوات و الأرض وذلك لأن هاتين الكلمتين مشتملتان على تنزيه الله من كل نقص في قوله (سبحان الله) وعلى وصف الله بكل كمال في قوله (الحمد لله) ، فقد جمعت هاتان الكلمتان بين **التخلية والتحلية** كما يقولون.

فالتسبيح : تنزيه الله عما لا يليق به في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه.." (١)

"ما رواه الأصمعي(١) بقوله:"كنت أقرأ سورة المائدة ومعي أعرابي، فقرأت هذه الآية: ﮋ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﮊ ، فقلت:(والله غفور رحيم)، سهوا، فقال الأعرابي: كلام من هذا؟ فقلت: كلام الله، قال: أعد، فأعدت: (والله غفور رحيم)، ثم تنبهت فقلت: ﮋ ﮊ [المائدة] ، فقال:الآن أصبت! فقلت:كيف عرفت؟ قال: يا هذا عزيز حكيم فأمر بالقطع، فلو غفر ورحم لما أمر بالقطع"(٢).

السر في تقديم الرحمن على الرحيم:" أن الرحمن دال على الصفة القائمة به سبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم، فكان الأول للوصف، والثاني للفعل، فالأول دال على أن الرحمة صفته، والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته"(٣).

أما الحكمة من جريان العادة القرآنية بتقديم اسم الغفور على الرحيم، فهي أن دفع الضرر أولى من جلب المنفعة، فضلا عن أن في هذا الترتيب تصاعدا في النعم من الأدنى إلى الأعلى، و" المغفرة ستر للذنوب،

---

(١) ارواء الضمآن من فضائل الرحمن، ص/٦٧

أما الرحمة فتفضل وإنعام زائد على مغفرة الذنوب؛ لذا قدمت المغفرة على الرحمة، **والتخلية** مقدمة على **التحلية**"(٤).

لكن سورة سبأ هي الوحيدة التي تقدم فيها اسمه سبحانه الرحيم على اسم الغفور: ﮋ ﭗ ﭗ ﭗ ﭗ ﭬ ﭬ ﭬ ﭬ ﮊ.

(١) ...عبد الملك بن قريب بن أصمع الباهلي (١٢٢-٢١٦هـ)، مولده ووفاته بالبصرة، راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان، طاف البوادي يقتبس علومها وأخبارها، له: الإبل، والخيل، والمترادف، وشرح ديوان ذي الرمة[الأعلام ٤/١٦٢].

(٢) ...الرازي، التفسير الكبير، (٤/٣٥٧).

(٣) ...ابن القيم، محمد بن أبي بكر الدمشقي، بدائع الفوائد، (١/٢٤)، دار الكتاب العربي، بيروت، دط، دت.

(٤) ...عباس، إعجاز القرآن الكريم، (ص٢١٣).." [1]

"وفي مناسبة أخرى يخاطب الله تعالى المؤمنين بقوله: يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق [سورة الممتحنة، الآية ١].

وقصة الإفك التي تشير إلى حدث اجتماعي- أو ظاهرة في بعض الأحيان- تعالج في الوقت المناسب، وبعد أن يتخذ كل واحد من الناس موقفا أو يفتي برأي!! لتتعلم المجتمعات الإنسانية على مدى الدهر طريقة المعالجة، والموقف الواجب الاتباع: إن الذين جاؤ بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم [سورة النور، الآية ١١].

ولعل مما يشير إلى هذه الحكمة أو النقطة قول الله تعالى: وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا (١٠٦) [سورة الإسراء، الآية ١٠٦].

(ب) التدرج في التشريع، وذلك في الأمور المتمكنة من الأفراد وفي المجتمع بحيث يحتاج اجتثاثها أو التعفية على آثارها إلى وقت يقصر أو يطول؛ أي إن تخلي المجتمع عن مفاسده وشروره تم بواسطة هذا التدرج، وبعمق لم يشهد له التاريخ أو الواقع مثيلا. وكأن العملية التربوية المشار إليها في الفقرة السابقة وهي

(١) التناسب في سورة البقرة، ٥/٣

العمل الإيجابي،
كانت تتم في خط مواز لهذه الناحية السلبية، أو لعلها كانت تأتي على أعقابها في بعض الأحيان، على مبدأ (**التخلية** ثم **التحلية**).
ومن أمثلة هذا التدرج المشهورة تحريم الخمر الذي تم على هذه المراحل:
نزل أولا قوله تعالى:* يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما [سورة البقرة، الآية ٢١٩]. فوصفت هذه الآية حالة الخمر والميسر، وأن الإثم فيهما أكبر من النفع (١)، ولكنها لم تصرح بتحريمهما أو طلب الكف عنهما. فإذا أضفنا إلى ذلك أنها افتتحت بقوله تعالى:

---

(١) انظر إشارتنا السابقة إلى هذه الآية في الفقرة الثانية (العرب والقرآن) من الفصل الأول.." [١]

"جوار الله كي لا تنتهي إلى اليأس وتصاب بالشلل فزعة من نزول العذاب، قلقة من الدمار في ليل أو نهار.

القرآن في معالجته للنفوس يوقظ الحس بتجارب السابقين ومصارع المكذبين، ليبقي القلوب في يقظة، **متخلية** من الأمن الكاذب أو الفزع القاتل، **متحلية** بالثقة بوعد الله لعباده العاملين فسياق الآيات يفسر سنة الله الجارية في خلقه والتي يشهد بها تاريخ القرى الخالية، ثم إن تشابك الأغراض الاجتماعية التي يؤديها اللفظ مع الأغراض اللغوية يقتضينا أن نوسع من مدى مداليله فتضمين (هدى) معنى (انجلى واتضح) ينير الصورة ويفصح عن المراد: أولم ينجل ويتضح للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء ... وما كان الغرض من لفظ يهدي إلا معالجة للمستهترين الغافلين أن يتعظوا بتجارب من سبقهم من الأمم ويهتدوا بهديهم.
فالتضمين جمع المعنيين (الهدى مع التجلية، والكشف، والتوضيح) وفاز بالحسنيين.

* * *

قال تعالى: (وإنا على آثارهم مهتدون).
ذكر الزمخشري: إنا ثابتون على دين آبائنا. ومثله قال الرازي.

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، عدنان زرزور ص/٩٣

وذكر الآلوسي: تعدى هدى بـ (على) لتضمنه معنى الثبوت.

وذكر القرطبي: مهتدون على آثارهم: أي نهتدي بهم فجعل على بمعنى الباء.." [1]

"بقضائه، وحسن الأدب معه، واستشعار تقواه في كل عمل وكل حال. إلى آخر ما يعنى به رجال التصوف الصادقون.

والوصول إلى هذا ليس بالأمر السهل، بل يحتاج إلى رياضة مستمرة، ومجاهدة طويلة، لهذه النفس الأمارة بالسوء، وتصميم على تزكية النفس **بالتخلية والتحلية**: **التخلية** من رذائل الشرك والنفاق والجاهلية، **والتحلية** بفضائل التوحيد والإيمان والإسلام والإحسان، وهذا هو أساس الفلاح في الأولى والآخرة ونفس وما سواها (٧) فألهمها فجورها وتقواها (٨) قد أفلح من زكاها (٩) وقد خاب من دساها (الشمس: ٧ – ١٠).

ولا يتم هذا إلا في مناخ يساعد عليه، يجد فيه المرء المرشد الموجه إلى الله، والبيئة النظيفة المعينة على الخير، كما يجد الأخ الصالح، الرفيق في الدرب، حامل مسك الهدى، الذى يدل على الله منطقه، ويذكر بالآخرة حاله، ويرغب في الخير سلوكه.

٣ – الترابط الأخوى:

والعنصر الثالث من عناصر (التكوين) الأساسية هو: الترابط الأخوى. يقول تعالى:

الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين (الزخرف: ٦٧).

ويقول صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يقذف في الكفر كما يكره أن يقذف في النار».

متفق عليه عن أنس.

وقوله: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله– وذكر منهم– ورجلان تحابا في الله– عز وجل– اجتمعا عليه، وتفرقا عليه».

متفق عليه عن أبى هريرة.

ويقول صلى الله عليه وسلم: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم في ظلى يوم لا ظل إلا ظلى». رواه مسلم عن أبى هريرة.

---

(١) التضمين النحوي في القرآن الكريم، محمد نديم فاضل ٢/٢٨٠

فإذا كان الناس تربطهم فى هذه الدنيا روابط شتى، رابطة الدم والنسب، أو رابطة الطين والأرض، أو رابطة اللغة واللسان، أو رابطة المصلحة المشتركة، أو غير ذلك من الروابط المادية والدنيوية الزائلة، أو المعرضة دوما للزوال. فإن رابطة الأخوة الإيمانية هى الأخلد والأبقى، وهى الأعز والأقوى، لأنها رابطة قامت لله وفى الله، وما كان لله دام واتصل، وما كان لغير الله، انقطع وانفصل.

لقد حث الإسلام المسلمين على العمل الجماعى لنصرة الدعوة الإسلامية، وتحرير الأرض الإسلامية، وتوحيد الأمة الإسلامية، وتحقيق آمالها الكبرى فى النهوض والبناء والترقى، وأداء دورها الربانى فى هداية العالم إلى نور الله.." (١)

"_____

النار، وشبه فشو ذلك الكشف في مشارق الأرض ومغاربها بإضاءة تلك النار ما حول المستوقد، وشبه الناس وعدم مبالاتهم بذلك البيان والكشف، وتعديهم حدود الله، وحرصهم على استيفاء تلك اللذات والشهوات، ومنع رسول الله صلى الله عليه وسلم إياهم عنه بأخذ حجزهم – بالفراش التي يقتحمن في النار، ويغلبن المستوقد على دفعه إياها عن الاقتحام، وكما أن المستوقد كان غرضه من فعله انتفاع الخلق به من الاهتداء والاستدفاء وغير ذلك، والفراش بجهلها جعلت له سببا لهلاكها – كذلك كان القصد بتلك البيانات اهتداء الأمة وانتهاؤها عما هو سبب هلاكهم، وهم مع ذلك لجهلهم جعلوهم موجبة لترديهم. وفي قوله: ((آخذ بحجزكم)) استعارة مثلت حالة منعه الأمة عن الهلاك بحالة رجل أخذ بحجرة صاحبه الذي يهوى أن يهوى في قعر بئر مردية.

وفي رواية البخاري: ((فأنا آخذ)) بالفاء، فالفاء فيه فصيحة، كما في قوله تعالى: {أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه} فإنه تعالى لما سال بقوله: ((أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا)) وأجابوا: لا، قال: فإذا كان كذلك ((فكرهتموه)) وكذلك أنه عليه الصلاة والسلام لما قال: ((مثلي ومثل الناس)) أي صفتي وصفة الناس، ثم شرع في بيان المشبه به بقوله: ((مثل رجل)) إلى آخره، وعلم أنه ما يقابله على ما بيناها آنفا – أتى بما هو أهم وأولى منها، وهو قوله: ((فأنا آخذ بحجزكم)) بالفاء، كأنه قيل: إذا صح هذا التمثيل، وأنا مثل المستوقد، وأنتم كالفراش تقتحمون في النار – فأنا آخذ بحجزكم، ولهذه الدقيقة التفت من الغيبة في قوله: ((مثل الناس)) إلى الخطاب في قوله: ((فأنا آخذ بحجزكم)) كما أنك إذا أخذت في

---

(١) الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة من المؤلفين ص/٧٩٨

حديث من لك عناية بشأنه، والحال أنه مشتغل بشيء يورطه في الهلاك، ثم أنك من غاية رأفتك عليه وشدة حرصك على نجاته تجد في نفسك أنه حاضر عندك فتتحرى خلاصه.

وفيه إشارة إلى أن الإنسان إلى النذر أحوج منه إلى البشير، ولذلك أفرده في قوله تعالى: {تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا} وذلك أن جبلة الإنسان مائلة إلى الحظوظ العاجلة دون الآجلة، كما قال الله تعالى: {كلا بل تحبون العاجلة (٢٠) وتذرون الآخرة} فأوجب قلعها أولا لتيمكن من تحري ما يزلفه إلى الله تعالى، ومن ثم قيل: **التحلية** بعد **التخلية**. وفي الحديث إظهار لرأفته ورحمته على الأمة، وحرصه على نجاتهم، كما قال الله تعالى: {عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم}.." (١)

"به طريقا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)). رواه أحمد والترمذي، وأبو داود، وابن ماجة، والدارمي، وسماه الترمذي قيس بن كثير [٢١٢].

مجازا عن التواضع، كقوله تعالى: ((واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)) وقيل: معناه المعونة وتيسير السعي له في طلب العلم.

قوله: ((رضي لطالب العلم)) مفعول له، وليس فعلا لفاعل الفعل المعلل، فيقدر مضاف، أي إرادة رضى.

قوله: ((وإن العالم)) أثبت لهم العلم، وجعلهم معلمين بعد أن كانوا طالبين متعلمين ترقيا، ووصفهم بما هو أعلى مما وصفهم أولا، حيث جعل الموجودات من الملائكة والثقلين وغيرهم حتى الحيتان في البحر مستغفرين لهم، طالبين لتخليتهم مما لا ينبغي ولا يليق بهم من الأوضار والأدناس، لأن بركة علمهم وعملهم وإرشادهم وفتواهم سبب لرحمة العالمين. وذكر الحيتان بعد ذكر الملائكة والثقلين تتميم لاستيعاب جميع أنواع الحيوانات على طريقة الرحمن الرحيم، كما بيناه في ((فتوح الغيب)). وأما تخصيص الحيتان بالذكر فللدلالة على أن إنزال المطر وحصول الخير والخصب ببركتهم، كما قال: ((بهم يمطرون، وبهم يرزقون))،

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ٢/٦١٥

حتى الحيتان التي لا تفتقر إلى الماء افتقار غيرها لكونها في جوف الماء تعيش أيضا ببركتهم، فلما ذكر ما يحصل به **التخلية** عن النقائص عقبه بما يشير **بالتحلية** من إثبات النور.

((قض)): العبادة كمال ونور يلازم ذات العابد لا يتخطاه، فشابه نور الكواكب، والعلم كما يوجب للعالم في نفسه فضلا وشرفا يتعدى منه إلى غيره، فيستضيء بنوره، ويكمل بواسطته، لكنه كمال ليس للعالم من ذاته، بل نور يتلقاه من النبي [صلوات الله عليه]، فلذلك شبه بالقمر- انتهى كلامه. ولا تظنين أن العالم المفضل عاطل عن العمل، ولابد العابد عن العلم، بل إن علم ذلك غالب على عمله، وعمل هذا غالب على علمه، ولذلك جعل العلماء وراث الأنبياء الين فازوا بالحسنيين العلم والعمل، وحازوا الفضيلتين: الكمال والتكميل، وهذا طريقة العارفين بالله، وسبيل السائرين إلى الله.." (١)

"المسيح الدجال، اللهم اغسل خطاياي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي كما ينق الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب)). متفق عليه.

٢٤٦٠ - وعن زيد بن أرقم، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والبخل، والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها، وزكها، أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، و [من] نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)). رواه مسلم.

والاختيار، فشرها أن لا يحمد في السراء، ولا يصبر في الضراء، وبقية الحديث قد انقضى تفسيره في باب أدعية الصلاة، لاسيما قوله: ((اغسل خطاياي بماء الثلج)).

الحديث الرابع عن زيد رضي الله عنه: قوله: ((اللهم آت نفسي تقواها)) ينبغي أن تفسر التقوى بما يقابل الفجور في قوله تعإلي: {فألهمها فجورها وتقواها} وهي الاحتراز عن متابعة الهوى، وارتكاب الفجور والفواحش؛ لأن الحديث كالتفسير والبيان للآية، فدل قوله: ((آت)) علي أن الإلهام في الآية هو خلق الداعية الباعثة علي الاجتناب عن المذكورات، وقوله: ((زكها أنت خير من زكاها)) علي أن إسناد التزكية إلي النفس في الآية، هو نسبة الكسب إلي العبد لا خلق الفعل، كما زعمت المعتزلة؛ لأن الخيرية تقتضي المشاركة بين كسب العبد، وخلق القدرة فيه.

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ٢/٦٧٣

وقوله: ((أنت وليها ومولاها)) استئناف علي بيان الموجب، وأن إيتاء التقوى وتحصيل التزكية فيها إنما كان؛ لأنه هو متولي أمرها وربها ومالكها، فالتزكية إن حملت علي تطهير النفس عن الأفعال والأقوال والأخلاق الذميمة، كانت بالنسبة إلي التقوى مظاهر ما كان ممكنا في الباطن، وإن حملت علي الإنماء والإعلاء بالتقوى، كانت **تحلية** بعد **التخلية**؛ لأن المتقي شرعا من اجتنب النواهي، وأتى الأوامر. وعن بعض العارفين: تقوى البدن الكف عما لا يتيقن حله، وتقوى القلب عما سوى الله تعالي في الدارين، وعدم الالتفات إلي غيره.

قوله: ((من علم لا ينفع)) ((مظ)): أي علم لا أعمل به ولا أعلمه، ولا يبدل أخلاقي وأقوالي وأفعالي، أو علم لا يحتاج إليه في الدين، ولا في تعلمه إذن شرعي. قوله: ((ومن نفس." (١)

"٤٨٣٨ - وعن أبي سعيد، رفعه، قال: ((إذا أصبح ابن آدم، فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان، فتقول: اتق الله فينا، فإنا نحن بك، فإن استقمت اسقمنا، وإن اعوججت اعوججنا)) رواه الترمذي. [٤٨٣٨]

٤٨٣٩ - وعن علي بن الحسين ((رضي الله عنهما)) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)).روام مالك، وأحمد. [٤٨٣٩]

أي تعرض لما هو سبب اللزوم البيت من الاشتغال بالله والمؤانسة بطاعته والخلوة عن الأغيار. وضمن ((بكى)) معنى الندامة، وعداه بـ ((علي)) أي اندم على خطيئتك باكيا.

الحديث الثامن عن أبي سعيد: قوله: ((تكفر)) ((نه)):أي تذل وتخضع، والتكفير هو أن ينحني الإنسان ويطأطئ رأسه قريبا من الركوع كما يفعل من يريد تعظيم صاحبه، قال عمرو بن كلثوم.

نكفر باليدين إذا التقينا ونلقى من مخافتنا عصاكا

انتهى كلامه. وقوله: ((فإنا نحن بك)) أي نحن نستقيم ونعوج بك يدل على التفصيل.

فإن قلت: كيف التوفيق بين هذا الحديث وبين قوله صلى الله عليه وسلم: ((إن في الجسد لمضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)).قلت: اللسان ترجمان القلب وخليفته في ظاهر البدن، فإذا أسند إليه الأمر يكون على سبيل المجاز في الحكم كما في قولك: شفي

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ١٩١٣/٦

الطبيب المريض. قال الميداني في قوله: ((المرأ بأصغريه)) يعني بهما القلب واللسان أي تقوم معانيه بيهما ويكمل بهما. وأنشد الزهير:

وكأين ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصانه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

الحديث التاسع عن علي رضي الله عنه: قوله: ((ما لا يعنيه)) ((نه)):أي لا يهمه ويقال: عنيت بحاجته أعني بها، وأنا بها معنى، وعنيت به فأنا عان، والأول أكثر أي اهتممت بها واشتغلت، وعن بعضهم ((من)) في قوله: ((من حسن إسلام المرء)) تبعيضية، ويجوز أن تكون بيانية.

أقول: على أن تكون تبعيضية إشارة إلى قوله صلى الله عليه وسلم: ((الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)) بعد ذكر الإيمان والإسلام، وأنت تعلم أن **التحلية** مسبوقة **بالتخلية،**." [1]

"٤٩٩٦ - وعن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من قضى لأحد من أمتي حاجة يريد أن يسره بها فقد سرني، ومن سرني فقد سر الله، ومن سر الله أدخله الله الجنة)). [٤٩٩٦]

٤٩٩٧ - وعنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من أغاث ملهوفا كتب الله له ثلاثا وسبعين مغفرة، واحدة فيها صلاح أمره كله، وثنتان وسبعون له درجات يوم القيامة)). [٤٩٩٧]

٤٩٩٨ - ٤٩٩٩ - * وعنه، وعن عبد الله، قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله)). روى البيهقي الأحاديث الثلاثة في ((شعب الإيمان)). [٤٩٩٨]، [٤٩٩٩]

مكان أي يكون مكان الألفة ومنشأها. ومنه إنشاؤها وإليه مرجعها. والتألف سبب الاعتصام بالله وبحبله. وبه يحصل الاجتماع بين المسلمين وبضده تحصل الفرقة بينهم. وهو بتوفيق الله وتأليفه. وإليه أشار تعالى بقوله: {واعتصموا بحبل الله جميعا} إلى قوله: {فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا}.

الحديث السابع عن أنس رضي الله عنه: قوله: ((ومن سر الله)) مسرة الله تعالى مجاز عن رضاه وإيصال الخير إلى المرضى عنه. أو تمثيل شبه معامله الله تعالى معه بمعاملة من يسره بوصول ما يحبه إليه.

الحديث الثامن عن أنس رضي الله عنه: قوله: ((ملهوفا))، ((نه)) هو المكروب، يقال: لهف لهفا فهو

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ٣١٢٤/١٠

لهفان ولهف فهو ملهوف. قوله: ((واحدة فيها)) فيه أن غفران الذنوب مقدمة فتح باب رحمة الله تعالى في الدنيا والعقبى؛ ومن ثمة قدمها في قوله تعالى: {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} على قوله {ويتم نعمته عليك ويهديك}؛ لأن **التحلية** بعد **التخلية**." (١)

"شفع فيه قراءة أعظم المسبحات، تنزيها في أولى الركعتين كما ابتدأت كلمة

الإخلاص بالنفي، لأن **التخلية** قبل **التحلية**.

وقراءة إحدى سورتي الإخلاص في الثانية وفي وتره، أعظم سور

التوحيد ونهاية الإفصاح به، والإيضاح له. فلما تم ذلك على أحسن وجه.

وكان الذي يعقب ذلك النوم الذي يخلع الحيوان من قواه، ويشغل عن التعوذ بالذكر، وما يثمره من المعارف الإلهية، والأسرار الربانية، شرع لذلك التعوذ بالمعوذتين، اللتين ما تعوذ متعوذ بمثلهما، توكلا على الحي الذي لا يموت، واعتصاما بذى العزة والجبروت.

قراءتها في العيدين وسر ذلك

وروى عبد الرزاق، وعبد بن حميد، عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقرأ في العيدين: في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب وسبح أسم ربك الأعلى، وفي الثانية بفاتحة الكتاب وهل أتاك حديث الغاشية.

وسر ذلك: أن الأعلى فيها التنزيه، لئلا يظن أنه سبحانه محتاج إلى ما

فرغ منه أهل العيد من العبادة، والحث على تزكية النفس والمال، والصلاة

والذكر، والإعراض عن الدنيا، لأن العيد مظنة التهاون بذلك، والإنبساط

إلى الدنيا.

والغاشية فيها الحث على الإخلاص، لئلا يكون العامل - مع تعبه في." (٢)

"١٥٥٨ - (اللهم إني أعوذ بك من الكسل والعجز والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر وفتنة الدجال اللهم آت) أعط (نفسي تقواها) أي تحرزها عن متابعة أهوى وارتكاب الفجور ذكره القاضي. وقال الطيبي: ينبغي أن تفسر التقوى بما يقابل الفجور كما في آية {فألهمها فجورها وتقواها} وهي الاحتراز عن متابعة

---

(١) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن الطيبي ٣١٩٦/١٠

(٢) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور برهان الدين البقاعي ١٨٤/٣

الهوى والفواحش لأن الحديث كالتفسير والبيان للآية فدل قوله آت على أن الإلهام في الآية هو خلق الداعية الباعثة على الاجتناب عن المذكورات (وزكها) طهرها من كل خلق ذميم (أنت خير من زكاها) أي من جعلها زاكية يعني لا مزكي لها إلا أنت فإنه تعالى هو الذي يزكي النفوس فتصير زاكية أي عاملة بالطاعة فالله هو المزكي والعبد هو المتزكي. قال الطيبي: فإسناد التزكية إلى -[١٥٤]- النفس في الآية هو نسبة الكسب إلى العبد لا خلق الفعل كما زعمه المعتزلة لأن الخبر به يقتضي المناسبة المشاركة بين كسب العبد وخلق القدرة فيه قال الحراني: والتزكية اكتساب الزكاة وهي نماء النفس بما هو لها وهو بمنزلة الغذاء للجسم (أنت وليها) التي يتولاها بالنعمة في الدارين (ومولاها) سيدها وهذا استئناف على بيان الموجب وأن إيتاء التقوى وتصليح التزكية فيها إنما كان لأنه هو المتولي أمرها وربها ومالكها فالتزكية إن حملت على تطهير النفس عن الأفعال والأقوال والأخلاق الذميمة كانت بالنسبة إلى التقوى مظاهرة ما كان مكمنا في الباطن وإن حملت على الإنماء والإعلان بالتقوى كانت **تحلية** بعد **التخلية** فإن المتقي شرعا من اجتنب النواهي وأتى بالأوامر

(اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع) أي علم لا أعمل به ولا أعلمه ولا يبدل أخلاقي وأقوالي وأفعالي أو علم لا يحتاج إليه في الدين ولا في تعلمه إذن شرعي ذكره المظهري (ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع) أي لا تقنع بما آتاها الله ولا تفتر عن الجمع حرصا أو المراد به النهمة وكثرة الأكل (ومن دعوة لا يستجاب لها) قال العلائي: تضمن الحديث الاستعاذة من دنيء أفعال القلوب وفي قرنه بين الاستعاذة من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع إشارة إلى أن العلم النافع ما أورث الخشوع وفيه أن السجع لا يذم لكن إذا حصل بلا تكلف ولا إعمال فكر بل لكمال فصاحة والتكلف مذموم

(حم عبد بن حميد م) في الدعوات (ن) في الاستعاذة (عن) ابن عمرو أو عامر أو عمارة أو أنيسة (زيد بن أرقم) بفتح الهمزة وسكون الراء وفتح القاف غير منصرف بن زيد بن قيس الخزرجي شهد الخندق وما بعدها ورواه عنه أيضا الترمذي مختصرا قال عبد الله بن الحرث قلنا لزيد علمنا فقال لا أعلمكم إلا ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا فذكره." (١)

"٢٩٨٧ - (أيما راع غش رعيته) أي مرعيته يعني خانهم ولم ينصح لهم (فهو في النار) أي يعذب بنار جهنم شاء الله أن يعذبه قال الزمخشري: والراعي القائم على الشيء بحفظ وإصلاح كراعي الغنم وراعي

---

(١) فيض القدير المناوي ٢/١٥٣

الرعية ويقال من راعى هذا الشيء أي متوليه وصاحبه والرعي حفظ الشيء لمصلحته وذهب جمهور الصوفية إلى أن المراد بالراعي في هذا الخبر وما أشبهه كخبر كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته هو الروح الإنساني ورعية جوارحه فيجب أن يسلك بها في **التخلية** **والتحلية** أعدل المسالك وأن يعدل في مملكة وجودها لأنها بحسب الصورة هي المملكة وسلطان صولتها هو المالك ومرادهم بعدلها أن يستعمل كل جارحة فيما طلب منها شرعا على جهة الرفق والاقتصاد وأن يبدل كل خلق ذميم بخلق حميد قويم بناء على أن الخلق يقبل التغيير وهو القول المنصور اه

(ابن عساكر) في التاريخ (عن معقل) بفتح الميم وسكون المهملة (ابن يسار) ضد اليمين." (١)

"إضافته إليه فالياء للملابسة ووجه أحبيته هاتين الكلمتين أنهما اشتملتا على تنزيه الله مقرونا به تحميده فأفادتا صفتي السلب والإيجاب فسلبت الأولى كل نقص عنه تعالى وأثبتت الثانية صفة الثناء المتضمنة كل صفة كمال ووقفنا على أحسن ترتيب حيث تقدمت **التخلية** بالخاء المعجمة على **التحلية** بالحاء المهملة وهو الترتيب العقلي الوضعي والمراد أحب الكلام الثنائي فلا يرد أن الكلام المشتمل عليهما وعلى غيرهما أحب إليه تعالى كما يأتي قريبا وكما يأتي في حديث: "أربع أفضل الكلام" (حم م ت عن أبي ذر) (١) رمز المصنف لصحته على القاعدة أنه إذا كان في الرموز الشيخان أو أحدهما رمز لصحته.

٢١٤ - " أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: "سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر" لا يضرك بأيهن بدأت (حم م) عن سمرة بن جندب (صح) ".

(أحب الكلام) أي كلام العباد فلا يرد القرآن وإن كانت هي من القرآن أيضا (إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) لأنها جمعت أنواع الثناء والتحميد والكبرياء (لا يضرك بأيهن بدأت) أي لا ينقص أجرها بالبداية بأيها لأنه لا ترتيب فيها (حم م (٢) عن سمرة) بفتح المهملة وضم الميم آخره راء بعدها تاء التأنيث بن جندب بضم الجيم وفتح الدال المهملة وضمها رمز المصنف لصحته.

٢١٥ - " أحب اللهو إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمي (عد) عن ابن عمر (ح) ".

(أحب اللهو) في النهاية (٣): اللهو اللعب يقال لهوت بالشيء لهوا وتلهيت به إذا لعبت به وتشاغلت به

---

(١) فيض القدير المناوي ١٥٢/٣

وغفلت عن غيره.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٦١)، ومسلم (٢٧٣١)، والترمذي (٣٥٩٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٠)، ومسلم (٢١٣٧).

(٣) النهاية (٤/ ٢٨٢).." [(١)]

"عن أبي سعيد) رمز المصنف لصحته، وقال الهيثمي: رجاله ثقات، لكن من روى عنه البزار لم أقف له على ترجمة انتهى؛ والحافظ العراقي تارة حسن هذا الحديث وتارة ضعفه (١).

٨٨٧٨ - "من قال: سبحان الله العظيم وبحمده غرست له بها نخلة في الجنة. (ت حب ك) عن جابر (صح) ".

(من قال: سبحان الله العظيم) تقدم الكلام على سبحان وأنه علم للتسبيح، والمراد أنزه الله العظيم في كل أمر. (وبحمده) أي أسبحه حامدا له وهو جمع بين **التخلية والتحلية**، خلاه الله تعالى عن كل قبيح، ثم حلاه تعالى بكل ثناء صحيح.

(غرست له بها) بهذه الكلمة. (نخلة في الجنة) وإذا كان له فيها غرس دخلها فإن الله لا يمنعه عن ما غرسه له فليكثر العبد لنفسه من هذا الغرس ويسقيه بدوام الطاعة لمولاه ويحذر المعاصي المحبطات فإنها تقلع هذا الغرس من الأساس. (ت حب ك (٢) عن جابر) رمز المصنف لصحته، وفي الكبير للمصنف أنه قال الترمذي: حسن غريب انتهى، وقال الحاكم [٤/ ٢٧٤]: صحيح على شرط مسلم.

٨٨٧٩ - "من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر .. (حم ق ت هـ) عن أبي هريرة (صح) ".

(من قال: سبحان الله وبحمده في يومه مائة مرة) سواء كانت متوالية أو متفرقة. (حطت خطاياه) وضعتها عنه كأنها كانت على ظهره فحطها هذا القول

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ١/٣٩٥

= (٥/ ٢٣٦) والحلية (٧/ ١٧٤) عن معاذ، وابن عدي في الكامل (٧/ ٨٣)، وانظر كشف الخفا (٢/ ٣٤٥)، وانظر المجمع (١/ ١٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٣٣).
(١) انظر: تخريج أحاديث الإحياء (٢/ ٨٢) و (١/ ٢٤٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٦٤)، وابن حبان (٨٢٦)، والحاكم (١/ ٥٠١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٢٩)، والصحيحة (٦٤).." (١)

"(إذا توضأ أحدكم فأحسن) الوضوء بضم واوه لأن المراد الفعل، وإحسانه هو إسباغه وهو إتمامه وإكماله (ثم خرج إلى المسجد لا ينزعه) لا يخرجه ويهمه (إلا الصلاة) ففيه إخلاص الحركة لأجلها إلا أنها تكون تبعا لغيرها (فلم تزل رجله اليسرى تمحو عنه سيئة) قدم القدم اليسرى لأن أثرها وهو المحو أقدم لأنه **تخلية** وأثر اليمنى **تحلية** والأول أقدم من الثاني ونسب المحو إلى نفس القدم مجاز لأنها سبب المحو كما نسب الكتب في قوله (وتكتب له اليمنى حسنه حتى يدخل المسجد) وجعل الأشرف وهو إثبات الخير للأشرف وهي اليمنى ومحو الشر لليسرى (ولو يعلم الناس ما في العتمة) هي صلاة العشاء والعتمة، ظلمة الليل أطلقت على الصلاة كما أطلق (الصبح) وهو اسم للصباح على صلاة الفجر أي لو يعلمون ما فيهما من الأجر (لأتوهما) إلى المساجد على كل من الأحوال (ولو) كان الإتيان (حبوا) بضم المهملة والموحدة مصدر حبا الرجل حبوا كسمو مشا على يديه وبطنه وحبى الصبي حبوا كسهو مشى على إسته وأشرف بصدره أفاده القاموس (١) والمراد هنا الأول، إن قلت قد ورد في فسلم (٢) النهي عن تسمية صلاة العشاء بالعتمة وقال: لا يغلبنكم الأعراب على اسم صلاتكم العشاء فإنه في كتاب الله العشاء وهم يعتمون بحلاب الإبل، وفي معناه أحاديث أخر.
قلت: في النهاية (٣) أنه نهاهم عن الاقتداء بالعرب في تسمية العشاء عتمة واستحب لهم التمسك بالاسم الناطق به لسان الشريعة وقيل: المراد لا يغلبنكم فعلهم هذا فتؤخروا صلاتكم و [لكن] صلوها إذا حان وقتها. انتهى.
قلت: ولا يخفى أن الوجه الآخر لا يطابق حديث أبي هريرة عند ابن ماجه وفيه: إنما تقولون عتمة لإعتامهم بالإبل فإنه ظاهر في النهي عن التسمية فأولى

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٣٣٣/١٠

(١) القاموس المحيط (صـ ١٦٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (٦٤٤).

(٣) النهاية (٣/ ١٨٠).." [1]

"شبر إلا فيه جبهة ملك ساجد يسبح الله بحمده (ابن مردويه عن أنس) " (ض). (أطت السماء) في النهاية (١) الأطيط صوت الأقتاب وأطيط الإبل أصواتها وحنينها أي إن كثرت ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت، وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة وإن لم يكن لها أطيط وإنما هو كلام تقريب أريد به كثرة تقرير عظمة الله (وحق) يعين صيغة أي وحقيق (لها أن تئط) بفتح المثناة الفوقية وكسر الهمز وبيان ذلك بقوله (والذي نفس محمد بيده) إقسام على ما يخبر به لأنه خبر عظيم لا لأن المخاطب منكر ولا يقال إنه كلام ابتداء أي ليس محلا للقسم وقد ذكر جار الله في الكشاف (٢) مثل هذا في قوله: {إنما نحن مستهزئون} [البقرة: ١٤] حاكيا عن المنافقين في مخاطبة شياطينهم ونقله السعد في المطول، ولك أن تقول: إنه كثيرا ما يجيء القسم للتبرك مثل إقسامه تعالى لرسوله إنه لمن المرسلين، وقوله: "نفس محمد بيده" أي روحه في قبضته وتحت تصرفه (ما فيها) جواب القسم (موضع شبر) بكسر الشين المعجمة قال في القاموس (٣): هو ما بين أعلى الإبهام وأعلى الخنصر (إلا فيه ملك ساجد يسبح الله بحمده) سبحانه متلبسا بحمده والثناء عليه، والمراد أنه يجمع بين تنزيه الله عن النقائص [١/ ٣١٥] وإثبات الكمال له فتقدم **التخلية** عن النقائص على **التحلية** بالفضائل كما هو القضية العقلية ولذا كان الكلمتان التي تفيد هذا المعنى حبيبتين إلى الرحمن خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان. كما يأتي في حرف الكاف إن شاء الله (ابن مردويه عن أنس) رمز المصنف لضعفه (٤).

---

(١) النهاية (١/ ١٢٩).

(٢) انظر الكشاف (١/ ٣١).

(٣) القاموس المحيط (ص ٥٢٩).

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٦/٢

(٤) أخرجه أيضا: أبو نعيم في الحلية (٦/ ٢٦٩). وأورده السيوطي في الدر المنثور (٤/ ١٨٣) وعزاه=."
(١)

"وهو تخلية بالخاء المعجمة والثانية تفيد إثبات الحمد له وهو تحلية بالحاء المهملة وهما لا يفترقان أعني التخلية والتحلية ثم بينهما بالإبدال بقوله (سبحان الله وبحمده) تقدم الكلام في هذه الواو (ك في تاريخه عن علي) رمز المصنف لضعفه (١).

١٤٠٤ - "أكثروا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها ولقنوها موتاكم (ع عد عن أبي هريرة)."

(أكثروا قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها) بالإصمات بالموت (ولقنوها موتاكم) من هم في سياق الموت وسياق كربه فتسميتهم موتى مجاز من مجاز المشارفة والأمر بالتلقين لما ثبت من حديث: "من كان آخر قوله لا إله إلا الله دخل الجنة" (٢) (ع عد عن أبي هريرة) (٣).

١٤٠٥ - "أكثروا من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها من كنوز الجنة (عد) عن أبي هريرة (ض).

(أكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله) أي من قولها. (فإنها من كنوز الجنة) تقدم بلفظه. (عد) عن أبي هريرة (٤).

١٤٠٦ - "أكثروا من تلاوة القرآن في بيوتكم فإن البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن يقل خيره ويكثر شره ويضيق على أهله (قط في الإفراد عن أنس وجابر) ".

---

(١) أخرجه الديلمى (٢٤٩)، وهو في كنز العمال (١٩٩٧)، قال المناوي في الفيض (٢/ ٨٨) فيه جماعة من رجال الشيعة كلهم متكلم فيهم. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١١٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦).

(٣) أخرجه أبو يعلى (٦١٤٧) قال الهيثمي (١٠/ ٨٢): رجاله رجال الصحيح غير ضمام بن إسماعيل وهو ثقة وابن عدى (٤/ ١٠٣ ترجمة ٩٥٣ ضمام بن إسماعيل)، والخطيب (٣/ ٣٨)، وابن عساكر

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٤٢٢/٢

(٦١/ ٢٢٥)، والرافعي (٤/ ٧٤). وأورده الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٦٧).

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (٧/ ٢٤٨)، وقال الألباني في صحيح الجامع (١٢١٤): صحيح.." [١]

"الترمذي: هذا حديث غريب وليس إسناده بالقوي (١).

١٤٩٨ - "اللهم عافني في جسدي وعافني في بصري واجعله الوارث مني لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين (ت ك) عن عائشة" (صح).

(اللهم عافني) سلمني من الأسقام (في جسدي) وهو عام للمشاعر فعطف (وعافني في بصري) من الخاص بعد العام (واجعله) أي البصر (الوارث مني) تقدم بيان معناه فخصه دون السمع مع الجمع بينهما في عدة أحاديث إبانة لشرفه على السمع وللناس كلام طويل في بيان أي الحاستين أفضل أي أكثر نفعا (لا إله إلا الله) عاد إلى التوحيد بعد الطلب (الحليم) الذي لا يعاجل من عصاه بالعقوبة (الكريم) في النهاية (٢): الكريم هو الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه وهو الكريم المطلق، وهذا الحديث جمع بين الدعاء والتوحيد والتنزيه بقوله (سبحان الله رب العرش العظيم) والثناء بقوله (الحمد لله رب العالمين(وقدم التنزيه على التحميد على قاعدة تقدم **التخلية** على **التحلية** وهو توسل إليه بوحدانيته وشريف صفاته إلى إجابة الدعاء على الطريق البرهاني كأنه يقول: إذا كان المتفرد بالوحدانية وصفات الكمال فمنه يرجى نيل كل خير (ت ك عن عائشة) رمز المصنف لصحته، وقال الترمذي: هذا حديث غريب سمعت محمدا يقول. حبيب بن أبي ثابت لم يسمع من عروة بن الزبير شيئا (٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٠)، والبيهقي في الشعب (٣٨٤٢). وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٢١٤).

(٢) النهاية (٤/ ٣٠٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٨٠) والحاكم (١/ ٥٣٠)، وأبو يعلى (٤٦٩٠)، وضعفه الألباني (١٢١١)، والضعيفة (٢٩١٧). وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٢١١)." [٢]

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٦٤/٣

(٢) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ١٤٤/٣

"لضعفه؛ لأن فيه معاوية بن يحيى الصدفي ضعيف ذكره الهيثمي.

٥٣٢٥ - "الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها. (حم م ت) عن أبي مالك الأشعري (صح) ".

(الطهور) بضم الطاء لأن المراد الفعل. (شطر الإيمان) وذلك لأن الإيمان يجب ما قبله من الخطايا والوضوء كذلك لأن الوضوء لا يصح إلا مع الإيمان فصار لتوقفه عليه في معنى الشرط، وقيل: المراد بالإيمان هنا الصلاة والطهارة شرط في صحتها، وقيل: الإيمان تصديق القلب، وانقياد بالظاهر وهما شطر الإيمان والطهارة شطر متضمنة للصلاة فهي انقياد بالظاهر كذا قيل، (والحمد لله تملأ الميزان) أي ثوابها أو الرقعة التي يرقمها الملك فيها أو هي نفسها بناء على تجسم الأعراض في الآخرة ومثله قوله: (وسبحان الله والحمد لله تملأ ما بين السماء والأرض) يحتمل أنه في دار الدنيا وأنه في الآخرة وذلك لاشتمال هاتين الصفتين على تنزيه الرب عن كل قبيح وإثبات الحمد له فاشتملتا على **التخلية** بالمعجمة **والتحلية** بالمهملة، (والصلاة نور) تسعى بين يدي فاعلها في الآخرة وتنور وجهه في الدنيا ويشرق بها قلبه ويشرح بها صدره وينهى عن الفحشاء والمنكر، (والصدقة برهان) حجة لصاحبها تدفع عنه سبعين نوعا من البلاء وحجة على عدوه إبليس يصك بها وجهه وحجة على إيمانه وصدق توكله وجزمه بالأجر، والخلف من الله والإعاضة، (والصبر ضياء) فرطة الإنارة فهو أبلغ من النور ولذا قال تعالى: {هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا} [يونس: ٥]، ولما كانت الأعمال كلها لابد لها من الصبر ولا يتم إلا به كان ضياء للمتصف به يقوده إلى كل طاعة وتذوده عن كل معصية، ومن أراد حقيقة الصبر." [١]

"٦٣٥٨ - "كلمتان خفيفتان على اللسان: ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: "سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم". (حم ق ت هـ) عن أبي هريرة (صح) ".

(كلمتان) أراد بالكلمة الكلام مثل كلمة الشهادة وهو خبر وخفيفتان وما بعده صفة والمبتدأ سبحان الله، ونكتة تقديم الخبر تشويق السامع للمبتدأ. (خفيفتان على اللسان) لا كلفة عليها في النطق بهما (ثقيلتان في الميزان) وصفها بالخفة والثقل لبيان كثرة الثواب مع قلة العمل، قال الطيبي: الخفة مستعارة للسهولة

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٧/١٨١

شبه سهولة جريها على اللسان بما خف على الحامل لنحو متاع ففيه إشارة إلى أن التكاليف شاقة صعبة وهذه سهلة مع كونها تثقل في الميزان كثقل الشاق. (حبيبتان إلى الرحمن) محبوبتان له أو محبوب قائلهما لتضمنهما المدح والتنزيه له تعالى بالصفات السلبية والصفات الثبوتية للأول التسبيح وللآخر التحميد مع حسن الترتيب بتقديم **التخلية** بالمعجمة على **التحلية** بالمهملة. (سبحان الله وبحمده) الواو حالية أي أسبحه ملتبسا بحمده، أو عاطفة أي أسبحه وأتلبس بحمده. (سبحان الله العظيم) وهذا الحديث الشريف ختم به البخاري كتابه الصحيح وتبعه الأئمة من بعده. (حم ق ت) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب ولفظه عنده "سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده". (هـ) (١) عن أبي هريرة) ورواه عنه النسائي في اليوم والليلة.

٦٣٥٩ - "كلمتان إحداهما ليس لها نهاية دون العرش، والأخرى، تملأ ما بين السماء والأرض: لا إله إلا الله، والله أكبر". (طب) عن معاذ (ح) ".

(كلمتان إحداهما ليس لها نهاية دون العرش) أي لا انتهاء لها إلا العرش فإليه

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٢)، والبخاري (٦٤٠٦، ٦٦٨٢، ٧٥٦٣)، ومسلم (٢٦٩٤)، والترمذي (٣٤٦٧)، والنسائي (٦/ ٢٠٧)، وابن ماجة (٣٨٠٦).." [1]

"من الإعانة على دفع النوائب والأحزان إذ هي إقبال على الله تعالى وإعراضا عما سواه وهو تعالى مفرج كل كربة وكاشف كل هم وحزن وهل يصلي إلى أن ينجلي القلب عن كسوف الحزن أو يجزئ بالركعتين ونحوها. (حم د) (١) عن حذيفة) رمز المصنف لصحته.

٦٦٢٤ - "كان إذا حزبه أمر قال: لا إله إلا الله الحليم الكريم سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين". (حم) عن عبد الله بن جعفر، (ح).

(كان إذا حزبه) ضبطه كما سلف. (أمر قال) لدفعه. (لا إله إلا الله) يفزع إلى كلمة التوحيد التي بها تحقن الدماء والأموال وتدفع الكروب والأهوال. (الحليم) فلا يعاجل بالعقوبة. (الكريم) فيعطي ما يشاء وبحلمه

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٢١٥/٨

وكرمه يعاذ المحزون. (سبحان الله رب العرش العظيم) نزهه عن كل قبيح وفيه إقرار بأن ما نزل من الأحزان بالعبد فهو من ذنوبه وشروره والرب منزه عنه. (الحمد لله رب العالمين) جاء **بالتحلية** بعد **التخلية** ليعلم أنه منزه عن القبيح محمود على اللسان وفي هذه الكلمات جلاء للقلب عن كل كرب، وغسل لأدرانه عن أحزانه فهو يفزع عند الهموم إلى أحد أمرين إما الصلاة أو هذا الذكر. (حم) (٢) عن عبد الله بن جعفر) رمز المصنف لحسنه وهو في مسلم بنحوه من حديث ابن عباس.

٦٦٢٥ - "كان إذا حلف على يمين لا يحنث، حتى نزلت كفارة اليمين". (ك) عن عائشة (صح) ".
(كان إذا حلف على يمين) في القاموس (٣): اليمين القسم فإطلاقها على المحلوف عليه من المجاز اللغوي. (لا يحنث) بأن يأتي المحلوف عليه إن

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨)، وأبو داود (١٣١٩)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٨٠)، ومسلم (٢٧٣٠) عن ابن عباس.
(٣) انظر القاموس (٥/ ٢١٣).." (١)

"يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين" (ع) عن أبي سعيد - رضي الله عنه - " (ح).
(كان إذا سلم من الصلاة قال ثلاث مرات: سبحان ربك رب العزة عما يصفون) من قولهم إن له ولدا وصاحبة وشريكا. (وسلام على المرسلين) ناسب إرداف الثناء على الله تعالى بالثناء على رسله ثم أردفه بالثناء عليه تعالى وحمده **تحلية** بعد **التخلية** فقال. (والحمد لله رب العالمين) أخذ منه أنه يفصل بين الفرض والسنة بالذكر. (ع) (١) عن أبي سعيد) رمز المصنف لحسنه.

٦٧٠٤ - "كان إذا سلم لم يقعد إلا بمقدار أن يقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام" (م ٤) عن عائشة (صح) ".
(كان إذا سلم) من صلاته. (لم يقعد) [٣/ ٣١٥] في مصلاه. (إلا بمقدار أن يقول: اللهم أنت السلام)

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٣٦٩/٨

تقدم تفسيره في الأسماء الحسنى. (ومنك السلام) السلامة لعبادك كأنه منك. (تباركت) تعاظمت وارتفعت شرفا وعزة وجلالة. (يا ذا الجلال) صاحب العظمة (والإكرام) والمراد أنه لا يمكث مستقبلا القبلة إلا بقدر ما يقول ذلك ثم يجعل يمينه للناس ويساره لقبلة فقد ثبت أنه كان إذا صلى أقبل على أصحابه ويكون ما سلف من حديث "سبحان ربك" إلى آخره يقوله بعد إقباله بوجهه على من خلفه، قال ابن الهمام: لم يثبت عن المصطفي - صلى الله عليه وسلم - الفصل بالأذكار التي يواظب عليها في المساجد في عصرنا من قراءة آية الكرسي والتسبيحات وأخواتها ثلاثا وثلاثين وغيرها.

قلت: قد ورد الحث عليها سيما التسبيح وأخوته بعد فعل الصلاة، والسنة القولية أقوى من الفعلية ففاعله بعدها آت بالسنة مأجور وأما هذه الهيئة من

---

(١) أخرجه أبو يعلى (١١١٨)، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٤٤١٩)، والضعيفة (٤٢٠١): ضعيف جدا.." (١)

"بالغداة والعشي يريدون وجهه} [الكهف: ٢٨] (د (١) عن أنس) رمز المصنف لحسنه.

٧١٨٦ - "لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلي مما طلعت عليه الشمس. (م ت) عن أبي هريرة".

(لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر) إن قيل: كان التوحيد ينبغي تقديمه على التنزيه والتحميد لأن ذينك تحلية وتخلية ولا يكونان إلا بعد إثبات الوحدانية.

قلت: سلك بهذا الذكر مسلك الترقي وهذه الكلمات الشريفة قد كثر تكرارها كثرة بليغة وهي الباقيات الصالحات.

(أحب إلي مما طلعت عليه الشمس) عبارة في غاية الإيجاز والبلاغة شاملة للأكوان وما فيها أي أجرها أحب إلي من الدنيا وجميع ما فيها أو نفس التلفظ بها أثلج لصدري وأروح لخاطري من ملك ذلك أو أحب إلى من أجر الإنفاق في سبيل الله لذلك وأخذ منه أن الذكر أفضل من الصدقة وبه أفتى الغزالي وغيره (م ت (٢) عن أبي هريرة) ولم يخرجه البخاري.

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ٨/٤١٣

٧١٨٧ - "لأن أمتع بسوط في سبيل الله أحب إلى من أن أعتق ولد الزنا. (ك) عن أبي هريرة" (صح).
(لأن أمتع) من المتاع أي أتصدق على الغازي (بسوط في سبيل الله) والسوط أحقر ما يمتع به فبالأولي غيره. (أحب إلي من أن أعتق ولد الزنا) كأن المراد به الولد الذي تأتي به المرأة من الزنا وتخاف من الفضيحة فيعيله فإعتاقه بإحيائه أفضل من تحرير الرقبة فخصه لذلك أو المراد الموؤدة قال الشارح: مقصود

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٧)، وحسنه الألباني في ضعيف الجامع (٥٠٣٦) وفي الصحيحة (٢٩١٦).
(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٥)، والترمذي (٣٥٩٣).." (١)

"صادر عن غير عارف بالنحو. ومعنى إنما نحن مصلحون مقصورون على الإصلاح المحض الذي لم يشبه شيء من وجوه الفساد وقد بلغ في الوضوح بحيث لا ينبغي أن يرتاب فيه، والقصر إما قصر إفراد أو قلب وهذا إما ناشيء عن جهل مركب فاعتقدوا الفساد صلاحا فأصروا واستكبروا استكبارا.
يقضى على المرء في أيام محنته ... حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن
وإما جار على عادتهم في الكذب وقولهم بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وقرأ هشام والكسائي «قيل» بإشمام الضم ليكون دالا على الواو المنقلبة، وقول: بإخلاص الضم وسكون الواو لغة لهذيل ولم يقرأ بها.
ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون رد لدعواهم المحكية على أبلغ وجه حيث سلك فيه مسلك الاستئناف المؤدي إلى زيادة تمكن الحكم في ذهن السامع مع تأكيد الحكم وتحقيقه «بأن، وألا» بناء على تركبها من همزة الاستفهام الإنكاري الذي هو نفي معنى «ولا» النافية فهو نفي نفي فيفيد ال‌إثبات بطريق برهاني أبلغ من غيره- ولإفادتها التحقيق- كما قال ناصر الدين: لا يكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بما يتلقى به القسم «كان، واللام، وحرف النفي» والذي ارتضاه الكثير أنها بسيطة لا لأنها تدخل على أن المشددة ولا النافية لا تدخل عليها إذ قد يقال: انفسخ بعد التركيب حكمها الأصلي بل لأن الأصل البساطة، ودعوى لا يكاد إلخ لا تكاد تسلم كيف وقد دخلت على رب وحبذا ويا النداء في- ألا رب يوم صالح لك منهما- وألا حبذا هند وأرض بها هند- وألا يا قيس والضحاك سيرا- وضم إلى ذلك تعريف الخبر وتوسيط الفصل وأشار ب لا يشعرون على وجه إلى أن كونهم من المفسدين قد ظهر ظهور المحسوس

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير الصنعاني ١٦/٩

بالمشاعر وإن لم يدركوه، وأتى سبحانه بالاستدراك هنا ولم يأت به بعد المخادعة لأن المخادعة هناك لم يتقدمها ما يتوهم منه الشعور توهما يقتضي تعقيبه بالرفع بخلاف ما هنا فإنهم لما نهوا عما تعاطوه من الفساد الذي لا يخفى على ذوي العقول فأجابوه بادعاء أنهم على خلافه، وأخبر سبحانه بفسادهم كانوا حقيقين بالعلم به مع أنهم ليسوا كذلك فكان محلا للاستدراك. وما يقال: من أنه لا ذم على من أفسد ولم يعلم وإنما الذم على من أفسد عن علم، يدفعه أن المقصر في العلم مع التمكن منه مذموم بلا ريب بل ربما يقال: إنه أسوأ حالا من غيره، وهذا كله على تقدير أن يكون مفعول لا يشعرون محذوفا مقدرا بأنهم مفسدون، ويحتمل أن يقدر أن وبال ذلك الفساد يرجع إليهم، أو أنا نعلم أنهم مفسدون ويكون ألا إنهم هم المفسدون لإفادة لازم فائدة الخبر بناء على أنهم عالمون بالخبر جاحدون له كما هو عادتهم المستمرة، ويبعد هذا إذا كان المنافقون أهل كتاب، ويحتمل أن لا ينوي محذوف وهو أبلغ في الذم. وفيه مزيد تسلية له صلى الله عليه وسلم إذ من كان من أهل الجهل لا ينبغي للعالم أن يكترث بمخالفته، وفي التأويلات- لعلم الهدى- إن هذه الآية حجة على المعتزلة في أن التكليف لا يتوجه بدون العلم بالمكلف به وأن الحجة لا تلزم بدون المعرفة فإن الله تعالى أخبر أن ما صنعوا من النفاق إفساد منهم مع عدم العلم فلو كان حقيقة العلم شرطا للتكليف ولا علم لهم به لم يكن صنيعهم إفسادا لأن الإفساد ارتكاب المنهي عنه فإذا لم يكن النهي قائما عليهم عن النفاق لم يكن فعلهم إفسادا فحيث كان إفسادا دل على أن التكليف يعتمد قيام آلة العلم والتمكن من المعرفة لا حقيقة المعرفة فيكون حجة عليهم. وهذه المسألة متفرعة على مسألة مقارنة القدرة للفعل وعدمها، وأنت تعلم أنه مع قيام الاحتمال يقعد على العجز الاستدلال وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس إشارة إلى **التحلية** بالحاء المهملة- كما أن لا تفسدوا إشارة إلى **التخلية** بالخاء المعجمة- ولذا قدم، وليس هنا ما يدل على أن الأعمال داخلة في كمال الإيمان أو في حقيقته- كما قيل- لأن اعتبار ترك الفساد لدلالته على التكذيب المنافي للإيمان وحذف المؤمن به لظهوره أو أريد افعلوا الإيمان و «الكاف» في موضع نصب، وأكثر النحاة يجعلونها نعتا." (١)

"إني أريد أن آمرك بشيء فلا بد أن تفعله واركعوا مع الراكعين أي صلوا مع المصلين وعبر بالركوع عن الصلاة احترازا عن صلاة اليهود فإنها لا ركوع فيها وإنما قيد ذلك بكونه مع الراكعين لأن اليهود كانوا يصلون وحدانا فأمروا بالصلاة جماعة لما فيها من الفوائد ما فيها، واستدل به بعضهم على وجوبها ومن لم يقل به

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١/١٥٦

حمل الأمر على الندب أو المعية على الموافقة وإن لم يكونوا معهم وقيل: الركوع- الخضوع والانقياد لما يلزمهم من الشرع قال الأضبط السعدي:

لا تذل الفقير علك أن ... «تركع» يوما والدهر قد رفعه

ولعل الأمر به حينئذ بعد الأمر بالزكاة لما أنها مظنة ترفع فأمروا بالخضوع لينتهوا عن ذلك إلا أن الأصل في إطلاق الشرع المعاني الشرعية: وفي المراد بالراكعين قولان: فقيل، النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقيل: الجنس وهو الظاهر «ومن باب الإشارة» في قوله تعالى: ولا تلبسوا الحق إلخ أي لا تقطعوا على أنفسكم طريق الوصول إلى الحق بالباطل الذي هو تعلق القلب بالسوي- فإن أصدق كلمة قالها شاعر- لكمة لبيد.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ولا تكتموا الحق بالتفاتكم إلى غيره سبحانه وأنتم تعلمون أنه ليس لغيره وجود حقيقي أو لا تخلطوا صفاته تعالى الثابتة الحقة بالباطل الذي هو صفات نفوسكم ولا تكتموها بحجاب صفات النفس وأنتم تعلمون من علم توحيد الأفعال أن مصدر الفعل هو الصفة فكما لم تسندوا الفعل إلى غيره لا تثبتوا صفته لغيره وأقيموا الصلاة بمراقبة القلوب وآتوا الزكاة أي بالغوا في تزكية النفس عن الصفات الذميمة لتحصل لكم **التحلية** بعد **التخلية**. أو أدوا زكاة الهمم فإن لها زكاة كزكاة النعم بل إن لكل شيء زكاة كما قيل:

كل شيء له «زكاة» تؤدى ... وزكاة- الجمال رحمة مثلي

واركعوا أي اخضعوا لما يفعل بكم المحبوب، فالخضوع علامة الرضا الذي هو ميراث تجلي الصفات العلى، وحاصله ارضوا بقضائي عند مطالعة صفاتي فإن لي أحبابا لسان حال كل منهم يقول:

وتعذيبكم عذب لدي وجوركم ... علي بما يقضي الهوى لكم عدل

ثم إنه تعالى لما أمرهم بفعل الخير شكرا لما خصهم به من النعم حرضهم على ذلك من مأخذ آخر بقوله سبحانه: أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم والهمزة فيه للتقرير مع توبيخ وتعجيب والبر- سعة المعروف والخير، ومنه البر، والبرية للسعة، ويتناول كل خير، والنسيان- كما في البحر- السهو الحادث بعد العلم. والمراد به هنا الترك لأن أحدا لا ينسى نفسه بل يحرمها ويتركها كما يترك الشيء المنسي مبالغة في عدم المبالاة والغفلة فيما ينبغي أن يفعله، وقد نزلت هذه الآية- على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما- في أحبار المدينة كانوا يأمرون سرا من نصحوه باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ولا يتبعونه وقيل:

إنهم كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدقون فالمراد بالبر هنا إما الإيمان أو الإحسان، وتركه بعضهم على ظاهره متناولا كل خير على ما قال السدي: إنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله تعالى وينهونهم عن معصيته وهم كانوا يتركون الطاعة ويقدمون على المعصية، والتوبيخ ليس على أمر الناس بالبر نفسه بل لمقارنته بالنسيان المذكور وأنتم تتلون الكتاب أي التوراة، والجملة حال من فاعل أتأمرون، والمراد التبكيت وزيادة التقبيح أفلا تعقلون أصل هذا الكلام ونحوه عند الجمهور كان بتقديم حرف العطف على الهمزة لكن لما كان للهمزة صدر الكلام قدمت على حرف العطف، وبعضهم ذهب إلى أنه لا تقديم ولا تأخير ويقدر بين الهمزة وحرف العطف ما يصح العطف عليه، والعقل- في الأصل المنع والإمساك، ومنه- عقال البعير- سمي به النور الروحاني الذي به تدرك النفوس العلوم الضرورية والنظرية لأنه يحبس عن تعاطي ما يقبح ويعقل." (١)

"ويعلمهم الكتاب بأن يفهمهم ألفاظه ويبين لهم كيفية أدائه، ويوقفهم على حقائقه وأسراره.

«والظاهر» أن مقصودهما من هذه الدعوة أن يكون- الرسول- صاحب كتاب يخرجهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، وقد أجاب سبحانه هذه الدعوة بالقرآن، وكونه بخصوصه كان مدعوا به غير بين ولا مبين.

والحكمة أي وضع الأشياء مواضعها، أو ما يزيل من القلوب وهج حب الدنيا، أو الفقه في الدين، أو السنة المبينة- للكتاب- أو- الكتاب- نفسه، وكرر للتأكيد اعتناء بشأنه، وقد يقال: المراد بها حقائق الكتاب ودقائقه وسائر ما أودع فيه، ويكون- تعليم الكتاب- عبارة عن تفهيم ألفاظه، وبيان كيفية أدائه، وتعليم الحكمة الإيقاف على ما أودع فيه، وفسرها بعضهم بما تكمل به النفوس من المعارف والأحكام فتشمل الحكمة النظرية والعملية، قالوا:

وبينها وبين ما في الكتاب عموم من وجه لاشتمال القرآن على القصص والمواعيد، وكون بعض الأمور الذي يفيد كمال النفس- علما وعملا- غير مذكور في الكتاب وأنت تعلم أنت هذا القول بعد سماع قوله تعالى: ما فرطنا في الكتاب من شيء [الإنعام: ٣٨] وقوله تعالى سبحانه: تبيانا لكل شيء [النحل: ٨٩] مما لا ينبغي الاقدام عليه، اللهم إلا أن تكون هذه النسبة بين ما في الكتاب الذي في الدعوة مع قطع النظر عما أجيبت به وبين الحكمة فتدبر ويزكيهم أي يطهرهم من أرجاس الشرك وأنجاس الشك وقاذورات المعاصي. وهو إشارة إلى **التخلية** كما أن التعليم إشارة إلى **التحلية-** ولعل تقديم الثاني على الأول لشرافته- والقول بأن المراد يأخذ منهم الزكاة التي هي سبب لطهارتهم أو يشهد لهم- بالتزكية والعدالة- بعيد إنك أنت العزيز

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١/٢٤٩

الحكيم أي الغالب المحكم لما يريد، فلك أن تخصص واحدا منهم بالرسالة الجامعة لهذه الصفات بإرادته من غير مخصص، وحمل العزيز هنا على من لا مثل له- كما قاله ابن عباس- أو المنتقم- كما قاله الكلبي- والحكيم على العالم- كما قيل- لا يخلو عن بعد.

ومن يرغب عن ملة إبراهيم إنكار واستبعاد لأن يكون في العقلاء- من يرغب عن ملته- وهي الحق الواضح غاية الوضوح، أي لا يرغب عن ذلك أحد إلا من سفه نفسه أي جعلها مهانة ذليلة. وأصل- السفه- الخفة، ومنه زمام سفيه- أي خفيف- وسفه- بالكسر- كما قال المبرد. وثعلب: متعد بنفسه، ونفسه مفعول به، وأما سفه بالضم فلازم، ويشهد له ما جاء

في الحديث «الكبر أن تسفه الحق وتغمط الناس»

وقيل: إنه لازم أيضا، وتعدى إلى المفعول لتضمنه معنى ما يتعدى إليه، أي جهل نفسه لخفة عقله وعدم تفكره، وهو قول الزجاج، أو أهلكها، وهو قول أبي عبيدة وقيل: إن النصب بنزع الخافض- أي في نفسه- فلا ينافي اللزوم- وهو قول لبعض البصريين- وقيل: على التمييز كما في قول النابغة الذبياني:

ونأخذ بعده بذناب عيش ... أجب الظهر ليس له سنام

وقيل: على التشبيه بالمفعول به، واعترض الجميع أبو حيان قائلا: إن التضمين والنصب بنزع الخافض لا ينقاسان. وإن التشبيه بالمفعول به مخصوص عند الجمهور بالصفة- كما قيل به في البيت- وإن البصريين منعوا مجيء التمييز معرفة، فالحق الذي لا ينبغي أن يتعدى القول بالتعدي. ومن إما موصولة أو موصوفة في محل الرفع على المختار بدلا من الضمير في يرغب لأنه استثناء من غير موجب، وسبب نزول الآية ما روي أن عبد الله بن سلام دعا ابني أخيه سلمة ومهاجرا إلى الإسلام فقال لهما: قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة: إني باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد، فمن آمن به فقد اهتدى ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبى مهاجر، فنزلت ولقد اصطفيناه في الدنيا

أي اخترناه بالرسالة بتلك الملة، واجتبيناه من بين سائر الخلق، وأصله اتخاذ." (١)

"منه، وكل المسلمين أولياء في ذلك ولعبد مؤمن مع ما فيه من ذل المملوكية.

خير من مشرك مع ما ينسب إليه من عز المالكية ولو أعجبكم بما فيه من دواعي الرغبة أولئك أي المذكورون

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٣٨٥/١

من المشركين والمشركات يدعون إلى النار أي الكفر المؤدي إليها إما بالقول أو بالمحبة والمخالطة فلا تليق مناكحتهم، فإن قيل: كما أن الكفار يدعون المؤمنين إلى النار كذلك المؤمنون يدعونهم إلى الجنة بأحد الأمرين، أجيب بأن المقصود من الآية أن المؤمن يجب أن يكون حذرا عما يضره في الآخرة وأن لا يحوم حول حمى ذلك ويجتنب عما فيه الاحتمال مع أن النفس والشيطان يعاونان على ما يؤدي إلى النار، وقد ألفت الطباع في الجاهلية ذلك- قاله بعض المحققين- والجملة إلخ معللة لخيرية المؤمنين والمؤمنات من المشركين والمشركات والله يدعوا بواسطة المؤمنين من يقاربهم إلى الجنة والمغفرة أي إلى الاعتقاد الحق والعمل الصالح الموصلين إليهما وتقديم الجنة على المغفرة مع قولهم: **التخلية** أولى بالتقديم على **التحلية** لرعاية مقابلة النار ابتداء بإذنه متعلق ب يدعوا أي يدعوا إلى ذلك متلبسا بتوفيقه الذي من جملته إرشاد المؤمنين لمقاربيهم إلى الخير أحقاء بالمواصلة ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون لكي يتعظوا أو يستحضروا معلوماتهم بناء على أن معرفة الله تعالى مركوزة في العقول، والجملة تذييل للنصح والإرشاد، والواو اعتراضية أو عاطفة، وفصلت الآية السابقة ب تتفكرون لأنها كانت لبيان الأحكام والمصالح والمنافع والرغبة فيها التي هي محل تصرف العقل والتبيين للمؤمنين فناسب التفكر، وهذه الآية ب يتذكرون لأنها تذييل للإخبار بالدعوة إلى الجنة والنار التي لا سبيل إلى معرفتها إلا النقل والتبيين لجميع الناس فناسب التذكر.

ومن الناس من قدر في الآية مضافا أي فريق الله أو أولياؤه وهم المؤمنون فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه تشريفا لهم، واعترض بأن الضمير في المعطوف على الخبر لله تعالى فيلزم التفكيك مع عدم الداعي لذلك، وأجيب بأن الداعي كون هذه الجملة معللة للخيرية السابقة ولا يظهر التعليل بدون التقدير، وكذا لا تظهر الملاءمة لقوله سبحانه: بإذنه بدون ذلك فإن تقييد دعوته تعالى بإذنه ليس فيه حينئذ كثير فائدة بأي تفسير فسر- الإذن- وأمر التفكيك سهل لأنه بعد إقامة المضاف إليه مقام المضاف للتشريف بجعل فعل الأول فعلا للثاني صورة فتتناسب الضمائر- كما في الكشف ولا يخفى ما فيه- وعلى العلات هو أولى مما قيل: إن المراد والله يدعوا على لسان رسوله صلى الله تعالى عليه وسلم إلى ذلك فتجب إجابته بتزويج أوليائه لأنه وإن كان مستدعيا لاتحاد المرجع في الجملتين المتعاطفتين الواقعتين خبرا، لكن يفوت التعليل وحسن المقابلة بينه وبين أولئك يدعون إلى النار وكذا لطافة التقييد كما لا يخفى ويسئلونك عن المحيض

أخرج الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وغيرهم عن أنس رضي الله تعالى عنهم

«أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت ولم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت، فسئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن ذلك؟ فأنزل الله هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم: «جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء إلا النكاح»

وعن السدي- إن الذي سأل عن ذلك ثابت بن الدحداح رضي الله تعالى عنه- والجملة معطوفة على ما تقدم من مثلها، ووجه مناسبتها له أنه لما نهى عن مناكحة الكفار ورغب في مناكحة أهل الإيمان بين حكما عظيما من أحكام النكاح، وهو حكم النكاح في الحيض، ولعل حكاية هذه الأسئلة الثلاثة بالعطف لوقوع الكل في وقت واحد عرفي، وهو وقت السؤال عن الخمر والميسر فكأنه قيل: يجمعون لك بين السؤال عنهما والسؤال عن كذا وكذا وحكاية ما عداها بغير عطف لكونها كانت في أوقات متفرقة فكان كل واحد سؤالا مبتدأ ولم يقصد الجمع بينهما بل الإخبار." (١)

"ما شاء أن يتخذ إلى ربه سبحانه سبيلا أي بالإنفاق القائم مقام الأجر كالصدقة والنفقة في سبيل الله تعالى ليناسب الاستدراك فليفعل، وذهب البعض إلى أنه متصل، وفي الكلام مضاف مقدر أي إلا فعل من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا بالإيمان والطاعة حسبما ادعو إليهما، وهو مبني على الادعاء وتصوير ذلك بصورة الأجر من حيث أنه مقصود الإتيان به، وهذا كالاستثناء في قوله:

ولا عيب فيهم غير أن نزيلهم ... يعاب بنسيان الأحبة والوطن

وفي ذلك قلع كلي لشائبة الطمع وإظهار لغاية الشفقة عليهم حيث جعل ذلك مع كون نفعه عائدا إليهم عائدا إليه صلى الله عليه وسلم، وقيل: المعنى ما أسألكم عليه أجرا إلا أجر من آمن أي إلا الأجر الحاصل لي من إيمانه فإن الدال على الخير كفاعله وحينئذ لا يحتاج إلى الادعاء والتصوير السابق، والأولى ما فيه قلع شائبة الطمع بالكلية.

وتوكل على الحي الذي لا يموت في الإغناء عن أجورهم والاستكفاء عن شرورهم، وكأن العدول عن وتوكل على الله إلى ما في النظم الجليل ليفيد بفحواه أو بترتب الحكم فيه على وصف مناسب عدم صحة التوكل على غير المنصف بما ذكر من الحياة والبقاء، أما عدم صحة التوكل على من لم يتصف بالحياة كالأصنام فظاهر وأما عدم صحته على من لم يتصف بالبقاء بأن كان ممن يموت فلأنه عاجز ضعيف فالمتوكل عليه أشبه شيء بضعيف عاد بقرملة، وقيل: لأنه إذا مات ضاع من توكل عليه.

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٥١٤/١

وأخرج ابن أبي الدنيا في التوكل. والبيهقي في شعب الإيمان عن عقبة بن أبي ثبيت قال: مكتوب في التوراة لا توكل على ابن آدم فإن ابن آدم ليس له قوام، ولكن توكل على الحي الذي لا يموت. وقرأ بعض السلف هذه الآية فقال:

لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق وسبح بحمده أي ونزهه سبحانه ملتبسا بالثناء عليه تعالى بصفات الكمال طالبا لمزيد الإنعام بالشكر على سوابقه عز وجل فالباء للملابسة، والجار والمجرور في موضع الحال، وقدم التنزيه لأنه **تخلية** وهي أهم من **التحلية**،

وفي الحديث: «من قال سبحان الله وبحمده غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»

وكفى به بذنوب عباده ما ظهر منها وما بطن كما يؤذن به الجمع المضاف فإنه من صيغ العموم أو قوله تعالى: خبيرا لأن الخبرة معرفة بواطن الأمور كما ذكره الراغب ومن علم البواطن علم الظواهر بالطريق الأولى فيدل على ذلك مطابقة والتزاما.

والظاهر أن بذنوب متعلق بخبيرا وهو حال أو تمييز. وباء به زائدة في فاعل كفى، وجوز أن يكون بذنوب صلة كفى. والجملة مسوقة لتسليته صلى الله عليه وسلم ووعيد الكفار أي إنه عز وجل مطلع على ذنوب عباده بحيث لا يخفى عليه شيء منها فيجازيهم عليها ولا عليك إن آمنوا أو كفروا.

الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش قد سلف تفسيره.

ومحل الموصول الجر على أنه صفة أخرى للحي، ووصف سبحانه بالصفة الفعلية بعد وصفه جل وعلا بالأبدية التي هي من الصفات الذاتية والإشارة إلى اتصافه تعالى بالعلم الشامل لتقرير وجوب التوكل عليه جل جلاله وتأكيده فإن من أنشأ هذه الأجرام العظام على هذا النمط الفائق والنسق الرائق بتدبير متين وترتيب رصين في أوقات معينة مع كمال قدرته سبحانه على إبداعها دفعة بحكم جليلة وغايات جميلة لا تقف على تفاصيلها العقول أحق من يتوكل عليه وأولى من يفوض الأمر إليه.

وقوله تعالى: الرحمن مرفوع على المدح أي هو الرحمن وهو في الحقيقة وصف آخر للحي كما في قراءة." (١)

"ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقول حاتم:

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٣٧/١٠

إذا أنت قد أعطيت بطنك سؤله ... وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

وقول الآخر:

إذا المرء أعطى نفسه كل ما اشتهت ... ولم ينهها تاقت إلى كل باطل

وساقت إليه الإثم والعار بالذي ... دعته إليه من حلاوة عاجل

إلى غير ذلك والذين لا يدعون مع الله إلها آخر أي لا يشركون به غيره سبحانه.

ولا يقتلون النفس التي حرم الله أي حرمها الله تعالى بمعنى حرم قتلها لأن التحريم إنما يتعلق بالأفعال دون الذوات فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مبالغة في التحريم إلا بالحق متعلق بلا يقتلون والاستثناء مفرغ من أعم الأسباب أي لا يقتلونها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق المزيل لحرمتها وعصمتها كالزنا بعد الإحصان والكفر بعد الإيمان، وجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي لا يقتلونها نوعا من القتل إلا قتلا ملتبسا بالحق وأن يكون حالا أي لا يقتلونها في حال من الأحوال إلا حال كونهم ملتبسين بالحق.

وقيل: يجوز أن يكون متعلقا بالقتل المحذوف والاستثناء أيضا من أعم الأسباب أي لا يقتلون النفس التي حرم الله تعالى قتلها بسبب من الأسباب إلا بسبب الحق. ويكون الاستثناء مفرغا في الإثبات لاستقامة المعنى بإرادة العموم أو لكون حرم نفيا معنى. ولا يخفى ما فيه من التكلف ولا يزنون ولا يطؤون فرجا محرما عليهم، والمراد من نفي هذه القبائح العظيمة التعريض بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم وإلا فلا حاجة إليه بعد وصفهم بالصفات السابقة من حسن المعاملة وإحياء الليل بالصلاة ومزيد خوفهم من الله تعالى لظهور استدعائها نفي ما ذكر عنهم. ومنه يعلم حل ما قيل الظاهر عكس هذا الترتيب وتقديم التخلية على التحلية فكأنه قيل. والذين طهرهم الله تعالى وبرأهم سبحانه مما أنتم عليه من الإشراك وقتل النفس المحرمة كالموؤدة والزنا.

وقيل: إن التصريح بنفي الإشراك مع ظهور إيمانهم لهذا أو لإظهار كمال الاعتناء والإخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما في سلكه،

وقد صح من رواية البخاري ومسلم والترمذي عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أي الذنب أكبر؟ قال: أن تجعل لله تعالى ندا وهو خلقك قلت: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني خليلة جارك فأنزل الله تعالى تصديق ذلك والذين لا يدعون مع الله إلها آخر الآية.

وأخرج الشيخان وأبو داود والنسائي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ناسا من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمدا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة فنزلت والذين لا يدعون مع الله إلها آخر الآية ونزلت قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم [الزمر: ٥٣] الآية

. وقد ذكر الإمام الرازي أن ذكر هذا بعد ما تقدم لأن الموصوف بتلك الصفات قد يرتكب هذه الأمور تدينا فبين سبحانه أن المكلف لا يصير بتلك الخلال وحدها من عباد الرحمن حتى ينضاف إلى ذلك كونه مجانبا لهذه الكبائر وهو كما ترى، وجوز أن يقال في وجه تقديم التحلية على التخلية كون الأوصاف المذكورة في التحلية أوفق بالعبودية التي جعلت عنوان الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية ومزيد الانقياد والخوف والاقتصاد في التصرف بما أذن." (١)

"ومن باب الإشارة في الآيات أحسب الناس أن يتركوا الآية قال ابن عطاء: ظن الخلق أنهم يتركون مع دعاوى المحبة ولا يطالبون بحقائقها وهي صب البلاء على المحب وتلذذه بالبلاء الظاهر والباطن، وهذا كما قال العارف ابن الفارض قدس سره:

وتعذيبكم عذب لدي وجوركم ... علي بما يقضي الهوى لكم عدل

وذكروا أن المحبة والمحنة توأمان «وبالامتحان يكرم الرجل أو يهان» ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله إشارة إلى حال الكاذبين في دعوى المحبة وهم الذين يصرفون عنها بأذى الناس لهم إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون قال ابن عطاء: أي اطلبوا الرزق بالطاعة والإقبال على العبادة، وقال سهل: اطلبوه في التوكل لا في المكسب فإن طلب الرزق فيه سبيل العوام وقال إني مهاجر إلى ربي أي مهاجر من نفسي ومن الكون إليه عز وجل، وقال ابن عطاء: أي راجع إلى ربي من جميع ما لي وعلي، والرجوع إليه عز وجل بالانفصال عما دونه سبحانه، ولا يصح لأحد الرجوع إليه تعالى وهو متعلق بشيء من الكون بل لا بد أن ينفصل من الأكوان أجمع وتأتون في ناديكم المنكر سئل الجنيد قدس سره عن هذه الآية فقال: كل شيء يجتمع الناس عليه إلا الذكر فهو منكر مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت أشار سبحانه وتعالى إلى من اعتمد على غير الله عز وجل في أسباب

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٠/٤٧

الدنيا والآخرة فهو منقطع عن مراده غير واصل إليه، قال ابن عطاء: من اعتمد شيئا سوى الله تعالى كان هلاكه في نفس ما اعتمد عليه، ومن اتخذ سواه عز وجل ظهيرا قطع عن نفسه سبيل العصمة ورد إلى حوله وقوته.

وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون فيه إشارة إلى أن دقائق المعارف لا يعرفها إلا أصحاب الأحوال العالمون به تعالى وبصفاته وسائر شؤونه سبحانه لأنهم علماء المنهج، وذكر أن العالم على الحقيقة من يحجزه علمه عن كل ما يبيحه العلم الظاهر، وهذا هو المؤيد عقله بأنوار العلم اللدني إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ذكر أن حقيقة الصلاة حضور القلب بنعت الذكر والمراقبة بنعت الفكر فالذكر في الصلاة يطرد الغفلة التي هي الفحشاء والفكر يطرد الخواطر المذمومة وهي المنكر، هذا في الصلاة وبعدها تنهى هي إذا كانت صلاة حقيقية وهي التي انكشف فيها لصاحبها جمال الجبروت وجلال الملكوت وقرت عيناه بمشاهدة أنوار الحق جل وعلا عن رؤية الأعمال والأعواض،

وقال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: الصلاة إذا كانت مقبولة تنهى عن مطالعات الأعمال والأعواض ولذكر الله أكبر قال ابن عطاء: أي ذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم له سبحانه لأن ذكره تعالى بلا علة وذكركم مشوب بالعلل والأماني والسؤال، وأيضا ذكره تعالى صفته وذكركم صفتكم ولا نسبة بين صفة الخالق جل شأنه وبين صفة المخلوق وأين التراب من رب الأرباب بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم فيه إشارة إلى أن عرائس حقائق القرآن لا تنكشف إلا لأرواح المقربين من العارفين والعلماء الربانيين لأنها أماكن أسرار الصفات وأوعية لطائف كشوف الذات،

قال الصادق على آبائه وعليه السلام: لقد تجلى الله تعالى في كتابه لعباده ولكن لا يبصرون

يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون

قال سهل: إذا عمل بالمعاصي والبدع في أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين، وكأن هذا لئلا تنعكس ظلمة معاصي العاصين على قلوب الطائعين فيكسلوا عن الطاعة، وذكروا أن سفر المريد سبب **للتخلية والتحلية**، وإليه الإشارة بما

أخرجه الطبراني والقضاعي، والخطيب، والشيرازي في الألقاب، والخطيب وابن النجار، والبيهقي عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما." (١)

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٦/١١

"بناء على العرف، وأيا ما كان فتنوينها هنا للتفخيم والمراد بها الجنة، والحبر السرور يقال: حبره يحبره بالضم حبرا وحبرة وحبورا إذا سره سرورا تهلل له وجهه وظهر فيه أثره، وفي المثل امتلأت بيوتهم حبرة فهم ينتظرون العبرة، وحكى الكسائي حبرته أكرمته ونعمته، وقيل: الحبرة كل نعمة حسنة والتحبير التحسين، ويقال: فلان حسن الحبر والسبر بالفتح إذا كان جميلا حسن الهيئة، واختلفت الأقوال في تفسيره هنا فأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس، وابن أبي حاتم عن الضحاك أنهما قالا: يحبرون يكرمون.

وأخرج جماعة عن مجاهد يحبرون ينعمون، وقال أبو بكر بن عياش: يتوجهون على رؤوسهم.

وقال ابن كيسان: يحلون، وقال الأوزاعي، ووكيع، ويحيى بن أبي كثير: يسمعون الأغاني،

وأخرج عبد بن حميد عن الأخير أنه قال: قيل يا رسول الله ما الحبر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: اللذة والسماع.

وذكر بعضهم أن الظاهر يسرون ولم يذكر ما يسرون به إيذانا بكثرة المسار وما جاء في الخبر فمن باب الاقتصار على البعض، ولعل السائل كان يحب السماع فذكره صلى الله تعالى عليه وسلم له لذلك، والتعبير بالمضارع للإيذان بتجدد السرور لهم ففي كل ساعة يأتيهم ما يسرون به من متجددات الملاذ وأنواعها المختلفة.

وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا التي من جملتها الآيات الناطقة بما فصل ولقاء الآخرة أي وكذبوا بالبعث، وصرح بذلك مع اندراجه في تكذيب الآيات للاعتناء به، وقوله تعالى: فأولئك إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب بآياته تعالى وبلقاء الآخرة للإيذان بكمال تميزهم بذلك عن غيرهم وانتظامهم في سلك المشاهدات، وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإشعار ببعد منزلتهم في الشر أي فأولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح في العذاب محضرون على الدوام لا يغيبون عنه أبدا، والظاهر أن الفسقة من أهل الإيمان غير داخلين في أحد الفريقين أما عدم دخولهم في الذين كفروا وكذبوا بالآيات والبعث فظاهر وأما عدم دخولهم في الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإما لأن ذلك لا يقال في العرف إلا على المؤمنين المجتنبين المفسقات على ما قيل، وإما لأن المؤمن الفاسق يصدق على المؤمن الذي لم يعمل شيئا من الصالحات أصلا فهم غير داخلين في ذلك باعتبار جميع الأفراد وحكمهم معلوم من آيات أخر فلا تغفل.

فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشيا وحين تظهرون أثر ما

بين حال فريقي المؤمنين العاملين بالصالحات والكافرين المكذبين بالآيات وما لهما من الثواب والعقاب أرشد سبحانه إلى ما ينجي من الثاني ويفضي إلى الأول من تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق بشأنه جل شأنه ومن حمده تعالى والثناء عليه ووصفه بما هو أهله من الصفات الجميلة والشؤون الجليلة، وتقديم الأول على الثاني لما أن **التخلية** متقدمة على **التحلية** مع أنه أول ما يدعي إليه الذين كفروا المذكورون قبل بلا فصل، والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، وظاهر كلامهم أن (سبحان) هنا منصوب بفعل أمر محذوف فكأنه قيل: إذا علمتم ذلك أو إذا صح واتضح حال الفريقين، ومآلهما فسبحوا سبحان الله إلخ أي نزهوه تعالى تنزيهه اللائق به عز وجل في هذه الأوقات، قال في الكشف: وفيه إشكال لأن سبحان الله لزم طريقة واحدة لا ينصبه فعل الأمر لأنه إنشاء من نوع آخر، والجواب أن ذلك توضيح للمعنى وأن وقوعه جواب الشرط على منوال إن فعلت كذا فنعم ما فعلت فإنه إنشاء أيضا لكنه ناب مناب الخبر وأبلغ، كذلك هو لإنشاء تنزيهه تعالى في الأوقات هربا من وبيل عقابه وطلبا لجزيل ثوابه، والشرط والجواب مقول على ألسنة العباد انتهى، وفي حواشي شيخ زاده أن الأمر بل الجملة الإنشائية مطلقا لا يصح تعليقها بالشرط لأن الإنشاء إيقاع المعنى بلفظ يقارنه ولو جاز تعليقه للزم تأخره عن زمان التلفظ وأنه غير جائز وإنما المعلق بالشرط هو الإخبار عن إنشاء التمني والترجي وإنشاء المدح والذم والاستفهام ونحوها فإذا قلت: إن فعلت كذا غفر الله تعالى لك." (١)

"وقد يستدل على كون الإرادة هاهنا بالمعنى المذكور دون المعنى المشهور الذي يتحقق عنده الفعل بأنه صلى الله عليه وسلم قال حين أدخل عليا وفاطمة والحسنين رضي الله تعالى عنهم تحت الكساء «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»

فإنه أي حاجة للدعاء لو كان ذلك مرادا بالإرادة بالمعنى المشهور وهل هو الادعاء بحصول واجب الحصول.

واستدل بهذا بعضهم على عدم نزول الآية في حقهم وإنما أدخلهم صلى الله عليه وسلم في أهل البيت المذكور في الآية بدعائه الشريف عليه الصلاة والسلام ولا يخلو جميع ما ذكر عن بحث، والذي يظهر لي أن المراد بأهل البيت من لهم مزيد علاقة به صلى الله عليه وسلم ونسبة قوية قريبة إليه عليه الصلاة والسلام بحيث لا يقبح عرفا اجتماعهم وسكناهم معه صلى الله عليه وسلم في بيت واحد ويدخل في ذلك أزواجه

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢٨/١١

والأربعة أهل الكساء وعلي كرم الله تعالى وجهه مع ماله من القرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نشأ في بيته وحجره عليه الصلاة والسلام فلم يفارقه وعامله كولده صغيرا أو صاهره وآخاه كبيرا، والإرادة على معناها الحقيقي المستتبع للفعل، والآية لا تقوم دليلا على عصمة أهل بيته صلى الله عليه وسلم وعليهم وسلم الموجودين حين نزولها وغيرهم ولا على حفظهم من الذنوب على ما يقوله أهل السنة لا لاحتمال أن يكون المراد توجيه الأمر والنهي أو نحوه لإذهاب الرجس والتطهير بأن يجعل المفعول به «ليريد» محذوفا ويجعل ليذهب و «يطهر» في موضع المفعول له وإن لم يكن فيه بأس وذهب إليه من ذهب بل لأن المعنى حسبما ينساق إليه الذهن ويقتضيه وقوع الجملة موقع التعليل للنهي والأمر نهاكم الله تعالى وأمركم لأنه عز وجل يريد بنهيكم وأمركم إذهاب الرجس عنكم وتطهيركم وفي ذلك غاية المصلحة لكم ولا يريد بذلك امتحانكم وتكليفكم بلا منفعة تعود إليكم وهو على معنى الشرط أي يريد بنهيكم وأمركم ليذهب عنكم الرجس ويطهركم إن انتهيتم وائتمرتم ضرورة أن أسلوب الآية نحو أسلوب قول القائل لجماعة علم أنهم إذا شربوا الماء أذهب عنهم عطشهم لا محالة يريد الله سبحانه بالماء ليذهب عنكم العطش فإنه على معنى يريد سبحانه بالماء إذهاب العطش عنكم إن شربتوه فيكون المراد إذهاب العطش بشرط شرب المخاطبين الماء لا الإذهاب مطلقا. فمفاد التركيب في المثال تحقق إذهاب العطش بعد الشرب وفيما نحن فيه إذهاب الرجس والتطهير بعد الانتهاء والائتمار لأن المراد الإذهاب المذكور بشرطهما فهو متحقق الوقوع بعد تحقق الشرط وتحققه غير معلوم إذ هو أمر اختياري وليس متعلق الإرادة، والمراد بالرجس الذنب وبإذهابه إزالة مبادئه بتهذيب النفس وجعل قواها كالقوة الشهوانية والقوة الغضبية بحيث لا ينشأ عنهما ما ينشأ من الذنوب كالزنا وقتل النفس التي حرم الله تعالى وغيرهما لا إزالة نفس الذنب بعد تحققه في الخارج وصدوره من الشخص إذ هو غير معقول إلا على معنى محوه من صحائف الأعمال وعدم المؤاخذة عليه وإرادة ذلك كما ترى.

وكأن مآل الإذهاب **التخلية** ومآل التطهير **التحلية** بالحاء المهملة، والآية متضمنة الوعد منه عز وجل لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم بأنهم أن ينتهوا عما ينهي عنه ويأتمروا بما يأمرهم به يذهب عنهم لا محالة مبادئ ما يستهجن ويحليهم أجل **تحلية** بما يستحسن، وفيه إيماء إلى قبول أعمالهم وترتب الآثار الجميلة عليها قطعا ويكون هذا خصوصية لهم ومزية على من عداهم من حيث إن أولئك الأغيار إذا انتهوا وائتمروا لا يقطع لهم بحصول ذلك.

ولذا نجد عباد أهل البيت أتم حالا من سائر العباد المشاركين لهم في العبادة الظاهرة وأحسن أخلاقا وأزكى نفسا وإليهم تنتهي سلاسل الطرائق التي مبناها كما لا يخفى على سالكيها التخلية والتحلية اللتان هما جناحان للطيران إلى حظائر القدس والوقوف على أوكار الأنس حتى ذهب قوم إلى أن القطب في كل عصر لا يكون إلا منهم خلافا للأستاذ أبي العباس المرسي حيث ذهب كما نقل عنه تلميذه التاج بن عطاء الله إلى أنه قد يكون من غيرهم، ورأيت." (١)

"مقتضى العلم فهم والمنكرون سواء وأن اعبدوني عطف على أن لا تعبدوا الشيطان على أن أن فيها مفسرة للعهد الذي فيه معنى القول دون حروفه أو مصدرية حذف عنها الجار أي ألم أعهد إليكم في ترك عبادة الشيطان وفي عبادتي وتقديم النهي على الأمر لما أن حق التخلية التقدم على التحلية قيل: وليتصل به قوله تعالى:

هذا صراط مستقيم بناء على أن الإشارة إلى عبادته تعالى لأنه المعروف في الصراط المستقيم. وجعل بعضهم الاشارة إلى ما عهد إليهم من ترك عبادة الشيطان وفعل عبادة الله عز وجل.

ورجح بأن عبادته تعالى إذا لم تنفرد عن عبادة غيره سبحانه لا تسمى صراطا مستقيما فتأمل والجملة استئنافية جيء بها لبيان المقتضى للعهد بعبادته تعالى أو للعهد بشقيه والتنكير للمبالغة والتعظيم أي هذا صراط بليغ في استقامته جامع لكل ما يجب أن يكون عليه واصل لمرتبة يقصر عنها التوصيف والتعريف ولذا لم يقل هذا الصراط المستقيم أو هذا هو الصراط المستقيم وإن كان مفيدا للحصر، وجوز أن يكون التنكير للتبعيض على معنى هذا بعض الصراط المستقيمة وهو للهضم من حقه على الكلام المنصف، وفيه ادماج التوبيخ على معنى أنه لو كان بعض الصراط الموصوفة بالاستقامة لكفى ذلك في انتهاجه كيف وهو الأصل والعدة كما قيل:

وأقول بعض الناس عنك كناية ... خوف الوشاة وأنت كل الناس

وفيه أن المطلوب الاستقامة والأمر دائر معها وقليلها كثير ولقد أضل منكم جبلا كثيرا استئناف مسوق لتشديد التوبيخ وتأكيد التقريع ببيان عدم اتعاظهم بغيرهم أثر بيان نقضهم العهد فالخطاب لمتأخريهم الذين من جملتهم كفار خصوا بزيادة التوبيخ والتقريع لتضاعف جناياتهم، وإسناد الإضلال إلى ضمير الشيطان لأنه المباشر للإغواء.

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١١/١٩٩

والجبل- قال الراغب- الجماعة العظيمة أطلق عليهم تشبيها بالجبل في العظم، وعن الضحاك أقل الجبل وهي الأمة العظيمة عشرة آلاف، وفسره بعضهم بالجماعة وبعض بالأمة بدون الوصف وقيل هو الطبع المخلوق عليه الذي لا ينتقل كأنه جبل وهو هنا خلاف الظاهر.

وقرأ العربيان، والهذيل «جبلا» بضم اليم وإسكان الباء. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بضمتين مع تخفيف اللام والحسن وابن أبي إسحاق والزهري وابن هرمز وعبد الله بن عبيد بن عمير وحفص بن حميد بضمتين وتشديد اللام، والأشهب العقيلي واليماني وحماد بن سلمة عن عاصم بكسر الجيم وسكون الباء، والأعمش بكسرتين وتخفيف اللام جمع جبلة نحر فطرة وفطر، وقرأ أمير المؤمنين علي كرم الله تعالى وجهه وبعض الخراسانيين «جيلا» بكسر الجيم بعدها ياء آخر الحروف واحد الأجيال وهو الصنف من الناس كالعرب والروم.

أفلم تكونوا تعقلون عطف على مقدر يقتضيه المقام أي أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم فلم تكونوا تعقلون أنها لضلالهم أو فلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا حتى ترتدعوا عما كانوا عليه كيلا يحيق بكم العذاب الأليم.

وقرأ طلحة وعيسى وعاصم في رواية عبد بن حميد عنه بياء الغيبة فالضمير للجبل.

وقوله تعالى: هذه جهنم التي كنتم توعدون استئناف يخاطبون به بعد تمام التوبيخ والتقريع والإلزام والتبكيت عند إشرافهم على شفير جهنم أي هذه التي ترونها جهنم التي لم تزالوا توعدون بدخولها على ألسنة الرسل عليهم السلام والمبلغين عنهم بمقابلة عبادة الشيطان اصلوها اليوم أمر تحقير وإهانة كقوله تعالى ذق إنك." (١)

"أي الذي صبح فغنم فآب ورجع أو لترتيب معانيها في الرتبة إذا كانت الذات واحدة أيضا كما في قولك: أتم العقل فيك إذا كنت شابا فكهلا أو لترتيب الموصوفات بها في الوجود كما في قولك: وقفت كذا على بني بطنا فبطنا أو في الرتبة نحو رحم الله تعالى المحلقين فالمقصرين، وكلاهما مع تعدد الموصوف والترتيب الرتبي إما باعتبار الترقي أو باعتبار التدلي، وهي إذا كانت الذات المتصفة بالصفات هنا واحدة وهم الملائكة عليهم السلام بأسرهم تحتمل أن تكون للترتيب الرتبي باعتبار الترقي فالصف في الرتبة الأولى لأنه عمل قاصر والزجر أعلى منه لما فيه من نفع الغير والتلاوة أعلى وأعلى لما فيها من نفع الخاصة الساري إلى نفع العامة بما فيه صلاح المعاش والمعاد أو للترتيب الخارجي من حيث وجود ذوات الصفات فالصف

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٢/٤٠

يوجد أولا لأنه كمال للملائكة في نفسها ثم يوجد بعده الزجر للغير لأنه تكميل للغير يستعد به الشخص ما لم يكمل في نفسه لا يتأهل لأن يكمل غيره ثم توجد التلاوة بناء على أنها إفاضة على الغير المستعد لها وذا لا يتحقق إلا بعد حصول الاستعداد الذي هو من آثار الزجر، وإذا كانت الذات المتصفة بها من الملائكة عليهم السلام متعددة بمعنى أن صنفا منهم كذا وصنفا آخر كذا فالظاهر أنها للترتيب الرتبي باعتبار الترقي كما في الشق الأول فالجماعات الصافات كاملون والزاجرات أكمل منها والتاليات أكمل وأكمل كما يعلم مما سبق، وقيل يجوز أن يكون بعكس ذلك بأن يراد بالصافات جماعات من الملائكة صافات من حول العرش قائمات في مقام العبودية وهم الكروبيون المقربون أو ملائكة آخرون يقال لهم كما ذكر الشيخ الأكبر قدس الله سره المهيمون مستغرقون بحبه تعالى لا يدري أحدهم أن الله عز وجل خلق غيره وذكر أنهم لم يؤمروا بالسجود لآدم عليه السلام لعدم شعورهم باستغراقهم به تعالى وأنهم المعنيون بالعالين في قوله تعالى: أستكبرت أم كنت من العالين [ص: ٧٥] وبالزاجرات جماعات أخر أمرت بتسخير العلويات والسفليات وتدبيرها لما خلقت له وهي في الفضل على ما لها من النفع للعباد دون الصافات وبالتاليات ذكرا جماعات أخر أمرت بتلاوة المعارف على خواص الخلق وهي لخصوص نفعها دون الزاجرات أو المراد بالزاجرات الزاجرات الناس عن القبيح بإلهام جهة قبحه وما ينفر عن ارتكابه وبالتاليات ذكرا المهمات للخير والجهات المرغبة فيه، ولكون دفع الضر أولى من جلب الخير ودرأ المفاسد أهم من جلب المصالح ولذا قيل **التخلية** بالخاء مقدمة على **التحلية** كانت التاليات دون الزاجرات، وحال الفاء على سائر الأقوال السابقة في الصفات لا يخفى على من له أدنى تأمل ويجوز عندي والله تعالى أعلم أن يراد بالصافات المصطفون للعبادة من صلاة ومحاربة كفرة مثلا ملائكة كانوا أم أناسي أم غيرهما وبالزاجرات الزاجرون عن ارتكاب المعاصي بأقوالهم أو أفعالهم كائنين من كانوا وبالتاليات ذكرا التالون لآيات الله تعالى على الغير للتعليم أو نحوه كذلك، ولا عناد بين هذه الصفات فتجتمع في بعض الأشخاص، ولعل الترتيب على سبيل الترقي باعتبار نفس الصفات فالاصطفاف للعبادة كمال والزجر عن ارتكاب المعاصي أكمل والتلاوة لآيات الله تعالى للتعليم لتضمنه الأمر بالطاعات والنهي عن المعاصي والتخلي عن الرذائل والتحلي بالمعارف إلى أمور أخر أكمل وأكمل وجعل الصفات المذكورة لموصوف واحد من الملائكة على ما مر بأن تكون جماعات منهم صافات بمعنى صافات أنفسها في سلك الصفوف بالقيام في مقاماتها المعلومة أو القائمات صفوفا للعبادة وتاليات ذكرا بمعنى تاليات الآيات بطريق الوحي على الأنبياء عليهم السلام لا يخلو عن بعد فيما

أرى على أن تعدد الملائكة التالين للوحي سواء كان صنفا مستقلا أم لا مما يشكل عليه ما ذكره غير واحد أن الأمين على الوحي التالي للذكر على الأنبياء هو جبريل عليه السلام لا غير، نعم من الآيات ما ينزل مشيعا بجمع من الملائكة عليهم السلام ونطق الكتاب الكريم بالرصد عند إبلاغ الوحي وهذا أمر والتلاوة على الأنبياء عليهم السلام أمر آخر فتأمل جميع ذلك، وفي المراد بالصفات المتناسقة احتمالات غير ما ذكر فلا تغفل.." (١)

"قاله الزمخشري، ووجهه كما في الكشف أنها صفات متعاقبة بدون الواو دالة على معنى الجمع المطلق من مجرد الإجراء فإذا خصت بالواو إحدى القرائن دل على أن المراد المعتبر فيها وفيما تقدمها خاصة صونا لكلام البليغ عن الإلغاء، ففي الواو هنا الدلالة على أنه سبحانه جامع بين الغفران وقبول التوب للتائب خاصة، ولا ينافي ذلك أنه عز وجل قد يغفر لمن لم يتب، وما قيل: إن التوسيط يدل على أن المعنى كما أخرج أبو الشيخ في العظمة عن الحسن غافر الذنب لمن لم يتب وقابل التوب لمن تاب فغير مسلم، والتغاير الذي يذكرونه بين موقع الفعلين وهما غفران الذنب وقبول التوبة عنه المقتضي لكون الغفران بالنسبة إلى قوم والقبول بالنسبة إلى آخرين إذ جعلوا موقع الأول الذنب الباقي في الصحائف من غير مؤاخذة وموقع الثاني الذنب الزائل الممحو عنها حاصل مع الإجراء فلا مدخل للواو، ثم ما ذكر من الوجه السابق حار على أصلي أهل السنة والمعتزلة فلا وجه لرده بما ليس بقادح وإيثار ما هو مرجوح، وتقديم الغافر على القابل من باب تقديم التخلية على التحلية فافهم. وفي القطع بقبول توبة العاصي قولان لأهل السنة. وفي البحر الظاهر من الآية أن توبة العاصي بغير الكفر كتوبة العاصي به مقطوع بقبولها، وفي توحيد صفة العذاب مغمورة بصفاته تعالى الدالة على الرحمة دليل على زيادة الرحمة وسبقها فسبحانه من إله ما أرحمه وأكرمه لا إله إلا هو فيجب الإقبال الكلي على طاعته في أوامره ونواهيه إليه المصير فحسب لا إلى غيره تعالى لا استقلالا ولا اشتراكا فيجازي كلا من المطيع والعاصي، وجملة لا إله إلا هو مستأنفة أو حالية، وقيل: صفة لله تعالى أو لشديد العقاب، وفي الآيات مما يقتضي الاتعاظ ما فيها. أخرج عبد بن حميد عن يزيد بن الأصم أن رجلا كان ذا بأس وكان من أهل الشام وأن عمر رضي الله تعالى عنه فقده فسأل عنه فقيل له: تتابع في الشراب فدعا عمر كاتبه فقال له: اكتب من عمر ابن الخطاب إلى فلان بن فلان سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو بسم الله الرحمن الرحيم حم- إلى قوله تعالى- إليه المصير وختم

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٦٥/١٢

الكتاب، وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا ثم أمر من عنده بالدعاء له بالتوبة فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: قد وعدني ربي أن يغفر لي وحذرني عقابه فلم يبرح يرددها على نفسه حتى بكى ثم نزع فأحسن النزوع فلما بلغ عمر توبته قال: هكذا فافعلوا إذا رأيتم أخاكم قد زل زلة فسددوه ووقفوه وادعوا الله تعالى أن يتوب عليه ولا تكونوا أعوانا للشياطين عليه.

ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا نزلت على ما قال أبو العالية في الحارث بن قيس السلمي أحد المستهزئين، والمراد بالجدال الجدال بالباطل من الطعن في الآيات والقصد إلى إدحاض الحق وإطفاء نور الله عز وجل لقوله تعالى بعد، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فإنه مذكور تشبيها لحال كفار مكة بكفار الأحزاب من قبل وإلا فالجدال فيها لإيضاح ملتبسها وحل مشكلها ومقادحة أهل العلم في استنباط معانيها ورد أهل الزيغ عنها أعظم جهاد في سبيل الله تعالى وفي قوله صلى الله عليه وسلم

وقد أخرجه عبد بن حميد عن أبي هريرة مرفوعا: «إن جدالا في القرآن كفر»

إيماء إلى ذلك حيث ذكر فيه جدالا منكرا للتنويع فأشعر أن نوعا منه كفر وضلال ونوعا آخر ليس كذلك.

والتحقيق كما في الكشف أن المجادلة في الشيء تقتضي أن يكون ذلك الشيء إما مشكوكا عند المجادلين أو أحدهما أو منكرا كذلك، وأيا ما كان فهو مذموم اللهم إلا إذا كان من موحد لخارج عن الملة أو من محقق لزائغ إلى البدعة فهو محمود بالنسبة إلى أحد الطرفين، وأما ما قيل: إن البحث فيها لإيضاح الملتبس ونحوه جدال عنها لا فيها فإن الجدال يتعدى بعن إذا كان للمنع والذب عن الشيء وبفي لخلافه كما ذكره الإمام وبالباء أيضا كما في قوله تعالى: وجادلهم بالتي هي أحسن [النحل: ١٢٥] ففيه بحث، وفي قوله تعالى: في آيات الله دون- فيه- بالضمير العائد إلى الكتاب دلالة على أن كل آية منه يكفي كفر المجادلة فكيف بمن ينكره كله ويقول فيه ما يقول،." (١)

"وفضلات النحل وغيرها، ووصفه بمصفى لأنه الغالب على العسل التذكير وهو مما يذكر ويؤنث كما نص عليه أبو حيان. وغيره، وهذا على ما قيل تمثيل لما يجري مجرى الأشربة في الجنة بأنواع ما يستطاب منها أو يستلذ في الدنيا **بالتخلية** عما ينقصها وينغصها **والتحلية** بما يوجب غزارتها ودوامها.

وبدىء بالماء لأنه في الدنيا مما لا يستغنى عنه ثم باللبن إذ كان يجري مجرى المطعم لكثير من العرب في كثير من أوقاتهم ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوفت النفس إلى ما يلتذ به ثم بالعسل لأن

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢٩٧/١٢

فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر بالرتبة، وجاء عن ابن عباس أن لبن تلك الأنهار لم يحلب، وقال سعيد بن جبير: إنه لم يخرج من بين فرث ودم وإن خمرها لم تدسها الرجال بأرجلها وإن عسلها لم يخرج من بطون النحل. وأخرج ابن جرير عن سعد قال: سألت أبا إسحق عن قوله تعالى: من ماء غير آسن فقال: سألت عنه الحارث فحدثني أن ذلك الماء تسنيم وقال: بلغني أنه لا تمسه يد وأنه يجيء الماء هكذا حتى يدخل الفم.

وفي حديث أخرجه ابن مردويه عن الكلبي أن نهر دجلة نهر الخمر في الجنة وأن عليه إبراهيم عليه السلام ونهر جيحون نهر الماء فيها ويقال له نهر الرب ونهر الفرات نهر اللبن وأنه لذرية المؤمنين ونهر النيل نهر العسل.

وأخرج الحرث بن أبي أسامة في مسنده. والبيهقي عن كعب قال: نهر النيل نهر العسل ونهر دجلة نهر اللبن ونهر الفرات نهر الخمر ونهر سيحان نهر الماء في الجنة. وأنت تعلم أن المذكور في الآية لكل أنهار بالجمع والله تعالى أعلم بصحة هذه الأخبار ونحوها، ثم إنها إن صحت لا يبعد تأويلها وإن كانت القدرة الإلهية لا يتعاصاها شيء ولهم فيها مع ما ذكر من فنون الأنهار من كل الثمرات أي أنواع من كل الثمرات فالجار والمجرور صفة مبتدأ مقدر وقدره بعضهم زوجان وكأنه انتزعه من قوله تعالى: فيهما من كل فاكهة زوجان [الرحمن: ٥٢] وقيل:

من زائدة أي ولهم فيها كل الثمرات ومغفرة مبتدأ خبره محذوف والجملة عطف على الجملة السابقة أي ولهم مغفرة، وجوز أن يكون عطفا على المبتدأ قبل بدون قيد فيها لأن المغفرة قبل دخول الجنة أو بالقيد والكلام على حذف مضاف أي ونعيم مغفرة أو جعل المغفرة عبارة عن أثرها وهو النعيم أو مجازا عن رضوان الله عز وجل، وقد يقال: المراد بالمغفرة هنا ستر ذنوبهم وعدم ذكرها لهم لئلا يستحيوا فتتنغص لذتهم والمغفرة السابقة ستر الذنوب وعدم المؤاخذة بها وحينئذ العطف على المبتدأ من غير ارتكاب شيء مما ذكر، وقد رأيت نحو هذا بعد كتابته للطبرسي مقتصرا عليه ولعله أولى مما قالوه، وتنوين مغفرة للتعظيم أي مغفرة عظيمة لا يقادر قدرها، وقوله تعالى:

من ربهم متعلق بمحذوف صفة لها مؤكدة لما أفاده التنكير من الفخامة الذاتية بالفخامة الإضافية أي كائنة من ربهم، وقوله عز وجل: كمن هو خالد في النار خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمن هو خالد في هذه الجنة حسبما جرى به الوعد كمن هو خالد في النار كما نطق به قوله تعالى: والنار مثوى لهم، وجوز أن يكون

بدلا من قوله سبحانه: كمن زين له سوء عمله وما بينهما اعتراض لبيان ما يمتاز به من على بينة في الآخرة تقرير الإنكار المساواة وفيه بعد. وذهب جار الله إلى أنه خبر مثل الجنة وأن ذاك مرتب على الإنكار السابق أعني قوله تعالى:

أفمن كان إلخ، والمعنى أمثل الجنة كمثل جزاء من هو خالد في النار فالمضافان محذوفان الجزاء بقرينة مقابلة الجنة ولفظ المثل بقرينة تقدمه ومثله كثير، وفائدة التعرية عن حرف الإنكار أن من اشتبه عليه الأول أعني حال المتمسك بالبينة وحال التابع لهواه فالثاني مثله عنده وإذ ذاك لا يستحق الخطاب، ونظير ذلك قول حضرمي بن عامر:

أفرح أن أرزأ الكرام وأن ... أورث ذودا شصائصا نبلا

فإنه كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود مع تعريه من حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم من قال له:." (١)

"سريعة الزوال وشيكة الاضمحلال بقوله سبحانه: كمثل غيث مطر أعجب الكفار أي راقهم نباته أي النبات الحاصل به، والمراد بالكفار إما الحراث على ما روي عن ابن مسعود لأنهم يكفرون أي يسترون البذر في الأرض ووجه تخصيصهم بالذكر ظاهر، وأما الكافرون بالله سبحانه ووجه تخصيصهم أنهم أشد إعجابا بزينة الدنيا فإن المؤمن إذا رأى معجبا انتقل فكره إلى قدرة موجده عز وجل فأعجب بها، ولذا قال أبو نواس في النرجس:

عيون من لجين شاخصات ... على أطرافها ذهب سبيك

على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

والكافر لا يتخطى فكره عما أحس به فيستغرق إعجابا ثم يهيج يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له، وقيل: أي يجف بعد خضرته ونضارته فتراه يا من تصح منه الرؤية مصفرا بعد ما رأيته ناضرا مونقا، وقرىء مصفارا وإنما لم يقل فيصفر قيل: إيذانا بأن اصفراره غير مقارن لهيجانه وإنما المترتب عليه رؤيته كذلك، وقيل: للإشارة إلى ظهور ذلك لكل أحد ثم يكون حطاما هشيما متكسرا من اليبس، ومحل الكاف قيل: النصب على

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢٠٥/١٣

الحالية من الضمير في لعب لأنه في معنى الوصف، وقيل: الرفع على أنه خبر بعد خبر للحياة الدنيا بتقدير المضاف إليه أي مثل الحياة كمثل إلخ، ولتضمن ذلك تشبيه جميع ما فيها من السنين الكثيرة بمدة نبات غيث واحد يفنى ويضمحل في أقل من سنة جاءت الإشارة إلى سرعة زوالها وقرب اضمحلالها، وبعد ما بين حقارة أمر الدنيا تزهيدا فيها وتنفيرا عن العكوف عليها أشير إلى فخامة شأن الآخرة وعظم ما فيها من اللذات والآلام ترغيبا في تحصيل نعيمها المقيم وتحذيرا من عذابها الأليم، وقدم سبحانه ذكر العذاب فقال جل وعلا: وفي الآخرة عذاب شديد لأنه من نتائج الانهماك فيما فصل من أحوال الحياة الدنيا ومغفرة عظيمة من الله ورضوان عظيم لا يقادر قدره، وفي مقابلة العذاب الشديد بشيئين إشارة إلى غلبة الرحمة وأنه من باب »لن يغلب عسر يسرين» .

وفي ترك وصف العذاب بكونه من الله تعالى مع وصف ما بعده بذلك إشارة إلى غلبتها أيضا ورمز إلى أن الخير هو المقصود بالقصد الأولى وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور لمن اطمأن بها ولم يجعلها ذريعة للآخرة ومطية لنعيمها، روي عن سعيد بن جبير الدنيا متاع الغرور إن ألهتك عن طلب الآخرة. فأما إذا دعتك إلى طلب رضوان الله تعالى وطلب الآخرة فنعم المتاع ونعم الوسيلة سابقوا إلى مغفرة أي سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم في المضمار إلى أسباب مغفرة عظيمة كائنة من ربكم والكلام على الاستعارة أو المجاز المرسل واستعمال اللفظ في لازم معناه وإنما لزم ذلك لأن اللازم أن يبادر من يعمل ما يكون سببا للمغفرة ودخول الجنة لا أن يعمله أو يتصف بذلك سابقا على آخر وقيل: المراد سابقوا ملك الموت قبل أن يقطعكم بالموت عن الأعمال الموصلة لما ذكر وقيل: سابقوا إبليس قبل أن يصدقكم بغروره وخداعه عن ذلك وهو كما ترى.

والمراد بتلك الأسباب الأعمال الصالحة على اختلاف أنواعها،

وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قال في الآية: كن أول داخل المسجد وآخر خارج،

وقال عبد الله: كونوا في أول صف القتال، وقال أنس: اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام وكل ذلك من باب التمثيل، واستدل بهذا الأمر على أن الصلاة بأول وقتها أفضل من التأخير وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أي كعرضهما جميعا لو ألصق أحدهما بالآخر وإذا كان العرض وهو أقصر الامتدادين موصوفا بالسعة دل على سعة الطول بالطريق الأولى فالاقتصار عليه أبلغ من ذكر الطول معه، وقيل: المراد بالعرض

البسطة ولذا وصف به الدعاء ونحوه مما ليس من ذوي الابعاد وتقدم قول آخر في تفسير نظير الآية من سورة آل عمران وتقديم المغفرة على الجنة لتقدم **التخلية** على **التحلية**." (١)

"تصاغ من غير الثلاثي لكن بقلة، وقيل: إنه من جبره بمعنى أصلحه، ومنه جبرت العظم فانجبر فهو الذي جبر أحوال خلقه أي أصلحها، وقيل: هو المنيع الذي لا ينال يقال للنخلة إذا طالت وقصرت عنها الأيدي: جبارة، وقيل: هو الذي لا ينافس في فعله ولا يطالب بعلة ولا يحجر عليه في مقدوره.

وقال ابن عباس: هو العظيم، وقيل: غير ذلك المتكبر البليغ الكبرياء والعظمة لأنه سبحانه بريء من التكليف الذي تؤذن به الصيغة فيرجع إلى لازمه من أن الفعل الصادر عن تأنق أقوى وأبلغ، أو الذي تكبر عن كل ما يوجب حاجة أو نقصانا سبحان الله عما يشركون تنزيه الله تعالى عما يشركون به سبحانه، أو عن إشراكهم به عز وجل إثر تعداد صفاته تعالى التي لا يمكن أن يشارك سبحانه في شيء منها أصلا هو الله الخالق المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة، أو مبدع الأشياء من غير أصل ولا احتذاء، ويفسر الخلق بإيجاد الشيء البارئ الموجد لها بريئة من تفاوت ما تقتضيه بحسب الحكمة والجبلة، وقيل: المميز بعضها عن بعض بالاشكال المختلفة المصور الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد.

وقال الراغب: الصورة ما تنتقش بها الأعيان وتتميز بها عن غيرها، وهي ضربان: محسوسة تدركها العامة والخاصة بل الإنسان وكثير من الحيوانات كصورة الفرس المشاهدة. ومعقولة تدركها الخاصة دون العامة كالصورة التي اختص الإنسان بها من العقل والروية والمعاني التي خص بها شيء بشيء، وإلى الصورتين أشار بقوله سبحانه:

خلقناكم ثم صورناكم [الأعراف: ١١] إلى آيات أخر انتهى فلا تغفل.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وحاطب بن أبي بلتعة والحسن وابن السميفع «المصور» بفتح الواو والنصب على أنه مفعول للبارىء، وأريد به جنس المصور،

وعن علي كرم الله تعالى وجهه فتح الواو وكسر الراء على إضافة اسم الفاعل إلى المفعول

نحو الضارب الغلام، وفي الخانية إن قراءة «المصور» بفتح الواو هنا تفسد الصلاة ولعله أراد إذا أجراه حينئذ على الله سبحانه، وإلا ففي دعوى الفساد بعد ما سمعت نظر.

له الأسماء الحسنى الدالة على محاسن المعاني يسبح له ما في السماوات والأرض من الموجودات بلسان

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٤/١٨٥

الحال لما تضمنته من الحكم والمصالح التي يضيق عن حصرها نطاق البيان، أو بلسان المقال الذي أوتيه كل منها حسبما يليق به على ما قاله كثير من العارفين، وقد تقدم الكلام فيه وهو العزيز الحكيم الجامع للكمالات كافة فإنها مع تكثرها وتشعبها راجعة إلى كمال القدرة المؤذن به العزيز بناء على تفسيره بالغالب وإلى كمال العلم المؤذن به الحكيم بناء على تفسيره بالفاعل بمقتضى الحكمة، وفي ذلك إشارة إلى **التحلية** بعد **التخلية** كما في قوله تعالى: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [الشورى: ١١] فتأمل ولا تغفل.

ولهذه الآيات فضل عظيم كما دلت عليه عدة روايات،

وأخرج الإمام أحمد والدارمي والترمذي وحسنه والطبراني وابن الضريس والبيهقي في الشعب عن معقل بن يسار عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «من قال:

حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي وإن مات ذلك اليوم مات شهيدا ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة»

.

وأخرج الديلمي عن ابن عباس مرفوعا «اسم الله الأعظم في ست آيات من آخر سورة الحشر» .

وأخرج أبو علي عبد الرحمن بن محمد النيسابوري في فوائده عن محمد بن الحنفية أن البراء بن عازب قال لعلي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه: أسألك بالله إلا ما خصصتني بأفضل ما خصك به رسول الله عليه الصلاة." (١)

"أهل العلم بالسير ثم استخلف بعده أبا لبابة وهو من المهاجرين الأولين هاجر على الصحيح قبل النبي صلى الله عليه وسلم ووهم القرطبي في زعمه أنه مدني وأنه لم يجتمع بالصناديد المذكورين من أهل مكة وموته قيل بالقادسية شهيدا يوم فتح المدائن أيام عمر رضي الله تعالى عنه، ورآه أنس يومئذ وعليه درع وله راية سوداء وقيل رجع منها إلى المدينة فمات بها رضي الله تعالى عنه. وضمير عبس وما بعده للنبي صلى الله عليه وسلم وفي التعبير عنه عليه الصلاة والسلام بضمير الغيبة إجلال له صلى الله عليه وسلم لإيهام أن من صدر عنه ذلك غيره لأنه لا يصدر عنه صلى الله عليه وسلم مثله كما أن في التعبير عنه صلى الله عليه وسلم بضمير الخطاب في قوله سبحانه وما يدريك لعله يزكى ذلك لما فيه من الإيناس بعد الإيحاش

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢٥٧/١٤

والإقبال بعد الإعراض والتعبير عن ابن أم مكتوم بالأعمى للإشعار بعذره في الإقدام على قطع كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وتشاغله بالقوم. وقيل: إن الغيبة أولا والخطاب ثانيا لزيادة الإنكار وذلك كمن يشكو إلى الناس جانيا جنى عليه ثم يقبل على الجاني إذا حمى على الشاكية مواجها بالتوبيخ وإلزام الحجة وفي ذكر الأعمى نحو من ذلك لأنه وصف يناسب الإقبال عليه والتعطف. وفيه أيضا دفع إيهام الاختصاص بالأعمى المعين وإيماء إلى أن كل ضعيف يستحق الإقبال من مثله على أسلوب «لا يقضي القاضي وهو غضبان» وإن بتقدير حرف الجر أعني لام التعليل وهو معمول لأول الفعلين على مختار الكوفيين وثانيهما على مختار البصريين وكليهما معا على مذهب الفراء نعم هو بحسب المعنى علة لهما بلا خلاف أي عبس لأن جاءه الأعمى وأعرض لذلك. وقرأ زيد بن علي «عبس» بتشديد الباء للمبالغة لا للتعدية وهو والحسن وأبو عمران الجوني وعيسى «آن» بهمزة ومدة بعدها وبعض القراء بهمزتين محققتين والهمزة في القرائتين للاستفهام الإنكاري ويوقف على تولى والمعنى إلا أن جاء الأعمى فعل ذلك وضمير لعله للأعمى والظاهر أن الجملة متعلقة بفعل الدراية على وجه سد مسد مفعوله أي أي شيء يجعلك داريا بحال هذا الأعمى لعله يتطهر بما يتلقن من الشرائع من بعض أوضار الإثم.

أو يذكر أي يتعظ فتنفعه الذكرى أي ذكراك وموعظتك والمعنى أنك لا تدري ما هو مترقب منه من تزك أو تذكر ولو دريت لما كان الذي كان والغرض نفي دراية أنه يزكى أو يذكر والترجي راجع إلى الأعمى أو إلى النبي صلى الله عليه وسلم على ما قيل دلالة على أن رجاء تزكية أو كونه ممن يرجى منه ذلك كاف في الامتناع من العبوس والإعراض كيف وقد كان استزكاؤه محققا، ولما هضم من حقه في تعلق الرجاء به لا التحقق اعتبر متعلق التزكي بعض الأوضار ترشيحا لذلك وفيه إظهار ما يقتضي مقام العظمة هاهنا من إطلاق التزكي وحمله على ما ينطلق عليه الاسم لا الكامل. وقال بعضهم: متعلق الدراية محذوف أي ما يدريك أمره وعاقبة حاله ويطلعك على ذلك. وقوله سبحانه لعله إلخ استئناف وارد لبيان ما يلوح به ما قبله فإنه مع إشعاره بأن له شأنا منافيا للإعراض عنه خارجا عن دراية الغير ودرائه مؤذن بأنه تعالى يدريه ذلك. واعتبر في التزكي الكمال فقال: أي لعله يتطهر بما يقتبس منك من أوضار الإثم بالكلية أو يتذكر فتنفعه موعظتك إن لم تبلغ درجة التزكي التام، ولعل الأول أبعد مغزى. وقدم التزكي على التذكر لتقدم التخلية على التحلية وخص بعضهم الثاني بما إذا كان ما يتعلمه من النوافل والأول بما إذا كان سوى ذلك وهو كما ترى وفي الآية تعريض وإشعار بأن من تصدى صلى الله عليه وسلم لتزكيتهم وتذكيرهم من الكفرة لا يرجى منهم

التزكي والتذكر أصلا فهي كقولك لمن يقرر مسألة لمن لا يفهمها وعنده آخر قابل لفهمها: لعل هذا يفهم ما تقرر فإنه يشعر بأنه قصد تفهيم غيره وليس بأهل لما قصده، وقيل: جاء التعريض من جهة أن المحدث عنه كان متزكيا من الآثام متعظا." (١)

"والباطنة والتنكير للتكثير، وقيل للتفخيم على أن المراد بالنفس آدم عليه السلام والأول أنسب بجواب القسم الآتي، ومن ذهب إلى ذلك جعله من الاستخدام. وذهب الفراء والزجاج والمبرد وقتادة وغيرهم إلى أن ما في المواضع الثلاثة مصدرية أي وبنائها وطحوها وتسويتها. وتعقبه الزمخشري بأنه ليس بالوجه لقوله تعالى فألهمها فجورها وتقواها وما يؤدي إليه من فساد النظم وذلك على ما في الحواشي لما يلزم من عطف الفعل على الاسم وأنه لا يكون له فاعل لا ظاهر وهو ظاهر ولا مضمر لعدم مرجعه. واعترض بأن الأخير منتقض بالأفعال السابقة أعني بناها وطحاها سواها على أن دلالة السياق كافية في صحة الإضمار، وأما الأول ففيه أن عطف الفعل على الاسم ليس بفاسد وإن كان خلاف الظاهر على أنه على ما بعد ما كأنه قيل:

ونفس وتسويتها فإلهامها فجورها وتقواها. واعترض هذا بأن الفاء يدل على الترتيب من غير مهلة، والتسوية قبل نفخ الروح والإلهام بعد البلوغ وأجيب بأن التسوية تعديل الأعضاء والقوى ومنها المفكرة والإلهام عبارة عن بيان كيفية استعمالها في النجدين في هذا المحل وهو غير مفارق عنه منذ سوى نعم يزداد بحسب ازدياد القوى كيفية لا وجودا على أن المهلة في نحوها عرفي وقد يعد متعقبا دون تراخ ثم إنه مشترك الإلزام ولا معنى لقول الطيبي النظم السري يوجب موافقة القرائن فلا يجوز، ونفس وتسويتها فألهمها الله فهي حاصلة وإنما ذلك بناء على توهم أن قوله تعالى فألهمها جملة وبالجملة لا يلوح فساد هذا الوجه. وأبى القاضي عبد الجبار إلا المصدرية دون الموصولية قال لما يلزم منها تقديم الإقسام بغير الله تعالى على إقسامه سبحانه بنفسه عز وجل.

وأجاب عنه الإمام بأن أعظم المحسوسات الشمس فذكرها الله تعالى مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمها ثم ذكر سبحانه ذاته المقدسة ووصفها جل وعلا بصفات ثلاث ليحظى العقل بإدراك جلال الله تعالى وعظمته سبحانه كما يليق به جل جلاله ولا ينازعه الحس فكان ذلك طريقا إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى بيداء أوج كبريائه جل شأنه، وجوز أن تكون ما عبارة عن الأمر الذي له بنيت السماء

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٥/٢٤٢

وطحيت الأرض وسويت النفس من الحكم والمصالح التي لا تحصى، ويكون إسناد الأفعال إليها مجازا، وفاعل ألهمها يجوز أن يكون ذلك أمر ويكون الإسناد مجازا أيضا وهو كما ترى والفجور والتقوى على ما أخرج عبد بن حميد وغيره عن الضحاك المعصية والطاعة مطلقا قلبيين كانا أو قالبيين وإلهامهما النفس على ما أخرج هو وابن جرير وجماعة عن مجاهد تعريفهما إياها بحيث تميز رشدها من ضلالها، وروي ذلك عن ابن عباس كما في البحر، وقريب منه قول ابن زيد ألهمها فجورها وتقواها بينهما لها. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهما نحوه عن قتادة والآية على ذلك نظير قوله تعالى وهديناه النجدين [البلد: ١٠] ,وقدم الفجور على التقوى لأن إلهامه بهذا المعنى من مبادئ تجنبه وهو تخلية والتخلية مقدمة على التحلية وقيل:

قدم مراعاة للفواصل وأضيفا إلى ضمير النفس قيل إشارة إلى أن الملهم للنفس فجور وتقوى قد استعدت لهما فهما لها بحكم الاستعداد، وقيل رعاية للفواصل أيضا. وقوله تعالى قد أفلح من زكاها جواب القسم على ما أخرجه الجماعة عن قتادة وإليه ذهب الزجاج وغيره، وحذف اللام كثير لا سيما عند طول الكلام المقتضى للتخفيف أو لسده مسدها. وفاعل زكاها ضمير من والضمير المنصوب للنفس وكذا في قوله تعالى وقد خاب من دساها وتكرير قد فيه لإبراز الاعتناء بتحقيق مضمونه والإيذان بتعلق القسم به أصالة، والتزكية التنمية والتدسية الإخفاء وأصل دسى دسس فأبدل من ثالث التماثلات ياء ثم أبدلت ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها، وأطلق بعضهم فقال: أبدل من ذلك حرف علة كما قالوا في تقضض تقضى ودسس مبالغة في دس بمعنى أخفى قال الشاعر:." (١)

"عنهم حمل الآية على ذلك.

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقسم قال: لقيت الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما وأرضاهما فقلت أخبرني عن قول الله تعالى وأما بنعمة ربك فحدث فقال: الرجل المؤمن يعمل عملا صالحا فيخبر به أهل بيته.

وأخرج ابن أبي حاتم عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال فيها إذا أصبت خيرا فحدث إخوانك والظاهر أن المراد بالنعمة ما أفاضه الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم من فنون النعم التي من جملتها ما تقدم. وأخرج ابن المنذر وغيره عن مجاهد تفسيرها بالنبوة ورووا عنه أيضا تفسيرها بالقرآن ووافقه في الأول محمد

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٥/٣٦٠

بن إسحاق وفي الثاني الكلبي، وعليهما المراد بالتحديث التبليغ ولا يخفى أن كلا التفسيرين غير مناسب لما قبل وهذه الجمل الثلاث مرتبة على ما قبلها فقيل على اللف والنشر المشوش وحاصل المعنى أنك كنت يتيما وضالا وعائلا فآواك وهداك وأغناك فمهما يكن من شيء فلا تنس نعمة الله تعالى عليك في هذه الثلاث واقتد بالله تعالى فتعطف على اليتيم وترحم على السائل فقد ذقت اليتم والفقر. وقوله تعالى وأما بنعمة إلخ في مقابلة قوله سبحانه وجدك ضالا فهدى لعمومه وشموله لهدايته عليه الصلاة والسلام من الضلال بتعليم الشرائع وغير ذلك من النعم، ولم يراع الترتيب لتقديم حقوق العباد على حقه عز وجل فإنه سبحانه وتعالى غني عن العالمين، وقيل لتقديم **التخلية** على **التحلية** أو للترقي أو لمراعاة الفواصل ونظر في كل ذلك. وقال الطيبي: الظاهر أن المراد بالسائل طالب العلم لا المستجدي وعليه لا مانع من كون التفصيل على الترتيب فيقال إنه تعالى ذكر أحواله صلى الله عليه وسلم على وفق الترتيب الخارجي بأن يراد بهدايته عليه الصلاة والسلام ما يعم توفيقه للنظر الصحيح في صباه فقد كان صلى الله عليه وسلم موفقا لذلك ولذا لم يعبد عليه الصلاة والسلام صنما أو يراد بإغنائه ما كان بعد البعثة ثم فصل سبحانه على ذلك الترتيب فجعل عدم قهر اليتيم في مقابلة إيوائه تعالى له عليه الصلاة والسلام في يتمه، وعدم زجر السائل طالب العلم والمتعلم منه في مقابلة هدايته له، والتحدث بالنعمة في مقابلة الغنى وإن كانت النعمة شاملة له ولغيره. وآثر سبحانه فحدث على «فخبر» قيل ليكون ذكر النعمة عليه الصلاة والسلام حديثا لا ينساه ويوجده ساعة غب ساعة والله تعالى أعلم. وندب التكبير عند خاتمة هذه السورة الكريمة وكذا ما بعدها إلى آخر القرآن العظيم فقد أخرج الحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في الشعب من طريق أبي الحسن البزي المقري قال: سمعت عكرمة بن سليمان يقول: قرأت على إسماعيل بن قسطنطين فلما بلغت والضحى قال: كبر عند خاتمة كل سورة حتى تختم فإني قرأت على عبد الله بن كثير فلما بلغت والضحى قال: كبر حتى تختم، وأخبره عبد الله بن كثير أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك وأخبره أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمره بذلك وأخبره أن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه أمره بذلك، وأخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك وكان ذلك منه عليه الصلاة والسلام فرحا بنزول الوحي بعد تأخره وبطئه حتى قيل ما قيل هذا وعلى ذلك عمل الناس اليوم والحمد لله رب العالمين.." (١)

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٥/٣٨٤

"أخي يا أخي «لا فاحشا» عند بيته ... ولا برم عند اللقاء هيوب

والمراد بالأمر بذلك الإغراء والحث عليه ففي الكلام استعارة مصرحة تبعية، وقيل: المراد بالفحشاء سائر المعاصي وحملها على الزنا نعوذ بالله منه وجوز أن تكون بمعنى الكلمة السيئة فتكون هذه الجملة كالتأكيد للأولى وقدم وعد الشيطان على أمره لأنه بالوعد يحصل الاطمئنان إليه فإذا اطمأن إليه وخاف الفقر تسلط عليه بالأمر إذ فيه استعلاء على المأمور والله يعدكم في الإنفاق على لسان نبيكم صلى الله تعالى عليه وسلم مغفرة لذنوبكم، وعن قتادة لفحشائكم، والتنوين فيها للتفخيم وكذا وصفها بقوله تعالى: منه فهو مؤكد لفخامتها، وفيه تصريح بما علم ضمنا من الوعد كما علمت مبالغة في توهين أمر الشيطان وفضلا أي رزقا وخلفا- وهو المروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما- فتكون المغفرة إشارة إلى منافع الآخرة، وهذا إشارة إلى منافع الدنيا.

وفي الحديث «ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر:

اللهم أعط ممسكا تلفا»

وقدم منافع الآخرة لأنها أهم عند المصدق بها، وقيل: المغفرة والفضل كلاهما في الآخرة وتقديم الأول حينئذ لتقدم التخلية على التحلية ولكون رفع المفاسد أولى من جلب المصالح. وفي الآية فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز [آل عمران: ١٨٥] وحذف صفة الثاني لدلالة المذكور عليها والله واسع بالرحمة والفضل عليم بما تنفقونه فيجازيكم عليه، والجملة تذييل مقرر لمضمون ما قبله ومثلها في قوله تعالى:

يؤتي الحكمة أخرج ابن جرير وغيره عن ابن عباس أنها المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله، وفي رواية عنه الفقه في القرآن، ومثله عن قتادة، والضحاك، وخلق كثير، وما روى ابن المنذر عن ابن عباس أنها النبوة يمكن أن يحمل على هذا لما

أخرج البيهقي عن أبي أمامة قال: «قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: من قرأ ثلث القرآن أعطي ثلث النبوة ومن قرأ نصف القرآن أعطي نصف النبوة ومن قرأ ثلثيه أعطي ثلثي النبوة ومن قرأ القرآن كله أعطي كل النبوة ويقال له يوم القيامة اقرأ وارق بكل آية درجة حتى ينجز ما معه من القرآن فيقال له اقبض فيقبض فيقال له هل تدري ما في يديك؟ فإذا في يده اليمنى الخلد وفي الأخرى النعيم»

وليس المراد من القراءة في هذا الخبر مجردها إذ ذلك مما يشترك فيه البر والفاجر ولكن المراد قراءة بفقه

ويؤيد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء- الحكمة قراءة القرآن والفكرة فيه- وعن مجاهد أنها الإصابة في القول والعمل، وفي رواية عنه أنها القرآن والعلم والفقه، وفي أخرى العلم الذي تعظم منفعته وتجل فائدته، وعن عطاء أنها المعرفة بالله تعالى، وقال أبو عثمان: هي نور يفرق به بين الوسواس والإلهام، وقيل: غير ذلك، وفي البحر أن فيها تسعة وعشرين قولا لأهل العلم قريب بعضها من بعض، وعد بعضهم الأكثر منها اصطلاحا واقتصارا على ما رآه القائل فردا مهما من الحكمة وإلا فهي في الأصل مصدر من الأحكام وهو الإتقان في علم أو عمل أو قول أو فيها كلها، وعن مقاتل أنها فسرت في القرآن بأربعة أوجه فتارة بمواعظ القرآن وأخرى بما فيه من عجائب الأسرار ومرة بالعلم والفهم وأخرى بالنبوة.

قيل: ولعل الأنسب بالمقام ما ينتظم الأحكام المبينة في تضاعيف الآية الكريمة من أحد الوجهين الأولين ومعنى إيتائها تبيينها والتوفيق للعمل بها أي تبيينها ويوفق للعلم والعمل بها من يشاء من عباده أن يؤتيها إياه بموجب سعة فضله وإحاطة علمه كما آتاكم ما بينه في ضمن الآي من الحكم البالغة التي يدور عليها فلك منافعكم فاغتنموها وسارعوا إلى العمل بها ومن يؤت الحكمة بناه للمفعول إما لأن المقصود بيان فضيلة من نال الحكمة بقطع النظر عن الفاعل وإما لتعين الفاعل والإظهار في مقام الإضمار للاعتناء بشأن هذا المظهر ولهذا قدم من قبل على." (١)

"وقرأ نافع وابن عامر بغير واو على وجه الاستئناف وهي قراءة أهل المدينة والشام، والقراءة المشهورة قراءة أهل مكة والعراق أي بادروا وسابقوا، وقرئ بالأخير إلى مغفرة من ربكم وجنة أي أسبابهما من الأعمال الصالحة، وعن علي كرم الله تعالى وجهه سارعوا إلى أداء الفرائض، وعن ابن عباس إلى الإسلام، وعن أبي العالية إلى الهجرة، وعن أنس بن مالك إلى التكبيرة الأولى، وعن سعيد بن جبير إلى أداء الطاعات، وعن يمان إلى الصلوات الخمس وعن الضحاك إلى الجهاد، وعن عكرمة إلى التوبة، والظاهر العموم ويدخل فيه سائر الأنواع، وتقديم المغفرة على الجنة لما أن التخلية مقدمة على التحلية، وقيل: لأنها كالسبب لدخول الجنة، ومن متعلقة بمحذوف وقع نعتا- لمغفرة- والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين لإظهار مزيد اللطف بهم ووصف المغفرة بكونها من الرب دون الجنة تعظيما لأمرها وتنويها بشأنها وسبب نزول الآية على ما

أخرجه عبد بن حميد وغيره عن عطاء بن أبي رباح «أن المسلمين قالوا: يا رسول الله بنو إسرائيل كانوا أكرم

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢/٤٠

على الله تعالى منا كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبحت كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة داره اجدع أنفك اجدع أذنك افعل كذا وكذا فسكت صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت هذه الآيات إلى قوله تعالى: والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم الآية فقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم: ألا أخبركم بخير من ذلكم ثم تلاها عليهم»

والتنوين في مغفرة للتعظيم ويؤيده الوصف، وكذا في جنة ويؤيده أيضا وصفها بقوله سبحانه: عرضها السماوات والأرض والمراد كعرض السموات فهو على حد قوله:

حسبت بغام راحلتي عناقا ... وما هي ويب غيرك بالعناق

فإنه أراد كصوت عناق، والعرض أقصر الامتدادين، وفي ذكره دون ذكر الطول مبالغة، وزاد في المبالغة بحذف أداة التشبيه وتقدير المضاف فليس المقصود تحديد عرضها حتى يمتنع كونها في السماء بل الكلام كناية عن غاية السعة بما هو في تصور السامعين، والعرب كثيرا ما تصف الشيء بالعرض إذا أرادوا وصفه بالسعة، ومنه قولهم: أعرض في المكارم إذا توسع فيها، والمراد من السماوات والأرض السموات السبع والأرضون السبع، فعن ابن عباس من طريق السدي أنه قال: تقرن السموات السبع والأرضون السبع كما تقرن الثياب بعضها ببعض فذاك عرض الجنة، والأكثرون على أنها فوق السموات السبع تحت العرش وهو المروي عن أنس بن مالك، وقيل: إنها في السماء الرابعة وإليه ذهب جماعة، وقيل: إنها خارجة عن هذا العالم حيث شاء الله تعالى، ومعنى كونها في السماء أنها في جهة العلو ولا مانع عندنا أن يخلق الله تعالى في العلو أمثال السموات والأرض بأضعاف مضاعفة. ولا ينافي هذا خبر أنها في السماء الرابعة إن صح، ولا ما حكي عن الأكثر لأن ذلك مثل قولك: في الدار بستان إذا كان له باب منها يشرع إليه مثلا فإنه لا ينافي خروج البستان عنها، وعلى هذا التأويل لا ينافي الخبر أيضا كون عرض الجنة كعرض السماء والأرض [الحديد: ٢١] من غير حاجة إلى القول بأنه ليس المراد من السماوات السموات السبع كما قيل به.

ومن الناس من ذهب إلى أنها في السماء تحت العرش أو الرابعة إلا أن هذا العرض إنما يكون يوم القيامة حيث يزيد الله تعالى فيها ما يزيد.

وحكي ذلك عن أبي بكر أحمد بن علي قيل: وبذلك يدفع السؤال بأنه إذا كان عرض الجنة «كعرض السماء والأرض» فأين تكون النار، ووجه الدفع أن ذلك يوم القيامة، وأما الآن فهي دون ذلك بكثير، ويوم

يثبت لها ذلك لا تكون فيه السموات والأرض كهذه السموات والأرض المشبه بعرضهما عرضها، ولا يخفى أن القول بالزيادة في السعة يوم القيامة وإن سلم إلا أن كونها اليوم دون هذه السموات والأرض بكثير في حيز المنع ولا يكاد يقبل، والسؤال المذكور أجاب عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير ذلك.." (١)

"قلوبنا وإمدادنا بالمدد الروحاني من عندك وانصرنا على القوم الكافرين تقريبا له إلى حيز القبول فإن الدعاء المقرون بالخضوع الصادر عن زكاء وطهارة أقرب إلى الاستجابة.

ومن الناس من قال: المراد من– ثبت أقدامنا– ثبتنا على دينك الحق فيكون تقديم طلب المغفرة على هذا التثبيت من باب تقديم **التخلية** على **التحلية** وتقديمهما على طلب النصرة لما تقدم، وقيل: إنهم طلبوا الغفران أولا ليستحقوا طلب النصر على الكافرين بترجحهم بطهارتهم عن الذنوب عليهم وهم محاطون بالذنوب، وفي طلبهم النصر مع كثرتهم المفرطة التي دل عليها ما سبق إيذان بأنهم لا ينظرون إلى كثرتهم ولا يعولون عليها بل يسندون ثبات أقدامهم إلى الله تعالى ويعتقدون أن النصر منه سبحانه وتعالى، وفي الاخبار عنهم بأنه ما كان قولهم إلا هذا دون ما فيه شائبة جزع وخور وتزلزل من التعريض بالمنهزمين ما لا يخفى، وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية عنهما برفع «قولهم» على أنه الاسم والخبر إن وما في حيزها أي ما كان قولهم شيئا من الأشياء إلا هذا القول المنبئ عن أحاسن المحاسن، قال مولانا شيخ الإسلام: وهذا كما ترى أقعد بحسب المعنى وأوفق بمقتضى المقام لما أن الأخبار بكون قولهم المطلق خصوصية قولهم المحكي عنهم مفصلا كما تفيده قراءتهما أكثر إفادة للسامع من الإخبار بكون خصوصية قولهم المذكور قولهم لما أن مصب الفائدة وموقع البيان في الجمل الخبرية هو الخبر، فالأحق بالخبرية ما هو أكثر إفادة وأظهر دلالة على الحدث وأوفر اشتمالا على نسب خاصة بعيدة من الوقوع في الخارج وفي ذهن السامع، ولا يخفى أن ذلك هاهنا في أن مع ما في حيزها أتم وأكمل، وأما ما تفيده الإضافة من النسبة المطلقة الإجمالية فحيث كانت سهلة الحضور خارجا وذهنا كان حقها أن تلاحظ ملاحظة إجمالية وتجعل عنوانا للموضوع لا مقصودا بالذات في باب البيان، وإنما اختار الجمهور ما اختار والقاعدة صناعية هي أنه إذا اجتمع معرفتان فالأعرف منهما أحق بالاسمية، ولا ريب في أعرفية أن قالوا لدلالته على جهة النسبة وزمان الحدث ولأنه يشبه المضمر من حيث إنه لا يوصف ولا يوصف به، وقولهم مضاف إلى مضمر وهو بمنزلة العلم فتأمل انتهى.

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢/٢٧١

وقال أبو البقاء: جعل ما بعد إلا اسما لكان، والمصدر الصريح خبرا لها أقوى من العكس لوجهين: أحدهما أن أن قالوا يشبه المضمر في أنه لا يوصف وهو أعرف، والثاني أن ما بعد إلا مثبت، والمعنى كان قولهم ربنا اغفر لنا ذنوبنا إلخ دأبهم في الدعاء، وقال العلامة الطيبي: كأن المعنى ما صح ولا استقام من الربانيين في ذلك المقام إلا هذا القول وكأن غير هذا القول مناف لحالهم، وهذه الخاصية يفيدها إيقاع أن مع الفعل اسما لكان، وتحقيقه ما ذكره صاحب الانتصاف من أن فائدة دخول كان المبالغة في نفي الفعل الداخل عليه بتعديد جهة فعله عموما باعتبار الكون وخصوصا باعتبار خصوصية المقال فهو نفي مرتين، ثم قال: فعلى هذا لو جعلت رب الجملة أن قالوا واعتمدت عليه وجعلت قولهم كالفضلة حصل لك ما قصدته ولو عكست ركبت التعسف، ألا ترى إلى أبي البقاء كيف جعل الخبر نسيا منسيا في الوجه الثاني واعتمد على ما بعد إلا انتهى.

ومنه يعلم ما في كلام مولانا شيخ الإسلام فإنه متى أمكن اعتبار جزالة المعنى مع مراعاة القاعدة الصناعية لا يعدل عن ذلك إلى غيره لا سيما وقد صرحوا بأن جعل الاسم غير الأعرف ضعيف، قال في المغني: واعلم أنهم حكموا لأن وإن- المقدرتين بمصدر معرف بحكم الضمير لأنه لا يوصف كما أن الضمير أيضا كذلك فلهذا قرأت السبعة ما كان حجتهم إلا أن قالوا [الجاثية: ٢٥] فما كان جواب قومه إلا أن قالوا [الأعراف: ٨٢، النمل:

٥٦، العنكبوت: ٢٤، ٢٩] والرفع ضعيف كضعف الاخبار بالضمير عما دونه في التعريف انتهى، وعلل بعضهم أعرفية المصدر المؤول بأنه لا ينكر.." (١)

"للإيذان بأن كل واحد من الأمور المترتبة نعمة جليلة على حيالها مستوجبة للشكر ولو روعي ترتيب الوجود كما في قوله تعالى: ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم [البقرة: ١٢٩] لتبادر إلى الفهم عد الجميع نعمة واحدة وهو السر في التعبير عن القرآن- بالآيات- تارة- وبالكتاب والحكمة- أخرى رمزا إلى أنه باعتبار كل عنوان نعمة على حدة قاله مولانا شيخ الإسلام، وقد يقال: المراد من تلاوة الآيات تلاوة ما يوحى إليه صلى الله تعالى عليه وسلم من الآيات الدالة على التوحيد والنبوة ومن التزكية الدعاء إلى الكلمة الطيبة المتضمنة للشهادة لله تعالى بالتوحيد ولنبيه عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وبتعليم الكتاب تعليم ألفاظ القرآن وكيفية أدائه ليتهيأ لهم بذلك إقامة عماد الدين، وبتعليم

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢٩٨/٢

الحكمة الإيقاف على الأسرار المخبوءة في خزائن كلام الله تعالى، وحينئذ أمر ترتيب هذه المتعاطفات ظاهر إذ حاصل ذل كأنه صلى الله تعالى عليه وسلم يمهد سبل التوحيد ويدعو إليه ويعلم ما يلزم بعد التلبس به ويزيد على الزبد شهدا فتقديم التلاوة لأنها من باب التمهيد ثم التزكية لأنها بعده وهي أول أمر يحصل منه صفة يتلبس بها المؤمنون وهي من قبيل **التخلية** المقدمة على **التحلية** لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح، ثم التعليم لأنه إنما يحتاج إليه بعد الإيمان، بقي أمر تقديم التعليم على التزكية في آية البقرة ولعله كان إيذانا بشرافة **التحلية** كما أشرنا إليه هناك فتأمل وإن كانوا من قبل أي من قبل بعثة الرسول لفي ضلال مبين ظاهر وإن هي المخففة واللام هي الفارقة، والمعنى إن الشأن كانوا من قبل إلخ.

وإلى هذا ذهب بعض المحققين، وذكر مثله مكي إلا أنه قال: التقدير وأنهم كانوا من قبل فجعل اسمها ضميرا عائدا على المؤمنين، قال أبو حيان: وكلا الوجهين لا نعرف نحويا ذهب إليه وإنما تقرر عندنا في كتب النحو ومن الشيوخ أنك إذا قلت: إن زيدا قائم ثم خففت. فمذهب البصريين فيها وجهان: أحدهما جواز الأعمال ويكون حالها وهي مخففة كحالها وهي مشددة- إلا أنها لا تعمل في مضمر، ومنع ذلك الكوفيون- وهم محجوبون بالسماع الثابت من لسان العرب- والوجه الثاني وهو الأكثر عندهم أن تهمل فلا تعمل لا في ظاهر ولا مضمر لا ملفوظ ولا مقدر البتة فإن وليها جملة اسمية ارتفعت بالابتداء والخبر ولزمت اللام في ثاني مصحوبيها إن لم ينف، وفي أولهما إن تأخر، فتقول: إن زيد لقائم ومدلوله مدلول إن زيدا قائم، وإن وليها جملة فعلية فلا بد عند البصريين أن تكون من نواسخ الابتداء، وإن جاء الفعل من غيرها فهو شاذ لا يقاس عليه عند جمهورهم.

وأجاب الحلبي عمن قدر الشأن بأنه تفسير معنى لا بيان إعراب، وقال عصام الملة: إن الشأن لم يرد تقدير ضمير الشأن بل جعل الجملة حالا بتأويل القصة ذلك لئلا يختلف زمان الحال والعامل فإن زمان الكون في ضلال مبين قبل زمان التعليم لكن كون القصة ذلك مستمر، ثم قال: وهذا تأويل شائع مشهور في الحال الذي يتقدم زمان تحققه زمان تحقق العامل فاحفظه ولا تلفظه انتهى، وأنت تعلم أن ما ذكره الحلبي خلاف الظاهر، وكلام عصام الملة منظور فيه لأن المناسب لما ذكره على تقدير تعينه تقدير الشأن قبل- أن- لا بعدها كما لا يخفى، وجوز بعضهم كون الجملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب، والأكثرون على الحالية، وعلى التقديرين فهي مبينة لكمال النعمة وتمامها، وقوله تعالى:." (١)

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢/٣٢٦

"التعلق في كون مطلق بل يجوز التعلق به أو بمقيد، ويجوز حذفه إذا كان عليه دليل ولا يخفى متانة الجواب، وأن إنكار أبي حيان ليس بشيء إلا أن تقدير كون مقيد فيما نحن فيه تعسف مستغنى عنه.

وزعم بعضهم جواز كون على بمعنى مع، وأنه متعلق- بآتنا- ولا حذف لشيء أصلا والمراد- آتنا مع رسلك وشاركهم معنا في أجرنا- فإن الدال على الخير كفاعله، وفائدة طلب تشريكهم معهم أداء حقهم وتكثير فضيلتهم ببركة مشاركتهم ولا يخفى أن هذا مما لا ينبغي تخريج كلام الله تعالى الجليل عليه بل ولا كلام أحد من فصحاء العرب، وتكرير النداء لما مر غير مرة وجمع الرسل مع أن المنادي هو واحد الآحاد صلى الله عليه وسلم وحده لما أن دعوته ولا سيما على منبر التوحيد، وما أجمع عليه الكل من الشرائع منطوية على دعوة الكل فتصديقه صلى الله عليه وسلم تصديق لهم عليهم السلام، وكذا الموعود على لسانه عليه الصلاة والسلام من الثواب موعود على لسانهم وإيثار الجمع على الأول لإظهار الرغبة في تيار فضل الله تعالى إذ من المعلوم أن الثواب على تصديق رسل أعظم من الثواب على تصديق رسول واحد، وعلى الثاني لإظهار كمال الثقة بإنجار الموعود بناء على كثرة الشهود وتأخير هذا الدعاء بناء على ما ذكرنا في تفسير الموصول، ويكاد يكون مقطوعا به ظاهرا لأن الأمر أخروي.

وأما إذا فسر بالنصر على الأعداء- كما قيل- فتأخيره عما قبله إما لأنه من باب التحلية والآخر من باب التخلية والتحلية متأخرة عن التخلية، وإما لأن الأول مما يترتب على تحققه النجاة في العقبى وعلى عدمه الهلاك فيها والثاني ليس كذلك- كما لا يخفى- فيكون دونه فلهذا أخر عنه، وأيد كون المراد النصر لا الثواب الأخروي تعقيب ذلك بقوله تعالى: ولا تخزنا يوم القيامة لأن طلب الثواب يغني عن هذا الدعاء لأن الثواب متى حصل كان الخزي عنهم بمراحل، وهذا بخلاف ما إذا كان المراد من الأول الدعاء بالنصر في الدنيا فإن عدم الإغناء عليه ظاهر بل في الجمع بين الدعاءين حينئذ لطافة إذ مآل الأول لا تخزنا في الدنيا بغلبة العدو علينا فكأنهم قالوا: لا تخزنا في الدنيا ولا تخزنا في الآخرة، وغايروا في التعبير فعبروا في طلب كل من الأمرين بعبارة للاختلاف بين المطلوبين أنفسهما، وأجيب بأن فائدة التعقيب على ذلك التقدير الإشارة إلى أنهم طلبوا ثوابا كاملا لم يتقدمه خزي ووقوع في بلاء وكأنهم لما طلبوا ما هو المتمنى الأعظم وغاية ما يرجوه الراجون في ذلك اليوم الأيوم، وهو الثواب التفتوا إلى طلب ما يعظم به أمره ويرتفع به في ذلك لموقف قدره وهو ترك العذاب بالمرة، وفي الجمع بين الأمرين على هذا من اللطف ما لا يخفى، وأيضا يحتمل أن يقال: إنهم طلبوا الثواب أولا باعتبار أنه يندفع به العذاب الجسماني، ثم طلبوا دفع العذاب

الروحاني بناء على أن الخزي الإهانة والتخجيل، فيكون في الكلام ترق من الأدنى إلى الأعلى كأنهم قالوا: ربنا ادفع عنا العذاب الجسماني وادفع عنا ما هو أشد منه وهو العذاب الروحاني، وإن أنت أبيت هذا وذاك وادعيت التلازم بين الثواب وترك الخزي فلنا أن نقول: إن القوم لمزيد حرصهم وفرط رغبتهم في النجاة في ذلك اليوم الذي تظهر فيه الأهوال وتشيب فيه الأطفال لم يكتفوا بأحد الدعاءين وإن استلزم الآخر بل جمعوا بينهما ليكون ذلك من الإلحاح- والله تعالى يحب الملحين في الدعاء- فهو أقرب إلى الإجابة، وقدموا الأول لأنه أوفق بما قبله صيغة، ومن الناس من يؤول هذا الدعاء بأنه طلب العصمة عما يقتضي الإخزاء، وجعل ختم الأدعية ليكون ختامها مسكا لأن المطلوب فيه أمر عظيم، والظرف متعلق بما عنده معنى ولفظا ويجب ذلك قطعا إن كان الكلام مؤولا، أو كان الموصول عبارة عن النصر، ويترجح- بل يكاد يجب أيضا- إذا كان الموصول عبارة عن الثواب واحتمال أنه مما تنازع فيه آتنا ولا تخزنا على ذلك التقدير هو كما ترى إنك لا تخلف الميعاد تذييل لتحقيق ما نظموا في سلك الدعاء، وقيل: متعلق بما قبل الأخير اللازم له، وإليه يشير كلام الأجهوري، والميعاد مصدر ميمي بمعنى." (١)

"بين النساء فتقعوا في نحو ما هربتم منه فواحدة تكفيكم في تحصيل غرضكم (١) وآتوا النساء صدقاتهن مهورهن نحلة عطية من الله وفضلا، وفيه إشارة إلى **التخلية** عن البخل والغدر **والتحلية** بالوفاء والكرم، وذلك من جملة ما يربى به القوى فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ولا تأنفوا وتتكبروا عن ذلك وهذا أيضا نوع من التربية لما فيه من **التخلية** عن الكبر والأنفة **والتحلية** بالتواضع والشفقة ولا تؤتوا السفهاء أموالكم أي لا تودعوا الناقصين عن مراتب الكمال أسراركم وعلومكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها أي غذوهم بشيء منها واكسوهم أي حلوهم وقولوا لهم قولا معروفا لينقادوا إليكم ويسلموا أنفسهم بأيديهم وابتلوا اليتامى

أي اختبروهم، ولعله إشارة إلى اختبار الناقصين من السائرين حتى إذا بلغوا النكاح وصلحوا للإرشاد والتربية فإن آنستم منهم رشدا أي استقامة في الطريق وعدم تلون فادفعوا إليهم أموالهم التي يستحقونها من الأسرار التي لا تودع إلا عند الأحرار.

والمراد إيصاء الكمل من الشيوخ أن يخلفوا ويأذنوا بالإرشاد من يصلح لذلك من المريدين السالكين على أيديهم ولا تأكلوها أي تنتفعوا بتلك الأموال دونهم إسرافا وبدارا أن يكبروا بالتصدي للإرشاد فإن ذلك من

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢/٣٧٦

أعظم أدواء النفس والسموم القاتلة ومن كان منكم غنيا بالله لا يلتفت إلى ضرورات الحياة أصلا فليستعفف عما للمريد ومن كان فقيرا لا يتحمل الضرورة فليأكل أي فلينتفع بما للمريد بالمعروف وهو ما كان بقدر الضرورة فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم الله تعالى وأرواح أهل الحضرة وخذوا العهد عليهم برعاية الحقوق مع الحق والخلق وكفى بالله حسيبا لأنه الموجود الحقيقي والمطلع الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهو حسبنا ونعم الوكيل للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون شروع في بيان أحكام المواريث بعد بي!ن أموال اليتامى المنتقلة إليهم بالإرث، والمراد من الرجال الأولاد الذكور، أو الذكور أعم من أن يكون كبارا أو صغارا، ومن الأقربين الموروثون، ومن الوالدين ما لم يكن بواسطة، والجد والجدة داخلان تحت الأقربين، وذكر الولدان مع دخولهما أيضا اعتناء بشأنهما، وجوز أن يراد من الوالدين ما هو أعم من أن يكون بواسطة أو بغيرها فيشمل الجد والجدة، واعترض بأنه يلزم توريث أولاد الأولاد مع وجود الأولاد. وأجيب بأن عدم التوريث في هذه الصورة معلوم من أمر آخر لا يخفى، والنصيب الحظ كالنصب بالكسر ويجمع على أنصباء وأنصبة، ومن- في «مما» متعلقة بمحذوف وقع صفة للنكرة قبله أي نصيب كائن مما ترك وجوز تعلقه بنصيب.

وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون المراد من النساء البنات مطلقا، أو الإناث كذلك، وإيراد حكمهن على الاستقلال دون الدرج في تضاعيف أحكام السالفين بأن يقال للرجال والنساء نصيب إلخ !لاعتناء- كما قال شيخ الإسلام- بأمرهن والإيذان بأصالتهن في استحقاق الإرث، والإشارة من أول الأمر إلى تفاوت ما بين نصيبي الفريقين والمبالغة في إبطال حكم الجاهلية فإنهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال ويقولون: إنما يرث من يحارب ويذب عن الحوزة، وللرد عليهم نزلت هذه الآية- كما قال ابن جبير وغيره-

وروي أن أوس بن ثابت، وقيل: أوس بن مالك، وقيل: ثابت بن قيس، وقيل: أوس بن الصامت- وهو خطأ- لأنه توفي في زمن خلافة عثمان رضي الله تعالى عنه مات وترك ابنتين وابنا صغيرا، وزوجته أم كجة، وقيل: بنت كجة، وقيل: أم كحلة، وقيل: أم كلثوم فجاء أبناء عمه خالد، أو سويد وعرفطة، أو قتادة وعرفجة فأخذا ميراثه كله فقالت امرأته لهما: تزوجا بالابنتين وكانت بهما دمامة فأبيا

---

(١) قوله: وآتوا إلخ سقط من خط المؤلف قبلها أو ما ملكت أيمانكم إلخ اه مصححه.." (١)

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢/٤٢٠

"وأجيب بأنه للتوبيخ على أن الصد السابق على فتح مكة مما لا يصح أن يكون وقوعه إلا على سبيل الفرض، وذلك كقوله تعالى: أن كنتم قوما مسرفين [الزخرف: ٥] وجوز أن يكون بتقدير إن كانوا قد صدوكم، وأن يكون على ظاهره إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم بعد ظهور الإسلام وقوته، ويعلم منه النهي عن ذلك باعتبار الصد السابق بالطريق الأولى عن المسجد الحرام أي عن زيارته والطواف به للعمرة، وهذه- كما قال شيخ الإسلام- آية بينة في عموم آمين للمشركين قطعا، وجعلها البعض دليلا على تخصيصه بهم أن تعتدوا أي عليهم، وحذف تعويلا على الظهور، وإيماء إلى أن المقصد الأصلي منع صدور الاعتداء من المخاطبين محافظة على تعظيم الشعائر لا منع وقوعه على القوم مراعاة لجانبهم، وأن على حذف الجار أي على أن تعتدوا، والمحل بعده إما جر، أو نصب على المذهبين أي لا يحملنكم بغض قوم لصدهم إياكم عن المسجد الحرام على اعتدائكم عليهم وانتقامكم منهم للتشفي، أو لا حذف، والمنسبك ثاني مفعولي يجرمنكم أي لا يكسبنكم ذلك اعتداؤكم، وهذا على التقديرين وإن كان بحسب الظاهر نهيا للشنآن عما نسب إليه لكنه في الحقيقة نهي لهم عن الاعتداء على أبلغ وجه وآكده، فإن النهي عن أسباب الشيء ومبادئه المؤدية إليه نهي عنه بالطريق البرهاني وإبطال للسببية، ويقال: لا أرينك هاهنا والمقصود نهي المخاطب على الحضور.

ووجه العلامة الطيبي الاعتراض بقوله تعالى: وإذا حللتم فاصطادوا بين ما تقدم وبين هذا النهي المتعلق به ليكون إشارة وإدماجا إلى أن القاصدين ما داموا محرمين مبتغين فضلا من ربهم كانوا كالصيد عند المحرم فلا تتعرضوهم، وإذا حللتم أنتم وهم فشأنكم وإياهم لأنهم صاروا كالصيد المباح أبيح لكم تعرضهم حينئذ.

وقال شيخ الإسلام: لعل تأخير هذا النهي عن ذلك مع ظهور تعلقه بما قبله للإيذان بأن حرمة الاعتداء لا تنتهي بالخروج عن الإحرام كانتهاء حرمة الاصطياد به بل هي باقية ما لم تنقطع علاقتهم عن الشعائر بالكلية، وبذلك يعلم بقاء حرمة التعرض لسائر الآمين بالطريق الأولى، ولعله الأولى وتعاونوا على البر والتقوى عطف على ولا يجرمنكم من حيث المعنى كأنه قيل: لا تعتدوا على قاصدي المسجد الحرام لأجل أن صددتم عنه وتعاونوا على العفو والإغضاء، وقال بعضهم: هو استئناف والوقف على أن تعتدوا لازم، واختار غير واحد أن المراد بالبر متابعة الأمر مطلقا، وبالتقوى اجتناب الهوى لتصير الآية من جوامع الكلم وتكون تذييلا للكلام، فيدخل في البر والتقوى جميع مناسك الحج، فقد قال تعالى: فإنها من تقوى القلوب [الحج: ٣٢] ويدخل العفو والإغضاء أيضا دخولا أوليا، وعلى العموم أيضا حمل قوله تعالى: ولا تعاونوا

على الإثم والعدوان فيعم النهي كل ما هو من مقولة الظلم والمعاصي، ويندرج فيه النهي عن التعاون على الاعتداء والانتقام.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وأبي العالية أنهما فسرا الإثم بترك ما أمرهم به وارتكاب ما نهاهم عنه، والعدوان بمجاوزة ما حده سبحانه لعباده في دينهم وفرضه عليهم في أنفسهم، وقدمت **التحلية** على **التخلية** مسارعة إلى إيجاب ما هو المقصود بالذات، وقوله تعالى: واتقوا الله أمر بالاتقاء في جميع الأمور التي من جملتها مخالفة ما ذكر من الأوامر والنواهي، ويثبت وجوب الاتقاء فيها بالطريق البرهاني.

إن الله شديد العقاب لمن لا يتقيه، وهذا في موضع التعليل لما قبله، وإظهار الاسم الجليل لما مر غير مرة حرمت عليكم الميتة شروع في بيان المحرمات التي أشير إليها بقوله سبحانه: إلا ما يتلى عليكم والمراد تحريم أكل الميتة، وهي ما فارقه الروح حتف أنفه من غير سبب خارج عنه والدم أي المسفوح منه وكان أهل الجاهلية يجعلونه في المباعر ويشوونه ويأكلونه، وأما الدم غير المسفوح كالكبد فمباح، وأما الطحال فالأكثرون على." (١)

"يقضي بمثله، وفي كلام العرب قديما الصالحات قروض قرضا حسنا وهو ما كان عن طيب نفس على ما قال الأخفش، وقيل: ما لا يتبعه من ولا أذى، وقيل: ما كان من حلال.

وذكر غير واحد أن قرضا يحتمل المصدر والمفعول به لأكفرن عنكم سيئاتكم دال على جواب الشرط المحذوف وساد مسده معنى، وليس هو الجواب له خلافا لأبي البقاء بل هو جواب للقسم، فقد تقرر أنه إذا اجتمع شرط وقسم أجيب السابق منهما إلا أن يتقدمه ذو خبر، وجوز أن يكون هذا جوابا لما تضمنه قوله تعالى: ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل [البقرة: ٨٣، المائدة: ٧٠] من القسم، وقيل: إن جوابه لئن أقمتم فلا تكون اللام موطئة، أو تكون ذات وجهين- وهو غريب- وجملة القسم المشروط وجوابه مفسرة لذلك الميثاق المتقدم.

ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار عطف على ما قبله داخل معه في حكمه متأخر عنه في الحصول ضرورة تقدم **التخلية** على **التحلية** فمن كفر أي برسلي أو بشيء مما عدد في حيز الشرط، والفاء لترتيب بيان حكم من كفر على بيان حكم من آمن تقوية للترغيب بالترهيب بعد ذلك الشرط المؤكد المعلق به الوعد العظيم أعني لأكفرن، وقيل: بعد الشرط المؤكد المعلق بالوعد العظيم أعني أني معكم بناء على حمل

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٣/٢٣٠

المعية على المعية بالنصرة والإعانة، أو التوفيق للخير فإن الشرط معلق به من حيث المعنى نحو أنا معتن بشأنك إن خدمتني رفعت محلك، وقيل: المراد بعد ما شرطت هذا الشرط ووعدت هذا الوعد وأنعمت هذا الإنعام، وقوله تعالى:

منكم متعلق بمحذوف وقع حالا من فاعل كفر، ولعل تغيير السبك حيث لم يقل وإن كفرتم عطفا على الشرطية السابقة- كما قال شيخ الإسلام- لإخراج كفر الكل عن حيز الاحتمال وإسقاط من كفر عن رتبة الخطاب، ثم ليس المراد بالكفر إحداثه بعد الإيمان، بل ما يعم الاستمرار عليه أيضا كأنه قيل: فمن اتصف بالكفر بعد ذلك إلا أنه قصد بإيراد ما يدل على الحدوث بيان ترقيهم في مراتب الكفر فإن الاتصاف بشيء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه، وإن كان استمرارا عليه لكن بحسب العنوان فعل جديد وصنع حادث فقد ضل سواء السبيل أي وسط الطريق وحاقه ضلالا لا شبهة فيه ولا عذر معه بخلاف من كفر قبل ذلك إذ ربما يمكن أن يكون له شبهة ويتوهم عذر.

فبما نقضهم ميثاقهم أي بسبب نقضهم ميثاقهم المؤكد لا بشيء آخر استقلالا وانضماما، فالباء سببية، وما مزيدة لتوكيد الكلام وتمكينه في النفس، أو بمعنى شيء كما قال أبو البقاء، والجار متعلق بقوله تعالى:

لعناهم أي طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا عقوبة لهم- قاله عطاء وجماعة- وعن الحسن ومقاتل أن المعنى مسخناهم قردة وخنازير، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عذبناهم بضرب الجزية عليهم، ولا يخفى أن ما قاله عطاء أقرب إلى المعنى الحقيقي لأنه حقيقة اللعن في اللغة الطرد والإبعاد فاستعماله في المعنيين الأخيرين مجاز باستعماله في لازم معناه، وهو الحقارة بما ذكر لكنه لا قرينة في الكلام عليه، وتخصيص البيان بما ذكر مع أن حقه أن يبين بعد بيان تحقق اللعن والنقض بأن يقال مثلا: فنقضوا ميثاقهم فلعناهم ضرورة تقدم هلية الشيء البسيطة على هليته المركبة- كما قال شيخ الإسلام- للإيذان بأن تحققهما أمر جلي غني عن البيان، وإنما المحتاج إلى ذلك ما بينهما من السببية والمسببية وجعلنا قلوبهم قاسية يابسة غليظة تنبو عن قبول الحق ولا تلين- قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما..

وقيل: المراد سلبناهم التوفيق واللطف الذي تنشرح به صدورهم حتى- ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون- وهذا كما تقول لغيرك: أفسدت سيفك إذا ترك تعاهده حتى صدىء، وجعلت أظافيرك سلاحك إذا لم يقصها، وقال." (١)

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢٦١/٣

"اليد ولا لطف للاستعارة التصريحية فيه، وقال الواحدي: إنه يقال لما يحصل وإن لم يكن في اليد وقع في يده وحصل في يده مكروه فيشبه ما يحصل في النفس وفي القلب بما يرى بالعين، وخصت اليد لأن مباشرة الأمور بها كقوله تعالى:

ذلك بما قدمت يداك [الحج: ١٠] أو لأن الندم يظهر أثره بعد حصوله في القلب في اليد لعضها والضرب بها على أختها ونحو ذلك فقد قال سبحانه في النادم: فأصبح يقلب كفيه [الكهف: ٤٢] ويوم يعض الظالم [الفرقان:

٢٧] ، وقيل: من عادة النادم أن يطأطىء رأسه ويضع ذقنه على يده بحيث لو أزالها سقط على وجهه فكأن اليد مسقوط فيها، وفي بمعنى على، وقيل: هو من السقاط وهو كثرة الخطأ، وقيل: من السقيط وهو ما يغشى الأرض بالغدوات شبه الثلج لا ثبات له، فهو مثل لمن خسر في عاقبته ولم يحصل على طائل من سعيه، وعد بعضهم سقط من الأفعال التي لا تتصرف كنعم وبئس.

وقرأ ابن أبي عبلة «أسقط» على أنہ رباعي مجهول وهي لغة نقلها الفراء والزجاج، وذكر بعضهم أن هذا التركيب لم يسمع قبل نزول القرآن، ولم تعرفه العرب، ولم يوجد في أشعارهم وكلامهم فلذا خفي على الكثير وأخطؤوا في استعماله كأبي حاتم وأبي نواس، وهو العالم النحرير ولم يعلموا ذلك ولو علموه لسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا

أي تبينوا ضلالهم باتخاذ العجل وعبادته تبينا كأنهم قد أبصروه بعيونهم قيل: وتقديم ذكر ندمهم على هذه الرؤية مع كونه متأخرا عنها للمسارعة إلى بيانه والإشعار بغاية سرعته كأنه سابق على الرؤية.

وقال القطب في بيان تأخر تبين الضلال عن الندم مع كونه سابقا عليه: إن الانتقال من الجزم بالشيء إلى تبين الجزم بالنقيض لا يكون دفعيا في الأغلب بل إلى الشك ثم الظن بالنقيض ثم الجزم به ثم تبينه، والقوم كانوا جازمين بأن ما هم عليه صواب والندم عليه ربما وقع لهم في حال الشك فيه فقد تأخر تبين الضلال عنه انتهى، فافهم ولا تغفل قالوا لئن لم يرحمنا ربنا بإنزال التوبة المكفرة ويغفر لنا بالتجاوز عن خطيئتنا، وتقديم الرحمة على المغفرة مع أن التخلية حقها أن تقدم على التحلية قيل: إما للمسارعة إلى ما هو المقصود الأصلي وإما لأن المراد بالرحمة مطلق إرادة الخير بهم وهو مبدأ لإنزال التوبة المكفرة لذنوبهم، واللام في لئن موطئة للقسم أي والله لئن إلخ، وفي قوله سبحانه: لنكونن من الخاسرين لجواب القسم كما هو المشهور.

وقرأ حمزة والكسائي «ترحمنا وتغفر لنا» بالتاء الفوقية و «ربنا» بالنصب على النداء، وما حكي عنهم من الندامة والرؤية والقول كان بعد رجوع موسى عليه السلام من الميقات كما ينطق به ما سيأتي إن شاء الله تعالى في طه، وقدم ليتصل ما قالوه بما فعلوه ولما رجع موسى إلى قومه غضبان مما حدث منهم أسفا أي شديد الغضب كما قال أبو الدرداء ومحمد القرظي وعطاء والزجاج أو حزينا على ما روي عن ابن عباس والحسن وقتادة رضي الله تعالى عنهم، وقال أبو مسلم: الغضب والأسف بمعنى والتكرير للتأكيد.
وقال الواحدي: هما متقاربان فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت وإذا جاءك ممن فوقك حزنت، فعلى هذا كان موسى عليه السلام غضبان على قومه باتخاذهم العجل حزينا لأن الله تعالى فتنهم، وقد أخبره سبحانه بذلك قبل رجوعه، ونصب الوصفين على أنهما حالان مترادفان أو متداخلان بأن يكون الثاني حالا من الضمير المستتر في الأول، وجوز أبو البقاء أن يكون بدلا من الحال الأولى وهو بدل كل لا بعض كما توهم.
قال بئسما خلفتموني من بعدي خطاب إما لعبدة العجل وإما لهارون عليه السلام ومن معه من المؤمنين أي بئسما فعلتم بعد غيبتي حيث عبدتم العجل بعد ما رأيتم مني من توحيد الله تعالى ونفي الشركاء عنه سبحانه واخلاص العبادة له جل جلاله، أو بئسما قمتم مقامي حيث لم تراعوا عهدي ولم تكفوا العبدة عما فعلوا بعد ما رأيتم مني من." (١)

"تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء استئناف مبين لحكم الفتنة، وقيل: حال من المضاف إليه أو المضاف أي تضل بسببها من تشاء إضلاله بالتجاوز عن الحد أو باتباع المخايل أو بنحو ذلك وتهدي من تشاء هداه فيقوى بها إيمانه، وقيل: المعنى تصيب بهذه الرجفة من تشاء وتصرفها عمن تشاء، وقيل: تضل بترك الصبر على فتنتك وترك الرضا بها من تشاء عن نيل ثوابك ودخول جنتك وتهدي بالرضا لها والصبر عليها من تشاء وهو كما ترى أنت ولينا أي أنت القائم بأمورنا الدنيوية والأخروية لا غيرك فاغفر لنا ما يترتب عليه مؤاخذتك وارحمنا بإفاضة آثار الرحمة الدنيوية والأخروية علينا. والفاء لترتيب الدعاء على ما قبله من الولاية لأن من شأن من يلي الأمور ويقوم بها دفع الضر وجلب النفع، وقدم طلب المغفرة على طلب الرحمة لأن **التخلية** أهم من **التحلية**، وسؤال المغفرة لنفسه عليه السلام في ضمن سؤالها لمن سألها له مما لا ضير فيه وإن لم يصدر منه نحو ما صدر منه كما لا يخفى، والقول بأن إقدامه عليه السلام على

---
(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٦٢/٥

أن يقول: إن هي إلا فتنتك جرأة عظيمة فطلب من الله تعالى غفرانها والتجاوز عنها مما يأباه السوق عند أرباب الذوق، ولا أظن أن الله تعالى عدد ذلك ذنبا منه ليستغفره عنه، وفي ندائه السابق ما يؤيد ذلك وأنت خير الغافرين إذ كل غافر سواك إنما يغفر لغرض نفساني كحب الثناء ودفع الضرر وأنت تغفر لا لطلب عوض ولا غرض بل لمحض الفضل والكرم، والجملة اعتراض تذييلي مقرر لما قبل، وتخصيص المغفرة بالذكر لأنها الأهم.

وفسر بعضهم ما ذكر بغفران السيئة وتبديلها بالحسنة ليكون تذييلا لاغفر وارحم معا واكتب لنا أي أثبت واقسم لنا في هذه الدنيا التي عرانا فيها ما عرانا حسنة حياة طيبة وتوفيقا للطاعة.

وقيل: ثناء جميلا وليس بجميل، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن المراد اقبل وفادتنا وردنا بالمغفرة والرحمة وفي الآخرة أي واكتب لنا أيضا في الآخرة حسنة وهي المثوبة الحسنى والجنة.

قيل: إن هذا كالتأكيد لقوله: اغفر وارحم إنا هدنا إليك أي تبنا إليك من هاد يهود إذا رجع وتاب كما قال: إني امرؤ مما جنيت هائد ومن كلام بعضهم:

يا راكب الذنب هدهد ... واسجد كأنك هدهد

وقيل: معناه مال، وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «هدنا» بكسر الهاء من هاد يهيد إذا حرك، وأخرج ابن المنذر. وغيره عن أبي وجرة السعدي أنه أنكر الضم وقال: والله لا أعلمه في كلام أحد من العرب وإنما هو هدنا بالكسر أي ملنا وهو محجوج بالتواتر، وجوز على هذه القراءة أن يكون الفعل مبنيا للفاعل والمفعول بمعنى حركنا أنفسنا أو حركنا غيرنا، وكذا على قراءة الجماعة، والبناء للمفعول عليها على لغة من يقول: عود المريض، ولا بأس بذلك إذا كان الهود بمعنى الميل سوى أن تلك لغة ضعيفة، وممن جوز الأمرين على القراءتين الزمخشري. وتعقبه السمين بأنه متى حصل الالتباس وجب أن يؤتى بحركة تزيله فيقال: عقت إذا عاقك غيرك بالكسر فقط أو الإشمام إلا أن سيبويه جوز في نحو قيل الأوجه الثلاثة من غير احتراز، والجملة تعليل لطلب المغفرة والرحمة، وتصديرها بحرف التحقيق لإظهار كمال النشاط والرغبة في مضمونها قال استئناف بياني كأنه قيل: فماذا قال الله تعالى له بعد دعائه؟ فقيل: قال عذابي أصيب به من أشاء أي شأني أصيب بعذابي من أشاء تعذيبه من غير دخل لغيري فيه.

وقرأ الحسن وعمرو الأسود «من أساء» بالسين المهملة ونسبت إلى زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما وأنكر بعضهم صحتها ورحمتي وسعت كل شيء أي شأنها أنها واسعة تبلغ كل شيء ما من مسلم ولا كافر

ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في الدنيا بنعمتي، وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة." (١)

"والأنبياء عليهم السلام يكونون في ذلك كنبينا صلى الله عليه وسلم ويكون لنبينا عليه الصلاة والسلام من العلم بربه سبحانه الغاية القصوى التي لا تكون لملك مقرب ولا لنبي مرسل، ويمكن أن يكون ذلك المقام المحمود، ولا يبعد عندي أنهم مع تفاوتهم في المعرفة لا يزالون يترقبون فيها على حسب مراتبهم، والسير في الله سبحانه غير متناه والوقوف على الكنه غير ممكن، وحينئذ التفاوت في معرفة الصفات وهي كما قيل إما سلبية وتسمى بصفات الجلال لأنها يقال فيها: جل عن كذا جل عن كذا وإما غيرها وتسمى بصفات الإكرام وبذلك فسر قوله تعالى: تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام فلا يزالون يدعون الله تعالى بالتسبيح الذي هو إشارة إلى نعته بنعوت الجلال وبالتحميد الذي هو إشارة إلى وصفه بصفات الإكرام، والدوام عرفي وهو أكثر من أن يحصى،

وقوله عليه الصلاة والسلام في وصف أهل الجنة كما في صحيح مسلم: «يسبحون اللہ تعالى بكرة وعشيا» يؤيد بظاهره ذلك، والمراد بالبكرة والعشية- كما قال النووي- قدرهما، وظاهر الآية أنهم يقدمون نعته تعالى بنعوت الجلال ويختمون دعاءهم بوصفه بصفات الإكرام لأن الأولى متقدمة على الثانية لتقدم **التخلية** على **التحلية**، ويرشد إلى ذلك قوله سبحانه: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [الشورى: ١١] والمختار عندي كون فاعل التحية هو الله تعالى أو الملائكة عليهم السلام وحينئذ لا يبعد أن يكون الترتيب الذكري حسب الترتيب الوقوعي وذلك بأن يقال: إنهم حين يشرعون بالدعاء يسبحون الله تعالى وينزهونه فيقابلون بالسلام وهو دعاء بالسلامة عن كل مكروه فإن كان من الله سبحانه فهو مجاز لا محالة لاستحالة حقيقة الدعاء عليه تعالى وإن كان من الملائكة عليهم السلام فلا مانع من بقائه على حقيقته لكن يوجه الطلب فيه إلى الدوام لأن أصل السلامة حاصل لهم وإن قلنا: إنها تقبل الزيادة فلا بعد في أن يوجه إلى طلبها، وما ألطف مقابلة التسبيح والتنزيه بالسلامة عن المكروه لقربها من ذلك معنى كما لا يخفى على المنصف ثم يختمون دعاءهم بالحمد لله رب العالمين. وهكذا لا يزال دأبهم بكرة وعشيا كما يشير إليه خبر الصحيح، ولعل عدم ذكر التحميد فيه اكتفاء بما في الآية وهذا ما عندي فيها.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج قال: أخبرت أن أهل الجنة إذا مر بهم الطائر يشتهونه

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٧٢/٥

قالوا: سبحانك اللهم وذلك دعاؤهم به فيأتيهم الملك بما اشتهوا فإذا جاء الملك به يسلم عليهم فيردون عليه وذلك قوله تعالى: وتحيتهم فيها سلام فإذا أكلوا قدر حاجتهم قالوا: الحمد لله رب العالمين وذلك قوله سبحانه: وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

وهو ظاهر في أن الترتيب الذكرى حسب الترتيب الوقوعي أيضا لكن يدل على أن الدعوى بمعنى الدعاء، ومعنى كون سبحانك اللهم دعاء وطلبا لما يشتهون حينئذ أنه علامة للطلب، ونظير ذلك تسبيح المصلي إذا نابه شيء في صلاته وفي بعض الآثار أن هذه الكلمة علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام فإذا قالوها أتوهم بما يشتهون.

وأخرج ابن مردويه عن أبي بن كعب مرفوعا أنهم إذا قالوا ذلك أتاهم ما اشتهوا من الجنة من ربهم ولا بأس في ذلك. نعم في كون الحمد بعد أكل قدر حاجتهم مدلول قوله سبحانه: وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين خفاء.

وقال القاضي بيض الله تعالى غرة أحواله: لعل المعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله سبحانه وكبرياءه مجدوه ونعتوه بنعوت الجلال ثم حياهم الملائكة بالسلامة عن الآفات والفوز بأصناف الكرامات أو الله تعالى فحمدوه وأثنوا عليه بصفات الإكرام وهو أيضا ظاهر في كون الترتيب الذكرى كما قلنا إلا أنه تعقب بأن إضافة آخر إلى دعواهم يأباه، وكأن وجه الآباء على ما قيل: إن ذلك على هذا آخر الحال وبأن اعتبار الفوز بالكرامات في مفهوم السلام غير ظاهر، ولعل الأمر في ذلك سهل.." (١)

"من الأحكام اللازمة للإيمان والتقوى والآثار الخاصة بهما الحقيقة بالتخصيص بالذكر لظهورها وقربها من أفهام الناس، وقد أورد رسول الله صلى الله عليه وسلم كلا من ذلك حسبما يقتضيه مقام الإرشاد والتذكير ترغيبا لسائل أو حاضر فيما خصه بالذكر من أحكامهما، وأريد بوصفهم بأنهم يغبطهم النبيون على مجالسهم وقربهم الإشارة إلى راحتهم مما يعتري الأنبياء عليهم السلام من الاشتغال بأممهم، والمراد أنهم يغبطونهم على مجموع الأمرين، وعن الكواشي أن ذلك خارج مخرج المبالغة، والمعنى أنه لو فرض قوم بهذه الصفة لكانوا هؤلاء. وقال بعض المحققين: إن ذلك تصوير لحسن حالهم على طريقة التمثيل، وأيا ما كان فلا دليل فيه على أن الولاية أفضل من النبوة وقد كفر معتقد ذلك، وقد يؤول له بحمل ذلك على

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٧٣/٦

أن ولاية النبي أفضل من نبوته كما حمل ما قاله العز بن عبد السلام المخالف للأصح من أن النبوة أفضل من الرسالة على نحو ذلك، وكذا لنظير ما ذكرنا لا يخالف ما دلت الآية عليه تفسير عيسى عليه السلام لذلك.

فقد أخرج أحمد في الزهد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن وهب قال: قال الحواريون: يا عيسى من أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟ فقال عليه السلام: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نظر الناس إلى عاجلها وأماتوا منها ما يخشون أن يميتهم وتركوا ما علموا أن سيتركهم فصار استكثارهم منها استقلالا وذكرهم إياها فواتا وفرحهم بما أصابوا منها حزنا وما عارضهم من نائلها رفضوه وما عارضهم من رفعتها بغير الحق وضعوه، خلقت الدنيا عندهم فليسوا يجددونها وخربت بينهم فليسوا يعمرونها وماتت في صدورهم فليسوا يحيونها، يهدمونها فيبنون بها آخرتهم ويبيعونها فيشترون بها ما يبقى لهم، رفضوها فكانوا برفضها هم الفرحين، باعوها فكانوا ببيعها هم الرابحين ونظروا إلى أهلها صرعى قد خلت فيهم المثلات فأحيوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة، يحبون الله سبحانه وتعالى ويستضيئون بنوره ويضيئون به لهم خبر عجيب وعندهم الخبر العجيب، بهم قام الكتاب وبه قاموا وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا وبهم علم الكتاب وبه علموا، ليس يرون نائلا مع ما نالوا ولا أماني دون ما يرجون ولا فرقا دون ما يحذرون.

م البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة

استئناف جيء به في موضع التعليل لنفي حزنهم والخوف عليهم في قول، وفي آخر جيء به بيانا لما أولاهم سبحانه من خيرات الدارين بعد أن أخبر جل وعلا بإنجائهم من شرورهما ومكارهما وكأنه على هذا قيل: هل لهم وراء ذلك من نعمة وكرامة؟ فقيل: لهم البشرى إلخ، وتقديم الأول لما أن **التخلية** سابقة على **التحلية** مع ما فيه من رعاية حق المقابلة بين حسن حال المؤمنين وسوء حال المفترين وتعجيل إدخال المسرة بتبشير الخلاص عن الأهوال، وتوسيط البيان السابق بين **التخلية والتحلية** لإظهار كمال العناية به مع الإيذان بأن انتفاء ما تقدم لإيمانهم واتقائهم عما يؤدي إليه من الأسباب، ومن الناس من فسر الأولياء بالذين يتولونه تعالى بالطاعة ويتولاهم بالكرامة وجعل الذين آمنوا إلخ تفسيرا لتوليهم إياه تعالى، وهذه الجملة تفسيرا لتوليته تعالى إياهم.

وتعقب بأنه لا ريب في أن اعتبار القيد الأخير في مفهوم الولاية غير مناسب لمقام ترغيب المؤمنين في

تحصيلها والثبات عليها وبشارتهم بآثارها ونتائجها بل مخل بذلك إذ التحصيل إنما يتعلق بالمقدور والاستبشار لا يحصل إلا بما علم وجود سببه والقيد المذكور ليس بمقدور لهم حتى يحصلوا الولاية بتحصيله ولا بمعلوم لهم عند حصوله حتى يعرفوا حصول الولاية لهم ويستبشروا بمحاسن آثارها بل التولي بالكرامة عين نتيجة الولاية فاعتباره في عنوان الموضوع ثم الاخبار بعدم الخوف والحزن مما لا يليق بشأن التنزيل الجليل انتهى، وأنت تعلم أن ما ارتكبه ذلك البعض تكلف وعدول عن الظاهر فلا ينبغي العدول إليه وإن كان ما ذكره المتعقب لا يخلو عن نظر.." (١)

"اعتراضية غير واحد من المعربين ويستفاد منه أنه لا بأس (١) الجملة الاعتراضية إذا بقي شيء من متعلقاتها، وجوز أن يكون بدلا من الكاف التي هي بمعنى مثل أو من المحذوف الذي نابت عنه.

وقيل: إن كذلك منصوب- بننجي- الأول وحقا منصوب بالثاني وهو خلاف الظاهر، والمراد بالمؤمنين إما الجنس المتناول للرسل عليهم السلام وأتباعهم فقط، وإما الأتباع فقط وإنما لم يذكر إنجاء الرسل إيذانا بعدم الحاجة إليه، وأيا ما كان ففيه تنبيه على أن مدار الإنجاء هو الإيمان، وجيء بهذه الجملة تذييلا لما قبلها مقررا لمضمونه قل لجميع من شك في دينك وكفر بك يا أيها الناس أوثر الخطاب باسم الجنس مصدرا بحرف التنبيه تعميما للتبليغ وإظهارا لكمال العناية بشأن ما بلغ إليهم إن كنتم في شك من ديني الذي أعبد الله تعالى به وأدعوكم إليه ولم تعلموا ما هو ولا صفته حتى قلتم إنه صبأ.

فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله في وقت من الأوقات ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب، وجعل هذه الجملة باعتبار مضمونها جوابا بتأويل الأخبار وإلا فلا ترتب لها على الشرط بحسب الظاهر، فالمعنى إن كنتم في شك من ذلك فأخبركم أنه تخصيص العبادة به تعالى ورفض عبادة ما سواه من الأصنام وغيرها مما تعبدونه جهلا، وقد كثر جعل الأخبار بمفهوم الجملة جزاء نحو إن أكرمتني اليوم فقد أكرمتك أمس، وعلى هذا الطراز قوله تعالى: وما بكم من نعمة فمن الله [النحل: ٥٣] فإن استقرار النعمة ليس سببا لحصولها من الله تعالى بل الأمر بالعكس، وإنما سبب للإخبار بحصولها منه تعالى كما قرره ابن الحاجب.

وقد يكون المعنى إن كنتم في شك من صحة ديني وسداد فأخبركم أن خلاصته العبادة لإله هذا شأنه دون ما تعبدونه مما هو بمعزل عن ذلك الشأن فاعرضوا ذلك على عقولكم وأجيلوا فيه أفكاركم وانظروا بعين

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٤٢/٦

الإنصاف لتعلموا صحته وحقيته، وذكر بعضهم أنه لا يحتاج على هذا إلى جعل المسبب الإخبار والإعلام بل يعتبر الجزاء الأمر بعرض ما ذكر على عقولهم والتفكر فيه، والأظهر اعتبار كون الأخبار جزاء كما في المعنى الأول، والتعبير عما هم عليه بالشك مع كونهم قاطعين بعدم الصحة للإيذان بأن أقصى ما يمكن عروضه للعاقل في هذا الباب هو الشك في الصحة وأما القطع بعدمها فما لا سبيل إليه، وقيل: لا نسلم أنهم كانوا قاطعين بل كانوا في شك واضطراب عند رؤية المعجزات، وجيء- بأن- للإشارة إلا أنه مما لا ينبغي أن يكون لوجود ما يزيله.

وجوز أن يكون المعنى إن كنتم في شك من ديني ومما أنا عليه أأثبت عليه أم أتركه وأوافقكم فلا تحدثوا أنفسكم بالمحال ولا تشكوا في أمري واقطعوا عني أطماعكم واعلموا أني لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولا أختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى: قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون [الكافرون: ١، ٢] ولا يخفى أن ما قبل أوفق بالمقام، وتقديم ترك عبادة غير الله تعالى على عبادته سبحانه لتقدم **التخلية** على **التحلية** كما في كلمة التوحيد والإيذان بالمخالفة من أول الأمر، وتخصيص التوفي من بين سائر صفات الأفعال بالذكر متعلقا بهم للتخويف فإنه لا شيء أشد عليهم من الموت، وقيل: المراد أعبد الله الذي خلقكم ثم يتوفاكم ثم يعيدكم وفيه إيماء إلى الحشر الذي ينكرونه وهو من أمهات أصول الدين ثم حذف الطرفان وأبقى الوسط ليدل عليهما فإنهما قد كثر اقترانهما به في القرآن وأمرت أن أكون من المؤمنين أي أوجب الله تعالى على ذلك فوجوب الإيمان بالله تعالى شرعي كسائر

---

(١) قوله لا بأس الجملة إلخ كذا بخطه رحمه الله.." (١)

"تتركوا ما أنتم عليه من عبادة غيره سبحانه وبشير أبشركم ثوابه إن آمنتم وتمحضتم في عبادته عز وجل، وجوز كون «من» صلة النذير والضمير إما له تعالى أيضا، والمعنى حينئذ على ما قال أبو البقاء نذير من أجل عذابه وأما للكتاب على معنى إنني لكم نذير من مخالفته وبشير لمن آمن به، وقوله تعالى: وأن استغفروا ربكم عطف على أن لا تعبدوا إلا الله سواء كان نهيا أو نفيا وفي أن الاحتمالان السابقان وقد علمت أن الحق أن المصدرية توصل بالأمر والنهي كما توصل بغيرهما، وفي توسيط جملة إنني لكم إلخ بين المتعاطفين ما لا يخفى من الإشارة إلى علو شأن التوحيد ورفعه قدر النبي صلى الله عليه وسلم، وقد

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٨٤/٦

روعي في تقديم الإنذار على التبشير ما روعي في الخطاب من تقديم النفي على الإثبات والتخلية على التحلية للتجاوب الأطراف، والتعرض لوصف الربوبية تلقين للمخاطبين وإرشاد لهم إلى طريق الابتهال في السؤال وترشيح لما يذكر من التمتيع وإيتاء الفضل، وقوله سبحانه: ثم توبوا إليه عطف على استغفروا واختلف في توجيه توسيط ثم بينهما مع أن الاستغفار بمعنى التوبة في العرف فقال الجبائي: إن المراد بالاستغفار هنا التوبة عما وقع من الذنوب وبالتوبة الاستغفار عما يقع منها بعد وقوعه أي استغفروا ربكم من ذنوبكم التي فعلتموها ثم توبوا إليه من ذنوب تفعلونها، فكلمة ثم على ظاهرها من التراخي في الزمان، وقال الفراء: إن ثم بمعنى الواو كما في قوله:

بهز (١) كهز الرديني ... جرى في الأنابيب ثم اضطرب

والعطف تفسيري، وقيل: لا نسلم أن الاستغفار هو التوبة بل هو ترك المعصية والتوبة هي الرجوع إلى الطاعة ولئن سلم أنهما بمعنى- فثم- للتراخي في الرتبة، والمراد بالتوبة الإخلاص فيها والاستمرار عليها وإلى هذا ذهب صاحب الفرائد. وقال بعض المحققين: الاستغفار هو التوبة إلا أن المراد بالتوبة في جانب المعطوف التوصل إلى المطلوب مجازا من إطلاق السبب على المسبب، وثم على ظاهرها وهي قرينة على ذلك.

وأنت تعلم أن أصل معنى الاستغفار طلب الغفر أي الستر ومعنى التوبة الرجوع، ويطلق الأول على طلب ستر الذنب من الله تعالى والعفو عنه والثاني على الندم عليه مع العزم على عدم العود فلا اتحاد بينهما بل ولا تلازم عقلا، لكن اشترط شرعا لصحة ذلك الطلب وقبوله الندم على الذنب مع العزم على عدم العود إليه، وجاء أيضا استعمال الأول في الثاني، والاحتياج إلى توجيه العطف على هذا ظاهر، وأما على ذاك فلأن الظاهر أن المراد من الاستغفار المأمور به الاستغفار المسبوق بالتوبة بمعنى الندم فكأنه قيل: استغفروا ربكم بعد التوبة ثم توبوا إليه ولا شبهة في ظهور احتياجه إلى التوجيه حينئذ، والقلب يميل فيه إلى حمل الأمر الثاني على الإخلاص في التوبة والاستمرار عليها، والتراخي عليه يجوز أن يكون رتيبا وأن يكون زمانيا كما لا يخفى يمتعكم متاعا حسنا مجزوم بالطلب، ونصب متاعا على أنه مفعول مطلق من غير لفظه كقوله تعالى: أنبتكم من الأرض نباتا [نوح: ١٧] ويجوز أن يكون مفعولا به على أنه اسم لما ينتفع به من منافع الدنيا من الأموال والبنين وغير ذلك، والمعنى كما قيل يعشكم في أمن وراحة، ولعل هذا لا ينافي كون الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر ولا كون أشد الناس بلاء الأمثل فالأمثل لأن المراد بالأمن أمنه من غير الله تعالى ومن يتوكل على الله فهو حسبه [الطلاق: ٣] وبالراحة طيب عيشه برجاء الله تعالى والتقرب إليه

حتى يعد المحنة منحة:

وتعذيبكم عذب لدي وجوركم ... علي بما يقضي الهوى لكم عدل

---

(١) قوله بهز إلخ كذا في خطه رحمه الله والمعروف

كهز الرديني تحت العجاج

جرى إلخ. [.....]."[١]

"بصدده، وقد يقال: يجوز عود الضمير إلى ما قصاه ويكون المراد من الطعام المرزوق ما رأياه في النوم، ولا يخفى ما فيه أيضا لكن التأويل على هذين الوجهين لا يحتاج إلى التأويل بل يراد منه ما أريد من تأويله في كلامهما، وكذا الضمير المستتر في يأتيكما يعود على الطعام وعوده على التأويل وإن كان أقرب بعيد، ثم إنه عليه السلام أخبرهما بأن علمه ذلك ليس من علوم الكهنة والمنجمين بل هو فضل إلهي يؤتيه من يشاء فقال: ذلكما ويروى أنهما قالا له: من أين لك ما تدعيه من العلم وأنك لست بكاهن ولا منجم؟!

وقيل: قالا إن هذا كهانة أو تنجيم، فقال:

أي ذلك التأويل، والكشف عن المغيبات، ومعنى البعد في ذلك للإشارة إلى بعد منزلته وعلو درجته مما علمني ربي بالوحي أو بنحو ذلك مما يحصل به العلم كما يكون للأولياء أهل الكشف رضي الله تعالى عنهم، واقتصر بعضهم على الأول وادعى أن الآية دليل على أنه عليه السلام كان إذ ذاك نبيا، وأيا ما كان فالمراد أن ذلك بعض مما علمنيه الله تعالى أو من ذلك الجنس الذي لا يناله إلا الأصفياء، ولقد دلهما بذلك على أن له علوما جمة ما سمعاه قطرة من تيارها وزهرة من أزهارها وقوله: إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ مما تقدم وتعليلا له كأنه قيل: لماذا علمك ربك تلك العلوم الجليلة الشأن؟ فقال: لأني تركت دين الكفر الذي اجتمعوا عليه من الشرك وعبادة الأوثان.

وقيل: تعليل للتعليم الواقع صلة وهو يؤدي إلى معنى أنه مما علمني ربي لهذا السبب دون غيره وليس بمراد. وقيل: لمضمون الجملة الخبرية، وفيه أن ما ذكر ليس بعلة لكون التأويل المذكور بعضا مما علمه ربه- أو لكونه من جنسه- بل لنفس التعليم، والمراد بالترك الامتناع فإنه لم يتلوث بتلك قط كما يفصح عنه ما يأتي

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٩٤/٦

من كلامه عليه السلام قريبا إن شاء الله تعالى لكن عبر به عن ذلك استجلاب لهما لأن يتركا تلك الملة التي هم عليها على أحسن وجه والتعبير عن كفرهم بالله تعالى بسلب الإيمان به سبحانه للتنصيص على أن عبادتهم له تعالى مع عبادة الأوثان ليس بإيمان به تعالى كما يزعمونه، وأراد بأولئك القوم المتصفين بعنوان الصلة حيث كانوا، وقيل: أهل مصر فإنهم كانوا عبدة إذ ذاك وهم بالآخرة وما فيها من الجزاء هم كافرون أي على الخصوص دون غيرهم من الكنعانيين الذين هم ملة إبراهيم عليه السلام على ما يفيده توسيط ضمير الفصل هنا عند البعض، وذكر أن تقديم الضمير للتخصيص وتكريره للتأكيد، ولعله إنما أكد إنكارهم للمعاد لأنه كان أشد من إنكارهم للمبدأ فتأمل.

واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب داخل في حيز التعليل كأنه قال: إنما فزت بما فزت بسبب أني لم أتبع ملة قوم كفروا بالمبدأ والمعاد واتبعت ملة آبائي الكرام المؤمنين بذلك، وإنما قاله عليه السلام ترغيبا لصاحبيه في الإيمان والتوحيد وتنفيرا لهما عما كانا عليه من الشرك والضلال، وقدم ذكر تركه لملتهم على ذكر اتباعه لملة آبائه عليهم السلام لأن **التخلية** مقدمة على **التحلية**.

وجوز بعضهم أن لا يكون هناك تعليل وإنما الجملة الأولى مستأنفة ذكرت تمهيدا للدعوة والثانية إظهارا لأنه من بيت النبوة لتقوى الرغبة فيه، وفي كلام أبي حيان ما يقتضي أنه الظاهر وليس بذاك، وقرأ الأشهب العقيلي والكوفيون «آبائي» بإسكان الياء وهي مروية عن أبي عمرو ما كان ما صح وما استقام فضلا عن الوقوع لنا معاشر (١) الأنبياء لقوة نفوسنا، وقيل: أي أهل هذا البيت لوفور عناية الله تعالى بنا أن نشرك بالله من شيء أي شيئا أي شيء كان من ملك أو جني أو إنسي فضلا عن الصنم الذي لا يسمع ولا يبصر- فمن- زائدة في المفعول به لتأكيد

---

(١) قيل: يراد معاشر الأنبياء، ويعتبر التغليب بناء على عدم نبوته عليه السلام إذ ذاك وهو كما ترى اهـ منه.." (١)

"عليهم السلام مائلة إلى الشهوات في أكثر الأوقات إلا أن يحمل ذلك على ما قبل النبوة بناء على جواز ما ذكر قبلها أو يراد جنس النفس لا كل واحدة.

وتعقيب بأن الأخير غير ظاهر لأن الاستثناء معيار العموم ولا يرد ما ذكر رأسا لأن المراد هضم النوع البشري

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٦/٤٣٢

اعترافا بالعجز لولا العصمة على أن وقت الرحمة قد يعم العمر كله لبعضهم اهـ، ولعل الأولى الاقتصار على ما في حيز العلاوة فتأمل، وأن يكون استثناء من النفس أو من الضمير المستتر في- أمارة- الراجع إليها أي كل نفس أمارة بالسوء إلا التي رحمها الله تعالى وعصمها عن ذلك كنفسي أو من مفعول- أمارة- المحذوف أي أمارة صاحبها إلا ما رحمه الله تعالى، وفيه وقوع ما على من يعقل وهو خلاف الظاهر، ولينظر الفرق في ذلك بينه وبين انقطاع الاستثناء إن ربي غفور رحيم عظيم المغفرة فيغفر ما يعتري النفوس بمقتضى طباعها ومبالغ في الرحمة فيعصمها من الجريان على موجب ذلك، والإظهار في مقام الإضمار مع التعرض لعنوان الربوبية لتربية مبادئ المغفرة والرحمة، ولعل تقديم ما يفيد الأولى على ما يفيد الثانية لأن التخلية مقدمة على التحلية، وذهب الجبائي واستظهره أبو حيان إلى أن ذلك ليعلم إلى هنا من كلام امرأة العزيز، والمعنى ذلك الإقرار والاعتراف بالحق ليعلم يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال غيبته وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة حيث قلت ما قلت وفعلت به ما فعلت إن كل نفس أمارة بالسوء إلا نفسا رحمها الله تعالى بالعصمة كنفس يوسف عليه السلام إن ربي غفور لمن استغفر لذنبه واعترف به رحيم له. وتعقب ذلك صاحب الكشف بأنه ليس موجبه إلا ما توهم من الاتصال الصوري وليس بذاك، ومن أين لها أن تقول: وما أبرئ نفسي بعد ما وضح ولا كشية الأبلق أنها أمها يرجع إليها طمها ورمها.

ومن الناس من انتصر له بأن أمر التعليل ظاهر عليه، وهو على تقدير جعله من كلامه عليه السلام غير ظاهر لأن علم العزيز بأنه لم يكن منه ما قرف به إنما يستدعي التفتيش مطلقا لا خصوص تقديمه على الخروج حين طلبه الملك والظاهر على ذلك التقدير جعله له. وأجيب بأن المراد ليظهر علمه على أتم وجه وهو يستدعي الخصوص، ويساعد على إرادة ظهور العلم أن أصل العلم كان حاصلا للعزيز قبل حين شهد شاهد من أهلها وفيه نظر، ويمكن أن يقال: إن في التثبت وتقديم التفتيش على الخروج من مراعاة حقوق العزيز ما فيه حيث لم يخرج من جنسه قبل ظهور بطلان ما جعله سببا له مع أن الملك دعاه إليه، ويترتب على ذلك علمه بأنه لم يخنه في شيء من الأشياء أصلا فضلا عن خيانته في أهله لظهور أنه عليه السلام إذا لم يقدم على ما عسى أن يتوهم أنه نقض لما أبرمه مع قوة الداعي وتوفر الدواعي فهو بعدم الإقدام على غيره أجدر وأحرى، فالعلة للتثبت مع ما تلاه من القصة هي قصد حصول العلم بأنه عليه السلام لم يكن منه ما يخون به كائنا ما كان مع ما عطف عليه، وذلك العلم إنما يترتب على ما ذكر لا على التفتيش ولو بعد الخروج كما لا يخفى، أو يقال: إن المراد ليجري على موجب العلم بما ذكر بناء على التزام أنه كان قبل

ذلك عالما به لكنه لم يجر على موجب علمه وإلا لما حبسه عليه السلام فيتلافى تقصيره بالإعراض عن تقبيح أمره أو بالثناء عليه ليحظى عند الملك ويعظمه الناس فتينع من دعوته أشجارها وتجري في أودية القلوب أنهارها، ولا شك أن هذا مما يترتب على تقديم التفتيش كما فعل، وليس ذلك مما لا يليق بشأنه عليه السلام بل الأنبياء عليهم السلام كثيرا ما يفعلون مثل ذلك في مبادئ أمرهم وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم يعطي الكافر إذا كان سيد قومه ما يعطيه ترويجا لأمره، وإذا حمل قوله عليه السلام لصاحبه الناجي اذكرني عند ربك [يوسف: ٤٢] على مثل هذا كما فعل أبو حيان تناسب طرفا الكلام أشد تناسب، وكذا لو حمل ذاك على ما اقتضاه ظاهر الكلام وتظافرت عليه الأخبار.

وقيل هنا: إن ذلك لئلا يقبح العزيز أمره عند الملك تمحلا لإمضاء ما قضاه، ويكون ذلك من قبيل السعي في تحقيق المقتضي لخلاصه وهذا من قبيل التشمير لرفع المانع لكنه مما لا يليق بجلالة شأنه عليه السلام.." (١)

"صفاتها وأحاديثها وتطيش فيتلون القلب ويتغير لذلك فإذا تفكر في الملكوت ومطالعة أنوار الجمال والجبروت استقر واطمأن، وسائر أنواع الذكر إنما يكون بعد الاطمئنان، قال الهزجوري: قلوب الأولياء مطمئنة لا تتحرك دائما خشية أن يتجلى الله تعالى عليها فجأة فيجدها غير متسمة بالأدب الذين آمنوا وعملوا الصالحات تخلية وتحلية طوبى لهم بالوصول إلى الفطرة وكمال الصفات وحسن مآب بالدخول في جنة القلب وهي جنة الصفات أو طوبى لهم الآن حيث لم يوجد منهم ما يخالف رضاء محبوبهم وحسن مآب في الآخرة حيث لا يجدون من محبوبهم خلاف مأمولهم أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أي بحسب كسبها ومقتضاه أي كما تقتضي مكسوباتها من الصفات والأحوال التي تعرض لاستعدادها يفيض عليها من الجزاء قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ما أخرج سبحانه أحدا من العبودية حتى سيد أحرار البرية صلى الله عليه وسلم، وفسرها أبو حفص بأنها ترك كل ملك وملازمة المأمور به.

وقال الجنيد قدس سره: لا يرتقي أحد في درجات العبودية حتى يحكم فيما بينه وبين الله تعالى أوائل البدايات وهي الفروض والواجبات والسنن والأوراد، ومطايا الفضل عزائم الأمور فمن أحكم على نفسه هذا من الله تعالى عليه بما بعده ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية فيه على ما قيل إشارة إلى أنه إذا شرف الله تعالى شخصا بولايته لم يضر به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد ولم يكن بسط

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٥/٧

الدنيا له قدحا في ولايته، وقوله سبحانه: وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فيه منع طلب الكرامات واقتراحها من المشايخ لكل أجل كتاب لكل وقت أمر مكتوب يقع فيه ولا يقع في غيره ومن هنا قيل: الأمور مرهونة لأوقاتها، وقيل: لله تعالى خواص في الأزمنة والأمكنة والأشخاص يمحوا الله ما يشاء ويثبت قيل: يمحو عن ألواح العقول صور الأفكار ويثبت فيها أنوار الأذكار ويمحو عن أوراق القلوب علوم الحدثان ويثبت فيها لدنيات علم العرفان، وقيل: يمحو العارفين بكشف جلاله ويثبتهم في وقت آخر بلطف جماله، وقال ابن عطاء: يمحو أوصافهم ويثبت أسرارهم لأنها موضع المشاهدة، وقيل: يمحو ما يشاء عن الألواح الجزئية التي هي النفوس السماوية من النقوش الثابتة فيها فيعدم عن المواد ويفني ويثبت ما يشاء فيها فيوجد وعنده أم الكتاب العلم الأزلي القائم بذاته سبحانه، وقيل: لوح القضاء السابق الذي هو عقل الكل وفيه كل ما كان ويكون أزلا وأبدا على الوجه الكلي المنزه عن المحو والإثبات، وذكروا أن الألواح أربعة. لوح القضاء السابق العالي عن المحو الإثبات وهو لوح العقل الأول. ولوح القدر وهو لوح النفس الناطقة الكلية التي يفصل فيها كليات اللوح الأول وهو المسمى باللوح المحفوظ. ولوح النفوس الجزئية السماوية التي ينتقش فيها كل ما في هذا العالم بشكله وهيئته ومقداره وهو المسمى بالسماء الدنيا وهو بمثابة خيال العالم كما أن الأول بمثابة روحه والثاني بمثابة قلبه. ثم لوح الهيولى القابل للصور في عالم الشهادة اه وهو كلام فلسفي أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها قيل: ذلك بذهاب أهل الولاية الذين بهم عمارة الأرض، وقيل: الإشارة أنا نقصد أرض وقت الجسد الشيخوخة ننقصها من أطرافها بضعف الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة شيئا فشيئا حتى يحصل الموت أو نأتي أرض النفس وقت السلوك ننقصها من أطرافها بإفناء أفعالها بأفعالنا أولا وبافناء صفاتها بصفاتنا ثانيا وبإفناء ذاتها في ذاتنا ثالثا لا معقب لحكمه لا راد ولا مبدل لكل ما حكم به نسأل الله تعالى أن يحكم لنا بما هو خير وأولى في الآخرة والأولى بحرمة النبي صلى الله عليه وسلم تعالى عليه وسلم وشرف وعظم وكرم." (١)

"إلى صراط العزيز الحميد الجار والمجرور بدل من الجار والمجرور فيما تقدم أعني قوله تعالى: إلى النور وقال غير واحد: إن صراط بدل من النور وأعيد عامله وكرر لفظا ليدل على البدلية كما في قوله تعالى: للذين استضعفوا لمن آمن منهم [الأعراف: ٧٥] ولا يضر الفصل بين البدل والمبدل منه بما قبله لأنه غير أجنبي إذ هو من معمولات العامل في المبدل منه على كل حال. واستشكل هذا مع الاستعارة السابقة بأن

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٦٨/٧

التعقيب بالبدل لا يتقاعد عن التعقيب بالبيان في مثل قوله تعالى: حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر [البقرة: ١٨٧] وأجيب بأن الصراط استعارة أخرى للهدى جعل نورا أولا لظهوره في نفسه واستضاءة الضلال في مهواة الهوى به، ثم جعل ثانيا جادة مسلوكة مأمونة لا كبنيات الطرق دلالة على تمام الإرشاد.

وفي الإرشاد أن إخلال البيان والبدل بالاستعارة إنما هو في الحقيقة لا في المجاز وهو ظاهر، وجوز أن يكون الجار والمجرور متعلقا بمحذوف على أنه جواب سائل يسأل إلى أي نور؟ فقيل: إلى صراط إلى آخره، وإضافة الصراط إليه تعالى لأنه مقصده أو المبين له، وتخصيص الوصفين الجليلين بالذكر للترغيب في سلوكه إذ في ذلك إشارة إلى أنه يعز سالكه ويحمد سابله، وقال أبو حيان: النكتة في ذلك أنه لما ذكر قبل إنزاله تعالى لهذا الكتاب وإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم ناسب ذكر هاتين الصفتين صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة لإنزاله مثل هذا الكتاب المعجز الذي لا يقدر عليه سواه، وصفة الحمد لإنعامه بأعظم النعم لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، ووجه التقديم والتأخير على هذا ظاهر.

وقال الإمام: إنما قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد لأن الصحيح أن أول العلم بالله تعالى العلم بكونه تعالى قادرا ثم بعد ذلك العلم بكونه عالما ثم بعد ذلك العلم بكونه غنيا عن الحاجات، والعزيز هو القادر والحميد هو العالم الغني فلما كان العلم بكونه تعالى قادرا متقدما على العلم بكونه عالما بالكل غنيا عنه لا جرم قدم ذكر العزيز على ذكر الحميد اه ولم نر تفسير الحميد بما ذكر لغيره، وفي المواقف وشرح أسماء الله تعالى الحسنى لحجة الإسلام الغزالي وغيرهما أن الحميد هو المحمود المثني عليه وهو سبحانه محمود بحمده لنفسه أزلا وبحمد عباده له تعالى أبدا، وبين هذا وما ذكره الإمام بعد بعيد، وأما ما ذكره في العزيز فهو قول لبعضهم وقيل: هو الذي لا مثل له.

وربما يقال على هذا: إن التقديم للاعتناء بالصفات السلبية كما يؤذن به قولهم: **التخلية** أولى من **التحلية** وكذا قوله تعالى: ليس كمثله شيء وهو السميع البصير [الشورى: ١١] ولعل كلامه قدس سره بعد لا يخلو عن نظر، وقوله تعالى: الله بالرفع على ما قرأ نافع. وابن عامر خبر مبتدأ محذوف أي هو الله والموصول الآتي صفته، وبالجر على قراءة باقي السبعة والأصمعي عن نافع بدل مما قبله في قول ابن عطية: والحوفي وأبي البقاء، وعطف بيان في قول الزمخشري قال: لأنه أجري مجرى الأسماء الأعلام لغلبته واختصاصه بالمعبود بحق كما غلب النجم على الثريا، ولعل جعله جاريا مجرى ذلك ليس لاشتراطه في عطف البيان

بل لأن عطف البيان شرطه إفادة زيادة إيضاح لمتبوعه وهي هنا بكونه كالعلم باختصاصه بالمعبود بحق وقد خرج عن الوصفية بذلك فليس صفة كالعزيز الحميد.

ثم إنه لا يخفى عليك أنه عند الأئمة المحققين علم لا أنه كالعلم، وعن ابن عصفور أنه لا تقدم صفة على موصوف إلا حيث سمع وذلك قليل، وللعرب فيما وجد من ذلك وجهان: أحدهما أن تقدم الصفة وتبقيها على ما كانت عليه، وفي إعراب مثل هذا وجهان: أحدهما إعرابه نعتا مقدما. والثاني أن يجعل ما بعد الصفة بدلا، والوجه الثاني أن تضيف الصفة إلى الموصوف اه، وعلى هذا يجوز أن يكون العزيز الحميد صفتين متقدمتين ويعرب." (١)

"العظيمة الظاهرة الاختصاص به تعالى شأنه المعلومة كذلك فيما بينهم حسبما يؤذن به غير آية والاقتصار على ذكر الخلق من بين ما تقدم لكونه أعظمه وأظهره واستتباعه إياه أو لكون كل من ذلك خلقا مخصوصا أي أبعد ظهور اختصاصه سبحانه بمبدئية هذه الشؤون الواضحة الدالة على وحدانيته تعالى وتفرده بالألوهية واستحقاق العبادة يتصور المشابهة بينه وبين ما هو بمعزل عن ذلك بالمرة كما هو قضية إشراككم، وكان حق الكلام بحسب الظاهر في بادئ النظر أفمن لا يخلق كمن يخلق، لكن قيل: حيث كان التشبيه نسبة تقوم بالمنتسبين اختير ما عليه النظم الكريم مراعاة لحق سبق الملكة على العدم وتفاديا عن توسيط عدمها بينها وبين جزئياتها المفصلة قبلها وتنبيها على كمال قبح ما فعلوه من حيث إن ذلك ليس مجرد رفع أصنامهم عن محلها بل حط لمنزلة الربوبية إلى مرتبة الجماد ولا ريب أنه أقبح من الأول، والمراد بمن لا يخلق كل م، هذا شأنه من ذوي العلم كالملائكة وعيسى عليهم السلام وغيرهم كالأصنام، وأتى بمن تغليبا لذوي العلم على غيرهم مع ما فيه من المشاكلة أو ذوو العلم خاصة ويعرف منه حال غيرهم بدلالة النص، فإن من يخلق حيث لم يكن كمن لا يخلق وهو من جملة ذوي العلم فما ظنك بالجماد، وقيل: المراد به الأصنام خاصة، والتعبير بمن إما للمشاكلة أو بناء على ما عند عبدتهما، والأولى ما تقدم، ودخول الأصنام في حكم عدم المشابهة إما بطريق الاندراج أو بطريق الانفهام بدلالة النص على الطريق البرهاني قاله بعض المحققين.

واستدل بالآية على بطلان مذهب المعتزلة في زعمهم أن العباد خالقون لأفعالهم.

وقال الشهاب بعد أن قرر تقدير المفعول عاما على طرز ما ذكرنا: وجوز أن يكون العموم فيه مأخوذا من

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٧٣/٧

تنزيل الفعل منزلة اللازم أنه علم من هذا عدم توجه الاحتجاج بها على المعتزلة في إبطال قولهم بخلق العباد أفعالهم كما وقع في كتب الكلام لأن السلب الكلي لا ينافي الإيجاب الجزئي اه حسبما وجدناه في النسخ التي بأيدينا ولعلها سقيمة وإلا فلا أظن إلا كبوة جواد وهو ظاهر أفلا تذكرون أي ألا تلاحظون فلا تتذكرون ذلك فإنه لجلائه لا يحتاج إلى شيء سوى التذكر وهو مراجعة ما سبق تصوره وذهل عنه، وقدر بعضهم المفعول عدم المساواة، وذكر أنه لعدم سبقه حتى يتصور فيه حقيقة التذكر بأن يتصور ويذهل عنه جعل التذكر استعارة تصريحية للعلم به، وقيل: الاستعارة مكنية في المفعول المقدر وإثبات التذكر تخييل فتذكر. وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها تذكير اجمالي لنعمه تعالى بعد تعداد طائفة منها، وفصل ما بينهما بقوله تعالى: أفمن يخلق كمن لا يخلق كما قيل للمبادرة إلى الزام الحجة والقام الحجر إثر تفصيل ما فصل من الأفاعيل التي هي أدلة التوحيد، ودلالتها عليه وإن لم تكن مقصورة على حيثية الخلق ضرورة ظهور دلالتها عليه من حيثية الإنعام أيضا لكنها حيث كانت من مستتبعات الحيثية الأولى استغني عن التصريح بها ثم بين حالها بطريق الإجمالي أي إن تعدوا نعمه تعالى الفائضة عليكم مما ذكر ومما يذكر لا تطيقوا حصرها وضبط عددها فضلا عن القيام بشكرها، وقد تقدم الكلام في تحقيق ذلك حسبما من الله تعالى به إن الله لغفور حيث يستر ما فرط منكم من كفرانها والإخلال بالقيام بحقوقها ولا يعاجلكم بالعقوبة على ذلك رحيم حيث يفيضها عليكم مع استحقاقكم للقطع والحرمان بما تأتون وما تذرون من أصناف الكفر والعصيان التي من جملتها المساواة بين الخالق وغيره، وكل من ذينك الستر والإفاضة وأيما نعمة، فالجملة تعليل للحكم بعدم الإحصاء، وتقديم المغفرة على الرحمة لتقدم التخلية على التحلية والله يعلم ما تسرون أي تضمرونه من العقائد والأعمال وما تعلنون أي تظهرونه منهما، وحذف العائد لمراعاة الفواصل أي يستوي بالنسبة إلى علمه سبحانه المحيط الأمران، وفي تقديم الأول على الثاني تحقيق للمساواة على أبلغ وجه، وفي ذلك من الوعيد والدلالة على اختصاصه تعالى بصفات الإلهية ما لا يخفى، أما الأول فلأن علم." (١)

"المتشرعين الذين لم يتجردوا عن علائق البدن بالتحلية والتخلية تتوفاهم ملائكة الرحمة، وأما الأشرار الأشقياء فتتوفاهم ملائكة الرحمة، وأما الأشرار الأشقياء فتتوفاهم الملائكة أيضا ولكن ملائكة العذاب ويتشكلون لهم على صورة أخلاقهم الذميمة كما يتشكل ملائكة الرحمة لمن تقدم على صورة أخلاقهم الحسنة الذين تتوفاهم الملائكة طيبين طابت نفوسهم في خدمة مولاها وطابت قلوبهم في محبة سيدها

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٣٦٠/٧

وطابت أرواحهم بطيب مشاهدة ربها وطابت أسرارهم بطيب الأنوار، وقيل: طيبة أبدانهم وأرواحهم بملازمة الخدمة وترك الشهوات.

وقيل: طيبة أرواحهم بالموت لكونه باب الوصال وسبب الحياة الأبدية وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء قالوه إلزاما بزعمهم للموحدين وما دروا أنه حجة عليهم لأنه تعالى لا يشاء إلا ما يعلم ولا يعلم إلا ما عليه الشيء في نفسه فلولا أنهم في نفس الأمر مشركون ما شاء الله تعالى ذلك فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون هم أهل القرآن المتخلقون بأخلاقه القائمون بأمره ونهيه الواقفون على ما أودع فيه من الأسرار والغيوب وقليل ما هم فالمراد بالذكر القرآن كما في قوله تعالى: وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون.

وفيه إشارة إلى أن الله تعالى لم يظهر مكنونات أسرار كتابه إلا لنبيه صلى الله عليه وسلم فهو عليه الصلاة والسلام الأمين المؤتمن على الأسرار. وقد أشار سبحانه له عليه الصلاة والسلام بتبيين ذلك وقد فعل ولكن على حسب القابليات- لا تمنعوا الحكمة عن أهلها فتظلموهم ولا تمنحوها غير أهلها فتظلموها- ولا تودع الأسرار إلا عند الأحرار. وذلك لأنها أمانة وإذا أودعت عند غيرهم لم يؤمن عليها من الخيانة. وخيانتها افشاؤها وإفشاؤها خطر عظيم. ولذا قيل:

من شاوروه فأبدى السر مشتهرا ... لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا

وجانبوه فلم يسعد بقربهم ... وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا

لا يصطفون مذيعا بعض سرهم ... حاشا ودادهم من ذاكم حاشا

أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء أي ذات وحقيقة مخلوقة أية ذات كانت يتفيؤا ظلاله قيل: أي يتمثل صوره ومظاهره عن اليمين جهة الخير والشمائل جهات الشرور، ولما كانت جهة اليمين إشارة إلى جهة الخير الذي لا ينسب إلا إليه تعالى وحد اليمين ولما كانت جهة الشمال إشارة إلى جهة الشر الذي لا ينبغي أن ينسب إليه تعالى كما يرشد إليه قوله: والشر ليس إليك ولكن ينسب إلى غيره سبحانه وكان في الغير تعدد ظاهر جمع الشمال. وقيل في وجه الأفراد والجمع: إن جميع الموجودات تشترك في نوع من الخير لا تكاد تفيء عنه وهو العشق فقد برهن ابن سينا على سريان قوة العشق في كل واحد من الهويات ولا تكاد تشترك في شر كذلك فما تفيء عنه من الشر لا يكون إلا متعددا فلذا جمع الشمال ولا كذلك

ما تفيء عنه من الخير فلذا أفرد اليمين فليتأمل ولله يسجد ينقاد ما في السماوات وما في الأرض من دابة أي موجود يدب ويتحرك من العدم إلى الوجود والملائكة وهم لا يستكبرون لا يمتنعون عن الانقياد والتذلل لأمره يخافون ربهم من فوقهم لأنه القاهر المؤثر فيهم ويفعلون ما يؤمرون طوعا وانقيادا، والله تعالى الهادي سواء السبيل.

ثم إنه تعالى بعد ما بين أن جميع الموجودات، خاضعة منقادة له تعالى أردف ذلك بحكاية نهيه سبحانه وتعالى للمكلفين عن الإشراك فقال عز قائلا:." (١)

"والإعراض عن الدعوة والثاني نهي عن الحزن على سوء حالهم معه صلى الله عليه وسلم من إيذائهم له بالتمثيل بأحبابه ونحوه والمراد من النهيين محض التسلية لا حقية النهي، وأن تعلم أن الظاهر إبقاء المضارع على حقيقته فتأمل.

إن الله مع الذين اتقوا تعليل لما سبق من الأمر والنهي، والمراد بالمعية الولاية الدائمة التي لا يحول حول صاحبها شيء من الجزع والحزن وضيق الصدر وما يشعر به دخول كلمة مع من متبوعية المتقين من حيث إنهم المباشرون للتقوى، والمراد بها هنا أعلى مراتبها أعني التنزه عن كل ما يشغل السر عن الحق سبحانه والتبتل إليه تعالى بالكلية لأن ذلك هو المورث لولايته عز وجل المقرونة ببشارة ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون [يونس: ٦٢] والمعنى أن الله تعالى ولي الذين تبتلوا إليه سبحانه بالكلية وتنزهوا عن كل ما يشغل سرهم عنه عز وجل فلم يخطر ببالهم شيء من مطلوب أو محذور فضلا عن الحزن عليه فواتا أو وقوعا وهو المعنى بما به الصبر المأمور به على أول الاحتمالات السالفة وبذلك يحصل التقريب ويتم التعليل وإلا فمجرد التوقي عن المعاصي لا يكون مدارا لشيء من العزائم المرخص في تركها فكيف بالصبر المشار إليه ورديفيه وإنما مداره المعنى المذكور فكأنه قيل: إن الله مع الذين صبروا، وإنما أوثر عليه ما في النظم الكريم مبالغة في الحث على الصبر بالتنبيه على أنه من خصائص أجل النعوت الجليلة وروادفه كما أن قوله تعالى: والذين هم محسنون للإشعار بأنه من باب الإحسان الذي فيه يتنافس المتنافسون على ما يؤذن بذلك قوله تعالى: واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين [هود: ١١٥] وقد نبه سبحانه على أن كلا من الصبر والتقوى من قبيل الإحسان بقوله تعالى: إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين [يوسف: ٩٠] وحقيقة الإحسان الإتيان بالأعمال على الوجه اللائق،

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٣٩٩/٧

وقد فسره صلى الله عليه وسلم بأن تعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وتكرير الموصول للإيذان بكفاية كل من الصلتين في ولايته سبحانه من غير أن تكون إحداهما تتمة للأخرى، وإيراد الأولى فعلية للدلالة على الحدوث كما أن إيراد الثانية اسمية لإفادة كون مضمونها شيمة راسخة لهم، وتقديم التقوى على الإحسان لما أن **التخلية** مقدمة على **التحلية**، والمراد بالموصولين إما جنس المتقين والمحسنين ويدخل عليه الصلاة والسلام في زمرتهم دخولا أوليا إما هو صلى الله عليه وسلم وأشياعه رضي الله تعالى عنهم وعبر بذلك عنهم مدحا لهم وثناء عليهم بالنعتين الجميلين، وفيه رمز إلى أن صنيعه عليه الصلاة والسلام مستتبع لاقتداء الأمة به كقول من قال لابن عباس رضي الله تعالى عنهما عند التعزية:

اصبر نكن بك صابرين وإنما ... صبر الرعية عند صبر الراس

قال كل ذلك في إرشاد العقل السليم، وإلى كون الجملة في موضع التعليل لما سبق ذهب العلامة الطيبي حيث قال: إنه تعالى لما أمر حبيبه بالصبر على أذى المخالفين ونهاه عن الحزن على عنادهم وابائهم الحق وعما يلحقه من مكرهم وخداعهم علل ذلك بقوله سبحانه: إن الله إلخ أي لا تبال بهم وبمكرهم لأن الله تعالى وليك ومحبك وناصرك ومبغضهم وخاذلهم، وعمم الحكم إرشادا للاقتداء به عليه الصلاة والسلام، وفيه تعريض بالمخالفين وبخذلانهم كما صرح به في قوله تعالى: ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم [محمد: ١١] وذكر أن إيراد الجملة الثانية اسمية وبناء محسنون على هم على سبيل التقوى مؤذن باستدامة الإحسان واستحكامه وهو مستلزم لاستمرار التقوى لأن الإحسان إنما يتم إذا لم يعد إلى ما كان عليه من الإساءة، وإليه الإشارة بما

ورد «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»

وما ذكر من حمل التقوى على أعلى مراتبها غير متعين، وما ذكره في بيانه لا يخلو عن نظر كما لا يخفى على المتأمل، وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وغيرهم عن الحسن أنه قال في الآية: اتقوا فيما حرم الله تعالى عليهم وأحسنوا فيما افترض عليهم، ويوهم كلام بعضهم أن الجملة في." (١)

"حرم الله تعالى إلا بالحق وإسراف الولي في القتل وقفو ما ليس بمعلوم والمشي في الأرض مرحا فالإضافة لامية من إضافة البعض إلى الكل عند ربك مكروها أي مبغضا وإن كان مرادا له تعالى بالإرادة التكوينية وإلا لما وقع كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله تعالى كان وما لم يشأ لم يكن

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٤٩٢/٧

وغير ذلك، وليست هذه الإرادة مرادفة أو ملازمة للرضا ليلزم اجتماع الضدين الإرادة المذكورة والكراهة كما يزعمه المعتزلة، وهذا تتميم لتعليل الأمور المنهي عنها جميعا، ووصف ذلك بمطلق الكراهة مع أن أكثره من الكبائر للإيذان بأن مجرد الكراهة عنده تعالى كافية في وجوب الكف عن ذلك، وتوجيه الإشارة إلى الكل ثم تعيين البعض دون توجيهها إليه ابتداء لما قيل: من أن البعض المذكور ليس بمذكور جملة بل على وجه الاختلاط لنكتة اقتضته، وفيه إشعار بكون ما عداه مرضيا عنده سبحانه وإنما لم يصرح بذلك إيذانا بالغنى عنه، وقيل اهتماما بشأن التنفير عن النواهي لما قالوا من أن **التخلية** أولى من **التحلية** ودرء المفاسد أهم من جلب المصالح، وجوز أن تكون الإضافة بيانية وذلك إما إشارة إلى جميع ما تقدم ويؤخذ من المأمورات أضدادها وهي منهي عنها كما في قوله تعالى: ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا [الأنعام: ١٥١] بعد قوله سبحانه قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم [الأنعام: ١٥١] وإما إشارة إلى ما نهى عنه صريحا فقط.

وقرأ الحجازيان والبصريان «سيئة» بفتح الهمزة وهاء التأنيث والنصب على أنه خبر كان، والإشارة إلى ما نهى عنه صريحا وضمنا أو صريحا فقط، ومكروها قيل بدل من سيئه والمطابقة بين البدل والمبدل منه غير معتبرة.

وضعف بأن بدل المشتق قليل، وقيل: صفة سيئه محمولة على المعنى فإنها بمعنى سيئا وقد قرىء به أو أن السيئة قد زال عنها معنى الوصفية وأجريت مجرى الجوامد فإنها بمعنى الذنب أو تجري الصفة على موصوف مذكر أي أمرا مكروها، وقيل: إنه خبر لكان أيضا ويجوز تعدد خبرها على الصحيح، وقيل: حال من المستكن في كان أو في الظرف بناء على جعله صفة سيئه لا متعلقا بمكروها فيستتر فيه ضميرها، والحال على هذا مؤكدة. وأنت تعلم أن ضمير السيئة المستتر مؤنث فجعل مكروها حالا منه كجعله صفة سيئه في الاحتياج إلى التأويل. وإضماره مذكرا في قوله: ولا أرض أبقل أبقالها لا يخفى ما فيه. وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه قرأ: «شأنه» ذلك المتقدم في التكاليف المفصلة مما أوحى إليك ربك أي بعض منه أو من جنسه من الحكمة التي هي علم الشرائع أو معرفة الحق سبحانه لذاته والخير للعمل به أو الأحكام المحكمة التي لا يتطرق إليها النسخ والفساد، وفي الكشاف عن ابن عباس هذه الثماني عشرة آية يعني من لا تجعل فيما مر إلى ملوما مدحورا بعد كانت في ألواح موسى عليه السلام وهي عشر آيات في التوراة، وفي الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن التوراة

كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم تلا ولا تجعل مع الله إلها آخر وهذا أعظم مدحا للقرآن الكريم مما في الكشاف، ومن إما متعلقة بأوحى على أنها تبعيضية أو ابتدائية وإما بمحذوف وقع حالا من الموصول أو عائده المحذوف أي من الذي أوحاه إليك ربك كائنا من الحكمة، وجوز أن يكون الجار والمجرور بدلا من ما ولا تجعل مع الله إلها آخر الخطاب نظير الخطاب السابق كرر للتنبيه على أن التوحيد مبدأ الأمر ومنتهاه وأنه رأس كل حكمة وملاكها، ورتب عليه أولا ما هو عائدة الشرك في الدنيا حيث قال فتقعد مذموما مخذولا [الإسراء: ٢٢] ورتب عليه هاهنا نتيجته في العقبى فقيل فتلقى في جهنم ملوما من جهة نفسك ومن جهة غيرك مدحورا مبعدا من رحمة الله تعالى. وفي التفسير الكبير الفرق بين المذموم والملوم أن المذموم هو الذي يذكر أن الفعل الذي أقدم عليه قبيح ومنكر والملوم هو الذي يقال له لم فعلت هذا الفعل وما الذي حملك عليه وما استفدت منه إلا إلحاق الضرر بنفسك. ومن هذا يعلم أن الذم يكون أولا واللوم آخرا، والفرق بين المخذول." (١)

"القصص، نعم فيما ذكر نفع غير الشفاء من تلك الأدواء فهو رحمة وحينئذ يقال في الآية حذف أي ننزل من القرآن ما هو شفاء وما هو رحمة على معنى ننزل من القرآن آيات هي شفاء وآيات هي رحمة.
وفيه أن الريب غير مختص فيما يتعلق بالله عز وجل وبإمكان الحشر بل يكون أيضا في الرسالة وصدقه صلى الله عليه وسلم في دعواها، وما من آية في القرآن إلا وهي مستقلة أو لها دخل في الشفاء من ذلك الداء لما فيها من الإعجاز وكذا ما من آية إلا وفيها نفع من جهة أخرى فكل آية رحمة كما أن كلها شفاء لكن كونه رحمة بالنسبة إلى كل واحد واحد من المؤمنين إذ كل مؤمن ينتفع به نوعا من الانتفاع وكونه شفاء بالفعل بالنسبة إلى من عرض له شيء من أدواء الريب وأسقام الوهم وليس كل المؤمنين كذلك، والقول بأن كلا كذلك في أول الإيمان غير مسلم ولا يحتاج إليه كما لا يخفى.
والإمام عمم شفائيته وقد أحسن فقال: هو شفاء للأمراض الروحانية وهي نوعان: اعتقادات باطلة وأخلاق مذمومة فلاشتماله على الدلائل الحقة الكاشفة عن المذاهب الباطلة في الإلهيات والنبوات والمعاد والقضاء والقدر المبينة لبطلانها يشفي عن النوع الأول من الأمراض ولاشتماله على تفاصيل الأخلاق المذمومة وتعريف ما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة والأعمال المحمودة يشفي عن النوع الآخر، والشفاء إشارة إلى **التخلية** والرحمة إشارة إلى **التحلية** ولأن الأولى أهم من الثانية قدم الشفاء على الرحمة

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٧٤/٨

فتأمل والله تعالى الموفق.

وقرأ البصريان «ننزل» بالنون والتخفيف، وقرأ مجاهد بالياء والتخفيف ورواها المروزي عن حفص.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما «شفاء ورحمة» بنصبهما، قال أبو حيان: ويتخرج ذلك على أنهما حالان والخبر للمؤمنين والعامل في الحال ما في الجار والمجرور من الفعل، ونظير ذلك والسماوات مطويات بيمينه [الزمر: ٦٧] في قراءة نصب «مطويات» وقول الشاعر:

رهط ابن كوز محقبى أدراعهم ... فيهم ورهط ربيعة بن حذار

ثم قال: وتقديم الحال على العامل فيه من الظرف لا يجوز إلا عند الأخفش، ومن منع جعله منصوبا على إضمار أعني، وأنت تعلم أن من يجوز مجيء الحال من المبتدأ لا يحتاج إلى ذلك وإذا أنعمنا بالصحة والسعة ونحوهما على الإنسان أي جنسه فيكفي في صحة الحكم وجوده في بعض الأفراد ولا يضر وجود نقيضه في البعض الآخر، وقيل المراد به الوليد بن المغيرة أعرض عن ذكرنا كأنه مستغن عنا فضلا عن القيام بمواجب شكرنا ونأى بجانبه لوى عطفه عن طاعتنا وولاها ظهره، وأصل معنى النأي البعد وهو تأكيد للإعراض بتصوير صورته فهو أوفى بتأدية المراد منه، ومثله يجوز عطفه لإيهام المغايرة بينهما وهو أبلغ من ترك العطف على ما بين في محله، على أن ما ذكره أهل المعاني من أن التأكيد يتعين فيه ترك العطف لكمال الاتصال غير مسلم، والجانب على ظاهره والمراد ترك ذلك، ويجوز أن يكون كناية عن الاستكبار فإن ثنى العطف من أفعال المستكبرين ولا يبعد أن يراد بالجانب النفس كما يقال جاء من جانب فلان كذا أي منه وهو كناية أيضا كما يعبر بالمقام والمجلس عن صاحبه، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوان «وناء» هنا وفي [فصلت: ٥١] فقيل ذلك من باب القلب ووضع العين محل اللام كراء ووراء، وقيل لا قلب وناء بمعنى نهض كما في قوله:

حتى إذا ما التأمت مفاصله ... وناء في شق الشمال كاهله

أي نهض متوكئا على شماله، وفسر نهض هنا بأسرع والكلام على تقدير مضاف أي أسرع بصرف جانبه، وقيل: معناه تثاقل عن أداء الشكر فعل المعرض وإذا مسه الشر من مرض أو فقر أو نازلة من النوازل كان." (١)

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٨/١٤٠

"ويقال الحق العلم والباطل الجهل والحق ما بدا من الإلهام والباطل هواجس النفس ووساوس الشيطان.
وقال فارس: كل ما يحملك على سلوك سبيل الحقيقة فهو حق وكل ما يحجبك ويفرق عليك وقتك فهو باطل وننزل من القرآن ما هو شفاء من أمراض الصفات الذميمة ورحمة للمؤمنين بالغيب يفيدهم الكمالات والفضائل العظيمة فالأول إشارة إلى **التخلية** والثاني إلى **التحلية**، ويقال هو شفاء من داء الشك الضعفاء المؤمنين ومن داء النكرة للعارفين ومن وجع الاشتياق للمحبين ومن داء القنوط للمريدين والقاصدين، وأنشدوا:

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي ... وفيها شفاء للذي أنا كاتم

ولا يزيد الظالمين الباخسين حظوظهم من الكمال بالميل إلى الشهوات النفسانية إلا خسارا بزيادة ظهور أنفسهم بصفاتها من إنكار ونحوه وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه فاحتجب بالنعمة عن المنعم ولم يشكر وإذا مسه الشر كان يؤسا لجهله بعظيم قدرة الله تعالى ولم يصبر قل كل يعمل على شاكلته على طريقته التي تشاكل استعداده وكل إناء بالذي فيه يرشح ويسئلونك عن الروح قل الروح من أمر ربي أي من عالم الإبداع وهو عالم الذوات المقدسة عن الشكل واللون والجهة والأين فلا يمكن إدراك المحجوبين لها وما أوتيتم من العلم إلا قليلا وهو علم المحسوسات من يهد الله بنوره بمقتضى العناية الأزلية فهو المهتد دون غيره ومن يضلل بمنع ذلك النور عنه فلن تجد لهم أولياء من دونه تعالى يهدونه أو يحفظونه من قهره عز وجل ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم لا نجذابهم إلى الجهة السفلية عميا وبكما وصما لأنها أحوال تناسب أحوالهم في الدنيا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا لعلمهم بحقيته، ووقوفهم على ما أودع فيه من الأسرار ويخرون للأذقان يبكون لعظمته أو شوقا لمنزله وحبا للقائه، قال أبو يعقوب السوسي: البكاء على أنواع: بكاء من الله تعالى وهو أن يبكي خوفا مما جرى به القلم في الفاتحة ويظهر في الخاتمة وبكاء على الله عز وجل وهو أن يبكي تحسرا على ما يفوته من الحق تعالى، وبكاء لله تبارك وتعالى وهو أن يبكي عند ذكره سبحانه وذكر وعده ووعيده وبكاء بالله تعالى وهو أن يبكي بلا حظ منه في بكائه، وقال القاسم: البكاء على وجوه بكاء الجهال على ما جهلوا وبكاء العلماء على ما قصروا وبكاء الصالحين مخافة الفوت وبكاء الأئمة مخافة السبق وبكاء الفرسان من أرباب القلوب للهيبة والخشية ولا بكاء للموحدين، وفي الآية إشارة ما إلى السماع ولا أشرف من سماع القرآن فهو الروح والريحان قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن قيل دعاء الله بالفناء في الذات ودعاء الرحمن بالفناء في الصفة وصفة الرحمانية

هي أم الصفات وبها استوى سبحانه على عرشه، ومن ذلك يعلم أنه ليس المراد من الإيجاد إلا رحمة الموجودين أيا ما تدعوا أي أيا ما طلبت من هذين المقامين فله تعالى في هذين المقامين الأسماء الحسنى لا لك إذ لست هناك بموجود أما في الفناء في الذات فظاهر وأما في الفناء في الصفة المذكورة فلأن الرحمن لا يصلح اسما لغير تلك الذات ولا يمكن ثبوت تلك الصفة لغيرها، ولا يخفى عليك أن ضمير له على هذا التأويل عائد على ما عاد إليه على التفسير. وفي الفتوحات المكية أنه تعالى جعل الأسماء الحسنى لله كما هي للرحمن غير أن الاسم له معنى وصورة فيدعى الله بمعنى الاسم ويدعى الرحمن بصورته لأن الرحمن هو المنعوت بالنفس وبالنفس ظهرت الكلمات الإلهية في مراتب الخلاء الذي ظهر فيه العالم فلا ندعوه إلا بصورة الاسم وله صورتان صورة عندنا من أنفاسنا وتركيب حروفنا وهي التي ندعوه بها وهي أسماء الأسماء الإلهية وهي كالخلع عليها ونحن بصورة هذه الأسماء مترجمون عن الأسماء الإلهية ولها صور من نفس الرحمن من كونه قائلا ومنعوتا بالكلام وخلف تلك الصور المعاني التي هي كالأرواح للأسماء الإلهية التي يذكر الحق بها نفسه وهي من نفس الرحمن فله الأسماء الحسنى وأرواح تلك الصور هي التي لاسم الله خارجة عن حكم النفس لا تنعت بالكيفية." (١)

"ذكره وهو الذين كفروا بقرينة ما بعد، والمراد الذين كفروا بالكتاب، والظاهر أن المراد من البأس الشديد عذاب الآخرة لا غير، وقيل يحتمل أن يندرج فيه عذاب الدنيا من لدنه أي صادرا من عنده تعالى نازلا من قبله بمقابلة كفرهم فالجار والمجرور متعلق بمحذوف وقع صفة ثانية للبأس، ولدن هنا بمعنى عند كما روي عن قتادة، وذكر الراغب أنه أخص منه لأنه يدل على ابتداء نهاية نحو أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يوضع موضع عند.

وقال بعضهم: إن «لدن» أبلغ من عند وأخص وفيه لغات، وقرأ أبو بكر عن عاصم بإشمام الدال بمعنى تضعيف الصوت بالحركة الفاصلة بين الحرفين فيكون إخفاء لها وبكسر النون لالتقاء الساكنين وكسر الهاء للإتباع، ويفهم من كلام بعضهم أنه قرأ بالإسكان مع الإشمام بمعنى الإشارة إلى الحركة بضم الشفتين مع انفراج بينهما فاستشكل في الدر المصون. وغيره بأن هذا الإشمام إنما يتحقق في الوقف على الآخر وكونه في الوسط كما هنا لا يتصور، ولذا قيل: إنه يؤتى به هنا بعد الوقف على الهاء. ودفع الاعتراض بأنه لا يدل حينئذ على حركة الدال وقد علل به بأنه متعين إذ ليس في الكلمة ما يصلح أن يشار إلى حركته غيرها، ولا

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٨٦/٨

يخفى ما فيه، وما قدمناه حاسم لمادة الإشكال، وقرأ الجمهور بضم الدال والهاء وسكون النون إلا أن ابن كثير يصل الهاء بواو وغيره لا يصل ويبشر بالنصب عطف على ينذر وقرىء شاذا بالرفع.

وقرأ حمزة والكسائي «ويبشر» بالتخفيف المؤمنين أي المصدقين بالكتاب كما يشعر به وكذا بما تقدم ذكر ذلك بعد الامتنان بإنزال الكتاب الذين يعملون الصالحات أي الأعمال الصالحة التي بينت في تضاعيفه، وإيثار صيغة الاستقبال في الصلة للإشعار بتجدد العمل واستمراره، وإجراء الموصول على موصوفه المذكور لما أن مدار قبول العمل الإيمان أن لهم أي بأن لهم بمقابلة إيمانهم وعملهم المذكور أجرا حسنا هو كما قال السدي وغيره الجنة وفيها من النعيم المقيم والثواب العظيم ما فيها، ويؤيد كون المراد به الجنة ظاهر قوله تعالى ماكثين فيه أي مقيمين في الأجر أبدا من غير انتهاء لزمان مكثهم.

ونصب ماكثين على الحال من الضمير المجرور في لهم والظرفان متعلقان به، وتقديم الإنذار على التبشير لإظهار كمال العناية بزجر الكفار عما هم عليه مع مراعاة تقديم **التخلية** على **التحلية**، وتكرير الإنذار بقوله تعالى وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا متعلقا بفرقة خاصة ممن عمه الإنذار السابق من مستحقي البأس الشديد للإيذان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم كما ينبىء عنه ما بعد أي وينذر من بين هؤلاء الكفرة المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم العرب القائلون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزير ابن الله سبحانه والنصارى القائلون المسيح ابن الله عز وجل، وترك إجراء الموصول على الموصوف كما في قوله تعالى: ويبشر المؤمنين إلخ للإيذان بكفاية ما في حيز الصلة في الكفر على أقبح الوجوه وإيثار صيغة الماضي في الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق، وجعل بعضهم المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة، وفي الآية صنعة الاحتباك حيث حذف من الأول ما ذكر فيما بعد وهو المنذر وحذف مما بعد ما ذكر في الأول وهو المنذر به. وتعقب بأنه يؤدي إلى خروج سائر أصناف الكفرة عن الإنذار والوعيد.

وأجيب بأنه يعلم إنذار سائر الأصناف ودخولهم في الوعيد من باب الأولى لأن القول بالتبني وإن كبر كلمة دون الإشراك وفيه نظر، وقدر ابن عطية العالم وأبو البقاء العباد فيعم المؤمنين أيضا، وتعقب بأن التعميم يقتضي حمل الإنذار على معنى مجرد الأخبار بالأمر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما في قوله تعالى: أن أنذر." (١)

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ١٩٤/٨

"من دلالتهما عليها بأن يدعى أن تلك الدلالة بواسطة أمرين لا يعدلهما في قوة الدلالة ما يتوسط في دلالة الاسمين الجليلين عليها، وعلى هذا يكون ذو الرحمة أبلغ من كل واحد من الرحمن والرحيم وإن كانا معا أبلغ منه ولذا جيء بهما في البسملة دونه، ومن أنصف لم يشك في أن قولك فلان ذو العلم أبلغ من قولك فلان العليم من حيث إن الأول يفيد أنه صاحب ماهية العلم ومالكها ولا كذلك الأخيران، وحينئذ يكون التفاوت بين الخبرين في الآية بأبلغية الثاني ووجه ذلك ظاهر فإن الرحمة أوسع دائرة من المغفرة كما لا يخفى، والنكتة فيه هاهنا مزيد إيناسه صلى الله عليه وسلم بعد أن أخبره سبحانه بالطبع على قلوب بعض المرسل إليهم وآيسه من اهتدائهم مع علمه جل شأنه بزيد حرصه عليه الصلاة والسلام على ذلك وهو السر في إيثار عنوان الربوبية مضافا إلى ضميره صلى الله عليه وسلم انتهى.

وهو كلام واقف في أعراف الرد والقبول في النظر الجليل، ومن دقق علم ما فيه من الأمرين، وإنما قدم الوصف الأول لأن **التخلية** قبل **التحلية** أو لأنه أهم بحسب الحال والمقام إذ المقام على ما قاله المحققون مقام بيان تأخير العقوبة عنهم بعد استيجابهم لها كما يعرب عنه قوله تعالى: لو يؤاخذهم أي لو يريد مؤاخذتهم بما كسبوا أي فعلوا، وكسب الأشعري لا تفهمه العرب، وما إما مصدرية أي بكسبهم وإما موصولة أي بالذي كسبوه من المعاصي التي من جملتها ما حكي عنهم من مجادلتهم بالباطل وإعراضهم عن آيات ربهم وعدم المبالاة بما اجترحوا من الموبقات لعجل لهم العذاب لاستيجاب أعمالهم لذلك، قيل وإيثار المؤاخذة المنبئة عن شدة الأخذ بسرعة على التعذيب والعقوبة ونحوهما للإيذان بأن النفي المستفاد من مقدم الشرطية متعلق بوصف السرعة كما ينبيء عنه تاليها، وإيثار صيغة الاستقبال وإن كان المعنى على المضي لإفادة أن انتفاء تعجيل العذاب لهم بسبب استمرار عدم إرادة المؤاخذة فإن المضارع الواقع موقع الماضي يفيد استمرار الفعل فيما مضى بل لهم موعد وهو يوم بدر أو يوم القيامة على أن الموعد اسم زمان، وجوز أن يكون اسم مكان والمراد منه جهنم، والجملة معطوفة على مقدر كأنه قيل لكنهم ليسوا مؤاخذين بغتة بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا قال الفراء: أي منجى يقال وألت نفس فلان نحت وعليه قول الأعشى:

وقد أخالس رب الدار غفلته ... وقد يحاذر مني ثم ما يئل

وقال ابن قتيبة: هو الملجأ يقال وأل فلان إلى كذا يئل وألا ووءولا إذا لجأ والمعنى واحد والفرق إنما هو بالتعدي بإلى وعدمه، وتفسيره بالملجأ مروي عن ابن عباس، وفسره مجاهد بالمحرز، والضحاك بالمخلص

والأمر في ذلك سهل، وهو على ما قاله أبو البقاء: يحتمل أن يكون اسم زمان وأن يكون اسم مكان، والضمير المجرور عائد على الموعد كما هو الظاهر، وقيل: على العذاب وفيه من المبالغة ما فيه لدلالته على أنهم لا خلاص لهم أصلا فإن من يكون ملجأه العذاب كيف يرى وجه الخلاص والنجاة.
وأنت تعلم أن أمر المبالغة موجود في الظاهر أيضا وقيل: يعود على الله تعالى وهو مخالف للظاهر مع الخلو عن المبالغة، وقرأ الزهري «مولا» بتشديد الواو من غير همز ولا ياء، وقرأ أبو جعفر عن الحلواني عنه «مولا» بكسر الواو خفيفة من غير همز ولا ياء أيضا وتلك القرى أي قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم، والكلام على تقدير مضاف أي أهل القرى لقوله تعالى: أهلكناهم والإشارة لتنزيلهم لعلمهم بهم منزلة المحسوس، وقدر المضاف في البحر قبل تلك وكلا الأمرين جائز، وتلك يشار بها للمؤنث من العقلاء وغيرهم، وجوز أن تكون القرى عبارة عن أهلها مجازا، وأيا ما كان فاسم الإشارة مبتدأ والقرى صفته والوصف بالجامد في باب الإشارة مشهور والخبر جملة أهلكناهم واختار أبو حيان كون «القرى» هو الخبر والجملة حالية كقوله تعالى: فتلك بيوتهم خاوية [النمل:
٥٢] وجوز أن تكون «تلك» منصوبا بإضمار فعل يفسره ما بعده أي وأهلكنا تلك القرى أهلكناهم لما ظلموا أي." (١)

"التعدد والانفراد فإن كلا منهما يصدر عنه بتأييد الآخر من إظهار الحق ما لا يكاد يصدر عنه مثله حال الانفراد، وكثيرا في الموضعين نعت لمصدر محذوف أو زمان محذوف أي ننزهك عما لا يليق بك من الصفات والأفعال التي من جملتها ما يدعيه فرعون الطاغية ويقبله منه فئته الباغية من الشركة في الألوهية ونصفك بما يليق بك من صفات الكمال ونعوت الجمال والجلال تنزيها كثيرا ووصفا كثيرا أو زمانا كثيرا من جملته زمان دعوة فرعون وأوان المحاجة معه كذا في إرشاد العقل السليم.
وجوز أبو حيان كونه منصوبا على الحال أي نسبحك التسبيح في حال كثرته، وكذا يقال في الأخير وليس بذاك، وتقديم التسبيح على الذكر من باب تقديم **التخلية** على **التحلية**، وقيل: لأن التسبيح تنزيه عما يليق ومحله القلب والذكر ثناء بما يليق ومحله اللسان والقلب مقدم على اللسان، وقيل: إن المعنى كي نصلي لك كثيرا ونحمدك ونثني عليك كثيرا بما أوليتنا من نعمك ومننت به علينا من تحميل رسالتك، ولا يخفى أنه لا يساعده المقام.

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٢٨٨/٨

إنك كنت بنا بصيرا عالما بأحوالنا وبأن ما دعوتك به مما يصلحنا ويفيدنا في تحقيق ما كلفته من إقامة مراسم الرسالة وبأن هارون نعم الردء في أداء ما أمرت به، والباء متعلقة ببصيرا قدمت عليه لمراعاة الفواصل، والجملة في موضع التعليل للمعلل الأول بعد اعتبار تعليله بالعلة الأولى، وروى عبد بن حميد عن الأعمش أنه سكن كاف الضمير في المواضع الثلاثة، وجاء أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا بمثل هذا الدعاء إلا أنه أقام عليا كرم الله تعالى وجهه مقام هارون عليه السلام،

فقد أخرج ابن مردويه والخطيب وابن عساكر عن أسماء بنت عميس قالت: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بإزاء ثبير وهو يقول أشرق ثبير أشرق ثبير اللهم إني أسألك مما أسألك أخي موسى أن تشرح لي صدري وأن تيسر لي أمري وأن تحل عقدة من لساني يفقه قولي واجعل لي وزيرا من أهلي عليا أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا إنك كنت بنا بصيرا»

، ولا يخفى أنه يتعين هنا حمل الأمر على أمر الإرشاد والدعوة إلى الحق ولا يجوز حمله على النبوة، ولا يصح الاستدلال بذلك على خلافة علي كرم الله تعالى وجهه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بلا فصل. ومثله فيما ذكر ما صح من

قوله عليه الصلاة والسلام له حين استخلفه في غزوة تبوك على أهل بيته: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»

كما بين في التحفة الاثني عشرية، نعم في ذلك من الدلالة على مزيد فضل علي كرم الله تعالى وجهه ما لا يخفى، وينبغي أيضا أن يتأول طلبه صلى الله عليه وسلم حل العقدة بنحو استمرار ذلك لما أنه عليه الصلاة والسلام كان أفصح الناس لسانا قال قد أوتيت سؤلك يا موسى أي قد أعطيت سؤلك ففعل بمعنى مفعول كالخبز والأكل بمعنى المخبوز والمأكول، والإيتاء عبارة عن تعلق إرادته تعالى بوقوع تلك المطالب وحصولها له عليه السلام البتة وتقديره تعالى إياها حتما فكلها حاصلة له عليه السلام وإن كان وقوع بعضها بالفعل مرتبا بعد كتيسير الأمر وشد الأزر وباعتباره قيل: سنشد عضدك بأخيك [القصص: ٣٥] وظاهر بعض الآثار يقتضي أن شركة هارون عليه السلام في النبوة أي استنبائه كموسى عليه السلام وقعت في ذلك المقام وإن لم يكن عليه السلام فيه مع أخيه، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أنه قال في قوله: وأشركه في أمري نبىء هارون ساعتئذ حين نبىء موسى عليهما السلام، ونداؤه عليه السلام تشريف له بالخطاب إثر تشريف.

ولقد مننا عليك استئناف مسوق لتقرير ما قبله وزيادة توطين لنفس موسى عليه السلام بالقبول ببيان أنه تعالى حيث أنعم عليه بتلك النعم التامة من غير سابقة دعاء وطلب منه فلأن ينعم عليه بمثلها وهو طالب له وداع أولى وأحرى. وتصديره بالقسم لكمال الاعتناء بذلك أي وبالله لقد أنعمنا مرة أخرى أي في وقت غير هذا الوقت على أن أخرى تأنيث آخر بمعنى مغايرة ومرة ظرف زمان والمراد به الوقت الممتد الذي وقع فيه ما سيأتي إن شاء الله." (١)

"كان الفعل مبنيا للمفعول هنا وكان أصله مسندا للغائب ولا كلام في أمره باللام استصحب ذلك بعد نقله إلى المفعول للاختصار، والظاهر أن العطف على قوله تعالى: وألقيت عليك محبة مني إلا أن فيه عطف الإنشاء على الخبر وفيه كلام مشهور لكن قيل هنا: إنه هون أمره كون الأمر في معنى الخبر.

وقال صاحب اللوامح: إن العطف على قوله تعالى: فليلقه فلا عطف فيه للإنشاء على الخبر.

وقرأ شيبة وأبو جعفر في رواية أخرى كذلك إلا أنه سكن اللام وهي لام الأمر أيضا وبقية الكلام نحو ما مر.

ويحتمل أن تكون لام كي سكنت تخفيفا ولم يظهر فتح العين للإدغام، قال الخفاجي: وهذا حسن جدا. إذ تمشي أختك ظرف لتصنع كما قال الحوفي وغيره على أن المراد به وقت وقع فيه مشي الأخت وما ترتب عليه من القول والرجع إلى أمها وتربيتها له بالحنو وهو المصداق لقوله تعالى: ولتصنع على عيني إذ لا شفقة أعظم من شفقة الأم وصنيعها على موجب مراعاته تعالى. وجوز أن يكون ظرفا لألقيت وإن يكون بدلا من إذ أوحينا على أن المراد بها وقت متسع فيتحد الظرفان وتصح البدلية ولا يكون من إبدال أحد المتغايرين الذي لا يقع في فصيح الكلام.

ورجح هذا صاحب الكشف فقال: هو الأوفق لمقام الامتنان لما فيه من تعداد المنة على وجه أبلغ ولما في تخصيص الإلقاء أو التربية بزمان مشي الأخت من العدول إلى الظاهر فقبله كان عليه السلام محبوبا محفوظا، ثم أولى الوجهين جعله ظرفا لتصنع، وأما النصب بإضمار اذكر فضعيف اه. وأنت تعلم أن الظاهر كونه ظرفا لتصنع والتقييد بعلى عيني يسقط التربية قبل في غير حجر الأم عن العين.

واعترض أبو حيان وجه البدلية بأن كلا من الظرفين ضيق ليس بمتسع لتخصيصه بما أضيف إليه وليس ذلك كالسنة في الامتداد وفيه تأمل، واسم أخته عليه السلام مريم، وقيل: كلثوم وصيغة المضارع لحكاية الحال

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٨/٥٠٠

الماضية، وكذا يقال في قوله تعالى: فـتقول هل أدلكم على من يكفله أي يضمه إلى نفسه ويربيه.

فرجعناك إلى أمك الفاء فصيحة أي فقالوا: دلينا على ذلك فجاءت بأمك فرجعناك إليها كي تقر عينها بلقائك. وقرىء «تقر» بكسر القاف. وقرأ جناح بن حبيش «تقر» بالبناء للمفعول ولا تحزن أي لا يطرأ عليها الحزن بفراقك بعد ذلك وإلا فزوال الحزن مقدم على السرور المعبر عنه بقرة العين فإن التخلية مقدمة على التحلية.

وقيل: الضمير المستتر في تحزن لموسى عليه السلام أي ولا تحزن أنت بفقد إشفاقها، وهذا وإن لم يأبه النظم الكريم إلا أن حزن الطفل غير ظاهر، وما في سورة القصص يقتضي الأول والقرآن يفسر بعضه بعضا. أخرج جماعة من خبر طويل عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن آسية حين أخرجت موسى عليه السلام من التابوت واستوهبته من فرعون فوهبه لها أرسلت إلى من حولها من كل امرأة لها لبن لتختار لها ظئرا فلم يقبل ثدي واحدة منهن حتى أشفقت أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك فأمرت به فأخرج إلى السوق مجمع الناس ترجو أن تجد له ظئرا يأخذ ثديها فلم يفعل وأصبحت أمه والهة فقالت لأخته: قصي أثره واطلبيه هل تسمعين له ذكرا أحيا ابني أم قد أكلته الدواب؟ ونسيت الذي كان وعدها الله تعالى فبصرت به عن جنب فقالت من الفرح: أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون فأخذوها فقالوا: وما يدريك ما نصحهم له هل يعرفونه؟ وشكوا في ذلك فقالت:

نصحهم له وشفقتهم عليه لرغبتهم في رضا الملك والتقرب إليه فتركوها وسألوها الدلالة فانطلقت إلى أمه فأخبرتها." (١)

"الخوف من كمال المعرفة لأنه لم يأمن مكر الله تعالى ولو سبق منه سبحانه الإيناس،

وفي بعض الآثار «يا موسى لا تأمن مكري حتى تجوز الصراط» .

وقيل: كان خوفه من فوات المنافع المعدودة ولذا علل النهي بقوله تعالى: سنعيدها سيرتها الأولى وهذا جهل بمقام موسى عليه السلام. وكذا ما قيل: إنه لما رأى الأمر الهائل فر حيث لم يبلغ مقام ففروا إلى الله [الذاريات: ٥٠] ولو بلغه لم يفر. وما قيل: أيضا لعله لما حصل له مقام المكالمة بقي في قلبه عجب فأراه الله تعالى أنه بعد في النقص الإمكاني ولم يفارق عالم البشرية وما النصر والتثبيت إلا من عند الله تعالى وحده.

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٥٠٤/٨

واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء أراد سبحانه أن يريه آية نفسية بعد أن أراه عليه السلام آية آفاقية كما قال سبحانه: سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم وهذا من نهاية عنايته جل جلاله: وقد ذكروا في هذه القصة نكات وإشارات. منها أنه سبحانه لما أشار إلى العصا واليمين بقوله تعالى وما تلك بيمينك حصل في كل منهما برهان باهر ومعجز قاهر فصار أحدهما وهو الجماد حيوانا والاخر وهو الكثيف نورانيا لطيفا. ثم إنه تعالى ينظر في كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة إلى قلب العبد فأي عجب أن ينقلب قلبه الجامد المظلم حيا مستنيرا، ومنها أن العصا قد استعدت بيمن موسى عليه السلام للحياة وصارت حية فكيف لا يستعد قلب المؤمن الذي هو بين إصبعين من أصابع الرحمن للحياة ويصير حيا. ومنها إن العصا باشارة واحدة صارت بحيث ابتلعت سحر السحرة فقلب المؤمن أولى أن يصير بمدد نظر الرب في كل يوم مرات بحيث يبتلع سحر النفس الأمارة بالسوء، ومنها أن قوله تعالى أولا فاخلع نعليك إشارة إلى **التخلية** وتطهير لوح الضمير من الأغيار وما بعده إشارات إلى **التحلية** وتحصيل ما ينبغي تحصيله. وأشار سبحانه إلى علم المبدأ بقوله تعالى إنني أنا الله وإلى علم الوسط بقوله عز وجل فاعبدني وأقم الصلاة لذكري وفيه إشارة إلى الأعمال الجسمانية والروحانية وإلى علم المعاد بقوله سبحانه إن الساعة آتية ومنها أنه تعالى افتتح الخطاب بقوله عز قائلا وأنا اخترتك وهو غاية اللطف وختم الكلام بقوله جل وعلا فلا يصدنك عنها- إلى- فتردى وهو قهر تنبيها على أن رحمته سبقت غضبه وأن العبد لا بد أن يكون سلوكه على قدمي الرجاء والخوف، ومنها أن موسى عليه السلام كان في رجله شيء وهو النعل وفي يده شيء وهو العصا والرجل آلة الهرب واليد آلة الطلب فأمر بترك ما فيهما تنبيها على أن السالك ما دام في مقام الطلب والهرب كان مشتغلا بنفسه وطالبا لحظه فلا يحصل له كمال الاستغراق في بحر العرفان وفيه أن موسى عليه السلام مع جلالة منصبه وعلو شأنه لم يمكن له الوصول إلى حضرة الجلال حتى خلع النعل وألقى العصا فأنت مع ألف وقر من المعاصي كيف يمكنك الوصول إلى جنابه وحضرته جل جلاله. واستشكلت هذه الآيات من حيث إنه تدل على أن الله تعالى خاطب موسى عليه السلام بلا واسطة وقد خاطب نبينا صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام فيلزم مزية الكليم على الحبيب عليهما الصلاة والسلام. والجواب أنه تعالى شأنه قد خاطب نبينا صلى الله عليه وسلم أيضا بلا واسطة ليلة المعراج غاية ما في البال أنه تعالى خاطب موسى عليه السلام في مبدأ رسالته بلا واسطة وخاطب حبيبه عليه الصلاة والسلام في مبدأ رسالته بواسطة ولا يثبت بمجرد ذلك المزية على أن خطابه لحبيبه الأكرم صلى الله عليه وسلم بلا واسطة كان مع كشف

الحجاب ورؤيته عليه الصلاة والسلام إياه على وجه لم يحصل لموسى عليه السلام وبذلك يجبر ما يتوهم في تأخير الخطاب بلا واسطة عن مبدأ الرسالة. وانظر إلى الفرق بين قوله تعالى عن نبينا صلى الله عليه وسلم ما زاغ البصر وما طغى وقوله عن موسى عليه السلام قال هي عصاي إلخ ترى الفرق واضحا بين الحبيب والكليم مع أن لكل رتبة التكريم صلى الله عليه وسلم.

وذكر بعضهم أن في الآيات ما يشعر بالفرق بينهما أيضا عليهما الصلاة والسلام من وجه آخر وذلك أن موسى." (١)

"حيث الأخبار وأبلغ من القراءة الأخرى من حيث الاستمرار والأخرى أبلغ من حيث إنها لا تقبل التردد في الأخبار.

وكذلك عطف على كذلك نقص [طه: ٩٩] والإشارة إلى إنزال ما سبق من الآيات المتضمنة للوعيد المنبئة عما سيقع من أحوال القيامة وأهوالها أي مثل ذلك الإنزال أنزلناه أي القرآن كله وهو تشبيه لإنزال الكل بانزال الجزء والمراد أنه على نمط واحد، وإضماره من غير سبق ذكره للإيذان بنباهة شأنه وكونه مركوزا في العقول حاضرا في الأذهان قرآنا عربيا ليفهمه العرب ويقفوا على ما فيه من النظم المعجز الدال على كونه خارجا عن طوق الآدميين نازلا من رب العالمين وصرفنا فيه من الوعيد أي كررنا فيه بعض الوعيد أو بعضا من الوعيد، والجملة عطف على جملة أنزلناه وجعلها حالا قيد الإنزال خلاف الظاهر جدا.

لعلهم يتقون المفعول محذوف وتقدم الكلام في لعل، والمراد لعلهم يتقون الكفر والمعاصي بالفعل أو يحدث لهم ذكرا أي عظة واعتبارا مؤديا في الآخرة إلى الاتقاء، وكأنه لما كانت التقوى هي المطلوبة بالذات منهم أسند فعلها إليهم ولما لم يكن الذكر كذلك غير الأسلوب إلى ما سمعت كذا قيل، وقيل: المراد بالتقوى ملكتها، وأسندت إليهم لأنها ملكة نفسانية تناسب الإسناد لمن قامت به، وبالذكر العظة الحاصلة من استماع القرآن المثبطة عن المعاصي، ولما كانت أمرا يتجدد بسبب استماعه ناسب الإسناد إليه، ووصفه بالحدوث المناسب لتجدد الألفاظ المسموعة، ولا يخفى بعد تفسير التقوى بملكتها على أن في القلب من التعليل شيئا.

وفي البحر أسند ترجي التقوى إليهم لأن التقوى عبارة عن انتفاء فعل القبيح وذلك استمرار على العدم الأصلي، وأسند ترجي أحداث الذكر للقرآن لأن ذلك أمر حدث بعد أن لم يكن انتهى، وهو مأخوذ من

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٥٢٣/٨

كلام الإمام وفي قوله:

لأن التقوى إلى آخره على إطلاقه منع ظاهر، وفسر بعضهم التقوى بترك المعاصي والذكر بفعل الطاعات فإنه يطلق عليه مجاز لما بينهما من السببية والمسببية فكلمة أو على ما قيل للتنويع، وفي الكلام إشارة إلى أن مدار الأمر **التخلية والتحلية**. والإمام ذكر في الآية وجهين، الأول أن المعنى إنما أنزلنا القرآن ليصيروا محترزين عن فعل ما لا ينبغي أو يحدث لهم ذكرا يدعوهم إلى فعل ما ينبغي فالكلام مشير أيضا إلى **التخلية والتحلية** إلا أنه ليس فيه ارتكاب المجار، والثاني أن المعنى أنزلنا القرآن ليتقوا فإن لم يحصل ذلك فلا أقل من أن يحدث لهم ذكرا وشرفا وصيتا حسنا، ولا يخفى أن هذا ليس بشيء، وقال الطيبي: إن المعنى وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا أي فصيحا ناطقا بالحق ساطعا بيناته لعلهم يحدث لهم التأمل والتفكر في آياته وبيناته الوافية الشافية فيذعنون ويطيعون وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون العذاب. ففي الآية لف من غير ترتيب وهي على وزان قوله تعالى لعله يتذكر أو يخشى [طه: ٤٤] وعندي كون الآية متضمنة **للتخلية والتحلية** لا يخلو عن حسن فتأمل.

وقرأ الحسن «أو يحدث» بسكون الثاء، وقرأ عبد الله ومجاهد وأبو حيوة والحسن في رواية والجحدري وسلام «أو نحدث» بالنون وسكون الثاء وذلك حمل وصل على وقف أو تسكين حرف الإعراب استثقالا لحركته كما قال ابن جنى نحو قول امرئ القيس:

اليوم أشرب غير مستحقب ... إثما من الله ولا واغلي

وقول جرير:

سيروا بني العم فالأهواز منزلكم ... ونهر تيري ولا يعرفكم العرب

فتعالى الله استعظام له تعالى ولما صرف في القرآن من الوعد والوعيد والأوامر والنواهي وغير ذلك وتنزيه لذاته المتعالية أن لا يكون إنزال قرآنه الكريم منتهيا إلى غاية الكمالية من تسببه لترك من أنزل عليهم المعاصي، ولفعلهم." (١)

"الاستعمال اسم الطعام بذلك كما خصصت الدابة بذوات القوائم الأربع لكان لفظ الطعام منزلا عليه دون غيره ضرورة تنزيل مخاطبة الشارع للعرب على ما هو المفهوم لهم من لغتهم.

والفرق أن العادة أولا إنما هي مطردة في اعتياد أكل ذلك الطعام المخصوص فلا تكون قاضية على ما

---

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٥٧٦/٨

اقتضاه عموم لفظ الطعام، وثانيا هي مطردة في تخصيص اسم الطعام بذلك الطعام الخاص فتكون قاضية على الاستعمال الأصلي اهـ، ومنه يعلم أن الاستمناء باليد إن كان قد جرت عادة العرب على إطلاق ما وراء ذلك عليه دخل عند الجمهور وإن لم تجر عادتهم على فعله وإن كان لم تجر عادتهم على إطلاق ذلك عليه وجرت على إطلاقه على ما عداه من الزنا ونحوه لم يدخل ذلك الفعل في العموم عن الجمهور.

ومن الناس من استدل على تحريمه بشيء آخر نحو ما ذكره المشايخ من

قوله صلى الله عليه وسلم: «ناكح اليد معلون»

وعن سعيد بن جبير: عذب الله تعالى أمة كانوا يعبثون بمذاكيرهم

، وعن عطاء: سمعت قوما يحشرون وأيديهم حبالى وأظن أنهم الذين يستمنون بأيديهم والله تعالى أعلم، وتمام الكلام في هذا المقام يطلب من محله، ولا يخفى أن كل ما يدخل في العموم تفيد الآية حرمة فعله على أبلغ وجه ونظير ذلك إفادة قوله تعالى: ولا تقربوا الزنى [الإسراء: ٣٢] حرمة فعل الزنا فافهم.

والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون قائمون بحفظها وإصلاحها، وأصل الرعي حفظ الحيوان إما بغذائه الحافظ لحياته أو بذب العدو عنه، ثم استعمل في الحفظ مطلقا، والأمانات جمع أمانة وهي في الأصل مصدر لكن أريد بها هنا ما ائتمن عليه إذ الحفظ للعين لا للمعنى وأما جمعها فلا يعين ذلك إذ المصادر قد تجمع كما قدمنا غير بعيد، وكذا العهد مصدر أريد به ما عوهد عليه لذلك، والآية عند أكثر المفسرين عامة في كل ما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الله تعالى ومن جهة الناس كالتكاليف الشرعية والأموال المودعة والأيمان والنذور والعقود ونحوها، وجمعت الأمانة دون العهد قيل لأنها متنوعة متعددة جدا بالنسبة إلى كل مكلف من جهته تعالى ولا يكاد يخلو مكلف من ذلك ولا كذلك العهد.

وجوز بعض المفسرين كونها خاصة فيما ائتمنوا عليه وعوهدوا من جهة الناس وليس بذاك، ويجوز عندي أن يراد بالأمانات ما ائتمنهم الله تعالى عليه من الأعضاء والقوى، والمراد برعيها حفظها عن التصرف بها على خلاف أمره عز وجل. وأن يراد بالعهد ما عاهدهم الله تعالى عليه مما أمرهم به سبحانه بكتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، والمراد برعيه حفظه عن الإخلال به وذلك بفعله على أكمل وجه فحفظ الأمانات **كالتخلية** وحفظ العهد **كالتحلية**، وكأنه جل وعلا بعد أن ذكر حفظهم لفروجهم ذكر حفظهم لما يشملها وغيرها، ويجوز أن تعمم الأمانات بحيث تشمل الأموال ونحوها وجمعها لما فيها لمن التعدد المحسوس المشاهد فتأمل.

وقرأ ابن كثير وأب, عمرو في رواية «لأمانتهم» بالإفراد والذين هم على صلواتهم المكتوبة عليهم كما أخرج ابن المنذر عن أبي صالح وعبد بن حميد عن عكرمة يحافظون بتأديتها في أوقاتها بشروطها وإتمام ركوعها وسجودها وسائر أركانها كما روي عن قتادة.

وأخرج جماعة عن ابن مسعود أنه قيل: إن الله تعالى يكثر ذكر الصلاة في القرآن الذين هم على صلاتهم دائمون [المعارج: ٢٣] والذين هم على صلواتهم يحافظون قال ذاك على مواقيتها قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على فعلها وعدم تركها قال: تركها الكفر، وقيل: المحافظة عليها المواظبة على فعلها على أكمل وجه. وجيء بالفعل دون الاسم كما في سائر رؤوس الآية السابقة لما في الصلاة من التجدد والتكرر ولذلك جمعت في قراءة السبعة ما." (١)

"إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين، ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبد,ن من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون، تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون} .

شأن المصلح الحكيم في دعوته شأن الزارع، يبدأ بالأرض فيقتلع أشواكها وينقيها من حشائشها الضارة قبل أن يلقي فيها البذور الصالحة أو يغرس فيها الأشجار النافعة، وكذلك الداعي الحكيم يبدأ بالنفوس فيلويها عن الباطل والفساد ثم يوجهها إلى طريق الحق والهدى. فهذان دوران يقوم في أحدهما بالتطهير **والتخلية**، وفي الثاني بالتكميل **والتحلية**، وأنت قد رأيت الكلام في دعوة بني إسرائيل قد مضى إلى هذا الحد في

(١) تفسير الألوسي = روح المعاني الألوسي، شهاب الدين ٩/٢١٤

بيان عوج الطريق الذي يسلكونه، ورأيته قد أوسع البيان في ذلك حتى أتى على نهاية الدور الأول: أليس من الحق إذا أن يبدأ الدور الثاني فيبين الطريق السوي الذي يجب أن يسلكوه.." (١)

"(غير المغضوب عليهم) .

وجه النظم: اعلم! ان هذا المقام لكونه مقام الخوف والتخلية يناسب المقامات السابقة؛ فينظر بنظر الحيرة والدهشة الى مقام توصيف الربوبية بالجلال والجمال، وبنظر الالتجاء الى مقام العبودية في "نعبد"، وبنظر العجز الى مقام التوكل في "نستعين"، وبنظر التسلي الى رفيقه الدائمي أعني مقام الرجاء والتحلية، اذ اول ما يتولد في قلب من يرى أمرا هائلا حس الحيرة ثم ميل الفرار ثم التوكل عند العجز ثم التسلي بعد ذلك الامر.

ان قلت: ان الله عز وجل حكيم غني فما الحكمة في خلق الشر والقبح والضلالة في العالم؟

قيل لك: اعلم! ان الكمال والخير والحسن في الكائنات هي المقصودة بالذات وهي الكليات؛ وان الشر والقبح والنقصان جزئيات بالنسبة اليها قليلة تبعية مغمورة في الخلقة، خلقها خالقها منتشرة بين الحسن والكمال، لا لذاتها، بل لتكون مقدمة، وواحدا قياسيا، لظهور - بل لوجود - الحقائق النسبية للخير والكمال.

ان قلت: فما قيمة الحقائق النسبية حتى استحسن لأجلها الشر الجزئي؟

قيل لك: ان الحقائق النسبية هي الروابط بين الكائنات.. وهي الخطوط المنسوج منها نظامها.. وهي الاشعة المنعكس منها وجود واحد لانواعها. وان الحقائق النسبية أزيد بألوف من الحقائق الحقيقية؛ اذ الصفات الحقيقية لذات لو كانت سبعة كانت الحقائق النسبية سبعمائة. فالشر القليل يغتفر بل يستحسن لاجل الخير الكثير؛ لان في ترك الخير الكثير - لان فيه شرا قليلا - شرا كثيرا. وفي نظر الحكمة اذا قابل الشر القليل شرا كثيرا صار الشر القليل حسنا بالغير، كما تقرر في الاصول في الزكاة والجهاد.

وما اشتهر من: "ان الاشياء انما تعرف باضدادها" معناه: ان وجود الضد سبب لظهور ووجود الحقائق النسبية للشئ. مثلا: لو لم يوجد القبح ولم يتخلل بين الحسن لما تظاهر وجود الحسن بمراتبه الغير ١ المتناهية.

---

(١) النبأ العظيم محمد بن عبد الله دراز ص/٢٣٣

١ يقول البغدادى: "لا تدخل الألف واللام على (غير) ؛ لان المقصود من ادخال (أل) على النكرة تخصيصها بشئ معين. فإذا قيل (الغير) اشتملت هذه اللفظة على ما لا يحصى، ولم تتعرف بـ (أل) كما انها لم تتعرف بالاضافة، فلم يكن لإدخال (أل) عليها من فائدة ".
وجاء في المصباح المنير، في مادة (غير) مانصه: "يكون وصفا للنكرة، تقول: جاءنى رجل غيرك، وقوله تعالى: (غير المغضوب عليهم) انما وصف بها المعرفة، لأنها اشبهت المعرفة باضافتها الى المعرفة، فعوملت معاملتها. ومن هنا اجترأ بعضهم فأدخل عليها الألف واللام؛ لأنها لما شابهت المعرفة، باضافتها الى المعرفة، جاز ان يدخلها ما يعاقب الاضافة، وهو الالف واللام ...
وارتضى مؤتمر المجمع اللغوى، المنعقد بالقاهرة في دورته الخامسة والثلاثين، في شهر شباط (فبراير) ١٩٦٩ الرأى القائل: "ان كلمة غير الواقعة بين متضادين تكتسب التعريف من المضاف اليه المعرفة، ويصح في هذه الصورة، التى تقع فيها بين متضادين، وليست مضافة، ان تقترن بـ (أل) ، فتستفيد التعريف ".
(باختصار عن معجم الاخطاء الشائعة لمحمد العدنانى) .." (١)
"(الذين يؤمنون بالغيب)

الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلوة ومما رزقناهم ينفقون ٣

اعلم! أن وجه نظم المحصل مع المحصل انصباب مدح القرآن الى مدح المؤمنين وانسجامه به؛ اذ انه نتيجة له، وبرهان إني عليه، وثمرة هدايته، وشاهد عليه. وبسبب تضمن التشويق اشارة الى جهة حصة هذه الآية من الهداية، والى انها مثال لها.
اما وجه "الذين" مع "المتقين" فتشييع **التخلية بالتحلية** التي هي رفيقتها أبدا؛ اذ التزيين بعد التنزيه، ألا ترى ان التقوى هي التخلي عن السيئات وقد ذكرها القرآن بمراتبها الثلاث، وهي: ترك الشرك، ثم ترك المعاصي، ثم ترك ماسوى الله. **والتحلية** فعل الحسنات: إما بالقلب او القالب او المال. فشمس الاعمال القلبية "الايمان"، والفهرستة الجامعة للاعمال القالبية "الصلاة" التي هي عماد الدين، وقطب الاعمال المالية "الزكاة" اذ هي قنطرة الاسلام.

---

(١) إشارات الإعجاز بديع الزمان النورسي ص/٣٥

اعلم! ان (الذين يؤمنون بالغيب) مع انه اذا نظرت الى مقتضى الحال ايجاز، الا انه اذا وازنت بينه وبين مرادفه وهو "المؤمنون" تظنه إطنابا؛ فأبدل "ال" بـ"الذين" الذي من شأنه الاشارة الى الذات بالصلة فقط ١، كأنه لاصفة له الا هي للتشويق على الايمان، والتعظيم له؛ والرمز الى ان الايمان هو المنار على الذات قد تضاءلت تحته سائر الصفات.. وأبدل "مؤمنون" بـ "يؤمنون" لتصوير وإظهار تلك الحالة المستحسنة في نظر الخيال، وللاشارة الى تجدده بالاستمرار وتجليه بترادف الدلائل الآفاقية والأنفسية، فكلما ازدادت ظهورا ازدادوا إيمانا.

(بالغيب) أي بالقلب، اي بالاخلاص بلا نفاق. ومع الغائبية.. وبالغائب.. وبعالم الغيب..

---

١ لأن "الذين" من الاسماء المبهمة، لذا فان صلته هى التى تميزه وتعينه (ت: ٤٣)." (١)

"ان الذين كفروا سواء عليهمءانذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون ٦

وجه النظم:

اعلم! ان للذات الاحدي في عالم صفاته الازلية تجليين جلالي وجمالي. فبتجليهما في عالم صفات الافعال يتظاهر اللطف والقهر والحسن والهيبة. ثم بالانعطاف في عالم الافعال يتولد **التحلية** **والتخلية** والتزيين والتنزيه. ثم بالانطباع في العالم الأخروي من عالم الآثار يتجلى اللطف جنة ونورا، والقهر جهنم ونارا. ثم بالانعكاس في عالم الذكر ينقسم الذكر الى الحمد والتسبيح. ثم بتمثلهما في عالم الكلام يتنوع الكلام الى الأمر والنهي. ثم بالارتسام في عالم الارشاد يقسمانه الى الترغيب والترهيب والتبشير والانذار. ثم بتجليهما على الوجدان يتولد الرجاء والخوف.. وهكذا. ثم ان من شأن الارشاد ادامة الموازنة بين الرجاء والخوف، ليدعو الرجاء الى ان يسعى بصرف القوى، والخوف الى ان لايتجاوز بالاسترسال فلا ييأس من الرحمة فيقعد ملوما، ولا يأمن العذاب فيتعسف ولا يبالي. فلهذه الحكمة المتسلسلة مارغب القرآن إلا وقد رهب، وما مدح الابرار الا وقرنه بذم الفجار.

– ان قلت: فلم لم يعطف هنا كما عطف في (ان الابرار لفي نعيم ـ وان الفجار لفي جحيم) ١.؟

قيل لك: ان حسن العطف ينظر الى حسن المناسبة، وحسن المناسبة يختلف باختلاف الغرض المسوق له الكلام. ولما اختلف الغرض هنا وهنالك، لم يستحسن العطف هنا؛ اذ مدح المؤمنين منجر ومقدمة

---

(١) إشارات الإعجاز بديع الزمان النورسي ص/٥٠

لمدح القرآن، ونتيجة له، وسيق له. وأما ذم الكافرين فللترهيب لايتصل بمدح القرآن.

ثم انظر الى اللطائف المندمجة في نظم اجزاء هذه الآية!

فأولا: استأنس بـ (إن) و (الذين) فانهما أجول وأسير ما يصادفك في منازل التنزيل. ولأمر ما أكثر القرآن من ذكرهما؛ اذ معهما من جوهر البلاغة نكتتان عامتان غير ماتختص كل موقع.

---

١ سورة الانفطار: ١٣، ١٤." (١)

"واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء

ألا انهم هم السفهاء ولكن لايعلمون ١٣

اعلم! ان وجه نظم هذا النوع بالنوع الأول:

من حيث انهما نصيحة وارشاد؛ عطف الأمر بالمعروف والتحلية والترغيب، على النهي عن المنكر والتخلية والترهيب..

ومن حيث انهما من الجناية؛ عطف تسفيههم للمؤمنين وغرورهم على افسادهم، كما ربط افسادهم بفسادهم اللاتي كل منها غصن من شجرة زقوم النفاق.

واما وجه النظم بين جمل هذه الآية:

فاعلم! انه لما قيل: (واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس) وأشير بهيئاتها الى وجوب النصيحة على سبيل الكفاية بايمان خالص اتباعا للجمهور الذين هم الناس الكمل ليأمرهم الوجدان دائما بهذا الامر، حكى وقال: (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) اشارة الى تمردهم وغرورهم ودعواهم انهم على الحق كما هو شأن كل مبطل يرى باطله حقا ويعلم جهله علما؛ اذ بالنفاق تفسد قلبهم، وبالفساد نشأ غرور وميل افساد، وبحكم التفسد تمردوا، وبحكم الافساد يقول بعضهم لبعض متناجيا بالاضلال، وبحكم الغرور يرون شدة الديانة وكمال الايمان المقتضيين للاستغناء والقناعة سفالة وسفاهة وفقرا. ثم بحكم النفاق ينافقون في كلامهم هذا أيضا؛ اذ ظاهره: كيف نكون كالسفهاء ولسنا مجانين ونحن أخيار كما تطلبون؟ وباطنه كيف نكون كالمؤمنين الذين أكثرهم فقراء وهم في نظرنا سفهاء تحزبوا من اوباش ١ الاقوام؟ وعليك التطبيق بين دقائق الجزئين من الشرطية. ثم القمهم الحجر بقوله: (ألا انهم هم السفهاء) ؛ اذ من كان متمردا بهذه

---

(١) إشارات الإعجاز بديع الزمان النورسي ص/٧٢

الدرجة وجاهلا بجهله فحقهم الاعلان بين الخلق وتشهيرهم بانحصار السفاهة وانه من الحقائق الثابتة، وان تسفيههم لسفاهة أنفسهم.. ثم قال: (ولكن لايعلمون) اشارة الى انهم جاهلون بجهلهم

---

١ سفلة الناس واخلاطهم.." (١)

"كل متكبر جبار، ضعيف الإيمان قليل العقيدة بآيات الله التي هي فضل منه «ورحمة للمؤمنين» به وتفريج للكروب وتطهير للعيوب وتكفير للذنوب، وجدير بأن تكون كذلك لما فيها من شفاء الأمراض الباطنة والظاهرة المار تفصيلها وغيرها.

واعلم أنه كما يكون كتاب الله رحمة للمؤمنين فهو عذاب للكافرين بدليل قوله عز قوله «ولا يزيد الظالمين» أنفسهم بالكفر به وجحوده وتكذيب المنزل عليه «إلا خسارا» ٨٢ في الدنيا وضلالا مزدوجا يرى سوء عاقبته في الآخرة، قال قتادة لم يجالس القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان قضاء الله الذي قضى، وتلا هذه الآية، ونظيرتاها في المعنى الآية ٤٥ من سورة فصلت في ج ٢ والآية ١٢ من الأحقاف أيضا، وفي هذه الآية تعجيب من أمر القرآن لكونه بآن واحد نور لقوم، ظلمة لآخرين، شفاء لأناس، هلاك لغيرهم، علم لأناس، جهل لآخرين، وقيل في المعني:

كماء المزن في الأصداف درا ... وفي ثغر الأفاعي صار سما

وسيأتي زيادة تفصيل في تفسير آية فصلت المنوه بها أعلاه، وقدم الشفاء في هذه الآية على الرحمة لأن الشفاء يكون **للتخلية**، والرحمة تكون **للتحلية**، **والتخلية** مقدمة على **التحلية** لأنها أهم منها، قال تعالى «وإذا أنعمنا على الإنسان» من كمال فضلنا وعظيم جودنا وكثير عطائنا وفيض رحمتنا بأن وسعنا طرق خيرنا عليه، فأعطيناه رحمة كاملة ومالا كثيرا وجاها وسلطانا وأولادا وخدما وعقارات «أعرض» عنا وغفل عن ذكرنا ولم يدعنا، وأظهر الاستغناء عنا كأن ما حصل عليه من ذلك من كسبه وتدبيره لا بتوفيقنا «ونأى» أعرض لفرط جهله وعتوه وعناده، فتراة طوى كشحه ولوى عنقه وأدبر موليا عنا، وهذا تأكيد للإعراض لأن المعرض عن الشيء يوليه ظهره ويصد بوجهه ويتباعد عنه «بجانبه» مبالغة في عدم التقرب إلى الله تكبرا وتعاظما، وكان عليه أن يقوم بما أنعمنا به عليه من أداء الشكر الواجب عليه بمقابل فضلنا المترادف عليه،

---

(١) إشارات الإعجاز بديع الزمان النورسي ص/١٠٢

لكنه لم يفعل لانه مجبول على الكفران ومقطور على النسيان ومطبوع على النكران، وما ذكره بعض أهل المعاني من أن التأكيد يتعين فيه ترك العطف لكمال الاتصال غير مسلم، وقرأ ابن." (١)

"الأولى لأنه حال قيام الأشهاد لا تنفع المعاذير، قال تعالى «ولقد آتينا موسى الهدى» بجميع وسائله «وأورثنا بني إسرائيل الكتاب ٥٣» ليهتدوا به ويعملوا بمقتضاه بحياته وبعد وفاته لأنا جعلناه «هدى» للناس، لأن التوراة المعبر عنها بالكتاب هنا أجمع كتاب أنزل من بدء الخليقة حتى نزول القرآن العظيم، لأنه الجامع لكل ما في الكتب المتقدمة عليه «وذكرى لأولي الألباب ٥٤» يتذكرون بها، لأن ذوي القلوب الواعية هم أهل التذكر والتفكر فيها، وعلى هذا فإن قومه لم يعملوا بها ومن عمل منهم بها كان مرغما، وقد هجروها من بعده ولم يتقيدوا بوصاياها وأهملوا أحكامها وغيروا وبدلوا قسما منها. ثم التفت إلى حبيبه محمد وخاطبه عز خطابه بقوله «فاصبر» يا سيد الرسل على أذى قومك وتحمل جفاهم ولا يهمنك عدم سماعهم لقولك وما تتلوه عليهم من كتابك، فقد صبر قبلك الرسل إخوانك على أقوامهم حتى أتاهم الوقت المقدر لعذابهم، وأنت اصبر إلى أن يحين عذابهم الذي وعدناك به «إن وعد الله» بإظهار دينك وإعلاء كلمتك ونصرتك عليهم وإهلاكهم «حق» منجز لا يخلف عن موعده المقدر له «واستغفر لذنبك» الذي تراه ذنبا بالنسبة لمقامك، وإن لم يكن ذنبا بالنسبة لأمتك كترك ما عمله أولى وأفضل، وهذا من قبيل التعبد لزيادة الدرجات له صلى الله عليه وسلم ولتستن أمته بذلك، وقدمنا بأن الذي يعد ذنبا على الأنبياء هو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين، وأوضحنا ذلك في الآية ٦٥ من سورة الزمر المارة وغيرها، وهذا الاستغفار أحد قسمي الطاعة وهي التوبة عما لا ينبغي فعله، والقسم الثاني الاشتغال بما ينبغي فعله، وهو قوله تعالى قوله «وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار ٥٥» بعد التوبة لأن التوبة من قبيل **التخلية**، والتسبيح بعدها من قبيل **التحلية**، **والتحلية** تكون عادة بعد **التخلية**.

مطلب الآيتان المدنيتان وعصمة الأنبياء وكلمات لغوية والدجال ومن على شاكلته:

وهاتان الآيتان المدنيتان من هذه السورة، قال تعالى «إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم»

(١) بيان المعاني ملا حويش ٥٥٤/٢

وهم كفار اليهود الجهلة فهم «إن في صدورهم» مما يجادلون به ما هو «إلا كبر» في نفوسهم حملهم عليها وانهم مهما تعاظموا." (١)

"«فإذا هم» منكرو البعث مجموعون «بالساهرة» ١٤ على وجه الأرض ظاهرين للعيان لا يسترهم شيء، وسميت ساهرة لأن نوم الحيوان وسهره عليها، قال أمية ابن الصلت:

وفيها لحم ساهرة وبحر ... وما فاهوا به أبدا مقيم

وقال في الكشاف هي الأرض البيضاء المستوية الملساء لأن السراب يجري فيها أخذا من قولهم عين ساهرة أي جارية بالماء، قال الأشعث بن قيس:

وساهرة يضحى السراب مجللا ... لإقطارها قد جبتها متلثما

قال تعالى مخاطبا سيد المخاطبين «هل أتاك حديث موسى» ١٥ مع قومه كيف كان يتحمل مشاقهم، أما يجدر بك يا سيد الرسل أن تكون مثله فتحمل أذى قومك وإهانتهم، ذكره الله تعالى به تسلية له، ثم شرع يذكر بعض ما خوله إياه وما لقي من المرسل إليهم فقال اذكر لقومك شيئا عنه «إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى» ١٦ اسم لواد عند الطور وقال له «اذهب إلى فرعون إنه طغى» ١٧ على قومه وتجاوز حدودنا «فقل» له «هل لك إلى أن تزكى» ١٨ بحذف إحدى التاءين أي تتزكى من كفرك وسوء صنيعك إلى قومك «وأهديك إلى ربك فتخشى» ١٩ عقابه جعل الخشية غاية للهداية، لأنها ملاك الأمر، ولأن من خشي الله يؤمل فيه كل خير، ومن أمن منه اجترأ على كل شر، ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي عن أبي هريرة: من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل. أي استراح من وعثاء السفر في دنياه. فهنيئا لمن يبلغ منزله في الآخرة على رضى من ربه فيستريح الراحة الدائمة. وفي هذا الاستفهام ما لا يخفى من اللطف في الدعوة والاستنزال عن العتو، وإنما قدم التزكية على الهداية لأنها **تخلية** وهي مقدمة على **التحلية**، وهذه الآية على حد قوله تعالى (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) الآية ٤٥ من سورة طه في ج ١. قال تعالى «فأراه الآية الكبرى» ٢٠ وهي العصا يوم فضحت سحر السحرة وأجبرتهم على الإيمان بالله وبموسى

---

(١) بيان المعاني ملا حويش ٥٨٩/٣

«فكذب» بها فرعون وملؤه لغاية فسقهم في العناد ولم يؤمنوا كما أرينا قومك آية انشقاق القمر فكذبوها ورموك بالسحر «وعصى» ٢١." (١)

"كالخدم لهم، ولكن رحمة بكم وبحال اليتيم لم يشأ ذلك توسعة عليكم لاحتياج بعضكم إلى الربح بمال الغير لقلة ذات يده «إن الله عزيز» لا يعجزه شيء قادر على التضييق عليكم في ذلك «حكيم ٢٢٠» يأمر بالتوسعة على عباده بما فيه صلاحهم من احتياج بعضهم إلى بعض لأن التعاون في هذه الدنيا مطلوب فجعل للخلق رابطة فيما بينهم لا غنى لهم عنها. وبعد أن ذكر الله تعالى ما يتعلق بالأيتام والإنفاق شرع يذكر ما يتعلق بالنكاح الذي هو من ضروريات البشر أيضا، لأن غالب ما ينزل في المدينة عبارة عن أحكام وحدود وغالب ما ينزل بمكة عقائد وأخبار مما هو بمنزلة **التخلية** والأحكام بمثابة **التحلية** ولا تكون **التحلية** إلا بعد **التخلية** تأمل

قوله تعالى «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة» حرة حسنة «ولو أعجبتكم» تلك الكافرة بما لها وجمالها ونسبها «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك» حر قوي «ولو أعجبكم» ما له ونسبه وجاهه وشجاعته «أولئك» المشركون والمشركات «يدعون إلى» الشرك والكفر المؤديين إلى «النار والله يدعوا إلى» الإيمان به ورسوله وكتابه المؤدية إلى «الجنة والمغفرة بإذنه» وإرادته وتوفيقه «ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون ٢٢» بمعانيها فيعرفون معزاها ويتعظون بمرماها. فيتباعلون بمن مخافتها. كان صلى الله عليه وسلم بعث أبا مرشد يسار بن حصين أبي مرشد الفنوي إلى مكة ليخرج منها ناسا من لمسلمين سرا، فلما قدمها سمعت به خليلته عناق فجاءته وكافته أن يواقعها كما كان في الجاهلية، فقال لها ويحك إن الإسلام حال دون هذا، فقالت له تزوجني، فقال لها حتى استأذن رسول الله، فقالت له أبي تتبرم واستعانت عليه بزبائنها، فضربوه، فلما رجع أعلم حضرة الرسول بما وقع له معها واستأمره بزواجها، فأنزل الله هذه الآية في هذه الكافرة، أما المؤمنة فهي خنساء وليدة حذيفة بن اليمان أعتقها وتزوجها وقال لها لقد ذكرت في الملأ الأعلى على سوادك ودمامتك. وقيل نزلت في عبد الله بن رواحه لأنه كان أعتق أمة وتزوجها، فعاتبه العرب وعرضوا عليه حرة مشركة، فأبى ولا مانع من تعدد أسباب النزول واعلم أن الشق الأخير من الآية." (٢)

---

(١) بيان المعاني ملا حويش ٤/٤١٩

(٢) بيان المعاني ملا حويش ٥/١٧٩

"فالحمد إشارة إلى إثبات الصفات الوجودية المسماة بصفات الإكرام، والتسبيح إلى الصفات العدمية المسماة بصفات الجلال، والربوبية إشارة إلى ما هو مبدأ الإنسان، والمغفرة إلى المعاد، وفيه تقديم الثناء على الدعاء، وفيه أن **التخلية** قبل **التحلية**.

قال ابن دقيق العيد: يؤخذ من هذا الحديث إباحة الدعاء في الركوع، وإباحة التسبيح في السجود، ولا يعارضه قوله صلى الله عليه وسلم المروي عند مسلم وأبي داود والنسائي: ((أما الركوع فعظموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء)).

قال: ويمكن أن يحمل حديث الباب على الجواز وذاك على الأولوية، ويحتمل أن يكون أمر في السجود بتكثير الدعاء لإشارة قوله: ((فاجتهدوا))، والذي وقع في الركوع من قوله: ((اللهم اغفر لي)) ليس كثيرا فلا يعارض ما أمر به في السجود. انتهى.

واعترضه الفاكهاني: بأن قول عائشة رضي الله عنها: ((كان يكثر أن يقول)) صريح في أن ذلك وقع منه كثيرا فلا يعارض ما أمر به في السجود.

قال الحافظ العسقلاني: هكذا نقله عنه شيخنا ابن الملقن في «شرح العمدة» وقال: ((فليتأمل)) وهو عجيب، فإن ابن دقيق العيد أراد بنفي الكثرة عدم الزيادة على قوله: ((اللهم اغفر لي)) في الركوع الواحد، فهو قليل بالنسبة إلى السجود المأمور فيه بالاجتهاد في الدعاء المشعر بتكثير الدعاء، ولم يرد أنه كان يقول ذلك في بعض الصلوات دون بعض حتى يعترض عليه بقول عائشة رضي الله عنها ((كان يكثر)) الحديث.

تنبيه: الحديث الذي ذكره ابن دقيق العيد:

[ج ٤ ص ٥٣٨]

((أما الركوع. .. إلى آخره)) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وفيه بعد قوله: ((فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجاب لكم)).

وقمن ـ بفتح القاف والميم وقد تكسر ـ معناه: حقيق، وجاء الأمر بالإكثار من الدعاء في السجود وهو أيضا عند مسلم وأبي داود والنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء)).

والأمر بالإكثار من الدعاء في السجود يشمل الحث على تكثير الطلب لكل حاجة كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه: ((ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها حتى شسع نعله)) أخرجه الترمذي، ويشمل التكرار

للسؤال الواحد، ثم الاستجابة تشمل استجابة الداعي بإعطاء سؤله، واستجابة المثني بتعظيم ثوابه، والله أعلم.." (١)

"{فأما اليتيم فلا تقهر} [الضحى: ٩] فلا تغلبه على ماله لضعفه، وقرئ: «فلا تكهر»؛ أي: فلا تعبس في وجهه {وأما السائل فلا تنهر} [الضحى: ١٠] فلا تزجر، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: ((إذا رددت السائل ثلاثا فلم يرجع فلا عليك أن تزبره))؛ أي: تزجره، وقيل: إنه ليس بالسائل المستجدي، ولكن طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره.

{وأما بنعمة ربك فحدث} [الضحى: ١١] فإن التحدث بها شكرها، والمراد: نعمة الإيواء والهداية والإغناء وغيرها.

وقيل: المراد بالنعمة: النبوة والتحدث بها وتبليغها، قوبلت الامتنانات الثلاث بثلاثة تكاليف، ولما قدم ما يقابل المقدم عقب بذكر ما يقابل الأخير لمراعاة الفواصل، ولأن في تأخيرها ما يقابل الثانية ترقيا إلى الأشرف الأعلى لشموله النعم الدينية والدنياوية، ولأن **التحلية** بعد **التخلية**، وتقديم الثاني عند ذكر الامتنانات على الثالث؛ لأن ابتداءه بعد زمان اليتم وقت التكليف، فإنه صلى الله عليه وسلم كان موفقا للنظر الصحيح حينئذ

[ج ٥ ص ٥٣٨]

ولهذا لم يعبد صنما.

وقال القاضي عياض في كتاب «الشفا»: تضمنت هذه السورة من كرامة الله تعالى له وتنويهه به وتعظيمه إياه ستة أوجه:

الأول: القسم له عما أخبر به من حاله بقوله: {والضحى*والليل إذا سجى} وهذا من أعظم درجات المبرة.

الثاني: بيان مكانته عنده وحظوته لديه بقوله: {ما ودعك ربك وما قلى} أي: ما تركك وما أبغضك، قيل: ما أهملك بعد أن اصطفاك.

الثالث: قوله: {ما ودعك ربك وما قلى} [الضحى: ١ - ٤] قال ابن إسحاق: أي: مالك في مرجعك عند الله أعظم مما أعطاك من كرامة الدنيا.

وقال سهل: أي: ما ذخرت لك من الشفاعة والمقام المحمود خير لك مما أعطيتك في الدنيا.

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٣٦٢٠

الرابع: قوله تعالى: {ولسوف يعطيك ربك فترضى} [الضحى: ٥] وهذه آية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام في الدارين والزيادة، قال ابن إسحاق: يرضيه بالفلج [٣] في الدنيا والثواب في الآخرة وقيل: يعطيه الحوض والشفاعة.

وروي عن بعض آل النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: ليس آية في القرآن أرجى منها، ولا يرضي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدخل أحد من أمته النار.." (١)

"{يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل} لإخواننا في الدين {في قلوبنا غلا للذين آمنوا} حقدا لهم {ربنا إنك رءوف رحيم} فحقيق بأن تجيب دعاءنا، وقوله: {يقولون} حال من فاعل {جاءوا}، وإنما قدم الرؤوف على الرحيم؛ لأن الرأفة إنما تكون باعتبار الحفظ والصيانة عن الآفات والنقائص التي يستحق بها العقاب والرحمة باعتبار إفاضة الكمالات والسعادات التي بها يستحق الثواب، فالأولى من باب التزكية، والثانية من باب **التحلية**، ولا تكون **التحلية** إلا بعد **التخلية**.

وقيل: في الآية دليل على أن من ترحم على الصحابة واستغفر لهم ولم يكن في قلبه غل فله حظ في فيء المسلمين وله أجر مثل أجر الصحابة، ومن شتمهم ولم يترحم عليهم، أو كان في قلبه غل لهم ليس لهم حظ في فيء المسلمين؛ لأنه قال للمهاجرين فيه حق، ثم ذكر الأنصار، ثم ذكر الذين جاءوا من بعدهم، وقد وصفهم بصفة الأولين إذا دعا لهم.

وفي الآية: دليل أن الواجب على المؤمنين أن يستغفروا لإخوانهم الماضين، وفيه دليل أنه ينبغي للمؤمنين أن يستغفروا لأبويهم، ولمعلميهم الذين علموهم أمور الدين.

==========

[١] في هامش الأصل: أي: المال.

[٢] في هامش الأصل: في نسخة: بالغنيمة.

====================

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٤٦٤٥

[١] في هامش الأصل: أي: المال.

[١] في هامش الأصل: أي: المال.." [١]

"٦٤٧٥ - (حدثني) بالإفراد، وفي رواية أبي ذر: [٢](عبد العزيز بن محمد) العامري الأويسي الفقيه، قال: (حدثنا إبراهيم بن سعد) بسكون العين، الزهري العوفي أبو إسحاق المدني (عن ابن شهاب) الزهري (عن أبي سلمة) أي: ابن عبد الرحمن بن عوف (عن أبي هريرة) رضي الله عنه (قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) خصهما بالذكر إشارة إلى المبدأ والمعاد (فليقل خيرا، أو ليصمت) بضم الميم؛ أي: ليسكت عن الشر.

(ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره) وفي رواية مسلم: ((فليحسن إلى جاره)) (ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه) أي: يزيد في إكرامه على ما كان يفعل في عياله، وخص الأمور الثلاثة لملاحظة حال الشخص قولا وفعلا، وذلك إما بالنسبة إلى المقيم أو المسافر، أو الأول **تخلية** والثاني **تحلية**، فافهم.

ومطابقة الحديث للترجمة ظاهرة، والحديث من إفراده.

==========

[ج ٢٧ ص ٢٠٧]." [٣]

"الثالث: أنه مصدر نوعي، ولكنه على مثال ما يقال: اذكر الله مثل ذكر الله، فالمعنى: أسبح الله تسبيحا مثل تسبيح الله لنفسه؛ أي: مثل ما سبح الله به نفسه فهو صفة لمصدر محذوف، بحذف المضاف إلى سبحان، وهو لفظ

[ج ٣٠ ص ٤٤٧]

المثل، فالإضافة في سبحان الله إلى الفاعل.

الرابع: أنه مصدر أريد به الفعل مجازا، كما أن الفعل يذكر ويراد به المصدر مجازا، كقوله: تسمع بالمعيدي، وذلك لأن المصدر جزء مفهوم الفعل، وذكر البعض وإرادة الكل مجاز شائع كعكسه.

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/١٣٦٢٨

(٢) حدثنا

(٣) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢٢٢٩٦

ولما كان المراد من الفعل الذي أريد به إنشاء التسبيح بني هذا المصدر على الفتح، فلا محل له من الإعراب، وذلك لأن الأصل في الفعل أن يكون مبنيا، وذلك لأن الشبه الذي به أعرب المضارع يعتبر في الإنشاء، فمثله كمثل أسماء الأفعال.

وهذا وجه نحوي يمكن أن يقال به، وما ذكرناه لا يبطل كون هذا اللفظ معربا في الأصل، فلا يضرنا ما جاء في شعر أمية منونا، وأما ما يتعلق بمعناه ومغزاه؛ فهو أنه قد فهم من هذا أيضا تقدس الأسماء والصفات؛ لأن الذات مع الأسماء والصفات متلازمان في الوجود والقدم بالتحقيق؛ لأنها قائمة بالذات ومقتضياتها، لكن انتفاء تقديس الذات منتف، وإذا حصل الاعتراف والاعتقاد بأنه منزه عن جميع النقائص وما لا ينبغي أن ينسب إليه ثبتت الكمالات ضرورة التزاما، وحصل توحيد الربوبية، وثبت التقديس في كل كمال عن المشابهة والمماثلة والشركة وكل ما [لا] يليق.

فثبت أنه الرب على الإطلاق للأنفس والآفاق، فهو المستحق؛ لأن يشكر ويعبد بكل ما يمكن على الانفراد بالحق والحقيقة، وتوحيد الربوبية حجة ملزمة وبرهان، وهذان الإثباتان في ضمنهما كل مدح يمكن فيما يرجع إلى الله تعالى وتقدس.

ولما كان الاتصاف بالكمال الوجودي مشروطا بخلوه عما ينافيه قدم التسبيح على التحميد في الذكر، كما تقدم **التخلية** على **التحلية**، ومن هذا القبيل تقدم النفي على الإثبات في: «لا إله إلا الله»، فقيل: (وبحمده

==================." (١)

"يعني أهل العلم ذكر ابن حجر وغيره في فتح الباري أن رجيع الذباب يقع على الثوب الأبيض أسود، وعلى الأسود أبيض، يعني هذا أمر نادر ما يعول عليه في مثل هذا، يعني لا نقول: إنه ما في فرق بين الأبيض والأسود، هذا أمر نادر لا يحكم به، لكن غالب الدنس يظهر في الأبيض أكثر من غيره من الألوان.

((اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس)) يعني بالغسل والتنظيف بالمزيلات.

((اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد)) الآن قدم التنقية قبل الغسل، في الدعاء للميت: ((اللهم اغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس)) تقديم وتأخير، أيهما أولى؟

---

(١) نجاح القاري لصحيح البخاري ص/٢٥٥٢٢

طالب:. . . . .

أيوه.

طالب:. . . . .

طيب ونقه؟ أيهما أولى أن يقدم التنقية قبل الغسل أو يقدم الغسل قبل التنقية؟

طالب:. . . . .

((اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد))

أيهما أولى؟

طالب:. . . . .

التنقية أولى؛ لأنه من باب **التحلية** قبل **التخلية**، أو **التخلية** قبل **التحلية؟** نعم **التخلية** قبل **التحلية**، يعني لو عندك هذا الجدار فيه كتابات بألوان مختلفة، وتريد أن تزيل هذه الكتابات أنت تصبغه قبل أن تزيل تلك الكتابات، أو تزيل الكتابات قبل الصبغ؟ يعني **تخلية** قبل **التحلية** صح وإلا لا؟ وهذا هو الموافق لما عندنا. وفي دعاء الميت: ((اللهم اغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الذنوب والخطايا)) فإما أن نقول: إن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا يمنع أن يكون المقام مطرد، أو نقول: إن هذا بالنسبة للحي وذاك بالنسبة للميت، والأمر فيه سعة.

((اللهم اغسل خطاياي بالماء والثلج والبرد)) يقول أهل العلم المناسبة بين الخطايا وبين هذه الأمور الماء والثلج والبرد أن الخطايا لها حرارة مؤثرة في القلب، فيناسبها المنظفات الباردة بالماء والثلج والبرد، هكذا يقول أهل العلم أن لها حرارة مؤثرة في القلب فيناسب غسلها بالأمور الباردة التي تبرد بالماء والثلج والبرد، لكن لو كان على يدك مادة دسمة تحتاج إلى إزالة فأيهما أبلغ إزالتها بالماء الحار أو البارد؟

طالب:. . . . ." (١)

"روى الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هاجر ما نهى الله عنه)) يقول الشيخ الدكتور موسى شاهين لاشين في شرح هذا الحديث: يعتمد صرح الإسلام ومجتمعه الكامل على قاعدتين قاعدة إيجابية، وهي فعل الخير من إفشاء السلام، وإطعام الطعام، وكل عمل بناء.

---

(١) شرح المحرر في الحديث - عبد الكريم الخضير عبد الكريم الخضير ١٢/٢٢

والقاعدة السلبية –أي: قاعدة الترك، والكف هذه القاعدة الثانية هي المقدمة يعني قاعدة الكف والترك، وهي الأهم؛ لأن **التخلية** مقدمة على **التحلية** من هنا اهتم الشرع بتهذيب أبنائه، وإبعادهم عن المساوئ والرذائل، وإيذاء بعضهم بعضا؛ فجعل المسلم الحق هو الذي يسلم الناس من لسانه ويده، وبقية جوارحه.

المراد بالمسلم في الحديث المسلم والمسلمة فالتعبير بالمسلم للتغليب والنساء شقائق الرجال يسري عليهن حكمهم إلا ما خص بنص من الشرع الحكيم، من سلم المسلمون فيه جناس الاشتقاق وهو أن يرجع اللفظان في الاشتقاق إلى أصل واحد.

والتعبير أيضا بلفظ المسلمون من قبيل التغليب أيضا والمسلمات من لسانه ويده أراد من اليد ما هو أعم من العضو المعروف فيراد بقية الأعضاء كما يراد اليد المعنوية كالاستيلاء على حق الغير بغير حق، فالمراد من سلم المسلمون من شره مطلقا والمهاجر أي الهاجر فالمفاعلة ليست من الجانبين كلفظ المسافر وقيل إن من هجر شيئا؛ فقد هجره ذلك الشيء وإن كان جامدا وهي هجرة بالقوة وبغير إرادة.

فقه الحديث: من علامة المسلم التي يستدل بها على حسن إسلامه سلامة المسلمين من شره وأذاه، بل إحسان المعاملة مطلوب مع غير المسلمين بل مع غير." (١)

(١) الحديث الموضوعي – جامعة المدينة جامعة المدينة العالمية ص/٩٤